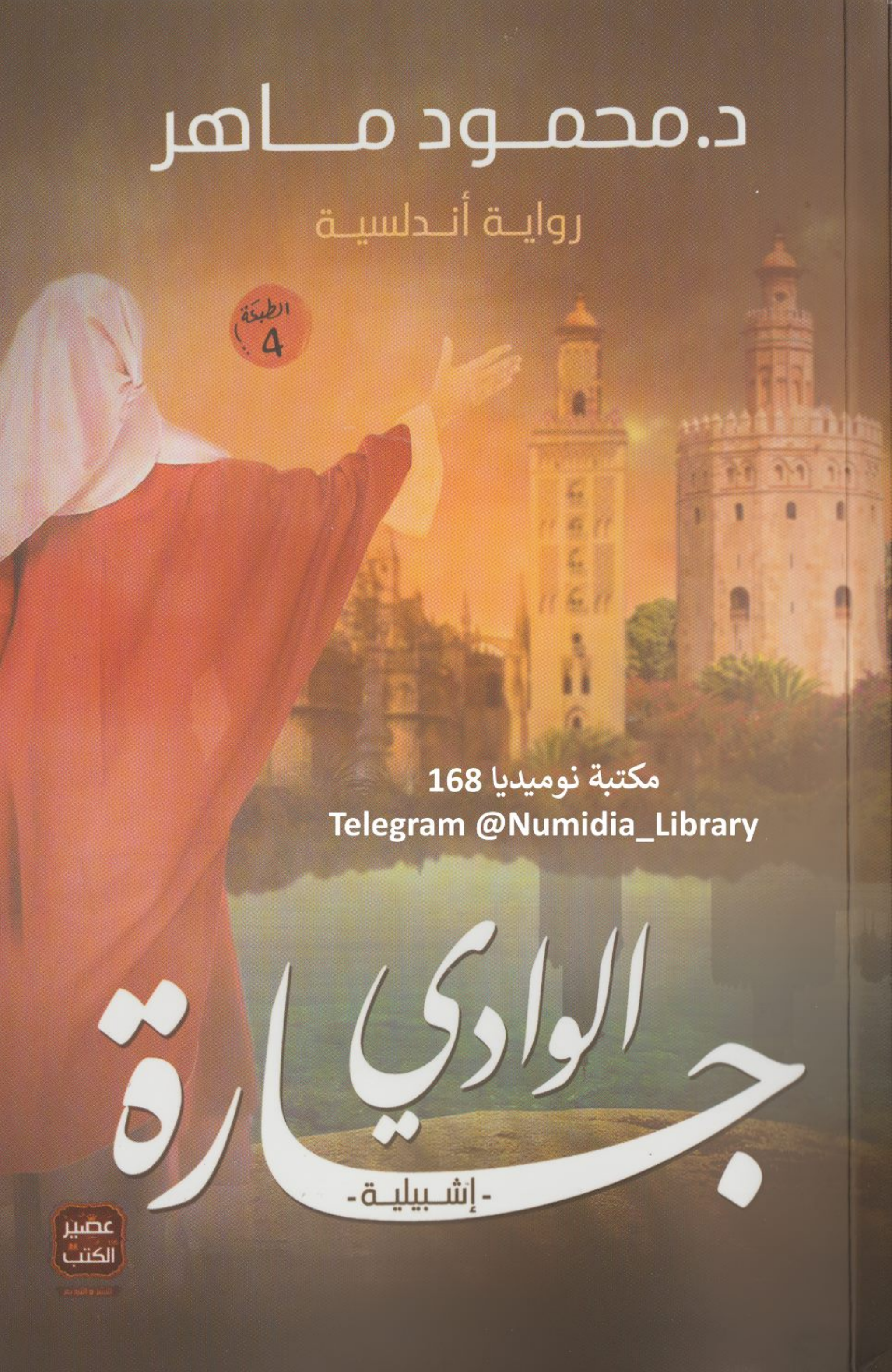

مكتبة نوميديا 168
Telegram @Numidia_Library

جارة الوادي

عصير الكتب

الكتاب : جارة الوادي

المؤلف : محمود ماهر

تدقيق لغوي: أحمد صلاح حسانين ـ نادية محمود

تنسيق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: يناير 2019

رقم الإيداع : 2018/23878

I.S.B.N : 978-977-6541-96-2

المدير العام: محمد شوقي | مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

[redacted]

رواية

جارة الوادي

د. محمود ماهر

(راوي الأندلس)

عصير الكتب

إهــداء

إلى أبــي وأمي صاحبي الفضل الكبير عليّ

إلى أولادي وأسرتي

إلى مديحة محمد عرفة

إلى رانيه شيخ سليمان

وإلـى الهائمة قلوبهم المتعلقة أرواحهم بالأندلس ورجالها، إلى صاحب الأرك الذي عشق جارة الوادي وجعلها عاصمة ملكه في الأندلس، الرجل الذي شيد المنارة الشهيرة «الخيرالدة» وأوصى باليتيمة والأيتام وهو على فراش الموت!

وإلى :

د. غادة مصطفي العراقي

د. إياد السيد جندية

أحمد صلاح حسانين

وإلى كل متابعي صفحة المسلمون في الأندلس

تنـــويه

وقعت أحداث هذه الرواية بين عامي ١٢٣٦ م وعام ١٢٤٨ م، وجميع ما ورد فيها من أحداث ومعلومات هي حقائق وليست من نسج الخيال!

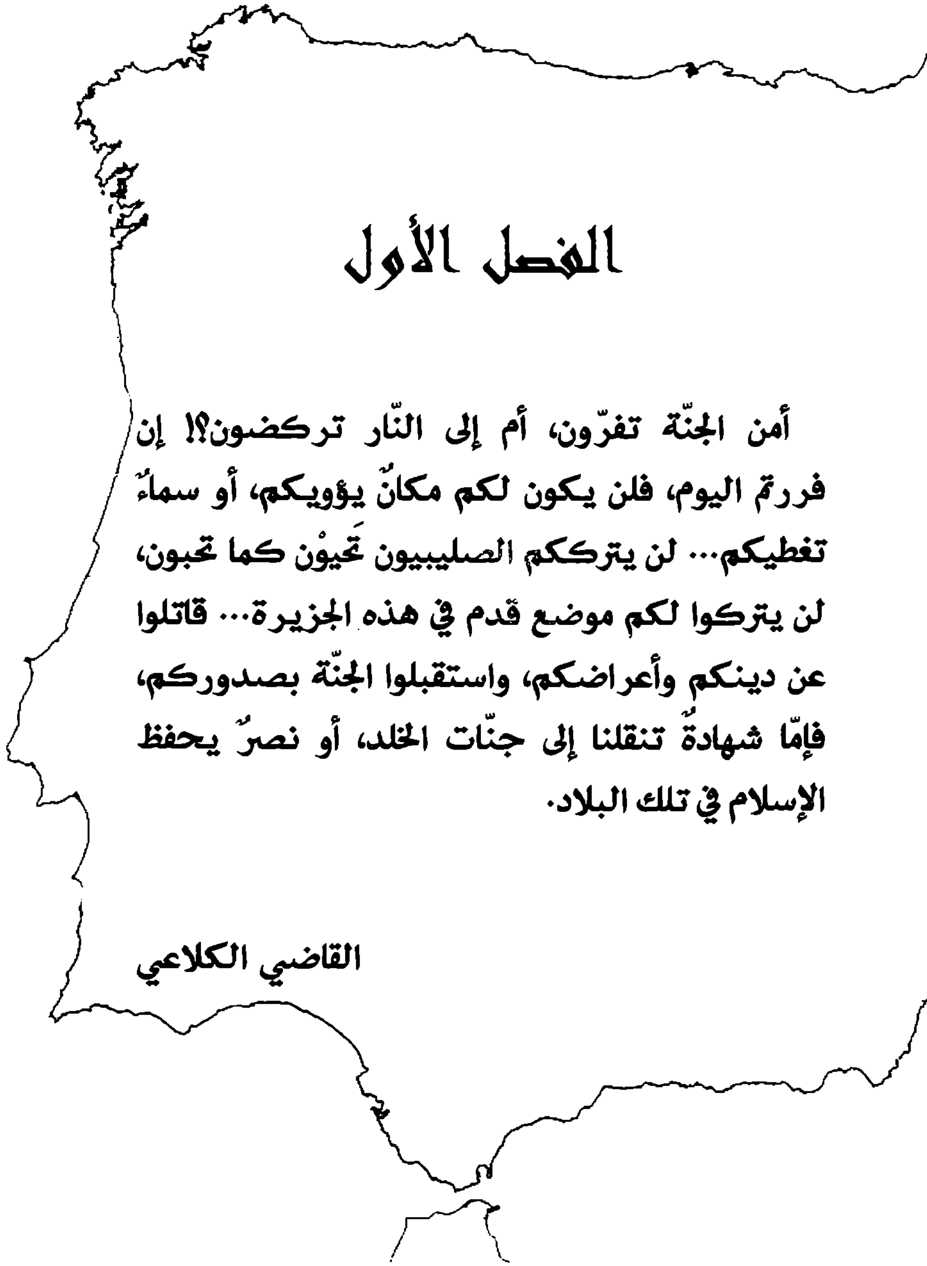

الفصل الأول

أمن الجنّة تفرّون، أم إلى النّار تركضون؟! إن فررتم اليوم، فلن يكون لكم مكانٌ يؤويكم، أو سماءٌ تغطيكم... لن يترككم الصليبيون تَحيوْن كما تحبون، لن يتركوا لكم موضع قدم في هذه الجزيرة... قاتلوا عن دينكم وأعراضكم، واستقبلوا الجنّة بصدوركم، فإمّا شهادةٌ تنقلنا إلى جنّات الخلد، أو نصرٌ يحفظ الإسلام في تلك البلاد.

القاضي الكلاعي

(١)
بوابـــةُ الشمس

مالت الشّمس إلى المغيب، في تلك البقعة من مدينة (طليطلة)، عاصمة القشتاليين، تلك المدينة المنيعة التي تطلّ على نهر (التاجة)، وتحيط بها الأسوار العالية المنيعة من كل جهة، حتى بدت المدينة لمن يعاينها كقلعة حصينة، يصعب قهرها أو تسلق جدرانها، بينما تتميز من داخلها بدروبها الضيقة المتشابكة، ومنازلها الصخرية العتيقة، وشوارعها المنحدرة.

بعد عمل يوم شاق استغرق النهار كله، استعدّ المزارعون للعودة إلى منازلهم، وراح بعضهم يجمعون أدواتهم، ويعيدون ماشيتهم إلى حظائرها، في حين انهمك البعض من سكان (طليطلة) في إغلاق حوانيتهم، استعدادًا للعودة إلى منازلهم، كما غصَّت المدينة بجموع كبيرة من الجند العاملين في جيش (فرناندو)، كانت الشوارع مُزدحمة بالأقدام، فهذا رائح وهذا غاد وهذا يتحدث مع رفيقه.

ووسط كُل هذا وذاك، كان رجلٌ يحمل على عاتقه كومة من الحطب، وهو يسير في أزقّة المدينة بحركة بطيئة، بعد أن أثقله حمله، وتصبب عرقه من جبينه ووجهه، تابع الرجل مسيره حتى إذا وصل إلى موضع الكنيسة القديمة، أزاح كومة الحطب من فوق كاهله، وجلس يستريح على أحد أحجارها، ليلتقط أنفاسه، ويمسح عرقه بيده، وهو ينظر في الأفق إلى حيث داره التي لم تكن قد ظهرت بعد، مرّت لحظات همّ بعدها بالوقوف، فإذا بصوت يقول:

- منذ متى يهتم (برنارد) بالاحتطاب، وحمل الأثقال على كاهله هكذا؟!

رفع (برنارد) رأسه، ونظر إلى مصدر الصوت، فلمعت عيناه وابتسم، وتهللت أساريره قبل أن ينهض ويحتضن صاحب الصوت، وهو يقول:

- منذ أن تزوجتُ، وصار لي بيتٌ، أنا معيله الوحيد.

جلس الرجلان على بعض الأحجار، ثم أردف خوسيه معاتبًا:

- مرَّ زمن طويل مذ لقيتك آخر مرة... لقد اشتقت كثيرًا إلى الحديث معك يا رجل، فلمَ كل هذا الانقطاع؟

- إنه الزواج يا صديقي وما تبعه من سعي كؤود للقيام بأَوَد العائلة، ومتطلبات الحياة.

ثم ربت على فخِذ صديقه، وقال:

- وأنت! أخبرني عن حالك، وعملك؟

زفر (خوسيه) في ضيق وقال:

- لم يَفُتك أي جديد يا صديقي، وهأنذا لا أنفك أحاول الوصول إلى القصر والخدمة فيه، فأنا كما تعلم لا صناعة السيوف أتقن ولا الزراعة أحسن.

تمتم (برنارد) قائلًا:

- القصر؟.. أرجو أن تصل يومًا إلى ما تصبو إليه!

التفت (خوسيه) إلى صاحبه، وقال في حماسة:

- سأنال مطلوبي حتمًا، ووقتئذٍ لن أكون وحدي، بل سنكون معًا كما كنا دومًا !

قهقه (برنارد) طويلًا وقال:

- لا بأس في ذلك إن كان سيعود عليّ بالمنفعة، وأترك حمل الحطب، الذي كاد أن يكسر ظهري.

- وأيّ منفعة!...

وبينما هما يتحدثان، إذ لامست قدم خوسيه شيئًا ما، فنظر أسفل قدمه فوجد لوحة عجيبة فالتقطها، وقام بمسح التراب عنها، ودقّق النظر فيها محاولًا أن يعرف المنقوش عليها، وإذا بصاحبه يبادر ويقول:

- إنها لوحة عربية من بقايا مسجدهم القديم، فلماذا تُنهك نفسك في محاولة معرفة ما فيها؟

زفر (خوسيه) زفرة حارة، وهو يدقّق النظر في اللوحة ويقول:

- لا أنهك نفسي إلا بقدر جمال تلك اللوحة الثمينة، وإني لأعجب من الملك كيف طاوعته نفسه على هدم كنيسة كهذه بكل ما كانت تزخر به من فن وزخرفة؟!

ضرب (برنارد) كفًّا بكفٍّ وقال:

- لستَ وحدك في هذا الأمر، فجميع أهل (طليطلة) مثلك، بل ربما جميع أهل المملكة، فالكل يتساءل عن سرٍّ هدم الملك لكنيسة (طليطلة) العظمى!

ثم مط شفتيه وهزَّ كتفيه، وهو يستطرد ويقول:

- والأيام وحدها، ستكشف لنا عن سر فعلته تلك.

امتعض وجه (خوسيه)، ورد مستنكرًا:

- أيُّ سر هذا الذي يجعله يترك مسجدهم في (قرطبة) على حاله ويهدم كنيستنا هنا بحجة أنها كانت في الأصل مسجدًا؟! والله إنه لأمر عُجاب!!

مال (برنارد) على صديقه، وهمس له بصوت خافت قائلًا:

- لا تقل هذا، فلا يحقّ لرجل مثلك يسعى للعمل بالقصر، أن يقول قولك أو يسمعه أحد غيري، فقد تم تحويل مسجد (قرطبة) إلى كنيسة من أول يوم دخل فيه مولانا الملك إلى (قرطبة)، بل إنّ الرجل رفض أن يدخل قصر الإمارة في المدينة، قبل أن يصلي بهذا المسجد المحوّل إلى كنيسة صلاة الشكر للعذراء، وقبل أن تُطمس معالم المسجد، ومحرابه.

ازداد امتعاض خوسيه وبدا على وجهه التعجب وهو يقول:

- أيضًا كنيستنا هنا كانت مطموسة المعالم، مقامًا في محرابها مذبحٌ قديم من أيّام (ألفونسو السادس)، ما يعني أنك لا تعرف الإجابة يا صديقي، وإلا لهدم الملك مسجدهم في (قرطبة) أيضًا!!

قال ذلك، وراح يدقق في اللوحة مرة أخرى...

- مدّ (برنارد) يده وأمسك اللوحة، وقال:

- ما أشد انشغالك بها!

هزّ (خوسيه) كتفيه منكرًا، وقال:

- لا لستُ كذلك.

ثم استدرك متسائلًا:

- ولكن قل لي لماذا فعل الملك هنا (يشير بيده تحت قدميه)، ما لم يفعله هناك؟ (يصوِّب يده تجاه الجنوب).

ابتسم (برنارد) في هدوء، وقال، وهو يضع اللوحة بعناية على حجره:

- هون عليك يا صاحبي، فقد باتت طليطلة لنا منذ زمن بعيد، حتى نسيها المسلمون أو تناسوها، فما عاد منهم من يقول هذه بلادنا أو تحت ترابها رفات جدودنا، كما لم يقم منهم من يحاول استردادها، لهذا فقد هدم مولانا الكنيسة بطليطلة وقد كانت في الأصل مسجدًا، على أمل أن يبني مكانها كنيسة أعظم بطراز قوطي تضاهي كنيسة بطرس بروما أو تفوقها عظمةً وقدرًا، أما (قرطبة) فحديثة العهد بنا ونحن حديثو العهد بها، ولمّا يمر على فتحها سوى عامين فقط، وما زالت رغم ذلك تغصُّ بالمسلمين والمتربصين، وهؤلاء لا يريد مولانا الملك إثارتهم، ناهيك عن إعجابه الرائع بزخرفة هذا المسجد وبديع عمارته، فلم يُرد أن يفوّت علينا نحن القشتاليون فرصة امتلاك كنيسة بهذه الفخامة، حتى وإن كانت بالأصل مسجدًا! ثم ألا تجد أنَّ فعلته تلك تحمل في طياتها كل معاني الذل والمهانة؟

تململ خوسيه في جلسته واستفهم في حدة:

- وما المهانة في ذلك؟ لو هدم هذا المسجد الذي كثيرًا ما تفاخروا به، وخرجوا من أبوابه، ليعلنوا الحرب علينا، لكان أنكى لهم وأشد تنكيلًا!

ابتسم (برنارد) في دهاء، وقال:

- بل هي كل المهانة لو فكرت في الأمر بشكل مختلف، فهذا المكان الذي كان مجمع قلوبهم ومهوى نفوسهم، وقبلة ملوكهم قد غدا لنا بكل ما فيه وبه! فلو هدمه لانتهى أمره، أما بقاؤه وتحويله لكنيسة، فهو العذاب للمسلمين والهوانُ والذلُّ لهم، فكأنك سبيت زوجة أحدهم وبدل قتلها تستحييها لتتمتع بها أمام عيون زوجها وأهلها، وهم لا يملكون أن يكفوك عنها أو يستنقذوها منك، فلا يجدون إلا البكاء المرير، بكاء العاجز الذليل. فانظر أهنالك مهانة أكبر من هذه؟

هزَّ (خوسيه) رأسه، وراح يحكُّها بأظافره، ثم قال:

- ربما صدقت يا (برنارد) في هذا.

ثم أردف كأنه تذكر شيئًا:

- والآن أعطني هذه اللوحة البديعة.

- ألا تريد معرفة المنقوش عليها؟

ابتهج (خوسيه) وصاح:

- بلى بلى، بالطبع أريد ذلك!

أخذ (برنارد) يقلب اللوحة، وينفخ فيها، ثم يمسح عنها التراب بكمه، ويقول:

- مكتوب عليها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. البقرة:١١٤

ابتسم (خوسيه)، ثم ضحك في سخرية حتى بدت نواجذه، وقال:

- أتراهم يقصدون ملك (قشتالة) وحده؟ أم شعب (قشتالة) كله؟

شارك (برنارد) صاحبه الضحك والاستهزاء، وقال:

- بل أراهم يقصدوننا جميعًا، بل وأنفسهم أيضًا!

ثم نهض من جلسته، وكان الليل قد جنّ عليه، فحمل حطبه، وعاد إلى بيته.

(٢)
الوصيّة

كان أمر الكنيسة المهدومة يثير الكثير من التساؤلات، داخل (طليطلة) وخارجها، فقد وجم لهدمها الكثيرون، خاصة وإنّ أعمال البناء في الكنيسة الجديدة لم يبدأ بعد، ولم يكن هناك ما يدل على اقتراب ذلك، وقد طال هذا الوجوم كافة أهل طليطلة وسرى في كل ربوعها حتى دخل إلى قصر الملك، وتسرب إلى جناح الملكة الأم برنغيلا وهي على فراش المرض الذي لم تفارقه منذ شهور، فقد تثاقل المرض عليها، وحالتها لا تنبئ بتحسن، وقد عجز الأطباء عن شفائها، فظلت أسيرة فراشها سجينة غرفتها، لا تخرج منه إلا محمولة على الأعناق، ناهيك عن السُّعال الذي يلازمها طوال الليل، وزلفًا من النهار، والحمّى لا تكاد تذهب حتى تعود إليها، وكأنها لا تستطيع أن تفارقها، وقد ضعف بصرها، ووهن جسدها.

شق فجأة سعال الملكة سكون جناحها، ففزع إليها خدمها يمرّضونها غير أن نوبة السعال هذه المرة كانت أشد من المألوف، فهرول أحدهم إلى ديوان الملك فرناندو ودخل عليه قائلًا في خوف وقلق:

- مولاي! لقد اشتد المرض على مولاتي الملكة (برنغيلا)، ولا ندري ماذا نفعل؟

لم يكد (فرناندو) يسمع ذلك حتى نهض من فوره، وترك ديوانه وذهب على عجل إلى حيث غرفة والدته، والقلق باد عليه والخوف يملأ نفسه، وما إن دخل عليها حتى نادى بصوت مرتفع، وطلب طبيب القصر الذي جاء من فوره، بينما جلس (فرناندو) بجوار والدته، التي ظلت تسعل حتى تقيأت، وهو يقول لها وقد امتقع وجهه:

- لا بأس عليكِ يا أماه! وددت لو قاسمتك هذا السقم وتحملت عنك بعض الألم.

حاولت (برنغيلا) الردّ على ولدها، ولكنّ غلبها السّعال فلم تستطع ردًّا، مما زاد القلق على وجه الملك، الذي صرخ مرة أخرى:

- أين الطبيب؟

دخل الطبيب على عجل، وفحص الملكة ثم قال للملك:

- لا تجزع يا سيدي، نوبة سُعال لن تلبث يسيرًا حتى تزول، وما أذكاها إلا هبوب الرياح وثوران الغبار اليوم في سماء طليطلة.

ثم أشعل موقده ووضع عليه إناء ماء، وما كاد الماء يغلي حتى أسقط فيه بعضًا من أوراق الزعتر الخضراء النضرة، وقليلًا من بذور اليانسون الجافة وخمّر الإناء بعد أن أبعده عن الموقد، وحين آنس فتور الدواء وذهاب حرارته حلّاه بعسل النحل الصافي، ثم سقاه الملكة، فهمد سعالها وخفت وطأته..

وضعت الملكة يدها على صدرها وهي تقول:

- الشكر للربِّ على نعمه، لقد كدت أن أموت من ضيق ألّم بصدري.

اقترب الملك من الملكة الأم وقبل يديها وقال لها:

- الشكر للرب على سلامتك يا أمّاه...

وضعت الملكة يديها على رأس ابنها، ولم تتحدث.

بينما خرج الطبيب، بعد أن أوصى بتكرار شُرب الملكة للدواء، الذي كان قد صنع الكثير منه.

هدأت النوبة، واستعادت الملكة أنفاسها، فيما نظر (فرناندو) إليها وهو يتصنع البسمة، ليقول لها بعد أن حاول إخفاء خوفه وقلقه:

- لا بأس عليكِ يا أماه، لا بأس عليكِ يا ملكة (قشتالة) وليون.

ثم قبّل يديها.

أجابته برنغيلا وهي تستجمع قواها الواهية لتشحن نبرات صوتها بالعزيمة والتجلد:

- لا بأس ما دمت أنت سيد هذه الجزيرة، لا بأس ما دامت مملكتك في اتساع وتمدد.

تحاول برنغيلا أن تنهض من نومتها، فيفزع فرناندو لمساعدتها في ذلك، لتمسك بكوب فيه بعض الماء وتتجرع منه ثم تعاود حديثها إلى ابنها بعد أن اتكأت على سريرها قائلة:

- يا ولدي لا يصحّ أن تبقى (طليطلة) هكذا، فمذ هُدمت الكنيسة الكبرى خلت المدينة من كنيسة، تليق بكونها عاصمة مملكتك، أفما كان من الأولى أن تترك القديمة قائمة، ما دمتَ لن تسارع في تشييد غيرها على أنقاضها؟

عاود (فرناندو) الابتسام، وهو ينظر إلى أمه نظرة تفيض حبًّا وحنانًا، وقال لها:

- أمّاه! لقد كانت وصيتك الدائمة لي أن أوسع مملكتي، وأن أنهي دولة المسلمين في الأندلس، وها أنا أعمل بوصيتكِ على أكمل وجه.

قاطعته برنغيلا والسعال يكاد يخمد صوتها:

- وما علاقة هذا بذاك؟

- اعلمي يا أمّاه إنه ما أقعدني عن بناء الكنيسة سوى الضنّ بسواعد الرجال أن أوجهها للبناء والتشييد، بينما ملك أراجون يوجه رجاله للطعان والتسديد، فأنشغل أنا بشؤون العمارة وينشغل هو بأمور الإمارة، وأنت خير من يعلم أن ملك أراجون لن يتوانى هنيهة عن ضم ما يقدر عليه من أراضي المسلمين لمملكته، ألسنا أولى بها منه يا أماه؟!

تسعل (برنغيلا) مجددًا ثم تقول بصوت متهدج :

- كان من الأجدى لك ألا تهدم الكنيسة القديمة ما دمت غير عازم على إهدار طاقات مملكتك في بناء غيرها.

عقب فرناندو مبتسمًا وقال:

- قري عينًا أيتها الملكة سأشرع في بناء أعظم كنيسة في أوروبا وسأحرص ألّا يؤثر هذا على مناعة أطراف مملكتي واستمرار انتصارات جيوشي.

تهزُّ (برنغيلا) رأسها عجبًا، وكأنها لا تفهم من كلام ابنها شيئًا، ويلاحظ (فرناندو) ذلك فينهض من مكانه، ويتحرك حول سرير أمه، ويقول:

- سآمر بانطلاق أشغال البناء، عسى هذا أن يهدئ من روعك يا أمّاه ويقطع ألسنة الناس عني، لكن بوتيرة بطيئة وبذل يسير حتى أكون مطمئنًا على عدم المساس بموارد الجيش، وإني على أية حال غير متعجل في إتمامها، فقد كنت قطعت عهدًا على نفسي بأن لا تدق أجراسها ولا تنبعث ترانيم القداس منها إلا بعد إخراج آخر مسلم من أرض هذه الجزيرة.

حدقت برنغيلا في ابنها بنظرات كلها فخر وإعجاب، وصمت الملك للحظات قبل أن يعود للجلوس بجوار أمه مردفًا:

- أريد يا أمّاه أن يكون احتفالي بافتتاح الكنيسة الجديدة، بعد احتفالي بطردهم من هنا!

تتهلل أسارير (برنغيلا) وهي تقول:

- إنما أخشى يا ولدي أن يطول أمد الحرب بيد أني لا أخفي سعادتي وفرحي بقوة عزمك وعلو همتك.

يبتسم (فرناندو)، وينظر طويلًا للفضاء الرحب من خلال النافذة، وكأنه يستشرف المستقبل البعيد، قائلًا:

- إن طالت الحرب يكملها ولي عهدي من بعدي ومن بعده ولده وولد ولده، ولن يسكن السيف غمده، ولا الجواد إسطبله، ولا الفارس بيته مادامت قدم مسلم واحد تدوس أرضي حتى لو كانت قدمه الأخرى تخوض غمار البحر فرارًا، وإني لأرجو أن تكون كنيسة طليطلة رمزًا لنهاية هذه الحرب كما كانت رمزًا لبدايتها، فإن انتصرنا ويجب لذلك أن يحدث أتممنا بناء الكنيسة وافتتاحها أما غير ذلك فلا.

يتنهد (فرناندو)، ثم يأخذ نفسًا عميقًا، ويستطرد قائلًا:

- اطمئني يا أمّاه! فسيكتب التاريخ ما أقول وما أفعل، وستكون وصيتي لابني من بعدي أن يكمل ما بدأته!

قال ذلك، ثم عمد إلى رأسها فقبلها وخرج من عندها قاصدًا ديوان عرشه، ورأسه تعج بأفكار عديدة فتارة تجوب خاطره نجوى العامة عن كنيستهم المهدومة وتململهم، وطورًا ينط إلى ذهنه ملك أراجون وتوسعاته الأخيرة.

وبينما هو جالس في بهو السفراء في قصره مطرق الرأس شارد الفكر، إذا بولي العهد الأمير ألفونسو يقترب منه منحنيًا ليقدم له التحية الملكية قائلًا:

- طاب يومك يا مولاي...

لم ينتبه (فرناندو) لدخول ابنه، فلم يرد تحيته، ولم يلتفت للأمير فظنّ الثاني أن أمرًا جللًا قد حدث فتقدم واقترب أكثر من (فرناندو)، وقال:

- مولاي... مالي أراك شارد الذهن؟

انتبه فرناندو للأمير ألفونسو فالتفت إليه وقال مشيرًا بيده اليمنى:

- اسمع مني وافقه عني، إن أنا مت فسر على منوالي، وأكمل عملي، واجعل همك الأول وهدفك الأسمى إلقاء المسلمين في البحر، فإن أدركت ثأرك ودالت الأيام لك وطهّرت منهم أرضك، فافتتح الكنيسة..... وإلا فاشحن عزيمة أولادك ليكونوا على إثري وإثرك واجعل وصيتك لمن يخلفك من عقبك ألا يدق ناقوس في كنيسة طليطلة إلا يوم الاحتفال بخروج كافة المسلمين من جزيرتنا.

ردّ (ألفونسو) متهيبًا:

- أطال الرب بقاءك سيدي الملك، حتى تفتتحها بنفسك.

- سيطول بك، فاحفظ وصيتي، واعمل بها، ولا يشغلنك أمرعنها!

وبينما يتحدث الملك وولي عهده، إذا بالحارس يتقدم ليخبره، بحضور الوزير (ألبار بيرت)، الذي أذن له (فرناندو) بالدخول، ثم استرخى على كرسيّه وقال:

- ألبار بيرت)، الرجل الذي لا يخفى عليه خبرٌ، من أخبار تلك الجزيرة!

دخل (ألبار بيرت) وهو رجل في الثلاثين من عمره، نحيف الجسم مسدول الشعر، مرتديًا زيًّا عسكريًّا، يحمل خوذته تحت إبطه... حتى إذا اقترب من الملك انحنى أمامه وقدم له التحية، ثم التفت إلى ولي العهد، وحياه بتحيته الخاصة، ثم أشار له الملك بالجلوس، فجلس على يسار (ألفونسو)، ثم أذن له الملك بالحديث قائلًا:

- هات ما في جعبتك يا ألبار.

أخرج ((ألبار بيرت) بعض ورقات كان يحملها، ثم تقدم ليسلمها للملك، الذي رد عليه قائلًا:

- اقرأ لنا ما فيها يا (ألبار).

أومأ (ألبار)، وعاد خطوات للخلف، ثم فتح الورقة وقال:

- سيدي! لقد أتت الأخبار بما يدور في بلاد المسلمين من العدوة الأخرى، فملوك الموحدين -أصحاب الأرك، ولاس نافاس دي تولوسا- ما زالوا يقاومون الموت، الزاحف عليهم من كل حدب وصوب، فقد انفصلت عنهم بلاد تونس، وخرج عليهم بنو مرين، وأنزلوا بهم الهزيمة تلو الأخرى، ما

يعني أنّ دولة بالمغرب سيضفى نجمها ويسطع مكانها نجم دولة جديدة، تناصبنا العداء كسابقيها، إن لم نتدارك الأمر!

نظر (ألفونسو) إلى الملك، متعجبًا من اهتمامه بتلك الأخبار، وقال:

- سيدي! ما الذي يجعلنا مضطرين، لتتبع أخبار هؤلاء، بينما أولئك الذين يشاركوننا الجزيرة، هم أولى بذلك؟

ابتسم (فرناندو) في دهاء، وقال:

- بل إنّ أمر المغرب أهم عندي من ساكني تلك الجزيرة من المسلمين يا (ألفونسو)!

زاد تعجب (ألفونسو) وبدت الدهشة على وجهه، وقال:

- كيف ذلك يا مولاي؟

بدهاء وخبث قال (فرناندو):

- لأنَّ أمر هؤلاء مرتبط بأولئك، يا وليّ العهد! وأنا لن أكرر ما حدث مع جدي (ألفونسو السادس)، ولن أترك هؤلاء يستغيثون بأولئك!

بعدها هبّ واقفًا فوقف (ألفونسو) و (ألبار بيرت)، فأشار لهما بالجلوس، وتحرك خطوات وهو ويقول:

- لقد كاد جدنا أن يقضي على ممالك المسلمين، بعد فتحه (طليطلة)، لولا عبور المغاربة بجيوشهم، وانتصارهم في الزلاقة، وقد كان حال الأندلس وقتها كحالها اليوم، ما يعني أنّ صلاح حال المغرب، يعني الحياة لممالك المسلمين هنا، وفساد حال المغرب، يعني نهاية دولة الإسلام في الأندلس.

ثم استدار واستطرد قائلًا:

- لا أريد للتاريخ أن يتكرر!

سأل (ألفونسو) في قلق:

- هل يعني ذلك سيدي، أنَّ المغاربة قد يتدخلون مرة أخرى؟

أجاب (فرناندو) في ثقة:

- أجل... إن نحن أعطيناهم الفرصة لذلك!!

رفع (ألفونسو) حاجبيه في دهشة وهو يقول:

- أعطيناهم الفرصة؟... كيف ذلك؟

بدهاء ومكر، قال (فرناندو):

- إن نحن انشغلنا عنهم بغيرهم أو تأخرنا في سلب مدنهم أو تقاعسنا عن النيل منهم، فسرعان ما سيرتبون صفوفهم ويحملون علينا حملة رجل واحد، لذا أرى من الواجب علينا إكمال ما بدأناه بسرعة قبل أن ينهض المغرب أو تستفيق الأندلس، فيتأخر النصر.

صبَّ (فرناندو) لنفسه كأسًا من الخمر، ثم أمسكه بيده، ورفعه إلى فمه في تؤدة، وارتشف منه رشفة، ثم استطرد قائلًا:

- إنّ (قرطبة) لن تكون آخر المطاف في فتوحاتي، كما لن أترك (خايمي) ملك (أراجون) يصول ويجول، ويوسّع مملكته، بينما أشاهد ذلك في صمت!

رفع (ألفونسو) يديه وقال:

- لكن سيدي ألم تحسم معاهدة (كاسولا) الأمر!

عاد فرناندو إلى كرسيّه، بعد أن صبّ كأسًا جديدة من الخمر ثم قال:

- لقد حددت معاهدة (كاسولا) مناطق التوسع بيننا وبين (أراجون)، لكن لا أحد يضمن أطماع (خايمي)! إن تم له الأمر، وانتهى به المطاف للسيطرة على كل ما ضمنته المعاهدة له، وقتها سيستدير لما تبقى في أيدي المسلمين، ولو كان في نطاق فتوحاتنا! وأنا لا أريد للصدام أن يتحول ليكون بيني وبين (خايمي)، وتهدر قوتنا في حروب أهلية لا طائل منها، فعداوة المسلمين أولى بنا مما سواها.

تنحنح (ألبار بيرت) وقال:

- لو أذن لي سيدي، فأنا عندي خطة أود عرضها عليكم.

في حماسة وجد وبصوت أجش قال (فرناندو):

- هات ما عندك يا (ألبار)!

- ماذا لو أرسلنا إلى بلاد العرب مَن يندس بينهم، و...

قاطع (ألفونسو) الوزير وقال:

- لدينا مئات العيون يا (ألبار)، فلماذا نزيدهم عددًا؟

- لم أقصد أن نرسل جواسيسًا وعيونًا، أيها الأمير!

تدخل (فرناندو) في اقتضاب وقال:

- دعه يكمل يا (ألفونسو)!

أومأ (ألفونسو) مذعنًا، ولاذ بالصمت، وتحدث (ألبار) في خبث وقال:

- أقصد سيدي، أن نرسل إليهم مَن يجيد لغتهم ويتحدث بها... يصلي كما يصلون، ويصوم كما يصومون، بل ويحارب معهم إن هم حاربونا، ولكن وفي نفس الوقت يبث فيهم روح الهزيمة، ويضخم لهم من قوة (قشتالة)، ويبين لهم استحالة هزيمتها، ويذكرهم (بلاس نافاس دي تولوسا) عندما ذبح القشتاليون خمسمائة ألف مسلم، فكيف اليوم و(قشتالة) قد تمددت وتوسعت، ونمت مواردها، وأخذت (قرطبة) ومدنًا أخرى، يساعدها في ذلك ممالك (أراجون) و(البرتغال)، وخلفهم كل أوروبا، بينما المسلمون كالشياه الشاردة، لا جامع لهم ولا صديق؟

(٣)
(قلعة أيوب)

رفعت الملكة (فيولانتي) ملكة (أراجون) رأسها في دلال، وهي تدلف إلى البهو الملكي، في قصر الجعفرية (بسرقسطة)، وتعلق بصرها بالملك (خايمي) الذي انهمك في تفكير عميق فوق عرشه الضخم، وهي تقطع البهو في خطوات رصينة هادئة، حتى بلغت منصة العرش فصعدت في خفة كبيرة، وجلست بجوار زوجها الذي غاص في تفكيره، فلم ينتبه لوجودها...

مرّت لحظات، والملكة تتطلع إلى زوجها في شيء من الترقب، حتى عبّقت رائحة طيبها الأرجاء وزكمت أنف خايمى الذي أعارها انتباهه أخيرًا، وقال وهو ويستزيد في استنشاق عطرها:

- فيولانتي، قطعت حبل أفكاري بطلتك البهية ورائحتك الزكية.

انفرج ثغر فيولانتي عن ابتسامة عريضة وتمايلت في غنج وهي تعاتب زوجها في لطف وتقول:

- كدت أجزم أن عطري لم يعجبك حين تباطأت عن النظر إليّ.

أمسك (خايمى) بيد زوجته وقبّلها، ثم رفع بصره يطالع وجهها الذي احمر خجلًا، وهو يقول:

- بل يعجبني كل ما تصنعين، ويكفي إنه من أجلي.

ازداد وجه (فيولانتي) خجلًا، فلم تستطع ردًّا للحظات التزم فيها (خايمي) الصمت مرة أخرى، فراحت الملكة تقول مداعبة له:

- ما الذي أهّم مولاي الملك، وصرف عنه ضحكاته؟

زفر (خايمي) زفرة حارة قبل أن يقول:

- ملك (قشتالة) يا (فيولانتي).

بدا على (فيولانتي) الاهتمام وقالت:

- ما خطبه؟ هل قلب لك ظهر المجنّ؟

ردَّ (خايمي) بلهجة جادة:

- لا لم يفعل... أقصد لم يفعل إلى الآن، ولكن ربما يفعل في قادم الأيام!

ظهرت الدهشة على وجه (فيولانتي)، وقالت:

- ولماذا قد يفعل يا سيدي؟

ردَّ (خايمي) معلِّلًا:

- أطماع الفتح عند هذا الرجل لا تتوقف!

نهضت فيولنتي، وتولت سقي زوجها كأس راح عتيق، وهي تقول:

- أيُعقل أن يترك حرب المسلمين، ويتحول لحرب (أراجون)؟

تناول (خايمي) الكأس منها وقال في دهاء:

- إن فرناندو يعلم جيدًا أن أمر المسلمين قد انتهى في إيبيرية منذ عقود، منذ أن أصبحت حياتهم رهن سيوفنا، وما وجودهم فيها إلا مسألة وقت فقط، (رفع الكأس وارتشف منها) ويعلم ذلك الثعلب أيضًا أنه ما من قوة تقدر على إعاقة أطماعه في التوسع غير مملكة أراجون.

تمتمت (فيولانتي) وقالت:

- فماذا يرى مولاي؟

نهض (خايمي) من مكانه، ونزل من عرشه، ووضع الكأس على المنضدة، ثم قال وهو ينظر من نافذة قصره المطلة على الحديقة:

- سأنتظر الأخبار من عيوني القابعين في (طليطلة)، وبنفس الوقت علينا أن نبادر باحتلال كل الأراضي التي حددتها لنا معاهدة (كاسولا)، وبأسرع وقت ممكن.

هزت فيولنتي رأسها مستحسنة كلام زوجها، ثم دنت من النافذة بجوار خايمي، وأسندت رأسها على كتفها محاولة تبديد الخوف الذي اعتراها، بينما تابع خايمي تقليب الأمور وتقدير العواقب، وحدث نفسه بوجوب ترك سرقسطة،

والانحدار منها جنوبًا اتجاه قلعة أيوب، فيكون بذلك قريبًا من كل ساحات القتال إن طرأ أي أمر، إذ أن قلعة أيوب تقع على الحدود بين بلاده وبلاد المسلمين، فضلًا على قربها من الحدود القشتالية ممّا يعني إنها ستكون قاعدة مناسبة لانطلاق جيوشه في أي اتجاه تمليه الظروف.

أدركت فيولانتي انشغال الملك عنها وانهماكه في ترتيب أمور ملكه فآثرت المغادرة، أما هو فقطع تفكيره، ورفع صوته مناديًا حاجبه ليأمر بإعداد الجيش، وإخطار القادة بالتحرك صوب القلعة.

وفي صباح اليوم التالي، خرج ملك (أراجون) بجيشه تجاه (قلعة أيوب)، واصطحب معه كبار قادته ورجاله، وبعد وقت وصل بجيشه إلى القلعة ونزل بها، بينما تفرقت قواته، وانتشرت تؤمن القلعة، وتحميها، وفور وصوله بث عيونه يتقصّون له الأخبار ويجمعونها، إذ كان الرجل مغرمًا بجمع الأخبار عن أعدائه، ورجاله أيضًا!

لم يكد (خايمي) يستريح بالقلعة حتى جافاه النوم فخرج من غرفته وصعد إلى قمة القلعة، مقررًا أن يطالع من هذه النقطة العالية ما يحيط بتلك القلعة، واحتمال تعرضها للمخاطر، وتحت سنا الشمس المشرقة، استند بذراعيه على جدران القلعة، وراح يرنو ببصره إلى تلك البقعة الخضراء المجاورة للقلعة على امتداد البصر، وهو يتذكر أيامًا خواليًا، عندما كانت تلك القلعة تمثل إحدى أكبر القلاع الإسلامية في المنطقة كلها، ثم انتقل من جهة لأخرى، والذكريات تلاحقه، وحراسه يحيطون به، ينتظرون أوامره في كل لحظة.

تواردت الأفكار على قلب خايمي ولاحقته الذكريات حلوها ومرها، طاردته أطياف من زمن طفولته حين كان محجوزًا لدى الكونت سيمون دي مونفور، فتأوه لألم تلك الأيام كأنه يحياها حالًا، ثم قفز تفكيره إلى لحظات استقبال الأراجونيين والقطلان له في ابتهاج وحماس بعد أن تدخل البابا للإفراج عنه، فضحك لحلاوتها حتى بدت نواجذه، وفجأة تلبد وجهه وهو يتذكر وضعه تحت وصاية أستاذ فرسان الداوية وثورة أعمامه لانتزاع العرش منه، وكفاحه أعوامًا طويلة لإرساء دعائم ملكه، وبينما هو كذلك إذا بأحد حراسه يتقدم تجاهه، ويقول له بعد أن قدم له التحية الملكية:

- مولاي، وصل للتو الكونت بجنت، وهو يستأذن في المثول بين أيديكم.

ردّد (خايمي) الاسم مرارًا، وقال وهو ينظر بعيدًا، وكأنه يطالع الغيب البعيد:

- (بجنت)...!

ثم شهق شهقة عميقة، وقال:

- ها قد حضر ثانية، فأيٌّ ريحٍ خبيثة حملته إلينا؟!...

ثم التفت للحارس وقال:

- أدخله بهو السفراء، واجعله ينتظر هناك.

وأشار بيده للحارس فانصرف، بينما جالت بخاطره تلك الأحداث التي كانت منذ ثمانية أعوام، وكان (خايمي) وقتها في قلعة أيوب أيضًا يستعد لبعض غزواته، فإذا بمن يخبره أنَّ حفيد ملك المسلمين بالباب!!

تعجب (خايمي) حينها أيّما عجب، وجلس يردد:

- حفيد ملك المسلمين..! من يكون حفيد ملكهم هذا؟ ولماذا جاء إلى هنا على ما بيننا من حرب ضروس ودم مسفوح ؟

لحظات قليلة مرت قبل أن يأذن له بالدخول، فإذا بأمير مسلم يدخل منحنيًا مقبّلًا الأرض بين يدي (خايمي)، وهو يقول بينما عيناه تنظران إلى الأرض، في انكسار:

- السلام على مولاي الملك (خايمي)، ملك (أراجون).

بنظرات مستفهمة رد (خايمي) وقال:

- وعليك السلام، من تكون؟

- أنا الأمير أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب بلنسية وسليل آل عبد المؤمن، وهذا ابني محمد.

انعقد حاجبا (خايمي) وقال متعجبًا:

- ما الذي جاء بأمير (بلنسية) إلى هنا، على ما بيننا من حروب؟

- أتيناك أيها الملك، لنعقد حلفًا معك....!

أسند (خايمي) ظهره على كرسيه قبل أن يقول مستهجنًا:

- حلف؟!! أي حلف هذا؟

ثم استطرد ساخرًا، وهو ينظر إلى رجاله عن يمين وشمال:

- ومنذ متى تتحالف الأضداد؟!

تكلف (أبو زيد) الابتسام، وقال:

- قد تتبدل الأحوال يا سيدي، فلا شيء يدوم على حال، ولا عداوة تدوم للأبد!

بصوت أجشّ تحدث (خايمي) وقال:

- بل عداوتنا معكم أبد الدهر! ناهيك عن كون الأحلاف تتم بين الأصدقاء، لا بيننا وبينكم!

- ربما يتغير رأيك أيها الملك عندما تعلم ما جئتك به، أما الأحلاف فقد عنيت ذلك الحلف القائم على المصالح المتبادلة، وهذا لا يتطلب شرط الصداقة.

أعجب (خايمي) بحديث (أبي زيد)، فتخلى عن تجهمه قليلًا، قبل أن يقول مستفهمًا:

- وما المصلحة في التحالف معكم أيها الأمير؟ ثم كيف أحالفكم وأنتم أعدائي، وأعداء أمتي، وديني؟

ردَّ (أبو زيد) متنهدًا في أسى:

- لم أعد كذلك أيها الملك، فلم أعد صاحب (بلنسية)، بعدما خلعني أهلها!

- خلعوك...؟! آه إذن أنت اليوم فرد عادي، كأي فرد من شعب (بلنسية)، فما الذي يجعلني أتعاهد معك، وأنت لا تملك إلا أمر نفسك؟ بل ربما لم تعد تملك هذه أيضًا وقد صرت بين يديّ!

بلهجة جادة وفي ثقة كبيرة، قال (أبو زيد):

- أجل قد خلعوني يا سيدي، ونسوا أنني سليل بني عبد المؤمن، أما الذي يجعلك تتحالف معي، فلأن ما سأقدمه لك بمفردي لن تقدمه لك أعتى الجيوش، وأنا وإن لم أكن اليوم أمير (بلنسية)، فما زال الكثير من الحصون والقلاع تدين بالطاعة لي، كما أني خبير بتلك الجهات، وهذا ربما يعني لكم الكثير والكثير.

- أراك معتدًّا بنفسك أيها الأمير!

- ليس اعتدادًا بالنفس سيدي، ولكن ثقة في ما أستطيع تقديمه لكم، فبيدي هذه (يقبض على يده ويرفعها)، ستحوز ما عجزت عنه جيوشك لسنوات طويلة!

وضع (خايمي) يده على ذقنه، وصمت وهو يفكر في الأمر، ويهمهم ثم قال في نفسه:

- لا ضير في الاستفادة من هذا الخائن واستخدامه ليكون خنجرًا في ظهر أهله وقومه.

ثم نظر إلي (أبي زيد) وقال:

- رائع ما سمعته منك أيها الأمير، ولكنك لم تخبرني عن الثمن الذي تريد أن ندفعه لك مقابل كل هذه الخدمات! فلا تقنعني أو تحاول أن تفعل إنك ستقدم لي كل هذا بلا مقابل، فانا مؤمن بأن لا شيء في هذه الدنيا بلا ثمن!

- لا أريد سوى رضاك عني يا سيدي، وأن أكون من رجالك، وأن أحكم باسمك الأراضي التي سأقدمها لقمة سائغة لك أو جزءًا منها.

لم يتمالك (خايمي) نفسه فصاح ساخرًا:

- أتريد أن أوليك علي بعض الإقطاعات...؟! وماذا يفعل أمراء ونبلاء (أراجون) وقتها؟ ها!

أسهب أبو زيد محاولا استمالة خايمي:

- لا شأن لهم بهذا سيدي الملك، فأنا لم آت إليكم لأحكم باسمك قطاعًا من مملكتكم العظيمة فأزاحم بذلك نبلاء (أراجون)، ولكني أطلب منك أن أحكم باسمك ما أحوزه بسيفي... فقط يمدني سيدي الملك ببضع مئات من الجند أهاجم بهم قلاعًا وحصونًا أعرفها جيدًا، على أن يكون لمولاي الملك مقدار الربع من سائر الأراضي والأماكن والحصون التي أغنمها، سواء بالقوة أو الرضى، فيما يحتفظ الملك لنفسه بكل ما يقوم هو بافتتاحه بمساعدتي ومشورتي!

تمتم (خايمي)، وهو يفرك لحيته بيده:

- كلام معقول أيها الأمير، ولكن ينقصه شيء مهم جدًّا!

- ما هو سيدي؟

تحرك (خايمي) ودار حول (أبي زيد)، الذي ظل واقفًا لا يتحرك مع حركة (خايمي) ثم قال:

- ما الذي يضمن لي تنفيذك لهذه الوعود، فماذا لو أعطيتك ما تريد، ثم استدرت وأعلنت الحرب عليّ بعدما تكون قد تحصّنت وتمكّنت؟ وما الذي يجعلني أثق في حسن نواياك؟ لماذا لا تكون هذه خدعة من خدعكم أيها المسلمون؟

(أبو زيد) بلغة جادة:

- (حصون بنشكلة، ومرلّة، وقله، وألبونت، وشارقة، وشبرب) أقدمها جميعًا لمولاي الملك بصفة رهينة عنده، فهذه الحصون ما زالت تدين لي بالطاعة، وبالمقابل يقوم الملك (خايمي) تأكيدًا لعهوده بحمايتي والدفاع عني وعن ولدي ضد أعدائي بتسليم حصني (الديموس وقشتيل) اللذين افتتحهما أبوه الملك (بيدرو).

عاد (خايمي) لكرسيه، وران الصمت قليلًا على المكان، و(خايمي) يفكر و(أبو زيد) ينتظر رد الملك وعينه لا تخالفه وقلبه مضطرب، وبعد لحظات نظر إليه الملك وقال:

- حسنًا أيها الأمير، أوافق على التحالف معك، ولكن إياك والغدر!

وتنفيذًا لهذا الاتفاق خرج السيد (أبو زيد)، ومعه الفارس (بيدرو دي أساجرا) صاحب شنتمرية الشرق، و(بلاسكو دي ألاجون)، في قوات طرويل وبعض الفرسان الأراجونيين، واخترقت الحملة الأراضي التي كان ما يزال السيد (أبو زيد) يتمتع فيها بشيء من التأييد، واستطاعت تلك القوات أن تبسط سلطان (أبي زيد) على بعض النواحي والضياع القريبة من (بلنسية)، ثم قام (أبو زيد) بتنفيذ وعوده، وسلم ربع تلك المناطق إلى (خايمي الأول).

مرَّ هذا الحدث برأس (خايمي)، الذي نظر حوله في تلك الوديان السحيقة، وقال:

- خدمة الخائن تُغني عن الجيوش الجرارة!!

ثم تحرك هابطًا من أعلى القلعة حتى دخل بهو السفراء والتقى أبا زيد، الذي ما إن شاهد الملك، حتى هبّ واقفًا من مجلسه، وسلم على الملك الذي قال:

- أهلًا بصديقنا الكونت (بجنت)، منذ تنازلك عن حقوقك الإقليمية وإقطاعاتك، وأنا لا أشك أنك تنوي دخول الدير والترهب!

وإذا (بجنت) يثلث، ويقول مظهرًا الخشوع الشديد:

- هذه أمنية كبيرة يا سيدي، ولكني لست مؤهلًا لها في هذه الأيام، فما زلت أتعلم ديني الجديد، وأحضر القدّاس الأسبوعي، ولم أرتقِ بعدُ لدرجة الترهب.

تمتم (خايمي) وقال:

- أتعلم يا (بجنت)؟ ما زلت رغم مرور السنين أتعجب كيف لأحد أبناء خليفة المسلمين، أن يصير خادمًا لنا مؤمنًا بيسوع المسيح، بينما كان أجداده أشدَّ بغضًا لنا، وأكثر حربًا!

ردَّ (بجنت) بخشوع:

- إنها إرادة الربّ يا سيدي! وقد هُديتُ إلي الكاثوليكية بفضل رعايتكم، واستحساني لدينكم الذي هو خير الأديان، دين المحبة، وأنا على يقين أن لو علم قومي بما أعلمه وتعلمته، لسابقوني على الدخول في دينكم!

هزَّ الملك رأسه طربًا، ثم قال له:

- ولهذا أريد يا (بجنت) أن تقدم ما تستطيع، لخدمة هذا الدين والوطن.

- أنا طوع أمركم سيدي الملك.

استطرد الملك (خايمي) في حزم:

- لقد بلغك بما لا يدع مجالًا للشك، ما يقوم به ملك (قشتالة) في بلاد المسلمين من جهة الوسط، بينما يقوم ملك (البرتغال) بالتقدم من جهة الغرب، وإني لأخشى أن ينسى أو يتناسى ملك (قشتالة) ما بيننا من عهود ومواثيق، ويتجه بفتوحاته ناحية الشرق، وهذه البلاد وإن كانت اليوم تحت حكم المسلمين، لكنها تقع في دائرة فتوحاتنا، لذا فقد قررت الإسراع في هذا الأمر، والتعجيل بفتح (بلنسية) عاصمة الشرق، فما رأيك؟

برقت عينا (بجنت)، ولمعت، وهو يقول بلهجة المتشفي:

- خير ما تفعل يا مولاي، ويسعدني أن أكون معك، في هذا الفتح العظيم!

- قطعًا أريدك معي، فأنت كنت يومًا أميرًا على تلك البلاد، لهذا فأنت أخبر الناس بها أيها الكونت.

ما إن سمع (بجنت) تلك الكلمات، حتى كاد يطير فرحًا بها، وما كان منه إلا أن انحنى، وشكر الملك لثقته، وهو يقول في نفسه:

- ثمانية أعوام مرّت لم أنسَ فيها ما فعلته بي يا أبا جميل، لقد حان وقت الانتقام منك، ومن خيانتك لي... ها أنا أعود إليك يا (بلنسية) لأنتقم لنفسي، وأثأر لهزيمتي وخذلاني، لقد خرجت منكِ دون إرادة مني، وها أنا أعود إليك رغمًا منك، فانتظري، فقد حان يومك، ودنا أجلك!

(٤)

(بلنسية)

في شرقي الأندلس قرب ساحل بحر الروم، على بعد ثلاثة أميال منه كانت المدينة الجميلة، المحاطة بالحدائق والجنان، والمليئة بالقصور والأشجار، يتوسطها سهلٌ زراعيٌّ شديد الخصوبة، يمتد بمحاذاة ساحل بحر الروم. ويرتوي هذا السهل من شبكة نهرية، تتفرع من النهر الأبيض. ويعتبر أحد فروعه، وهو نهر توريا المُسمّى النهر الأحمر، نهرها الرئيس. ويصبُّ هذا النهر في البحر المتوسط شمال (بلنسية).

و(بلنسية) خصّها الله بأحسن مكان، وحفّها بالأنهار والجنان، فلا ترى إلا مياهًا تتفرع، ولا تسمع إلا أطيارًا تسجع، وجوّها دائمًا كالسيف الصقيل، لا ترى فيه ما يكدر خاطرًا ولا بصرًا. وقد استغل أهلها أراضيها الخصبة في الزراعة؛ فقد زرعوا أنواع الفواكه والمحاصيل والأزهار. ومن أشهر محاصيلها: الأرز، والزيتون، والقراسيا، والزعفران، والتين، والرياحين. كما اشتهرت (بلنسية) بصناعة النسيج الكتاني، وفيها تقصر (تصبغ) الثياب الغالية.

وكان النسيج البلنسي يصدر إلى أقطار المغرب. كما كانت منتجاتها الزراعية تصدر إلى أنحاء العالم الإسلامي عبر مرساها النشط بحركة السفن التجارية. ومن أبرز ما كانت تصدره -إضافة إلى الكتان- الزعفران والقرمز.. أما الترف الذي كانت تعيشه (بلنسية) فحدّث ولا حرج! حتى لا يكاد المتابع لأحوال المدينة أن يرى فيها أحدًا من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهمّ، غنيًا كان أو فقيرًا، قد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحات والفرج.

وسط سوق النسيج في هذه المدينة الكبيرة، ووسط أصوات البائعين العالية، وهرج ومرج، وأطفال تلهو هنا وهناك، ونساء يتسوقن ويشترين الزينة، وإماء يغنين بأصوات شجيّة، وشباب قد ارتدوا الثياب الأنيقة، فالكل يستمتع بيوم من أيّام الربيع الجميلة.

وقف الأمير زيّان على شرفة قصره المطلة على أحد الشوارع المؤدية إلى سوق المدينة، وتعلقت عيناه بحركة الشارع، وما يحدث فيه من هرج ومرج، وارتفاع أصوات العامة ثم خفوتها، وهو يفكر في سبب ذلك، حتى تعلقت عيناه برجل جهوري الصوت، يتحرك ببطء شديد، وهو يحمل كل علامات الوقار والهيبة، يتكئ على عصا غليظة، ومرتديًا عمامة، وزيًّا يدل على كونه من أهل العلم في المدينة، وهو يقول ويصرخ في العامة:

- إلى متى ستظلون نائمين، تلهثون وراء ملذاتكم، والعدو يترقبكم، يريد بلادكم ونساءكم...؟ متى تستبدلون الغثّ بالسمين، والذي هو أدنى بالذي هو خير، متى تجتمعون في ميادين الوغى، تركبون الأهوال وتدافعون عن أرض نشأتم فيها وكانت لكم الجنة والنعيم؟ إلى متى ستظلون تركضون خلف الجواري تتسابقون النظر إليهنَّ والسماع لهن...؟ لقد أصمّت آذانكم الموسيقى والطرب فلم تعودوا تسمعون غيرهما... انظروا (يشير بيديه إلى أسوار المدينة) ها هو ملك (أراجون) يقترب بجيوشه، ولا هدف له إلا رقابكم، وبلادكم، ونساءكم، ومعه دليلٌ كان يومًا أميركم، فانقلب عليكم وناصبكم العداء... إن كنتم لا تريدون الدفاع عن هذا الدين وهذه الأرض... إن كنتم قد عدمتم أخلاق المجاهدين، فلا أقل من أن تدافعوا عن أعراضكم ونسائكم...!

استمرّ الرجل في حديثه، بينما كانت قدماه تشقّ طريقها بين العامة، متجهًا نحو مسجد المدينة الجامع، وما زال مرددًا حديثه، حتى دخل باب المسجد.

هزَّ الأمير رأسه وتمتم قائلًا:

- (أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي)؟

التفت الوزير (ابن الأبّار) إلى الأمير، وقال:

- أجل هو سيدي الأمير!

نظر الأمير إلى وزيره، وانعقد حاجباه وهو يقول:

- منذ متى وأنت هنا، أيها الوزير؟

- منذ لحظات، غير أني لم أحب قطع شرودك، وتفكيرك!

زفر الأمير زفرة حارة، وقال:

- ما زال أستاذك القاضي الكلاعي يا (ابن الأبّار)، يردّد كلامه على العامة، ويؤلب الناس علينا منذ زمن، فماذا عساي أن أفعل؟

- إنه يا سيدي لا يؤلب الناس بقدر ما ينبههم لتلك الأخطار المحدقة التي تدق أبواب (بلنسية)، وبعنف وشدة أزعجت المؤمنين من أهل (بلنسيَة)، وأصمّت الغافلين، فلم يعودوا يسمعوا أو يلووا على شيء سوى متعتهم، ويومهم لا غدهم!

تململ الأمير، وقال:

- على كلٍّ لترسلنَّ إليه يا (ابن الأبّار) أن يوافيني في الحال!

أومأ الوزير برأسه، وخرج من فوره، ليرسل من يخبر القاضي بوجوب مثوله أمام الأمير، أما (أبو زيد) جميل فقد ترك الشرفة ودخل بهو السفراء، وجلس على عرشه يفكر في قادم الأيام، وقد ران الصمت على المكان، حتى قطعه الحاجب الذي دخل، ليخبره بوصول القاضي الكلاعي.

أشار (أبو جميل) بالسماح للقاضي بالدخول، وما إن دخل القاضي، حتى ألقى التحية على الأمير، الذي أشار له بالجلوس.

نظر القاضي إلى الأمير وقال:

- خيرًا أيها الأمير؟

قال (أبو جميل) متجهمًا:

- وصلنا خبر بأنك تؤلب الناس علينا، فأردنا أن نستوثق من ذلك.

تجهم وجه أبي الربيع، قبل أن يقول:

- لستُ أنا من يفعل ذلك، ولو أردت أنٍ أفعل لأتيت إليك، وحدثتك في قصرك، ولو فعلت لأخبرتك، وما خشيت شيئًا

- لكنك دائمًا ما تثير العامة، أيها القاضي!

زفر الشيخ وقال:

- العامة...؟ هل تراهم حقًّا يثارون أيها الأمير؟ والله إنهم لا يعبئون إلا لمعاهد رقصهمٍ وجواريهم، إن شباب (بلنسية) ورجالها لا يعنيهم من أمر (بلنسية) شيئًا، وكأنَّ المدينة ليست مدينتهم، وهم ضيوف فيها وليسوا بأهلها، وكل ذلك يا أبا جميل محسوبٌ عليك، فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته!!

ارتاع (أبو جميل) وقال بلهجة جادة:

- وهل تراني مقصرًا أيها الشيخ الجليل؟! ثم ماذا عليَّ أن أفعل أكثر مما أفعل؟

- الناس على دين ملوكهم أيها الأمير، لذا فقد ذهبوا إلي المغاني واللهو، وتركوا الجهاد، عندما ترك ملوكهم الجهاد!

- تُحمّلني أخطاء قرون مرّت أيها الشيخ؟ فماذا عساي أن أفعل، وأنا لا أملك من أمر هذه الجزيرة سوى (بلنسية) ونواحيها، وقد خرجتُ غير مرة لمقاتلة النصارى، غير أنَّ ضعف مواردي حال دون استمرارية ذلك!؟

نهض (أبو الربيع) من مجلسه، واستند على عصاه، وقال وهو ينظر إلى الأمير:

- أيها الأمير! عليك بشحذ الهمم، وإن تكون قائدًا ومعلمًا، فإن الله يزع بالسلطانِ ما لا يزع بالقرآن، ونعينك عليه بما نستطيع... أيها الأمير لا نريد أن تُنكب هذه البلد، وتتحول مساجدها إلى كنائس، بينما شبابها في شغل شاغل عنها... ومن ذا الذي يشغله أمر المسجد بينما هو لا يعرف طريقه؟..... لقد فتح ملوك الطوائف بابًا للفتن في الأندلس، ولا نريد أن نمرق من هذا الباب... فالعدو يتربص بك وبنا، فلا تكن كالشاة الشاردة، ولا تهن ولا تحزن وأنت الأعلى، إن كنت من المؤمنين.

قال (أبو الربيع) هذا الكلام وانصرف، ليدخل بعده الوزير (ابن الأبّار) مرة أخرى، ويجلس قبالة الأمير.

استرخي الأمير على كرسيّه، وقبض على لحيته، وهو ينظر إلى (ابن الأبّار)، ويقول:

- لله در هذا الشيخ، ما أجرأه على الحق، فوالله لو كان بالأندلس بضع مئات مثله، لما وصلنا إلى ما نحن فيه الآن من وهن، وضعف، وتخاذل، على أنه قال ما يجول بخاطري!! - ثمّ هبّ واقفًا - فوالله إني لعازم على الوقوف بوجه هذا الطاغية (خايمي الأول)، وإني لعازم أن أستعين في سبيل ذلك، بإعلان الانضواء تحت راية قوية، فأجمع بهذه الوحدة ما تشتت من أرض الأندلس... وقد نظرت إلى ممالك الأندلس حولنا، فما وجدت فيهم رجل رشيد، يصلح أن ننضوي تحت رايته!

انبرى (ابن الأبّار) هاتفًا في حماس:

- ماذا عن (ابن الأحمر) صاحب غرب الأندلس؟ و(محمد بن يوسف) في وسطها يا سيدي؟

تنهد (أبو جميل) متحسرًا، وقال:

- الاستعانة بهما يا (ابن الأبّار)، كالمستجير من الرمضاء بالنار، فأما الأول فلا يعنيه إلا كرسيّه، وتوسيع رقعة مملكته ولو على حساب جيرانه المسلمين، بينما تراه يقف متفرجًا مكتوف الأيدي، عندما يتعلق الأمر بجرائم القشتاليين، ولو اعتدوا على أرضه التي يزعم إنها مملكته، وأما الثاني فقد ترك (قرطبة) لمصيرها المحتوم، ولم يتحرك لإنقاذها، وقد كان قادرًا على ذلك، فهل من أضاع (قرطبة) سيحفظ غيرها؟! لقد انضوينا لفترة ليست بالقليلة لسلطان (ابن هود)، فهل تراه يمد لنا يد العون إن احتجنا لذلك؟

انعقد حاجبا (ابن الأبّار) وقال:

- ماذا يريد الأمير؟

رنا (أبو جميل) ببصره لوزيره وقال:

- أريد أن ننضوي تحت راية الموحدين في مراكش، أو الحفصيين في تونس.

(ابن الأبّار):

- إن كانت ثمة مقارنة بينهم يا سيدي، فلنعلن الطاعة للحفصيين بتونس، فهؤلاء في إقبال دولتهم الآن، أما أولئك ففي إدبارها، وقد شغلتهم حروبهم الداخلية، وحروبهم مع (بني مرين) عن الأندلس... لقد ولّى زمن الموحدين، منذ وفاة صاحب الأرك عليه رحمة الله، وبعدما فنيت جيوشهم في (العقاب)، ناهيك عن (أبي زيد عبدالرحمن)، صاحب (بلنسية) المتنصر، وهو من الموحدين أحفاد عبد المؤمن... وها قد انقلب على وجهه، وترك دينه، وبات اليوم من أشد أعدائنا.

عاد (أبو جميل) إلى كرسيه، ثم أطرق برأسه، وبدا كأنه اقتنع بكلام الوزير الشاعر، وقال:

- يفعل الله ما يريد.

(٥)

المرسوم البابوي

شعر البابا جريجوري الثاني بالارتياح يسري في كيانه، وهو يتطلع في رسالة (خايمي)، حتى إذا ما أنهى الرسالة تهللت أساريره، ونظر إلى مساعديه، وقال:

- لقد أراد الربُّ أن يعوضنا عن أفعال فريدريك الثاني ملك جرمانيا، وتضييعه للقدس، بما ينوي أن يقوم به ابن الكاثوليكية البار (خايمي)، ثم ألقى بالرسالة إلى مساعده القديس (بطرس)، الذي قرأها، وقال:

- شتان يا سيدي بين ملك (أراجون)، وصاحب جرمانيا!

زفر البابا زفرة حارة وقال:

- نعم يا (بطرس)، فبينما ماطل (فريدريك) حتى أضاع القدس منا برعونته، فاستحق أن نطرده من رحمة الكنيسة، ها هو ابننا البار (خايمي) يتقد حماسة لحرب المسلمين، وتعويض المسيحية فقدها للقدس.

تحدث(بطرس) في شماتة، وقال:

- ألا ترى سيدي أنّ تشتت حال العرب في الأندلس، ربما يكون الدافع لتلك الحماسة الكبيرة، التي يظهرها ملوك شبه الجزيرة الأيبيرية، في حروبهم ضد الإسلام هناك؟

رفع (جريجوري) حاجبيه، وقال:

- لا أظنّ ذلك، وإلا فمسلمو الشرق أيضًا متنابذون ومتقاتلون.

- نعم يا سيدي، ولكن ليس كأهل الأندلس تشتتًا وتصارعًا!

- أما في هذه، فنعم!

- فماذا ترى يا سيدي؟

انتعش البابا وقال:

- يجب علينا أن نمد (خايمي) بكل ما يحتاجه من دعم مادي ومعنوي، فالمسيحيون في أقطار الأرض يتوقون للانتقام من فقدان القدس، وقبر ابن الرب. وسيكون انتزاع (بلنسية) من المسلمين، هو شر انتقام منهم، ناهيك عن ملك (قشتالة) وملك (البرتغال)، وما يقدمانه للكاثوليكية.

نظر (بطرس) إلى الأب وقال بخبث:

- لكن سيدي ماذا لو انتقلت الحروب، وصارت بين ملوك الكاثوليكية في شبه الجزيرة؟ ماذا لو تحول صراعهم بين بعضهم البعض، وقد وصلت الأخبار بأن ملكي (قشتالة) و(أراجون) يتربصان ببعضهما؟

هزَّ البابا رأسه وقال:

- لا لن يحدث، فمعاهدة (كاسولا) قد حسمت الأمر.

غمغم (بطرس) في قلق:

- أرجو ذلك يا سيدي!

صمت البابا قليلًا ثم قال آمرًا:

- اكتب يا (بطرس) مرسومًا بإسباغ الصّفة الصليبية، على مشروع فتح (بلنسية)، وعلى المشاركين في تلك الحرب المقدسة أن يرتدوا الصليب على صدورهم، ولتعلن عن ذلك في (مونتشون)، وادعُ فرسان الصليب في كل أوروبا للالتحاق بتلك الحملة، وعد المتطوعين منهم بصكوك غفران لا تنضب. وليصلِّ المسيحيون في كل أوروبا، وليدعوا لابن المسيحية البار (خايمي).

وما إن أصدر البابا مرسومه، حتى هرع إلى لواء تلك الحملة كثير من الفرسان والسادة، ولا سيما جماعة (الاسبتارية)، كما وافق (القطلان) على سنّ ضريبة الماشية العينية، مساهمة في نفقات الحرب القادمة.

(٦)
الطريق إلى (بلنسية)

رفع الملك (خايمي) هامته في اعتداد، وهو يتابع تجهيزات حشد الجيوش في (قلعة أيوب)، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة مزهوة، فقد كان لا يشك أبدًا في نجاح مسعاه، فالمسلمون متقاتلون فيما بينهم، لا يشعرون بعاقبة ما يفعلون، لذلك كزّ على أسنانه، وهو يتذكر استغلال الأمير (أبي جميل) انشغاله بحروبه في الجزائر الشرقية، وضربه (لأراجون) في عدة مناطق، فرفع وجهه وشد صدره، وهو يقول:

- أقسم يا (أبا جميل) أن أخرجك وقومك من (بلنسية) أو أموت تحت أسوارها!

لم يكد (خايمي) يتم قسمه حتى بدت ثناياه من فرط الابتسام، وهو يشاهد (بجنت) مرتديًا الثياب الأراجونية المزخرفة بالصلبان، وقد بالغ (بجنت) في ذلك، فرسم الصليب أيضًا على سيفه، ووضعه على خوذته، مما جعل الملك يلتفت إليه ويقول له:

- أراك أسعد الناس بما نخطط له يا (بجنت)!

ابتسم (بجنت) في نشوة غامرة وقال:

- ليس في هذه الدنيا من هو أسعد مني بذلك يا سيدي، ثم زفر بقوة وقال: شعور عظيم هو شعور التشفي والانتقام... شعور لا يُوصف أن أرى الهزيمة في وجوه مَن ناصبوني العداء!

قهقه (خايمي) بخبث، وقال:

- تشفَّ بهم كيفما تشاء!

ابتسم (بجنت)، ثم شرد ذهنه، وانعزل عما حوله، وبانت على ملامحه اختلاط البسمات بالحزن، فكان يبتسم تارة، ويتجهم أخرى، بينما عيونه ونظراتها الضيقة، كانت تدل على انتقام قادم، يسعى ويتوق إليه.

استطرد (خايمي):

- لقد صرتَ مرتبطًا بالصليب أكثر من أهله، يا (بجنت)!

انتبه (بجنت) لحديث الملك، فقطع شروده، وقال:

- العفو يا سيدي، ولكن ذلك لأني صرت أهله!

تمتم (خايمي) رافعًا حاجبيه، وبعيون ضيقة قال:

- تراك متشوقًا لدخول (بلنسية).

شهق (بجنت) وقال:

- أنا أكثر شوقًا لتحويل مسجدها إلى كنيسة يا سيدي، فهذا خير ما أقدمه لتلك المدينة الجميلة التي كنتُ يومًا أميرها!

باغته (خايمي) في مكر ودهاء، وقال:

- وماذا عن أميرها (أبي جميل)؟

تجهم وجه (بجنت) وقال:

- هو ساقط لا محالة يا مولاي، لهذا لا أهتم له كثيرًا، غير أني أتوق إلى رؤية الهزيمة في عينيه، ليعلم وقتها أهل (بلنسية) إنهم استبدلوا الغالي بالغث... إني أتوق يا سيدي لأن أخطب فيهم، وأقول لهم: (هل وجدتم ما وعدكم أبو جميل حقًّا...) أريد أن أتشمت بهم، فأضحك في مصابهم، واحتفل بنوازلهم!

أشار (خايمي) بيده وقال:

- إنك لشديد الحقد عليهم يا (بجنت)!

تهيّأت الأرض لارتداء أجمل أثوابها، فقد بدأ فصلٌ جديدٌ من فُصول الحياة، فصلٌ مليء بالتّجدد، والأمل، وألوان الزُّهور بمُختلف أشكالها وألوانها وعطورها، فارتفعت زقزقةُ العصافير، وأشرقت الشمس حنونة دافئة، تداعب بأشعتها المتلألئة الزهور المتفتحة، والأشجار كثيفة الأوراق، متنوعة الألوان، والمحاصيل، والثمار، وتألقت الشمس بأشعتها الذهبية، لتنعكس على وجه ملك (أراجون)،

المتحرك بفرسه وجيشه تجاه (بلنسية)، ومن حوله كبار قادته (دون بلاسكو دي ألاجون)، وهو قائد أراجوني عاش طويلًا في (بلنسية) وكان يجيد العربية، كما خرج معه (هوجو دي فولكاركير) أستاذ فرسان (الاسبتارية)، إضافة إلى (بجنت) الموتور.

وضع (خايمي) يده على جبينه، وهو يستنشق هواء الربيع ونسماته، قبل أن ينظر إلى (بجنت) بجواره ويقول:

- ما أجمل نسيم (بلنسية)!

تنسم (بجنت) الهواء وقال:

- كُلما هبت ريح صبا ذكرتني (بلنسية)، فما أجمل الربيع فيها، وما أجمل الصبا!

سار الجيش واقترب أكثر وأكثر من (بلنسية)، حتى وصل مشارفها، فأمر (خايمي) جيشه بالتوقف، لنصب المعسكر في تلك الأرض الخصبة، والمياه الجارية، ثم نزل عن حصانه الذي ظل يتحمحم، وهو يمد رأسه، ليأكل من تلك الزروع الكثيفة..... مد (خايمي) يده يداعب حصانه، قبل أن يقول للقائد (دون بلاسكو دي ألاجون):

- احصدوا تلك المحاصيل واجمعوها، وما لم تستطيعوا حصده فأشعلوا فيه النيران.

هتف (دون بلاسكو دي ألاجون):

- أمرك سيدي!

انطلق (دون بلاسكو) مع فرقته، يحصدون الزروع، ويفسدونها، كما تحركت فرقة أخرى من الجيش، تفعل نفس فعلته، فلم يمر الكثير من الوقت، حتى تصاعدت أعمدة الدخان، وتحولت المزارع الخضراء، إلى أرض قاحلة رمادية اللون. وكان (خايمي) يشاهد تلك الأعمال، ويشم رائحة الدُّخان تقترب من كل مكان، وهو سعيد بهذا، ولسان حاله يقول:

- احرقوا الأخضر واليابس، لا تدعوا لهم إلا الدمار والخراب.

وبعد وقت عادت الخيول، بعدما أحرق فرسانها القرى القريبة، وأثاروا الرعب في ساكنيها، أما (خايمي) فقد قرر أن يتشاور مع قادته، حول الخطوة

القادمة التي تلي ما نشروا من خراب، فجلس في خيمته الملكية التي نُصبت في قلب المعسكر، وحولها خيام أخرى لمستشاري الملك وكبار قادته، وبدأ الحديث، بعد أن بارك تخريب جيشه للمكان، وقال وهو يحتسي كأسًا من الخمر وضع أمامه:

- لقد أصبح جيشنا على مشارف (بلنسية)، فهل نتقدم لحصارها أم نتوانى قليلاً؟

تردد (بجنت) قبل أن يقول:

- لي رأي، لو أذن لي مولاي!

أشار له (خايمي) وقال:

- تحدث يا (بجنت)، فقد صرت واحدًا منا!

- قبل أن نُسقط المدينة، يجب علينا الاستيلاء على حصونها الأمامية، وإلا فلن يفلح لنا حصار أبدًا!

اعترض (دون بلاسكو دي ألاجون) بشدة، وقال:

- لا أوافق الرأي أيها الكونت، فالاستيلاء على الحصون الأمامية سيستغرق الكثير من الوقت والجهد، وقد يستغل عدونا هذا الوقت فيستعدّ لنا، أو يرسل في طلب النجدات من الممالك الإسلامية القريبة!

في ثقة قال (بجنت) مؤكدًا:

- أنا أعلم بهم منك أيها القائد، فحتى لو طلبوا النجدات لن يسمعهم أحد.

هزَّ (خايمي) رأسه، واسترخى على كرسيه، قبل أن يقول:

- الرأي عندي ما قاله (بجنت)، وإني لأرى فيه رأيًا واعيًا جديرًا بالاعتبار.

وأردف ناظرًا إلى دون بلاسكو:

- أما قولك عن استغلال العدو للوقت فيستعد لنا يقهقه فهم لا يعرفون مطلقًا قيمة الوقت!! لقد هزمناهم في (لاس نافاس دي تولوسا)، وكان لديهم الوقت الكافي ليستعدوا لنا، لكنهم أحسنوا الاستعداد لأنفسهم، فهؤلاء يا سادة قوم قد غدا بأسهم بينهم شديدًا، لا يتعلمون من الماضي... لهذا لن نلقي لهم بالاً، فهم أقل من أن يستغلوا الوقت لصالحهم، أما النجدات فهذا وقت قد انتهى وراح، فعدوة المغرب مشتعلة من تحت أقدام الموحدين هناك،

لهذا لن يهتم (لبلنسية) غير أهل (بلنسية) وهؤلاء خارت قوتهم وراحت هيبتهم فصاروا عددًا بلا عدة.

ثم نظر إلى (بجنت) وقال:

- أحسنت يا (بجنت)، نعم الرأي رأيك!

نظر (بجنت) إلى الملك في رضا، بينما رمق (دون بجلاسكو) بنظرات شامتة، لم يجد بعدها (بلاسكو دي ألاجون)، إلا أن يبادر ويقول للملك:

- نعم الرأي يا سيدي!

انتهز (بجنت) الفرصة، فسأل بتملق:

- لو أذن لي سيدي الملك؟

أجاب الملك (خايمي) يستحثه:

- تحدث يا (بجنت)!

أخرج (بجنت) من ملابسه خريطة كبيرة وقال:

- هذه الخريطة يا سيدي، أحتفظ بها منذ كنتُ أميرًا لتلك البلاد، وهذه ستساعدنا كثيرًا في مسعانا.

ثم فردها، وراح ينظر إليها، والملك يشاهد ذلك، ثم قال، (وهو يشير بيديه لجزء من الخريطة):

- هنا يا سيدي، يقع حصن (أنيشة) الحصين على بعد سبعة أميال من (بلنسية)، وهو من أهم حصون المدينة، فهو يقع على ربوة عالية، تزيد موقعه مناعة وقوة، كما أنه يشرف على مرج (بلنسية) وحدائقها، ما يعني يا سيدي أن احتلال هذا الحصن، سيُفقد (بلنسية) أهم مراكز دفاعاتها.

ارتفع حاجبا (خايمي)، وهو ينظر إلى موقع الحصن، وعيناه تبرقان في لهفة، ثم ربت على كتف (بجنت) في حرارة، قبل أن يقول:

- عظيم يا (بجنت) لن نخرج عن هذه الخطة.

(٧)

هدم الحصن

شعر الأمير (زيّان) بتوتر يسرى في كيانه، وهو يفكر في أمر (بلنسية) وحصونها، خاصة بعدما أخبرته عيونه بوجهة الأراجونيين، فهو يعلم أهمية الحصن، وخطورة سقوطه في أيدي النصارى، التي تعني انهيار دفاعات (بلنسية)، وسهولة حصارها. فشغله ذلك، وصار شغله الشاغل، وراح يقول:

- لا يجب أبدًا أن يصلوا للحصن، أو يحتلوه.

تطلع الوزير (ابن الأبّار) إلى الأمير وقال:

- هل تتوقع أن يكون (لبجنت) يدٌ، في تحويل مسار جيش (أراجون)؟

زفر الأمير زفرة حارة قبل أن يقول:

- ومن غيره يفعل ذلك؟ من غيره يعرف مواطن قوة المدينة ونقاط ضعفها؟

عقب (ابن الأبّار) غاضبًا:

- وضيع خسيس، من كان يظن إنه يفعل ذلك يومًا؟

تنهد الأمير أبو جميل وقال:

- ليس بعد الكفر ذنب يا (ابن الأبّار)!

أمّن (ابن الأبّار) على كلامه:

- أجل أيها الأمير.

- ويل له وويل لكل خائن جبان، يدل عدوه على عورات قومه!

- أيها الأمير، يجب علينا سرعة العمل للدفاع عن الحصن، فإن سقط منا سقطت المدينة... إذ سيقوم (خايمي) بشحنه بالجند ليجعله خنجرًا في ظهر (بلنسية)، لذا أرى أن نشحنه بالرجال والعتاد يدافعون عنه، حتى إذا

هاجمه الأراجونيون سهل علينا حربهم، إذا سيكونون قد وقعوا بين جيش (بلنسية)، وبين حامية الحصن، فيسهل علينا إرهاقهم، ومجابهتهم، وردهم إلى بلادهم، وهزيمتهم.

قاطعه (أبو جميل) معترضًا:

- لكن إن فعلنا ذلك سنشتت قوتنا ونفرقها فيسهل على العدو هزيمتنا وقهرنا!!

سأل الوزير (ابن الأبّار) في حيرة:

- فماذا ترى إذن؟

صمت (أبو جميل) وفكّر في الأمر مليًّا، ثم قال في حزم:

- لن نشتت قوتنا ولن نترك الحصن للأراجونيين.

نظر (ابن الأبّار) إلى الأمير مستفهمًا، فأكمل الثاني قائلًا:

- سنهدم الحصن، وبذلك نمنع النصارى من الاستفادة منه، ولا نكون بحاجة إلى شحنه بالمؤن والجند والعتاد، فتتوحد قوتنا، حتى إذا وقع اللقاء كنا جبهة واحدة وكتلة قوية ثابتة في وجوههم.

مطّ (ابن الأبّار) شفتيه وهزَّ كتفه، ووافق الأمير على رأيه عن غير اقتناع منه، ثم قال:

- سيدي، في مثل هذه الأحوال، يجب علينا طلب النجدات من ممالك المسلمين حولنا، وإنه ليحزنني أن أجد الصليبيين متحدين لحربنا، حتى إن جيش (خايمي) يحوي بين فروعه ومشاته، الكثير من المتطوعين من فرنسا، وإيطاليا، وانجلترا، إضافة إلي فرسان المعبد و(الاسبتارية)، بينما نترك نحن هنا كالشاة الشاردة.

مستنكرًا قال الأمير (زيّان):

- وهل ترى أن استغاثتنا سيسمعها أحد؟

وفي هذه الأثناء دخل الحارس وقال:

- الشيخ (أبو الربيع) سليمان بن سالم الكلاعي يستأذن للدخول عليك يا سيدي.

فأشار له الأمير (أبو جميل):

- دعه يدخل.

دخل (الكلاعي) مرتديًا زيًّا عسكريًّا، وقدم التحية للأمير ووزيره، فأعجب الأمير بتلك الملابس، وراح يداعب الشيخ قائلًا:

- هل نقول الفقيه الفارس، أم الفارس الفقيه؟

في هدوء رد الفقيه، وقال:

- أنا فقط عبد الله...

ابتسم (أبو جميل) وقال:

- لا بأس إذن، لتشاركنا الرأي أيها الفقيه.

- إن كنت تريد رأيي فيما سمعته حال دخولي إليكم، وحديثكم عن طلب النجدات، فأنا أرى أيها الأمير أن نرسل لهم جميعًا، ترسل إلى (إشبيلية) و(مرسية) و(ابن الأحمر) في (غرناطة)، وترسل إلى الموحدين في مراكش، وإلى الحفصيين في تونس، تستغيث بهم فإن أجابوا فهذا ما نريد، وإلا أقمنا الحجة عليهم أمام الله، وأمام الناس.

أطرق الأمير (زيّان) وفكر في الأمر، ثم قرر أن يبدأ بمراسلة إمارة (مرسية) القريبة منه، وأن يرسل وزيره الشاعر إلي الحفصيين في تونس، ثم يرسل إلى الموحدين في (إشبيلية) ومراكش، وفي الحال أمر وزيره (محمد بن خلف بن قاسم الأنصاري) أن يتجه برسالة طلب النجدات إلى (مرسية)، ثم طلب من (أبي الربيع) أن يقوم بشحذ الهمم، وجمع المتطوعة استعدادًا لما هو آت.

وفي اليوم التالي وبمجرد بزوغ الفجر، أرسل الأمير من فوره من يسارع بهدم الحصن، وتسويته بالأرض، فكان له ما أراد. كما أمر بتقوية أسوار المدينة، استعدادًا للحرب القادمة، وعجّل بحصد الزروع والثمار، استعدادًا لحصار قد يطول، وحرب قادمة لا محالة فيها.

(٨)

(أنيشة)

انطلقت حوافر الخيل القوية تنهب الأرض نهبًا، وهي تتجه نحو حصن (بلنسية) الحصين (أنيشة)، ينير لها الطريق (قمر) مكتمل، في ليلة صافية من ليالي الربيع الرائعة، وما إن وصل الجيش إلى تلك الربوة العالية التي عليها الحصن، حتى بلغت الحيرة (بخايمي) مبلغه، وبدأت الشكوك تساوره، والأسئلة تدور في خلده: «هل خدعنا (بجنت)؟ وَيلٌ له إن كان قد فعل!».

ثم أشار للجيش بالتوقف، ونظر إلى (بجنت) بجواره، وقال في غضب وصوت مرتفع:

- أين الحصن يا (بجنت)؟ أم إنَّ خريطتك كانت خادعة؟

في سخرية وتهكم، رد (بلاسكو دي ألاجون) مستبقًا بذلك (بجنت) المضطرب:

- ربما ابتلعته الأرض، أو رُفع إلى السماء!!

في توتر وخوف رد (بجنت)، وقال:

- أقسم لك يا سيدي أنّ هذا مكان الحصن!

(وأشار بيده تجاه الربوة العالية).

تساءل (خايمي) في حنق شديد:

- إذن فأين هو؟... أين هو يا (بجنت)؟ وحقِّ الربِّ لو كنت قد خدعتني فلن تنجو أبدًا بفعلتك تلك!!

أحاط الجنود بـ (بجنت) الذي بدا مرتعبًا، بينما تحرك (خايمي) و(بلاسكو دي ألاجون) وصعدا الربوة، وحولهما كوكبة من الفرسان، مخافة الكمين والغيلة، وما إن وصل مكان الحصن حتى تألقت عينا (خايمي)، وهو ينظر إلى حجارة مبعثرة هنا وهناك، وجدران ساقطة بالكلية، فمال على (بلاسكو دي ألاجون)، وقال له:

- لقد ظلمنا (بجنت)، وها هي حجارة الحصن تشهد له بالإخلاص لنا.

رنا (بلاسكو دي ألاجون) ونظر للأرض في خجل وقال:

- أجل يا سيدي! وإنه لجدير أن اقدم له الاعتذار لما بدر مني في حقه، ولكن كيف لهم أن يفعلوا؟ كيف يهدمون حصنًا كهذا الحصن؟!

قهقه (خايمي) في شيء من السخرية والتهكم، وقال:

- كنا نخشى الحصن، وقوته، ومنعته، فإذا هم يُخلونه، ويهدمونه، ويقدمونه لنا لقمة سائغة!

ثم سحب عنان جواده، وقفل عائدًا إلى حيث يقف (بجنت)، الذي تهللت أساريره عندما شاهد البسمة في وجه الملك، واستبشر خيرًا فقال:

- بشرني يا سيدي!

نزل (خايمي) عن صهوة جواده، واقترب من (بجنت) وربت على كتفه، وقال له:

- لقد هدموا الحصن، وإني لفخور بك أيها الرجل!

تنفس (بجنت) الصعداء، وقال:

- الشكر للرب، الشكر للرب.

أما (بلاسكو دي ألاجون) فقد اقترب من (بجنت)، ونظر إلى الأرض في خجل وقال:

- لقد ظلمتك يا (بجنت) فتقبل اعتذاري!

ردّ (بجنت) في رفق:

- لا بأس عليك يا رجل، فلو كنت مكانك لفكرت تفكيرك نفسه، ولقلتُ ما قلتَ!

استفسر الملك (خايمي) قائلًا:

- قل لي يا (بجنت) كيف لأمير (بلنسية) أن يهدم حصنًا كهذا بهذه السهولة ويخليه؟

- ربما خشي الرجل أن نأخذ الحصن عنوة، ثم نستخدمه للإغارة على (بلنسية) فهدمه.

قهقه (خايمي) وهو يقول:

- وهل ظنّ بهذا الفعل إننا سنترك الحصن؟! لقد خاب مسعاه!

بدهشة قال (بلاسكو دي ألاجون):

- سيدي لقد ذهب الحصن الذي كنا نخشاه، فلماذا لا نتركه، ونتقدم تجاه (بلنسية)، ونحاصرها؟

حرك الملك (خايمي) سبابته بالنفي، وقال:

- بل سنبني الحصن يا (بلاسكو)، ونستخدمه للإغارة على (بلنسية) وثغورها، وبهذا نستنفد قوات المدينة قبل أن نحاصرها، فيكون سقوطها أسهل علينا، ناهيك عن إمكانية استخدام الحصن، كملجأ لنا وقت الحاجة.

قال (بجنت) مؤيدًا:

- نعم الرأي يا سيدي، كنا نريد حصار الحصن حتى نستولى عليه، وكنا سنبذل من أجل ذلك الكثير من الدماء والوقت، أما الآن فلن يستوجب بناء الحصن غير بعض الوقت.

ثم ابتسم (بجنت) مستدركًا:

- بل قليل من الوقت، فالحجارة موجودة، وكذلك سواعد الرجال.

أنهى الملك (خايمي) النِّقاش بإشارة من كفه، وقال:

- صدقت يا (بجنت)، والآن سنبيت ليلتنا هنا، وأنت يا (بلاسكو) تولى أمر حراسة المعسكر، ورتّب لذلك أمهر الجند، فلا نريد أن يفاجئنا العدو، ونحن على مقربة منه.

أومأ (بلاسكو)، وأدّى التحية العسكرية، وراح يرتب أمر حراسة المعسكر، فيما قام الجند بنصب الخيام للمبيت، وفي الصباح أصدر (خايمي) أوامره لجنده بإعادة بناء الحصن، بنفس الحجارة القديمة، التي تركها المسلمون خلفهم.

لم يمرّ الكثير من الوقت حتى شُيد الحصن بأحسن مما كان، ثم عهد (خايمي) بأمر الحصن وحاميته إلى خاله دون (برناردو دي إنتنزا)، ومن ثم ارتد (خايمي) إلى (سرقسطة)، ليعيد تقييم الوضع من جديد، حسب المعلومات الجديدة.

أما دون (برناردو دي إنتنزا) فقد اتَّخذ من هذا الحصن قاعدة للإغارة على مختلف نواحي إقليم (بلنسية)، فكانت السرايا تخرج بين الحين والآخر، تعيث في القرى والمدنٍ المجاورة فسادًا، ثم تعود محملة بالمؤن والأسرى، وهكذا كان هدم الحصن وبالاً على مسلمي (بلنسية)!

(٩)
هبي رياح الجنة

انتهى إلى مسامع الأمير (أبى جميل زيّان) ما حدث عند حصن (أنيشة)، فارتبك وشعر بسوء تخطيطه وتدبيره، فالحصن الذي كان له منذ أيام قد صار الآن لعدوه! وقد أحسن العدو تشييده، وتقوية أسواره ودفاعاته، واتخذه قاعدة لشن هجماته على (بلنسية) وأحوازها... اضطرب أمر (أبي جميل) وراح يتذكر كلام (ابن الأبّار) القضاعي، وهو يعضُّ على أسنانه، كيف لم يأخذ برأي شاعره؟ وكيف وهو الفارس المجّرب، أن يقع في مثل هذا الخطأ الجسيم؟؟ ولسان حاله يقول:

منذ متى ينفع الندم؟ وما خسارة المعارك والبلاد إلا بمثل تلك الأخطاء...

كانت الهواجس تهاجم (زيّان)، ولا تنفك تلاحقه، وتقضّ مضجعه، وتنغصّ عليه ليله ونهاره، وهو يرى قوات (أراجون) تعيث في أرضه، ويقف منها موقف العاجز الذليل.

كما تنامى خبر استيلاء الأراجونيين على حصن (أنيشة) إلى أهالي (بلنسية)، ووصل إلى الفقيه (أبو الربيع) الذي هاله ما حدث، بعد أن شعر بفداحة الخطأ الذي وقع فيه أمير (بلنسية)، فقرر الذهاب إلى قصر الإمارة، عله يجد سببًا لما يحدث، أو خطة موضوعة بعناية لوقف عيث الأراجونيين في بلاد المسلمين، وما إن دخل (أبو الربيع) على الأمير حتى قال:

- أيها الأمير، لقد كان الحصن بين يديك، فما الذي حدث، لينتهي بأن يقع بين يدي ملك (أراجون)؟

تنهد الأمير في حسرة واضحة، وكأنه كره توجيه هذا السؤال له، فقد كان يذكره بسوء تخطيطه وتقديره، ثم أشار إلى الحرس حوله فخرجوا جميعًا، ما عدا كاتب الأمير ابن عميرة، وبعد لحظات نظر إلى (أبي الربيع) وقال وهو يرفع حاجبيه متعجبًا:

- أردنا شيئًا أيها الشيخ، وكان لنا غيره!

عقب أبو الربيع متعجلًا:

- يجب إصلاح ما حدث بأقصى سرعة ممكنة، قبل أن يتمكن العدو وتزداد قوته وموارده. ويناصبنا العداء من حصن كان يومًا لنا.

تردد (ابن عميرة) للحظات قبل أن يقول وهو يستجمع قواه:

- أجل يا مولاي الأمير، فسكوتنا عن أمر الحصن سيفسره العدو على إنه عجزٌ منا، لذا يجب علينا الخروج، وإعادة الأمور إلى نصابها، ثم شحن هذا الحصن بالجند والمؤن والعتاد، فيستقيم لنا الأمر، وإلا....!!

صاح (أبو جميل) في حدة:

- أكمل يا (ابن عميرة)، وإلا صار أمر (بلنسية) في مهب الريح أليس كذلك؟

أجاب (ابن عميرة) في تردد:

- أظنُّ ذلك، فالحصن هو مفتاح المدينة، ولا يجب أن يكون أبدًا بيد أعدائها.

تراجع الأمير خطوات، وأمسك بسيف معلق خلفه، وأخرجه من غمده، ثم أعاده، وقال:

- لن يكون مفتاح (بلنسية) أبدًا، في يد عدوها المتربص بها الخالد العداوة لها... سنستعيد الحصن مهما كلف من ثمن!

وهكذا قرر (أبو جميل) أن يستعيد بسيفه، ما فقده بسوء تدبيره، بعد أن أشاع في الناس أنّ استعادة (أنيشة) معناه بقاء (بلنسية) وحياتها، وفقدانه يعني ذهاب (بلنسية) وضياعها، ثم راح الأمير يشحذ همم جنوده، بينما ذهب الفقيه العظيم (أبو الربيع) يخطب في العامة، ويحرضهم على الخروج مع الأمير، في هذه الغزوة المباركة.

وفي ساحة (بلنسية) الكبرى أمام مسجدها الجامع الكبير، وسط أسواقها الغاصة بكل أنواع البضائع، والمزدحمة بأرجل الخلق، وقف (أبو الربيع) ونادى في الناس، وقال:

- أيها الناس، الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وباب من أبواب جنة السلام، من أحبه وتمناه فتلك علامة الإيمان، ومن أبغضه ولم تحدثه نفسه

به مات على شعبة من شعب النفاق، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق -صلى الله عليه وآله وسلم- أيها الناس، إنّ الجهاد في سبيل الله هو مصدر العزة لهذه الأمة، وهو أساس مجدها وفخرها، ومتى تخلت الأمة عن الجهاد في سبيل الله، فإنها ستنزل من سماء المجد والعزة والتمكين والشرف، إلى قيعان الذلة والمهانة، وسوف يسومها أعداؤها ألوان وأنواع البلاء والعذاب، ألا إني خارج مع الأمير مجاهدًا في سبيل الله، فمن أراد عزّ الدارين فليتبعني، ومن أراد ذلّ الدنيا وخزى الآخرة فليمكث في داره...

لم يكد (أبو الربيع) يتمّ خطابه، حتى تحمس لكلماته الملتهبة، جموع من الشباب والرجال، فحمل من يستطيع حمل السلاح سلاحه، وتعالت الأصوات بوجوب عودة الحصن المفقود قبل فوات الأوان، ولم يتوقف صدى صوت الفقيه عند أسواق (بلنسية)، بل خرج منها إلى القرى المجاورة، فتقاطرت جموع المتطوعة أفواجًا يتلوها أفواجٌ، حتى وصلت أعداد المتطوعة إلى أكثر من ثلاثين ألف رجل، زحفوا جميعًا تجاه قصر (أبي جميل زيان) وكلهم حماسة للقتال والاستشهاد، فسعد بهم (أبو جميل) وشعر بأنّ الحصن عاد له، فتهللت أساريره، وهو يخطب فيهم ويحمسهم للقتال.

وفي فجر الخميس العشرين من ذي الحجة سنة ٦٣٤ هـ الموافق (الرابع عشر من أغسطس سنة ١٢٣٧ م). خرج (أبو جميل زيان) بجيشه البالغ عدده ألف مقاتل، يصحبهم حوالى ثلاثون ألف متطوع، واتجه بهم إلى حيث حصن (أنيشة)، وهو لا يشكّ في تحقيقه نصر عجيب، وكيف يُهزم ومعه جيش قوامه ألف فارس، وثلاثون أو أربعون ألف رجل؟!

وصل الجيش البلنسي إلى أطراف الحصن الشاهق، ووقف (أبو جميل) وبجانبه الفقيه (أبو الربيع) والوزير (ابن الأبّار) القضاعي، وهو يتعجب كيف هدم هذا الحصن، وأيّ شيطان أغراه بهذا الفعل اللئيم؟! فقد كان الحصن شديد المنعة قوي الأسوار، لا يسقط بقتالٍ إلا بحصار طويل، يُجبر مَن فيه على التسليم والاستسلام بعد أن يعضهم الجوع! وبينما هو يفكر في أمر الحصن وسوء تدبيره، وبينما تحمحم الخيول، ويستعد (أبو جميل) لضرب الحصار، إذ خرج الصليبيون من خلف أسوارهم، وباغتوا المسلمين الذين لم يكونوا يتخيلون، أنّ حامية صغيرة ستملك الجرأة للخروج، والاشتباك مع هذا الجيش الكبير...

كانت مفاجأة مرعبة خلعت القلوب الضعيفة، فقد أثارت حوافر خيل الأراجونيين الكثير من الغبار، بينما كانت أصواتهم العالية تجلجل المكان، يرافقها صوت كأنه موج البحر المتلاطم، من وقع حوافر الخيل، لينقض بعدها الجيش الأراجوني على جيش (أبي جميل)، وتدور المعركة كما لم يُردها أحد.

أمسك (أبو جميل) بزمام جيش المسلمين، بينما تولى دون (برناردو دي إنتنزا) قيادة الأراجونيين ودارت في ظاهر (أنيشة) معركة عنيفة دامية، تطايرت فيها الأشلاء، وتفجّرت فيها الدماء، تروي الرمال الظامئة التي لم تكن تنذر عن شبع!!

قاتل الفريقان فيها بشجاعة كبيرة، فالمسلمون كانوا على علم بأنّ هزيمتهم تعني خسارة (بلنسية) ذاتها، بينما الأراجونيين كانوا يعلمون أنَّ فقدان الحصن، معناه بقاء (بلنسية)، وبقاء الحصن خنجرًا في ظهورهم، ومعناه فقدان هدية السماء لهم، يوم أن أخلاه لهم المسلمون بكامل إرادتهم، فكيف لهم أن يتركوا هبة السماء؟!!!

اشتدت الطعنات، ونُحرت الخيل، وحصدت السيوف رقاب الكثيرين، و(أبو جميل) ورجاله يقاتلون قتال من لا يرجوا الحياة... وكادت الكِّفة أن تميل لصالح المسلمين، لولا أن تنبَّه دون (برناردو) لضعف المتطوعة من المسلمين فحمل عليهم، فانهزموا، فقد كانوا رغم عددهم وحماستهم، عديمي الخبرة في حمل السيف، والطعن بالرمح، ورمي السهم، وضعف التدريب والحيلة، فولوا الأدبار، وهاموا على وجوههم بينما الفقيه (أبو الربيع) يصرخ فيهم، وهو يحمل سيفه، وينادي بصوته الجهوري، ويقول:

- أمن الجنة تفرون؟ أم إلى النار تركضون؟! إن فررتم اليوم فلن يكون لكم مكانٌ يؤويكم أو سماء تغطيكم... لن يترككم الصليبيون تحيوْن كما تحبون، لن يتركوا لكم موضع قدم في هذه الجزيرة... قاتلوا عن دينكم وأعراضكم واستقبلوا الجنة بصدوركم، فإما شهادة تنقلنا إلى جنات الخلد أو نصر يحفظ الإسلام في تلك البلاد!

كان صوت (أبي الربيع) وحديثه وضربات سيفه وشجاعته، وهو الشيخ الطاعن في السن، عذابا للأراجونيين، فعاد من المتطوعة مَن عاد، وطال يوم المعركة بينما رمال (أنيشة) تريد المزيد من الدماء، حمي الوطيس، ولمعت السيوف في أشعة أغسطس الحارقة، وقاتل (أبو جميل) قتالًا رائعًا، ومن حوله جنده لا يلوون على

شيء، وبينما الحرب تجري هكذا، إذ سقط الشيخ (أبو الربيع) من فوق صهوة حصانه، فقد أصابه سهمٌ غادر فوقع شهيدًا من فوره...! وكانت آخر كلماته:
- هبي رياح الجنة، هبي رياح الجنة!!

وفور استشهاده هرول إليه تلميذه (ابن الأبّار) القضاعي يحاول إسعافه، ولكنّ روحه الطاهرة كانت قد صعدت إلى ربها، إلى سماء لا خيانة فيها، وجنة عرضها السماوات والأرض، إلى حيث لا طوائف، ولا تمايز، ولا اختلاف ألسنة!

أغمض (ابن الأبّار) بيده عيني معلمه، ونظر إليه فوجده ضاحكًا مستبشرًا، فحمله حتى لا يمثل به العدو، والدموع تنهمر من عينيه، أما الرجّالة من المسلمين فقد زاغت أبصارهم، وكأنهم فقدوا قائدهم الوحيد، فانهزموا، وتفرقوا، وهاموا على وجوههم، ولم يتمكن أحدٌ من ردهم، وقُتل منهم جملة كبيرة، ودارت الدائرة بسرعة كبيرة على من تبقى حول (أبي جميل)، فسقطوا صرعى وقتلى، ووجد (أبو جميل) إنه إما الانسحاب الآن أو الموت السريع... فسحب رسن جواده، وخلفه (ابن الأبّار) وقفل عائدًا إلى (بلنسية)، التي ما إن دخلها هو ومن تبقى معه من جنود، حتى أغلقت دونهم أبوابها، وحلّ بها الوجوم والخيبة، وشعر أهلها بقرب الفناء والرحيل عن الديار.

أما (ابن الأبّار) فهاجت خواطره، وبكت عينه، وحزن قلبه، وراح يرثي أستاذه ومن سقط معه، من علماء (بلنسية)، وهم نحو سبعين، بقصيدة قال فيها:

ألِمَّا بأشلاء العلا والمكارم
تقد بأطراف القنا والصوارم
وعوجًا عليها مأربًا وحفاوة
مصارع غصت بالطلى والجماجم
تحيي وجوهًا في الجنان وجيمة
بما لقيت حُمرًا وجوه الملاحم

(١٠)
(ابن الأحمر)

في مدينة (جيان) تلك المدينة العظيمة التي تفيض بمزارع الزيتون وأشجاره، حتى صار رمزًا لها ومصدرًا لثرائها الكبير، و(جيان) بينها وبين (بيّاسة) ستون ميلًا، وهي كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل؛ ولها ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية، كلها يُربى فيها دود الحرير، وبها جنات وبساتين ومزارع وغلات القمح والشعير والباقلاء وسائر الحبوب؛ وعلى ميل منها نهر بلون وهو نهر كبير عليه أرحاء كثيرة جدًّا، وبها مسجد جامع وعلماء جلّة.

و(جيان) في سفح جبل عالٍ جدًّا، وقصبتها من القِصاب الموصوفة بالحصانة، وهي من أغرِّ المدن وشريف البِقاع، وفي داخلها عيونٌ وينابيع مطردة، ولها بركة كبيرة عليها حمّام الثور، فيه صورة ثور من رخام وحمّام الولد، وهما للسلطان، وحمّام ابن السليم، وحمّام ابن طرفةٍ، وحمّام ابن إسحاق، وماؤها لا يغيض في زمان من الأزمان، على هذه العين حمّام يُعرف بحمّام حسين، وتسقى بها أيضًا أرض كثيرة.

ومن عيونها عين سطرون، وماؤها غزير نمير وعليها سقيٌّ كثير؛ والأرحاء الطاحنة على أبواب المنازل (بجيان)، والجنات بظهور البيوت؛ وجامع (جيان) مشرف، يصعد إليه على درج من جميع نواحيه، وهو من خمس بلاطات على أعمدة رخام، وله صحن كبيرٌ حوله سقائف، وهو من بناء الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

عند باب المسجد الجامع (بجيان)، وقف رجلٌ في منتصف العمر، تبدو عليه علامات الهيبة، في وجهه نضارة، وينسدل على كتفيه شعر أحمر كثيف، مرتديًا ثيابًا خشنة، وحوله ثلة من الرجال، وجموع من أهل (جيان) ملتفون حوله، كل يحاول الوصول إليه، وهو واقف بينهم مستبشرًا فرحًا، يصافح هذا ويسلم على ذلك، وبينما هو كذلك فإذا بفارس ينهب الأرض نهبًا في اتجاه المسجد، حتى إذا

وصل إليه ترجل عن فرسه، وتقدم مباشرة صوب هذا التجمع، ثم ألقى السلام، وأعطى للرجل ورقة ملفوفة على هيئة رسالة، ثم انسحب بعيدًا يترقب...

فتح الرجل الورقة وطالع ما بها، فتغيرت ملامح وجهه، وتبدلت ضحكاته واختفت، ثم تجهم وجهه، وظهرت عليه علامات الحزن والألم، بينما حاول وزيره أبو بكر بن عياش أن يستوضح الأمر، فلم يلتفت إليه الأمير، بل ترك الميدان، وذهب باتجاه قصره، وخلفه وزيره وكبار دولته، وما إن دخل القصر وجلس على كرسيه، حتى راحٍ يتمتم بكلمات غير مسموعة، ازداد معها تعجب الوزير، فأعاد عليه السؤال قائلا:

- ما الأمر يا سيدي؟

نظر (ابن الأحمر) إلى الوزير بعيون حزينة، وصوت مبحوح، وقال:

- قُتل (محمد بن يوسف بن هود)!

انعقد حاجبا الوزير، وبدت عليه علامات الذهول، وتمتم قائلًا:

- (محمد بن هود)؟ إنه صغير السن في متوسط العمر، فكيف؟ ولماذا؟ وأين قتل؟ ومن الذي قتله؟..

لم ينتبه (ابن الأحمر) لتمتمة وزيره، فأشاح بوجهه عنه، وراح يتذكر في صمت تلك الأحداث، التي كان قد مر عليها سنوات طويلة، حين انتظم (محمد بن يوسف بن هود) في جيش الموحدين بمدينة (مرسية) في شرقي الأندلس...

كانت دولة الموحدين تتداعى بشكل سريع، ولم تتعافَ منذ موقعة العقاب الرهيبة، ولكن رغم ذلك كان لتلك الدولة السيطرة الاسمية على الأندلس، وبينما (ابن هود) في طريقه لبيته، إذ التقى عرّافا يجلس تحت شجرة، وكان منظر العرّاف مريبًا، ما جعل (ابن هود) يُشهر سيفه، ويقترب منه، ويسأله:

- من أنت؟

رفع العرّاف وجهه الشاحب، ونظر إلى (ابن هود)، ثم دقق النظر، فالتمعت عيناه وبرقت، ثم ضيقها، وقال متجاهلا حديث (ابن هود):

- أعطني يدك، فوالله سيكون لك شأن عظيم في تلك الديار، ويمتد ملكك ويترامى ويبلغ الآفاق!

ارتاب (ابن هود) في كلام الرجل، ودارت به الظنون، فقال للعرّاف بلهجة حادة:

- من أنت؟ ولماذا تجلس في هذا المكان؟

أجاب العرّاف في ثقة:

- أنا بشير سعدك، أنتظرك هنا منذ زمن!

زادت ريبة (ابن هود) وتردده، فقال للعرّاف:

- أتريد أن تخدعني يا رجل؟ أفصح عن نفسك، وإلا قطعت رأسك!

بصوت جاد عميق، كأنه خارج من أعماق بئر عميقة، قال العرّاف:

- لا تُرهبني بمثل هذا القول، فانا لست ممن يخشون الموت، وقد سألتك يدك فهاتِها!

ارتبك (ابن هود)، وتعرق وجهه، وبحركة لا إرادية وجد نفسه يمد يده للعراف، الذي راح يدقق فيها ويمعن النظر، ثم رفع وجهه متهللاً وهو يقول:

- لا تركن إلى الراحة، فأسباب الملك بادية لك وظاهرة، فاطرق بابها بقوة، فإنه سيعلو شأنك، ويرتفع ذكرك، وتملك من الأندلس أضعاف ما ملكه أجدادك، وتكون أمل أهل الأندلس، ومهوى قلوب أهلها....

فتح (محمد بن هود) فاه من وقع تلك الكلمات التي ألجمته، فتصبب العرق منه أكثر واكثر، وراح يقّرب يده من عينه، وينظر فيها عله يرى ذلك المجد الموعود...

مرت الدقائق وأنفاس (ابن هود) تتسارع، وكأنَّ هناك من يلاحقه... تمالك الرجل أعصابه، واستجمع قوته الذاهبة مع كلمات العراف القوية، ورفع وجهه ليحدث العراف، ولكنه بُهت عندما نظر حوله فلم يجد له أثرًا، وكأنَّ الأرض قد انشقت وابتلعته!

أمسك (ابن هود) سيفه، وركب حصانه، وراح يبحث هنا وهناك عن العرّاف، ولكن دون جدوى، فقد راح أثر الرجل، واختفى!

تردد (ابن هود) على هذا المكان أيامًا وأيامًا، علّه يلقى العرّاف مرة أخرى، ولكن لم يتكرر اللقاء، حتى فقد (ابن هود) الأمل في ذلك، محاولاً أن يطرد تلك الأفكار من رأسه، وأن يعيش حياته كما كان، وأن لا يجهد نفسه في أمر رآه

مستحيلًا... ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فبينما هو كذلك إذ التقى فارسًا وحوله ثلة من الرجال... في بادئ الأمر حاول (ابن هود) أن لا يلفت أبصارهم له، ولكنهم رأوه، فأحاطوا به، وقال له كبيرهم واسمه (الغشتي)، بصوت جهوري:

- من أنت؟

في شجاعة قال ابن هود:

- أنا (محمد بن يوسف بن هود الجذامي)، سليل بني هود ملوك (سرقسطة) زمن الطوائف، فمن تكون أنت أيها الرجل؟

ضحك (الغشتي) حتى كانت لضحكاته صدى، تردد في أرجاء المكان، وقال:

- ألم تسمع بي يا (ابن هود)؟

رد (ابن هود) مستنكرًا:

- لا، فمن تكون؟

رفع الرجل حاجبيه، وبصوت أجش قال:

- أنا (الغشتي) زعيم عصابة المغاورين!

- أنتم مَن تقاتلون النصارى هنا؟

قهقه (الغشتي) وقال:

- أجل نحن، نقتلهم ونستولي على أموالهم، بعدما فشلتم أنتم في ذلك.

اعترض (ابن هود) بحدة:

- من تقصد بأنتم؟

نظر (الغشتي) إليه بعد أن قطع ضحكاته، وقال:

- ألستَ في جيوش الموحدين؟

- بلى.

قهقه (الغشتي) مرة أخرى، وقال:

- إذن فهم من أقصدهم.

وتتابع ضحكه...

نظر (ابن هود) إلى (الغشتي) في استخفاف، وقال:

- وهل تظن إنك بما تفعل تقاتل القشتاليين حقًّا؟ ما أنت إلا قاطع طريق!

صاح (الغشتي) مهددًا:

- كيف تجرؤ على قول هذا؟ ألا تخشى أن أُلحقك بأجدادك أصحاب (سرقسطة)؟

أجاب (ابن هود) في ثقة:

- لست أنا من يخشى أمثالكم، فاقض ما أنت قاضٍ!

شهر (الغشتي) سيفه وتقدم باتجاه (ابن هود)، الذي لم يهب الموقف أو حتى يتفوه بكلمة، بل نظر بعين مفتوحة إلى (الغشتي) الذي وضع سيفه في غمده، وقال:

- تعجبني شجاعتك أيها الرجل، فماذا لو انضممت إلينا؟ فوالله إني لا أحب قتلك!

استنكر (ابن هود) قائلًا:

- لكني لن أكون تابعًا لقاطع طريق، أبدًا.

رد (الغشتي) مستميلًا إياه:

- لو انضممت إلينا، فلربما تتبدل خططنا.

سكت (ابن هود) لحظات، ثم قال:

- أوافق! شريطة أن أشاركك الأمر.

نظر (الغشتي) إلى رجاله، ونزل من صهوة جواده، وتقدم تجاه (ابن هود) مصافحًا، وقال:

- أهلًا بك معنا، يا (ابن هود)!

ثم نادى في رجاله، فركبوا.......

انضم (ابن هود) إلى عصابة المغاورين، وتبدلت الخطط، فكانوا يهاجمون القرى النائية عن حدود (أراجون) و(قشتالة)، وينهبونها، وكانوا من قبل يقطعون الطريق فقط على القشتاليين، وينهبون قوافلهم، ومع مرور الوقت تسامع الناس بحديث (ابن هود) وأفعاله، فانضم له خلق كثير وزاد جمعه، عندها فكر (ابن هود) في كلمات العرّاف، التي لم تكن تفارق مخيلته، فقال (للغشتي):

- تعلم أنَّ لي حقًّا في مُلك شرق الأندلس، فماذا لو ساعدتموني على استرداد هذا الملك؟

تمتم (الغشتي) معترضًا، وقال:

- لكن بضع مئات من الرجال ماذا عساهم أن يفعلوا؟

أجاب ابن هود في ثقة:

- يفعلون الكثير، فقط عاهدني على ذلك، ولك ولاية أي ولاية تختارها وتحكمها باسمي!

فكر (الغشتي) في كلام (ابن هود)، ثم استحسن الفكرة، ووافق عليها.

وبدأ الاثنان بالإغارة على بعض أراضي النصارى المجاورة لأحواز (مرسية)، فأصابا غنائم من الماشية والأسرى، وأخذ جمع (ابن هود) يزداد أكثر فأكثر، وتوطدت مكانته في تلك النواحي، وكانت أرومته الملكية تسبغ عليه مهابة، وتجذب إليه الأنصار. ولما كثر جمعه، نهض في رجاله إلى موضع يعرف بالصخيرات، وهو حصن صغير يقع على نهر شقورة، على مقربة من (مرسية)، وهنالك بايعه أنصاره بالإمارة بتحريض من (الغشتي) فذاع أمره، وسارع كثير من الفرسان والجند بالانضمام إليه، وكانت أحوال الموحدين، وما نشب بينهم من خلاف، وما وقع من قتل خلفائهم بمراكش، وما يبشر به ذلك كله من ذهاب أمرهم، وانهيار دولتهم، مما يذكي حماسة الجموع، ويبعث إليها روح الأمل والاستبشار. وكانت ولاية (مرسية)، مذ غادرها السيد (أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور)، على أثر مبايعته بالخلافة، قد أسندت إلى ابن عمه السيد (أبي العباس ابن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن).

وكان من الواضح أن أولئك السادة الولاة، ينظرون إلى الموقف في خشية وتوجس، وإنَّ الحاميات الضئيلة التي تركت لهم، كانت قد خبت قواها المعنوية، ومن ثم فإن (ابن هود) حينما شعر بقوة جمعه، لم يُحجم عن الزّحف على (مرسية).

فخرج إليه السيد أبو العباس بعساكر (مرسية)، فهزمه (ابن هود) واعتقله، وذلك في رجب سنة ٦٢٥ هـ (يونيه سنة ١٢٢٨ م). وعلى أثر ذلك خرج إليه السيد (أبوزيد) والي (بلنسية) في قواته، فهزمه (ابن هود) أيضًا، واستولى على محلته، ولكنه لم يحاول دخول (بلنسية). ثم عاد إلى (مرسية)، ودخلها وهو يرفع راية

سوداء عباسية، وذلك بالتفاهم مع قاضيها أبي الحسن علي بن محمد القسطل، وقبض على واليها السيد أبي العباس، وبويع (ابن هود) (بمرسية)، غرة رمضان سنة ٦٢٥ هـ (٤ أغسطس ١٢٢٨ م) وتسمّى بأمير المسلمين، ومعز الدين، ودعا للخليفة العباسي المستنصر بالله، وكتب إليه ببغداد، فبعث إليه بالخلع والمراسيم، وسمّاه مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين، عبد الله المتوكل على الله.

مرّت كل هذه الأحداث برأس (ابن الأحمر)، بينما كان وزيره يترقب صمته في صمت آخر!

زفر (ابن الأحمر)، وتمتم بصوت خافت مسموع، وقال:

- رحم الله (محمد بن هود) وغفر له، فبرغم ما كان بيننا من خلاف وحروب، إلا أني أقر له بحب العلماء، ومحاولته بسط العدل، ومناصبته للنصارى العداء.

التفت الوزير إلى (ابن الأحمر) وقال في اهتمام:

- كيف قتل؟ ومن الذي قتله يا سيدي؟

قال (ابن الأحمر) في شرود:

- قتله وزيره (الرميمي)!

تملكت الحيرة (ابن عياش)، وسارع بالقول:

- لماذا؟ أقصد لماذا قتله يا سيدي؟

ردّ (ابن الأحمر) في أسى:

- كان (لابن هود) جارية قشتالية رائعة الحسن، من بنات الأشراف، وكان قد أودعها لدى (الرميمي) بألمرية خشية أن يتسرب خبرها إلى زوجته، فشغف بها (الرميمي)، واستأثر بها، فنما ذلك إلى (ابن هود)، فسار إلى ألمرية، وهو يضمر معاقبة (الرميمي)، فلما وصل إلى ظاهر ألمرية، استقبله (الرميمي) بمنتهى الحفاوة، ودعاه إلى قصره، ليقوم بحقه، وليجتمع هنالك بجاريته الحسناء، فقبل (ابن هود) دعوته، ولما حل بالقصر على مأدبة حافلة، كان (الرميمي) قد دبّر أمره للقضاء عليه متى جنّ الليل، فدسّ عليه بالحمّام أربعة من رجاله، قضوا عليه!

في دهاء، قال (ابن عياش) :

- ألا ترى يا مولاي، إنه قد حان الوقت لحوز ملك (ابن هود)؟

أجاب (ابن الأحمر) وقد لمعت عيناه:

- بلى يا (ابن عياش)، فلا أحد في كل الأندلس يحقّ له حوز ذلك الملك غيري، وكيف لا وقد كنتُ يومًا حليفه، وليس (لابن هود) من عقبه مَن يستطيع حوز ملكه.

تهلل وجه (ابن عياش) وصاح:

- نِعم الرأي يا مولاي!

تحرك (ابن الأحمر) جهة النافذة، المطلة على حديقة قصره بمدينة (جيان)، حيث مزارع الزيتون الكثيفة، ثم قال:

- قل لي يا (ابن عياش)، ما هي أخبار (غرناطة) وواليها (المُغيلي)؟

تنحنح (ابن عياش)، وتردد في الكلام، ثم قال:

- لا جديد يا سيدي!

ارتد (ابن الأحمر) ببصره تجاه (ابن عياش)، وضحك ضحكة ساخرة، وقال:

- أتخشى أن تخبرني بما يفعله (المغيلي)؟

استدرك (ابن عياش) في الحال:

- إنه لرجل سفيه، لا يؤخذ بقوله!

غمغم (ابن الأحمر) مهددًا:

- سيعرف غدًا عاقبة فعله، فقد مات من كان يُسبغ عليه حمايته، فلا عاصم له اليوم مني!

انشغل (ابن الأحمر) بوفاة ابن هود، والتخطيط لحوز ملكه، فلم يعد يفكر في غير ذلك الأمر، وفي صباح اليوم التالي، وبينما يتحرك (ابن الأحمر) وسط حديقته، يطالع أشجارها الكثيفة، إذا بمن يخبره بوصول (ابن خالد) إلى باب القصر، فما كان من (ابن الأحمر) إلا أن أذن له بالمثول بين يديه.

اقترب (ابن خالد) من (ابن الأحمر) وألقى عليه السلام، ثم تحرك الاثنان وسارا في حديقة القصر، و(ابن خالد) لا يتحدث وينتظر أن يبادره الأمير، وبعد لحظات توقف (ابن الأحمر)، ونظر إلى (ابن خالد)، وقال له بلهجة جادة:

- بلغك ما يفعله (عتبة بن يحيى المغيلي) من سبّه لي، حتى بلغ به أن عمّم ذلك في خطبة الجمعة!

أخذ (ابن خالد) نفسًا عميقًا، وقال:

- نعم بلغني ذلك أيها الأمير!

تابع (ابن الأحمر) سيره، وهو يقول:

- ليس هذا ما يشغلني يا (ابن خالد)، فلستُ مَن يهتم بسبٍّ هذا أو ذاك لي.

ثم تابع في دهاء:

- لكن يشغلني رفع الظلم والجور عن أهل (غرناطة)، بعدما سامهم (المغيلي) سوء العذاب!

رد (ابن خالد) مبتسمًا:

- وهذا ظني بك يا مولاي، فأمر تُطع!

تمتم (ابن الأحمر)، وهو يفرك لحيته:

- أنت رجلٌ من (غرناطة)، ولك عُصبة فيها أليس كذلك؟

أجاب (ابن خالد) في زهو:

- بلى يا سيدي.

تابع (ابن الأحمر) آمرًا:

- إذن، ارجع إلى (غرناطة)، واستعن بصحبتك وقومك وعصبتك فيها، وبثَّ في الناس أخبار (المغيلي) وظلمه وجوره، وبالغ في ذلك حتى لا يرى الناس إلا شرّه، وخذ هذا المال - وقذف إلى (ابن خالد) بكيس كبير مملوء بالذهب-، واستعن به على (المُغيلي)، وألّف به الأتباع، ولا تقطع أخبارك عني، فأنا سأنتظر إشارتك.

ثم ربت على كتف (ابن خالد)، وقال له:

- سر على بركة الله.

حمل (ابن خالد) المال وذهب إلى (غرناطة)، وجنّد بماله من يؤلب الناس على (المغيلي)، وانتشرت الألسنة تشعل الأرض من تحت أقدام (المغيلي)، ومع الوقت تحول الحديث بين الناس من السر إلى العلن، وصار الحديث عن مظالم (المغيلي) شاغل (غرناطة)، بعدما أجمع الخلق عليه.

لما رأى (ابن خالد) نجاح خطته ودعوته، تجرّأ فخرج وخطب في الناس، وذكرهم بما يجب عليهم فعله فاجتمع له خلق كثيرون، اقتحم بهم (ابن خالد) قصبة المدينة وقتلوا (المغيلي) وبعضًا من رجاله، ثم أرسل (ابن خالد) من يستدعي (ابن الأحمر) لتولي أمر (غرناطة).

وقد كان (ابن الأحمر) يترقب تلك الأخبار وينتظرها، ويمني نفسه بملك (غرناطة)، لذا فما إن وردته الأنباء والرسل، حتى بادر بالسير إلى (غرناطة) في جمع من صحبه، وبرفقة الوزير ((ابن عياش)) وبعض من جنده، وما إن وصل إلى المدينة حتى توقف خارجها، فقد كان (ابن الأحمر) من الحيطة بحيث امتنع من ولوج (غرناطة) قبل أن يتيقن من خلوّها من الأعداء، لذا فقد نزل خارجها وأرسل رجاله يتحسسون المدينة وأحوالها، وجلس هو يترقب.

ولما كانت الليلة من ليالي رمضان (أبريل سنة ١٢٣٨ م)، بات الأمير ليلته متأهبًا، وتناول طعام سحوره مع جنده، ثم صلى بهم الفجر...، ثم دخل بهم (غرناطة)، وهو يرتدى ثيابًا خشنة وحلة مرقعة، فاجتمع له أهل (غرناطة)، فقصد بهم إلى مسجد القصبة، وأمَّ الناس لصلاة المغرب، وتناول طعام إفطاره بينهم، وجميعهم يُثنون عليه لتواضعه وحلمه، فتسارعوا لمبايعته أميرًا لهم، وبعدها غادر المسجد إلى قصر (باديس) على قمة الجبل، والشموع بين يديه، ونزل فيه مع خاصته. وغدت (غرناطة) من ذلك اليوم حاضرته، ومقر حكمه، بدلا من (جيان) التي كان يهددها النصارى باستمرار.

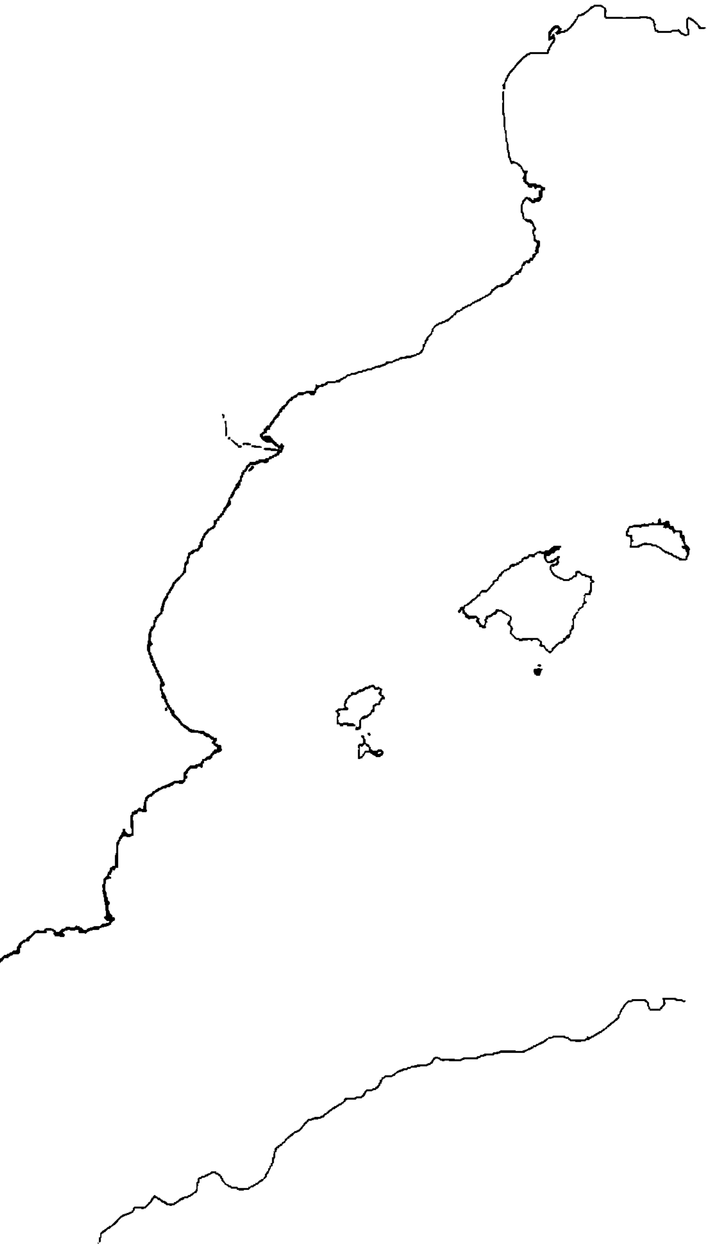

الفصل الثاني

بل يجب عليهم أن يفعلوا، فهزيمتنا هنا هزيمة لهم هناك لو كانوا يفقهون، فلن تتوقف هذه الحرب مادام قلب بالإسلام ينبض، ولسان بالتوحيد يلهج، ولو تركناهم ما تركونا، ولو سالمناهم ما سالمونا، فما الأندلس يا سيدي سوى مرحلة سوف تعقبها مراحل، وسيُتبعونها بالمغرب الأقصى فالأوسط فالأدنى، والله لو بلغوا ذلك لقرعوا بسيوفهم أبواب القاهرة، ومن ورائها القدس إلا أن يشاء الله أمرًا...، لقد أخذوا طليطلة وأتبعوها بجريط وبلد الوليد ثم سرقسطة وقلمرية والأشبونة، وما كَلّ عزمهم حتى أسقطوا قرطبة، وها هم يحاصروننا في بلنسية، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ابن الآبار القضاعي

(أ)

إشبيلية

مزّق صهيل جواد عربي أصيل صمتَ السهول الخضراء الممتدة على مشارف إشبيلية قبل ظهوره وهو يعدو مسابقًا الريح، وعلى متنه شاب وسيم الطلعة ممشوق القوام، ذو لحية مهذبة جميلة وشارب بسيط، تتألق على شفتيه ابتسامة حماس مرحة، وهو يلكز بطن جواده بكعبيه ويجذب معرفة حصانه الناعمة قائلًا:

- هيا يا غارب، فالمنارة على مرمى حجر، هيا حتى لا يلحقنا أحد.

ومن خلف ذاك الجواد، ظهر جواد آخر يمتطيه شاب لا يقل حماسة عن سابقه، وكان أقل منه طولًا، ذو لحية أنيقة، وكان يستحث جواده قائلًا:

- هيا الحق به، لا ينبغي أن يسبقنا، هيا يا صديقي.

هزت دبادب حوافر الحصانين الأرض هزًا، وفاض العرق من عنقهما، وما هي إلا لحظات حتى بلغا منارة المنصور، فنظر الفارس الثاني إلى الأول وقال مقهقهًا:

- لم تستطع هذه المرة أيضًا!

التقط عبد الرحمن أنفاسه وقال:

- وإن كان، فقد فعلتها من قبل مرات ومرات.

زادت قهقهة زيد وهو يقول:

- ذاك زمن قد ولى.

نزل عبد الرحمن عن ظهر حصانه وأوثقه إلى حجر ناتئ قريب، وجلس بجواره يستريح والجواد صافن يحمحم تارة ويصهل تارة، وتبعه إلى ذلك زيد الذي جلس بجوار صاحبه.

كانت الشمس تميل إلى الغروب، وقد انبعثت منها أشعة صفراء ذهبية سقطت على تفافيح منارة المنصور فتوهجت ولمعت حتى كادت تخطف بصر عبد الرحمن الذي أطال النظر إليها، أما زيد فقد راح يستنشق الهواء الطلق ويتطلع إلى الزروع والأشجار في المدى البعيد قبل أن يقول لصاحبه:

- ألا ترى أنك تطيل النظر إلى المنارة يا صديقي، وكأنك تشاهدها في كل مرة لأول مرة؟

أخذ عبد الرحمن نفسًا عميقا قبل أن يقول:

- أجل يا زيد، فهذه المنارة تذكرني بما أحب تذكره، تذكرني بماض مجيد، وجد عظيم أفخر به.

تمتم زيد متسائلا:

- ما ذاك؟

صمت عبد الرحمن، ورنا ببصره بعيدًا فإذا بذاكرته ترجع به لإحدى أيام الصبا السعيدة، عندما أمضى جل نهاره يلعب ويرتع مع أقرانه في صحن المسجد الكبير بين أشجار النارنج، والبرتقال، حتى تسارعت أنفاسه من كثرة الركض وأنهكه التعب، فإذا بجده يقترب منه ويمسك يده ويجلسه بجواره، وينصحه قائلًا:

- يا بني، لا تقض يومك كله في اللعب واللهو.

بدأت أنفاس عبد الرحمن في التباطؤ وهو يقول:

- لا أفعل أكثر مما يفعله أقراني - يا جدي- فجميعهم يلعبون!

بصوت حنون دافئ قال الجد:

- الكثيرون -يا بني- يلعبون ويلهون والقليل يتعلم ويعمل، فكن من القليل.

نظر عبد الرحمن إلى جده وطأطأ رأسه موافقًا على كلامه دون أن يعيه، ثم رفع طرفه تجاه التفافيح وسرعان ما رده واستكف ملصقًا حرف يده بجبهته

فطن الجد إلى ما اعترى حفيده حين نظر إلى المنارة، فقال له مبتسمًا:

- لا تنظر إليها من هذه الزاوية، فتنعكس أشعة الشمس في عينيك، فلا تستمتع برؤيتها، بل تعال وانظر إليها من الزاوية الأخرى.

ثم أمسك بيد حفيده وقاده إلى الجهة الأخرى وقال:

- انظر إليها الآن كما تشتهي.

تعلقت عينا عبد الرحمن بالمنارة ثم قال:

- عظيمة هي يا جدي، حتى تكاد تبلغ الجبال طولاً.

- نعم يا ولدي، فهي أعلى منارات الدنيا، فلا يوجد في الدنيا كلها مثلها، لكن الأعظم منها هو مَن بناها، ومناسبة بنائها فقد كان يومًا مشهودًا.

أطرق الصغير إلى جدّه، وثارت داخله علامات تعجب كبيرة، لم يستطِع بعدها سكوتًا فقال:

- ومن صاحبها يا جدي؟

التفت الجد يمينة ويسرة ووجهه متهلل كأنه البدر في تمامه، وقال بصوت رخيم:

- إنه ملك المسلمين أمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحدي العظيم.

تنهد الجد ثم تابع:

- الرجل الذي ملك المغرب والأندلس وأحيا بسيفه أمجاد المسلمين، وأذلّ ألفونسو الثامن وقهره في موقعة الأرك الخالدة.

قاطع الصغير جده وقال مرددًا:

- الأرك؟

التفت الجد إلى صغيره وقال في حنو كبير:

- نعم يا بني، إنها يوم من أيّام الإسلام المشهودة.

ثم نظر إلى السماء وكأنه يسمع صهيل الخيل، وصليل السيف، وتهليل المجاهدين، وقد أضاءت البهجة وجهه وأخذته العزة كل مأخذ وبلغت به الحماسة أيما مبلغ، وقال في زهو:

- نعم، إنها الأرك الخالدة، تلك المعركة العظيمة التي شاء الله أن أكون أحد الشاهدين عليها والصائلين فيها.

ما إن سمع عبد الرحمن قول جده حتى سرت في جسده الصغير قشعريرة وانتفض مرتجفًا وهو يترجى جده قائلًا:

- قص عليّ قصتها يا جدي.

مسح الجد على شعر حفيده وقال:

- سأخبرك خبرها حتى تظن إنك تحارب فيها.

ثم استرسل قائلًا:

- قبل بضع سنين من موقعة الأرك وبالضبط قبل سبع سنوات، كان المسلمون في كل مكانٍ يعيشون نشوة النصر الكبير الذي حقّقه جدك الناصر صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين الخالدة، في سنة ٥٨٣ للهجرة أيّ ما وافق ١١٨٧ سنة مضت على ميلاد عيسى عليه السلام، وكان مسلمو المغرب وقتها يشاركون إخوانهم في المشرق فرحتهم راجين أن يُكَرِّرُوا ما حدث في المشرق، لاسيما بعد أن قام المنصور الموحدي بتحفيزهم على الخروج إلى الجهاد، فتنافسوا في ذلك.

تنهد الجد ثم أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يكمل:

- كان المنصور آنذاك منهمكًا في قتال الخارجين عليه، غير أنه قرر أن يهادن بني غانية المرابطين ويتجه ببصره ناحية القشتاليين والأراجونيين والبرتغاليين، مفضلًا قتال أعداء الله من الكفار على قتال المسلمين من قومه ولو كانوا من الخارجين عليه! وبهذه الخطوة الجريئة، توافد المجاهدون المتطوعة من كل حدب وصوب على المنصور لمبايعته. ذلك أن الكثير من المسلمين - يا ولدي - وضعوا سيوفهم واعتزلوا الحرب لما كانت بين المسلمين، وتهافتوا على رفعها لما تحولت الحرب إلى جهاد في سبيل الله ودفع للقشتاليين، وهكذا -يا ولدي- ينبغي أن نكون، فلا نسارع في قتال المسلمين بل نصبر عليهم وننصح لهم، ولا نعمل أسيافنا إلا في أعداء ديننا...

ثم استطرد قائلًا:

- ولمّا اكتملت أهبة الحرب، انطلقت الجيوش من تلال المغرب وصحاريه وركبت بحر الزقاق في سفن تمخر عباب الأمواج عابرة إلى بلاد الأندلس، لتضاهي العبور الذي قاده من قبل يوسف بن تاشفين - رحمه الله - وعسكر المنصور بجيشه في حصن يقال له الأرك متاخم لمملكة قشتالة على مسيرة عشرين ميلًا من شمال قلعة رباح جهة الغربً، غير بعيد عن أحد فروع نهر وادي آنة (Sta Maria de Alarcos)، وهناك رام لقاء الأعداء.

أما ألفونسو الثامن فقد أعدّ جيشه مستعينًا بمملكتي ليون ونافارا، وخرج في قوّة يبلغ قوامها خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف نصراني، واصطحبوا معهم نخاسين يهود لشراء أسرى المسلمين بعد انتصارهم في المعركة، ليتمّ بيعهم بعد ذلك في أوروبا.

نظر الجد إلى عبد الرحمن وقال:

- لقد كان ملك قشتالة معتدًا بنفسه، مزهوًا بجنده، واثقًا من النصر، لا يفكر أبدًا في الهزيمة.

- وهل تم له ما أراد يا جدي؟

ابتسم الجد، وقرع بسبابته على ناصية حفيده قرعات خفيفة وهو يقول:

- لو تم له ما أراد لكان جدك اليوم عبدًا يخدم في بلاد الروم أو شهيدًا تحت تراب الأرك.

- لكن جيشًا يبلغ قوامه خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف نصراني لا يغلب من قلة يا جدي، فكيف نجوت وكيف سارت الأمور؟

رد الجد مأنبًا:

- لا تتعجل النهاية يا ولدي واسمع قبل أن تُسمِع.

صمت الصبي وعاود الجد الحديث قائلًا:

- بعد أن عسكر المنصور بجيشه الذي ضم مائتي ألف مسلم بفضل تلك الحميّة التي ثارت في قلوب أهل المغرب وأهل الأندلس على السواء، لاسيما بعد انتصارات المسلمين في حطين، عقد المنصور مجلسًا للشورى استجلى فيه الآراء، واستوضح الخطط لإدارة المعركة، ولقد كان هذا على غير نسق كل القادة الموحدين السابقين له، والذين غلب عليهم التفرُّد في الرأي، فسار المنصور على منهج رسول الله في ذلك الأمر. وفي مجلس الشورى ذاك استرشد أبو يوسف يعقوب المنصور بكل الآراء؛ حتى أنه استعان برأي أبي عبد الله بن صناديد في وضع خطّة الحرب - وكان من زعماء الأندلس وليس من قبائل المغرب - وكان هذا -أيضًا- أمرًا جديدًا على دولة الموحدين التي كانت تعتمد على جيوش المغرب فقط، فضمّ أبو يوسف يعقوب المنصور قوّة الأندلسيين إلى قوّة المغاربة والمسلمين القادمين من الصحراء، ليوحد بذلك

كلمة المسلمين في الأندلس وكأنه يمحي انتماء التراب ويذكي نسب الإسلام، كيف لا، ولا لغات تشتت ألسنتهم ولا حدود تفرق شملهم، فجميعهم تحت راية الإسلام مندرجين، وجميعهم للإسلام تابعون، وهكذا - يا ولدي - يجب على القائد والأمير أن يكون، فهذا - يا ولدي - سر نصر هذه الأمة، فقوتها في وحدتها، أما إذا نجح العدو في تفريق شملها وتشتيت وحدتها، ذهب ريح أبنائها، وانصرف همهم لحرب بعضهم، واشتد البأس بينهم، فتلقوا الهزيمة تلو الأخرى، وصاروا بفرقتهم أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام.

خطف الجد نظرة إلى صغيره ليستوثق من انتباهه، فوجده شغوفًا بالإنصات، متلهفًا للسماع، فتابع حديثه:

- ثم قَسّم المنصور الجيش إلى نصفين، فجعل جزءًا في المقدمة، وأخفى الآخر خلف التلال، وكان هو على رأسه، ثم اختار كبير وزرائه أبا يحيى بن أبي حفص أميرًا للجيش كافة، وقد ولّى قيادة الأندلسيين لأبي عبد الله بن صناديد، وذلك حتى لا يُوغر صدور الأندلسيين فيشعرون بالضيم وتضعف حماستهم.

وإتمامًا لهذه الخطة - يا ولدي - فقد جعل أميرُ الجيش أبو يحيى عسكر الأندلس في الميمنة، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة، وجعل المتطوعة والأغزاز -وهم المماليك المصريون- والرماة في المقدمة، وبقي هو في القلب ومعه قبيلة هنتاتة.

في دهشة، قال عبد الرحمن:

- مماليك مصريون!!

بوجه متهلل مشرق قال الجد:

- أجل يا ولدي، فقد اشترك في هذه الحرب العظيمة كل أبناء الأمة ورجالها، أبيضهم وأسودهم، عربهم وعجمهم وبربرهم، فقد ألف الله بين قلوبهم ووفق المنصور في تجييشهم فكانوا تحت لوائه كأسنان المشط لا فرق بينهم، ولما العجب - يا بني - وقد شارك المغاربة إخوانهم المشارقة في حروب القدس وحطين، فنحن -يا فلذة كبدي- أمة واحدة إذا انتُهِك منها عضو تسارعت باقي الأعضاء لنجدته وإنقاذه...، وبعد وضع الخطة وترتيب

الجيش، وعند اكتمال الحشد وانتهاء الاستعداد للقتال، أرسل الأميرُ رسالة إلى كل المسلمين، يقول فيها: إن الأمير يقول لكم: اغفروا له؛ فإنّ هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم، وطَيِّبُوا نفوسكم، واخلصوا لله نيّاتكم فبكى الناس جميعهم، وبكيتُ معهم، فكيف لهذا الرجل العظيم أن يطلب من جنوده وعسكره أن يغفروا له إن كان قد أساء يومًا لأحدهم، فأعظمنا ما سمعناه من الأمير المؤمن المخلص، وعلمنا إنه موقفُ وداع، ففاضت أعيننا من الدمع، ثم قام الخطباء يخطبون عن الجهاد، ويُذَكّرون بفضله وشرفه ومكانته ويُحَمّسوننا له.

سكت الجد فجأة وامتنع عن الكلام، وذرفت عيناه الدمع وهو يتذكر هذا الموقف المهيب، كيف لأمير المؤمنين أن يطلب الصفح والغفران من رعاياه؟!

ثم تنهد وعاود الابتسام مرة أخرى، ونظر ودموعه تنثالُ علي وجنتيه وقال للصبي:

- بعد هذا التواضع من أمير المؤمنين وبفضل إدارته تلك وإخلاصه لله، نشط الناس، وطابت النفوس، واستعد الجميع للنصر أو الموت دون أمير المؤمنين بعد أن أصبحت الشهادة مطلبهم وغايتهم، فانتظروا الأمر ببدء القتال وقلوبهم تفيض شجاعة، وأكفهم على مقابض سيوفهم تهفو لقطف رؤوس الكفار.

ولما رأى القشتاليون جيوش الموحدين تزحف نحو محلتهم ببطء، وقد عبئت للهجوم أكمل تعبئة، نزلوا من محلتهم في صفوف كثيفة قاتمة كأنها الليل الدامس، والبحر الزاخر، أسرابًا تتلو أسرابًا وأمواجًا تعقب أمواجًا، ثم اندفعت قوات أوروبا المتحدة حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين أو كادت، ثم تقهقرت قليلا، وعادت إلى الاقتراب من المسلمين، ثم ارتدت وتهيأت لالتحام، وفي أثناء ذلك كان الشيخ أبو يحيى والقائد ابن صناديد، يحثان الجند على الثبات وإخلاص النيات والأعمال، ونادى ابن صناديد بصوت جهوري جلجل المكان وهز القلوب، فقال: اثبتوا يا معشر المسلمين؛ ثَبّت الله أقدامكم بالعزيمة الصادقة، اثبتوا وقاتلوا أعداء الله.

وأتم الجد حديثه بصوت رنّان:

- ثم جلجلت السماء بصيحة الله أكبر، فخلعت التكبيرات قلوب الكفار وأوهنتهم؛ فكانت أول الهزيمة وبداية النصر... لقد كان صوت ابن

صناديد - رحمه الله - خيرًا من ألف سيف، إذ حمّس المسلمين فدافعوا عن أماكنهم دفاع من لا يرجو الحياة.

وأخيرًا تركز هجوم القشتاليين على قوات القلب التي يقودها أبو يحيى، ظانين أنه الجناح الذي يقوده الخليفة بنفسه، وكان المنصور قد أمر بأن ترفع الأعلام الخليفية على القلب، فقاتل أبو يحيى وجنوده أشد قتال، ولكن الصدام كان عنيفًا، فاستشهد أبو يحيي، واستشهد معه جماعة من هنتانة، والمطوعة وغيرهم. عندئذ تقدمت قبائل العرب والمتطوعة والأغزاز والرماة، وأحاطوا بالنصارى من كل جانب، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس إلى المعركة، وزحفت معه قبائل زناتة وسائر قبائل البربر، واندفعت جيوش الموحدين بجملتها نحو محلة القشتاليين، واشتد القتال بين الفريقين، وسالت الدماء بغزارة، وكثر القتل في مقدمة القشتاليين، التي اضطلعت بالهجمة الأولى، واستمر القتال على هذا النحو عنيفًا شديدًا، حتى اضطر القشتاليون إلى التقهقر والفرار نحو الربوة التي تحتلها محلتهم، وبدت بوادر الهزيمة على القشتاليين وعظمت الأهوال، وكثر القتل في النصارى الذين دفعوا في الحملة الأولى، وكانوا نحو العشرة آلاف زعيم، انتخبهم اللعين ألفونسو الذميم، وصَلّتْ عليهم الأقسة صلاة النصر، ورَشُّوا عليهم ماء المعمودية في الطهر، وتحالفوا بالصلبان ألاّ يفروا حتى لا يتركوا من المسلمين إنسانًا، فصدق الله وعده، ونصر جنده ودارت الدائرة على أعدائه.

فلمّا اشتد القتال على الكفار، وأيقنوا بالفناء والبوار، وَلّوْا الأدبار، وأخذوا في الفرار إلى الربوة التي فيها ألفونسو ليعتصموا بها، فوجدوا عساكر المسلمين قد حالوا بينهم وبينها، فرجعوا على أعقابهم ناكصين، فرجعت عليهم العرب والمتطوعة وهنتاتة والأغزاز والرماة فطحنوهم طحنًا، وأفْنَوْهم عن آخرهم، وانكسرت شوكة ألفونسو بفنائهم؛ إذ كان اعتماده عليهم، وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين، وأطلقوا أعِنّتهم نحوه، وقالوا له: قد هزم الله تعالى العدو.

فضربت الطبول، ونشرت الرايات، وارتفعت الأصوات بالشهادة، وخفقت البنود، وتنافست لقتال أعداء الله الأبطالُ والجنودُ، وزحف أمير المؤمنين بجيوش الموحدين، قاصدًا لقتال أعداء الله الكافرين، فتسابقت الخيل وأسرعت الرجال، وقصدوا نحو الكفرة، للطعان والنزال، فبينما ألفونسو

- لعنه الله - قد همّ وعزم أن يحمل على المسلمين بجميع جيوشه، ويصدهم بجنوده وحشوده، إذا سمع الطبول عن يمينه قد ملأت الأرض، والأبواق قد طبقت الرُّبَا والبطاح، فرفع رأسه لينظر فيها، فرأى رايات الموحدين قد أقبلت، واللواء الأبيض المنصور في أولها عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالبَ إلا الله. وأبطال المسلمين قد تسابقت وجيوشهم قد تناسقت وتتابعت، وأصواتهم بالشهادة ارتفعت، فقال: ما هذا؟ فقيل له: هذا أمير المؤمنين قد أقبل، وما قاتلك اليوم كله إلاّ طلائع جيوشه، ومُقَدّمات عساكره ، فقذف الله الرعب في قلوب الكافرين، ووَلّوا الأدبار منهزمين، وعلى أعقابهم ناكصين.

وتلاحقت بهم فرسان المجاهدين، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقتفون آثارهم، ويُحكمون فيهم رماحهم وشفارهم، ويروون من دمائهم السيوف، ويُذيقونهم مرارة الحتوف، وأحاط المسلمون بحصن الأرك، وهم يظنون أن ألفونسو - لعنه الله - قد تحصّن فيه، وكان عدو الله قد دخل فيه من باب، وخرج من الناحية الأخرى، فدخل المسلمون الحصن بالسيف عَنوة، وأضرموا النيران في أبوابه، واحتووا على جميع ما كان فيه وفي محلة النصارى من الأموال، والذخائر، والأرزاق، والأسلحة، والعدد، والأمتعة والدواب، والنساء والذرية، وقُتل في هذه الغزاة من الكفرة ألوف لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، ولا يَعلم لها أحدٌ عددًا إلاّ الله تعالى.

وأُخذ في حصن الأرك من زعماء الروم أربعة وعشرون ألف فارس أسارى، فامتَنّ عليهم أمير المؤمنين، وأطلقهم بعدما ملكهم، ليكون له بذلك يد الامتنان ويدٌ عُلْيَا عليهم، فعزّ فعله ذلك على الموحدين وعلى كافّة المسلمين، وحُسِبَتْ له تلك الفعلة سقطة من سقطات الملوك.

وطارت أخبار النصر في كل مكان، ودوت أخبار ذلك الانتصار العظيم على منابر المسلمين في أطراف دولة الموحدين الشاسعة؛ بل وصلت هذه الأخبار إلى المشرق الإسلامي، وكانت سعادةً لا تُوصف؛ خاصّة وأنها بعد ثمانية أعوام فقط من انتصار حطين العظيم.

أنهى الجد كلامه متنهدًا بقوة، بينما كان وجهه يمتلئ فرحًا وسعادة، وينضح عزة وفخرًا، كأن الأرك كانت اليوم، ثم رمق حفيده بنظره حانية، فوجده قد فتح فاه وفغر عينيه من روعة ما سمع.

انتبه الصبي لنهاية قصة المعركة فقال لجده:

- قد ارتعش فؤادي واقشعر جسدي من روعة تلك الأحداث، ومما زادني شرفًا أن يكون جدي بطلا من أبطال ذاك الزمان.

ابتسم الجد ثم طبع قبلة على جبين ابن ابنه، وراح يتطلع إلى المنارة فسأله الصبي:

- كان أول كلامنا عن المنارة ثم تحول بنا الحديث إلى معركة الأرك، ولم تُبِن لي عن صلة هذا بذاك؟

- صلتهما وثيقة يا ولدي، فبعد أن فرغ المنصور من غزواته، أصدر أمره بإصلاح ما اختل من الجامع الأعظم وإتمام بناء صومعته. ثم شُرع في بناء الصومعة بالآجر الذي يؤخذ من سور قصر ابن عباد، ودام العمل في ذلك أعوامًا، يجري البناء فيها بصورة متقطعة، ثم أصدر أوامره بمضاعفة الهمة لإتمام الصومعة. ثم أصدر الخليفة أمره، بأن تزود صومعة الجامع بتفافيحها الذهبية هذه التي أزاغت بصرك، ورفعها إلى أعلى المنارة في حفل كان هو من شهوده وكنت أيضًا.

قال عبد الرحمن بنباهة:

- فهذه التفافيح الأربعة إذن خير شاهد، ودليل على عظمة المنصور وعلى يوم من أيام الإسلام في هذه الديار.

نظر عبد الرحمن إلى زيد ضاحكًا بعد طول شرود، وقال:

- هو ذاك يا زيد.

فرد عليه زيد ضاحكًا:

- ماذا دهاك يا رجل، تصمت دهرًا ثم تقول هو ذاك! قصّ عليّ فيمَ كنت تفكر؟

همّ عبد الرحمن بالحديث غير أن صوتًا جهوريًا قطعه وهو ينادي ناعيًا:

- قُتل محمد بن يوسف بن هود، قُتل محمد بن يوسف بن هود.

أثار الصوت انزعاج الناس وفضولهم في آن واحد، فارتفع الصخب وكثر السؤال، وأخذ الرائح والغادي يتساءل من قتله؟ وفيم قتل؟ وكيف قتل؟

(٢)

في قصر المعتمد بن عباد بجوار المسجد الجامع بإشبيلية، اجتمع كبار رجالات المدينة بقيادة أبي عمرو بن الجد، يتشاورون في مقتل محمد بن يوسف بن هود وما ستؤول إليه الأمور، إذ كانت إشبيلية تحت سلطانه حتى وفاته.

تحدث أبو عمرو بن الجد - زعيم المدينة وفقيهها والممسك بزمام حكمها فقال:

- من كان يظن أن الموت سيعجل لابن هود في باكورة شبابه، فيحول بينه وبين بلوغ مرامه، فقد كان الرجل تحذوه الآمال في توحيد ما تبقى من أرض الأندلس تحت سلطانه.

بقليل من التهكم قال أبو الحسن (شقاق) قائد جيش المدينة، وكان رجلًا قوي البنية، كثيف الشعر، ذا لحية كثة قد وخطها الشيب، جهوري الصوت، تظهر عليه كل علامات الهيبة:

- من كان حليفه يومًا قاطع طريق، فطبيعي جدًّا أن تكون نهايته على يد رجل خائن من حاشيته وبطانته.

نظر أبوعمرو بن الجد إلى شقاق في ريبة واستشعر في كلامه شيئًا من السخرية، فقال له:

- ماذا تعني؟

نظر شقاق إليه نظرات أفصحن عما كنى، ثم أردف:

- أعني بطانة السوء أيها الفقيه، فهي من أودت بالرجل، ولم يعد يخفى على أحد من قَتَله وبأي ذنب قُتِل.

طأطأ ابن الجد رأسه بعد أن فهم مغزى كلام أبي الحسن شقاق، وشعر بأنه يقصده بقدر ما قصد ابن هود، فعض على نواجذه وهو يكاد يتميز من الغيظ، وسرعان ما رفع رأسه ورمق شقاق بعينين تقدح الشرر، ثم صعر له خده، وقال يريد تغيير دفة الكلام:

- قد أفضى الرجل إلى ما قدم، وقد كان قلد ابنه أبا بكر ولاية العهد قبيل موته، وقد أرسل إلينا الرجل يطلب البيعة كوريث شرعي لوالده، وما جمعتكم اليوم إلا لأشاوركم في هذا الأمر، فما كنت قاطعًا فيه حتى تشهدون.

ما إن سمع القائد شقاق هذا الكلام حتى انبرى واقفًا، وقال وقد اشتدت لهجته:

- والله لا نبايعه أبدًا، لن تولى إشبيلية أمرها -وهي أكبر ممالك الأندلس- غلامًا حدثًا لا يملك من أمره نقيرًا.

تعلقت أبصار الحضور بشقاق الذي تابع حديثه:

- أجل، لن نبايع صبيًا لا يفقه من أمر الحكم شيئًا... لن نبايع أبا بكر هذا ليستقوى بنا ويحارب (ابن الأحمر) بتحريض من وزير أبيه، فيستغل أعداؤنا المتربصون حربنا تلك ويقتطعوا مزيدًا من بلادنا...

كظم أبو عمرو بن الجد غيظه، فقد كان يحسد شقاق على منزلته وعلو شأنه، وحب الجند والناس له، كما كان يحقد عليه لأنه ذو رأي مسموع في إشبيلية، ثم قال ساخرًا:

- ما زلت تتحدث عن ملوك الطوائف يا (شقاق)، وكأننا في زمن ابن عباد!!

- لأنهم عادوا أيها الفقيه، أما ترى حولك، نحن هنا في إشبيلية، وابن محفوظ في لبلة، وابن الأحمر في جيان، وزيّان في مرسية، وابن عصام في أوريولة، ولكن عودتهم هذه المرة لن تكون كسابقتها، فلا يوسف بن تاشفين هناك نستنجد به، ولا عدونا اليوم كعدو الأمس فننال منه، فهل ترى هؤلاء ملوك طوائف أم خلفاء المسلمين؟! قد عدنا لفرقة الزمن الأول بل أشد بينما ازدادت قوة أعدائنا، فها هي مملكة البرتغال تضرب في الغرب ومملكة أراجون تضرب في الشرق وأختهما قشتالة تنخر في القلب حتى بلغت قرطبة وأخذتها، وحولّت مسجد الداخل إلى كنيسة بعد أن أخلت قرطبة من المسلمين، فصارت جوهرة الدنيا دارًا للكفار، ولا قوة إلا بالله.

استمع الجميع إلى كلام القائد شقاق، فوافقه البعض، وتردد آخرون، وقال عبد الرحمن مستفهمًا:

- إذا كان قائدنا شقاق يكره لنا البقاء تحت حكم ابن هود، وقطعًا لا يريد لنا أن ننضوي تحت حكم ابن الأحمر (يصمت برهة ثم يتابع) فهل تعلن إشبيلية دولتها وتستقل بأمرها، فتزيد الطوائف طائفة أيها القائد؟!

نظر شقاق إلى عبد الرحمن نظرة عتاب فقد لمس في كلامه تهكمًا، وقد كانت تجمعهما صداقة، ثم قال:

- لن ننضوي تحت راية هذا أو ذاك ولن تستقل إشبيلية بأمرها.

تساءل ابن الجد عابسًا:

- فما نحن فاعلون؟

- لن نكون شاة شاردة عن قطيعها ولا عضوًا مبتورًا من جسد الأمة أيها الفقيه، بل نلتحم بهذا الجسد ونتمسك به.

(تعلقت الأعناق بأبي الحسن شقاق) الذي يستطرد ويقول:

- سنعلن الطاعة لملوك الموحدين في المغرب، ونستقوي بهم ونتوحد معهم تحت رايتهم وبهذا نضرب لطوائف الأندلس اليوم أروع مثال ونكون لهم أحسن قدوة، ومن يدري لعلنا نتوحد جميعًا ويعود المغرب والأندلس دولة واحدة تستطيع رد هجمات القشتاليين والأرجوانيين والبرتغاليين.

أعجب عبد الرحمن بالفكرة، بينما ارتاب منها ابن الجد ورفض في بادئ الأمر أن ينزل على رأي شقاق، غير أنه لم يجد بدلًا من قبول رأي الجماعة وإعلان الطاعة للموحدين في مراكش!

سار إلى مراكش وفد من أهل إشبيلية ليقدم بيعتها إلى الخليفة أبي محمد عبد الواحد الرشيد، فجعل الخليفة السيد أبا عبد الله بن السيد أبي عمران على ولايتها، وكان لعودة إشبيلية إلى طاعة الدولة الموحدية رنة فرح واستبشار في مراكش، وأحيط مقدم الوفد الإشبيلي إلى الحاضرة بأعظم مظاهر الترحاب والتكريم، ومما زاد في ارتياح البلاط الموحدي، ما قام به أهل إشبيلية من القبض على عمر بن وقاريط زعيم هسكورة السابق، الثائر على الدولة الموحدية، وإرساله إلى المغرب، وكان بعد هزيمته قد لجأ إلى إشبيلية مستظلًا بظل ابن هود.

على أن هذا العود إلى طاعة الخليفة الموحدي لم يكن سوى حبر على ورق، وبقي زمام أمر إشبيلية بيد زعيمها القوي ابن الجد. وكانت إشبيلية في الواقع منذ اضطرب أمر الموحدين، وعمت الفتنة أرجاء الأندلس، تتمتع في إدارة شؤونها بنوع من الاستقلال، وذلك بالرغم من انضوائها تحت لواء هذا الأمير أو ذاك.

(٣)

برج الذهب

بالقرب من برج الذهب أمام نهر الوادي الكبير، في المساحة الخضراء الممتدة بين البرج وصفحة النهر جلس (زيد) يراقب قرص الشمس وهو يغيب على استحياء، بينما ينعكس اللون الأحمر على صفحة نهر الوادي الكبير، لتبدو الشمس وكأنها تغرق في عرض النهر، مودعة الأفق الجميل، بلهفة وخجل، وكأنها تريد أن تقول له بأنها لا تطيق الوداع، فتنتشي السماء بحمرة الخَجل، وتخبرنا خطوط الشفق الأحمر بمقدار الشوق الذي في قلب (زيد) تجاه حبيبته!

كان غروب الشمس يشعل كل الشوق الذي في قلب (زيد)، كما يشعله في قلوب كل البشر... غاص قرص الشمس ليظهر مكانه القمر، وجنّ الليل ومعه كل أحاسيس الحب والألم، فالدنيا قد اكتست بلون واحد، وكم اختاره العشاق ليعلنوا الحب ويعترفوا به في لحظته!

جلس (زيد) وحيدًا مُسندًا ظهره لجدار البرج، ميممًا وجهه شطر صفحة الوادي الكبير، وعيناه شاخصتان في الأفق كأن طيفا هناك له تجلى، فسلب لبه عندما رنا إليه، وصيّره مجنونا يتبسم تارة ويعبس أخرى، وقد يبس في مكانه فلا هو ينظر ذات اليمين ولا يميل ذات الشمال.

وبعد فترة أخرج زيد من جيبه بعض الدنانير، وراح ينظر إليها ويقلبها في يده، لتذهب به ذاكرته لذاك اليومِ القريب عندما كان يبيع الزيت في دكانه وسط سوق المدينة، كان الجو يومها قائظا، والعرق من جسده متصببًا، ورغم ذلك راح يتابع عمله في جد واجتهاد، وبينما هو كذلك إذ أقبلت عليه فتاة غيداء، دعجاء العينين، ممشوقة القد، جميلة المحيّا، منعمة عليها أمارات الثراء والغنى، تصحبها فتاة أخرى أقل جمالًا، وكانتا تبدوان كسيدة وجاريتها...... تقدمت الفتاة حتى وقفت أمام باب الدكان، وبصوت يفيض عذوبة نطقت، فقالت:

- أنت...، كِل لنا عشرين صاعا من زيت الزيتون الإشبيلي.

رفع زيد بصره إلى ذات الصوت العذب، فهاله جمالها وألجمه عن إجابتها، وأزاغت عيونها لسانه، فالتزم الصمت وظل ينظر إليها بلا خجل....

تعجبت الفتاة من جرأة نظرات الشاب واستنكرتها، فعاودته الطلب بحدة أفاقت زيد مما كان فيه، وثنت:

- هل أنت أصم؟

انتفض زيد كأنما استيقظ من حلم، وقال:

- العفو يا سيدتي، لم أنتبه لما طلبت، فهلاّ أعدت؟

أظهرت الفتاة بعض الانزعاج والامتعاض، وأعادت الطلب متأففة:

- أريد عشرين صاعًا من زيت الزيتون.

في اضطراب ظاهر وانفعال غير خاف، قال زيد متعتعًا:

- عندي زيت إشبيلي، ولدي زيت جيّاني أيضًا.

أشاحت الفتاة بوجهها عنه وقالت:

- قلت أريده إشبيلي!

ثم نظرت كالمستنجدة إلى جاريتها التي توجهت إلى زيد مخاطبة:

- أيها الفتى عجّل بطلبنا، أعطنا من زيت إشبيلية لا من زيت جيان.

ازداد خفقان قلب زيد، وتسارعت أنفاسه، وتجشم الانحناء لملء السكرجة زيتًا، ثم قدمها للفتاة لتختبر جودته، فلم تمد يدها وأخذتها عنه الجارية التي أومأت برأسها علامة على رضاها عن جودة الزيت. حينها أمسك زيد بالمكيال الفخاري، ثم تقدم ليكيل الزيت، فانزلق المكيال من بين يديه وهوى على الأرض شظايا..... ارتبك زيد ارتباكًا شديدًا قبل أن يمسك بغيره ليجهز طلب الفتاة التي تملكها العجب من أفعال الشاب. وفي أنفة أخرجت الفتاة بعض النقود ووضعتها أمامه، ثم حدجته بطرفها مستنكرة، فكأنما رمت بنُبل مقلتيها أعشار قلبه فأردته صريعًا، وتبرأت هي من ذنب قتله، فأدارت وجهها شطر الباب وانصرفت.

وبينما الفتاة تمشي، وزيد يتبعها بعينه وهو متسمر في مكانه عاجز عن الحراك، إذ ظهر في السوق الشيخ البيّاسي يدلف متكئًا على عصا غليظة، وعليه أطمار بالية مرقعة، أشعث الشعر طويل اللحية، وهو ينادي بأعلى صوته:

- يا أهل إشبيلية، يا أهل السوق، قد حلت عليكم لعنة الله، فاحذروا العقاب، فالقشتاليون قادمون (يشير بيده ناحية الأسوار) ولن يرحموا طفلًا ولا امرأة ولا شيخًا، سيحتلون أرضكم، ويقتلون رجالكم، وييتمون أطفالكم...

كان وقع كلمات البياسي على أهل السوق أول الأمر عظيمًا، فقد أورثتهم الخوف والهلع، ولما طال أمد تكراره لها، أصبحت لا تثير إلا سفه الأطفال الصغار الذين اجتمعوا على البياسي ورجموه بالحجارة، وهو يقي رأسه ووجه بكفيه.

استمر الغلمان في طيشهم، وأهل السوق غرقى في الضحك كأنهم يشجعون الأطفال في مسعاهم، حتى ألجأت كثرة الحجارة البياسي إلى جوار حائط وقد دميت قدماه وشُجَت رأسه.

شاهدت الفتاة ما حدث في جزع، وتحركت اتجاه البيّاسي تصيح في الأطفال أن يبتعدوا، ثم نادت بأعلى صوتها:

- أعدمتم الرأفة والرحمة؟ أماتت فيكم المروءة والشهامة؟ ألا يتحرك أحدكم لينقذ هذا المسكين!!

وصلت كلمات الفتاة لزيد الذي خرج من فوره مسرعًا، ونهر الأطفال فانكشحوا، وحمل البيّاسي إلى دكانه ليطببه، والفتاة ترقب جميل فعاله، وقد انجلى الغضب عن وجهها، ولانت نبرات صوتها وهي تقول لزيد:

- خير ما فعلت، ولست أدري أي رجال هؤلاء الذين يتضاحكون بينما دماء هذا المسكين تسيل.

تهللت أسارير زيد سرورًا، ولمعت عيناه حبورًا، فقد حدثته من ظن أنها لن تفعل أبدًا، ثم تنفس بعمق وقال:

- سأطبب جرحه.

أكبرت الفتاة فعل زيد، وشعرت في ذات الوقت أنها ظلمته بفضاضتها، فخجلت واحمر وجهها ولم تدرِ كيف تصلح ما أفسدته، وهمت بالحديث إليه لكن حياءها منعها، وما زادت عن قول:

- شكرًا لحسن صنيعك.

ثم سحبت يد جاريتها وانصرفت، وزيد ينظر إليها وكأن قلبه من غادر المكان لا الفتاة، وتنهد بعدها تنهيدة عظيمة، وعاد يتابع تطبيب البيّاسي وتضميد جروحه.

لاحظ البيّاسي نظرات زيد الملهفة وتنهيداته المتحسرة، فابتسم قائلاً:

- أحببتها!!

ارتبك زيد من كلمة البيّاسي وسرعة بديهته حتى وقع منه الضماد أرضًا، فالتقطه، وقال محاولاً الإنكار:

- أحبها!! ماذا تقول؟!

ابتسم البيّاسي وقال:

- ما كان ليخفى علي حال المحبين، ففي عيونهم لمعان، وفي نظرتهم توهان، وما أسرع ما تتبدل قسمات وجوهم بين الفرح والترح، ثم ما يدريك! فلعلي أجزيك أجر ما طببتني.

انشرح صدر زيد، وعلا وجهه البشر، وارتسمت على محياه ابتسامة وادعة، وقرر أن يفضي للشيخ ببعض ما ألم به، فقال وهو يتنهد بحرارة شديدة:

- ماذا أقول أيها الشيخ الطيب، فأنا اليوم قتيل، وما قتلت بصارم، لكن بسهمي عينيها، وقد سبت قلبي وانسلت، وما تركت عليها دليلاً، فلا أنا أعرف اسمها ولا بيتها، ولم تبقَ إلا هذه الدنانير التي أغار منها طورًا لأنها لمست كفيها، وأتصبر بها حينا لأنها تحمل عبقها.

- ما من عاشق إلا ووجد مثل الذي تجده وكابد مثل الذي تكابده يا ولدي.

أتمّ زيد ربط جرح البيّاسي، حتى إذا أراد الانصراف أسهب زيد في الحديث إليه، فقد أحب حديث القلب وبث الشجن عن محبوبته التي لم يرها سوى لحظات مرت كحلم صيف.

أمسك البيّاسي عصاه، ونهض ليخرج من الدكان، وعند بابه التفت إلى زيد وقال له:

- أنت عاشق، وأنا خبرت حال العاشقين فما وجدت أحدًا منهم إلا ويشكو البين، فإن شئت فترقّبها عند برج الذهب!

لم يصدقٍ زيد ما سمعته أذناه، وكاد يثب على البيّاسي من شدة التلهف وهو يستوثقه قائلاً:

- أتقصد الفتاة؟

ابتسم البيّاسي وقال:

- أجل.

أخذ زيد بتلابيه دون أن يدري وقال:

- وهل تعرفها أيها الشيخ الطيب؟

دفع البيّاسي زيدا عنه بلطف وربت على عضديه مهدئًا، ثم أجابه:

- أجل، إنها جارة الوادي.

ردد زيد في تعجب ودهشة:

- جارة الوادي!

اتسعت بسمة البيّاسي، وقال:

- نعم جارة الوادي، فلا يكاد يمر أسبوع أو أقل إلا وتُرَى جالسة على ضفة الوادي الكبير، تديم النظر إليه وكأنها تود أن تعانقه، ولأنها لا تمل من طولٍ الجلوس وإدامة النظر إليه؛ فقد لقبها الفلاحون هناك بهذا اللقب جهلا منهم باسمها، فما عاد أحد منهم يعرفها إلا به.

قال البيّاسي ذلك ثم انصرف، أما زيد فتوقف به الزمن عند تلك الكلمات، فلم يسأم من ترديد:

- جارة الوادي... عند برج الذهب قبيل الغروب.

لم ينفك زيد يقلب الدنانير وهو يخاطبها:

- مر أسبوعان وأنا أختلف إلى هذا المكان عساني أسرق منها نظرة فأبت إلا تحجبًا، غير أن طيفها لم يفارقني -مذ رأيتها- في السهاد والكرى، ليت شعري متى تكتحل عيني بمرآها عيانا، ويهنأ قلبي بلقياها كفاحا؟

وما إن أتم كلامه حتى نهض قافلًا إلى بيته، عازمًا على العودة إلى هناك مرة أخرى - بل ومرات - عساه يلقاها في قادم الأيام.

مع تعاقب الأيام، ازداد تعلق زيد بضفة الوادي الكبير وأمسى أسير المكان، يتردد عليه بين الفينة والأخرى، وهو يمني نفسه باللقاء، فقد كان الفتى موقنًا بأن البيّاسي لم يكذبه.

أطال زيد الجلوس على شاطئ النهر وهو ينظر إليه ويحدثه. كان أحيانًا يشكو إليه حر الجوى ولوعة الأسى، ويسائله لما غابت عنه جارته وشطّت بها النوى، وأحايين يغبطه على مجاورته لها ومجالستها له حتى نسبت إليه. وبينما هو كذلك، اذ سمع وقع حوافر حصان قادم من بعيد. نظر زيد فإذا رفيقه عبد الرحمن الإشبيلي يقترب منه شيئًا فشيئًا حتى وصل إليه ونزل عن متن جواده.

تقدم عبد الرحمن صوب صاحبه فرآه مهزولًا معزولًا، فانعقد جبينه، وقال معاتبًا:

- انتظرتك اليوم طويلًا، فلما لم تأتِ؟ أم نسيت أن هذا يوم السباق والرياضة؟

التفت زيد إلى صاحبه وقال:

- لم أنسَ لكن شغلني أمر آخر.

ربت عبد الرحمن على عنق حصانه وتركه يرعى في المرج، ثم جلس بجوار صاحبه وقال:

- ماذا تفعل هنا في مثل هذا الوقت، لم أعتد أن أراك بعيدًا عن السوق والدكان؟

نظر زيد إلى عبد الرحمن، وقال في حزن واقتضاب:

- لا تشغل نفسك بي يا عبد الرحمن.

شعر عبد الرحمن أن لا رغبة لصديقه بتجاذب أطراف الحديث، فازدادت دهشته، وهاله، وجومه، وشحوبه، فأمعن النظر إليه، ثم أمسك بحصاة وقذف بها وسط ماء النهر، وهو يقول:

- كيف لا أشغل نفسي بك وأنت صديقي الصفيّ؟ ما أراك يا زيد إلا وقعت في أحابيل الغرام، وعلقت في شراك الهيام، فحالك حال العشاق.

قال كلماته تلك ثم انفجر ضاحكًا.

ردد زيد آخر كلماته:

- حال العشاق!

زفر عبد الرحمن وكأنه هو الخبير بالعشق، ثم قال:

- أجل، حال العشاق، فالعاشق - يا زيد - يدمن النظر فتراه لا يطرف، ينتقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه، يميل حيث مال، فما يكاد يقبل على شيء

سوى محبوبه ولو تعمد ذلك. وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه؛ الإنصات لحديثه إذا حدث، وعدم استغراب كل ما يأتي به ولو أنه عين المحال وخرق العادات، وتصديقه وإن كذب، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار، واتباعه كيف سلك وأي وجه من وجوه القول تناول، والإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه، والتعمد للقعود بقربه والدنو منه، وإطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته، والتباطؤ في المشي عند القيام عنه، والانبساط الكثير الزائد في المكان الضيق إن هو حل به، والتضايق في المكان الواسع إن هو ارتحل عنه، وقد رأيتك يا صديقي رغم رحابة هذا المكان ضيق الصدر لأن من تنتظره لم يحل به منذ ارتحل عنه، تركت عملك واستهنت به، وأخلفت موعدنا من أجل أن تفوز بنظرة إلى من تريد! أليس هذا ما يحدث؟

كرر (زيد) تساؤله، مستنكرًا:

- فإن كان هذا حالي، فما الذي يضحكك؟

- يضحكني التشابه في الأحداث، وتكرارها!

- صرح إلى ما ترمي يا عبد الرحمن.

نظر عبد الرحمن إلى النهر وقال:

- على ضفاف هذا النهر ولدت أعظم قصص الحب في التاريخ، وها هي القصة تتكرر بعد قرنين من الزمان (وها هو النهر بعد قرنين من الزمان يتهيأ للاحتفاء بقصة حب جديدة).

- هل تقصد قصة المعتمد واعتماد؟

- وهل هناك أعظم من قصتهما؟

- فأين قصص عنترة وعبلة، وقيس وليلى، وولادة وابن زيدون وغيرهم كثير، وليس يخفى عليك أن العرب قديمًا كانوا يستهلون أشعارهم بالغزل مصرحين باسم الحبيبة ومكنين، فهذا يقول بانت سعاد والآخر يقول يا ابنة مالك، فبما تفردت قصة حب المعتمد واعتماد عن قصصهم حتى حسبتها أعظم قصص التاريخ؟

طافت عينا عبد الرحمن في أرجاء المكان، وهو يقول:

- الفريد في هذه القصة إنها بدأت ببيت شعر فحب، فزواج، فحب، وحب، وحب حتى الممات، وقد ألفنا السماع عن قصص الحب بين هذا وهذه، لكن ما أن يتم الزواج حتى تبرد المشاعر وتهدأ الخواطر، وتختلف الأحوال، وينتهي الشوق، وتقوم حياة الزوجين على حبّ متبادل يرتقي لمودة ورحمة تُبنى عليهما دعائم حياتهما. أما في قصة المعتمد واعتماد فقد كانت حياتهما قصة عشق يتبادلان فيها الهيام، ويصف كل منهما للآخر ذلك بشِعر عذب يأتي بنسق بديع يعبر عما يختلج في داخلهما، وذلك من نوادر الزمان الذي قَلّ نظيره بين الأزواج، ناهيك عن اشتقاق المعتمد لقبه من حروف اسم اعتماد وقد كان قبلها يلقب بالمؤيد بالله، ومع إنها كانت جارية وكان يمكنه أن يتسرى بها، غير إنه آثر أن يتزوجها تكريمًا لها، فهل هناك حب أعظم من هذا الحب؟ ثم لما ماتت كتب المعتمد الشعر على قبرها، ودفن بعد ذلك بجوارها.

شهق زيد ثم قال:

- ربما أصبت يا عبد الرحمن.

وبينما هما كذلك إذا بالبيّاسي يقبل من بعيد، فتعلقت أبصار زيد به، وانتبه عبد الرحمن لذلك، ومرت لحظات دلف فيها البيّاسي مقتربًا من الصاحبين، حتى إذا بلغهما سارع زيد إلى القيام له، وأمسك بيده، وهو ينظر إليه نظرة عتاب، فعرف البيّاسي أنه يستنبأ عن حبيبته، فإذا به يربت على كتفه ويقول له:

- عسى ما تنتظره أن يكون قريبًا.

ابتهج زيد وقال:

- أحق ما تبشرني به أيها الشيخ؟

ابتسم البيّاسي وقال:

- اصبر فكل شيء بقدر.

قالها ثم انصرف، وعاد زيد يجالس عبد الرحمن بغير الوجه الذي نهض به، فقد كانت كلمات البيّاسي له كبنات المزن للأرض الهامدة.

لاحظ (عبدالرحمن) ما طرأ على وجه صاحبه من تغيير، فصاح:

- مرحى مرحى، ما أسرع ما تبدلت أحوالك وتغيرت ملامح وجهك وظهر لمعان عينك، فما الذي استجد حتى صار زيد الحزين سعيدًا، أم كنت تنتظر أن ترى يوسف البيّاسي؟

قال زيد متعجبا:

- يوسف البيّاسي!!

- أجل، يوسف البيّاسي.

- أتقصد أن الشيخ اسمه يوسف البيّاسي؟

- ألا تعلم ذلك؟

- قطعًا لا، ولا أعلم غير إنه مجذوب يخرج بين الفينة والأخري يحذر الناس من العقاب والقشتاليين، أما اسمه فلا أعرفه، حالي في هذا كحال جل أهل إشبيلية.

رمز عبد الرحمن بشفتيه، ثم ارتفع صوته قائلًا:

- إن من تقول عليه اليوم أنت وأهل اشبيلية مجذوب لهو خير من ملء الأرض منا. فهذا الرجل لم يولد هكذا كما لم يفقد عقله من سبب هين.

رنا عبد الرحمن إلى الأفق البعيد ثم تابع:

- لقد كان هذا الرجل رفيق جدي في موقعة الأرك، غير أن جدي توفاه الله كما تعلم ل ١٢١٠سنة خلت من ميلاد عيسى عليه السلام، وكتب الله لهذا الرجل أن يكون ضمن جيش محمد الناصر في موقعة العقاب التى شهدها أيضًا أبي رحمه الله، وقد سبقت لوالدي فيها الشهادة فنالها. أما يوسف هذا فقد شاء الله أن يشاهد بأم عينه مصارع قومه.....

فبعد موقعة العقاب المشؤومة والتي يطلق عليها القشتاليون لاس نفاس دي تولوسا، حاول ألفونسو الثامن ملك قشتالة على إثر ظفره أن يقطف ثمار نصره باقتطاع ما يستطيع من الأراضي الإسلامية، فاستولى في أيام قلائل على معظم الحصون الإسلامية في تلك الناحية، وكان من بينها حصن فرّال حصن العقاب الذي كان قد أخلاه قبل الموقعة، وبلج، وبانيوس، وتولوسا.

ثم سار إلى مدينتي بيّاسة وأبّدة اللتين لا تبعدان عن مسرح المعركة سوى بضع مراحل. وكانت بياسة قد غادرها معظم أهلها لكن تخلف فيها كثير من الجرحى والضعاف، فأحرق ألفونسو الثامن دورها، وخرب مسجدها الجامع، وقتل معظم من وجدهم بها، وأخذ بعضهم أسرى.

ثم سار إلى مدينة أبدة، القريبة من بياسة، وكانت تموج بأهلها - وبينهم أهل يوسف: أمه المقعدة وزوجه وأولاده - وبمن وفد عليهم من أهل بياسة وبالفارين من مختلف الأنحاء. وكانت في حالة دفاع وأهبة، وقد امتنعت وراء أسوارها الحصينة، فحاصرها ألفونسو الثامن ثلاثة عشر يومًا، وصمد المسلمون، ولحقت بالنصارى بعض الخسائر، ثم عرض المسلمون في نهاية المطاف أن يدفعوا فدية قدرها ألف ألف دينار على أن تترك المدينة حرة، وأن يتمتعوا بالبقاء على دينهم وإقامة شعائرهم، فقبل ألفونسو وحليفاه ملك أراجون وملك نافارًا هذا العرض، ولكن القسيسين عارضوا تنفيذه، وأصروا على تسليم المدينة بلا قيد ولا شرط، فنزل الملوك عند رغبتهم، ونقضوا العهد المقطوع، واقتحم الجنود النصارى المدينة، وقتلوا من أهلها زهاء ستين ألفًا، وسبوا منهم مثل هذا القدر. وكانت أم يوسف في القتلى. أما زوجته وأولاده فقد التجئوا إلى المسجد مع من التجأ من أهل المدينة، فدخل عليهم القشتاليون والأرجوانيون ونحروهم في محراب المسجد، ثم صلوا في نفس المسجد صلاة الشكر وحولوه الى كنيسة. فلم يتحمل هذا المسكين الخبر، فهام على وجهه وصار كل حين يذكر ويذّكر بالعقاب.

بعد هذا سكت عبد الرحمن عن الكلام متألمًا، ثم رمق صاحبه بنظرة عتاب وقال:

- هل عرفت الآن من هو يوسف البيّاسي؟

(٤)
الجاسوس

في أزقة إشبيلية الضيقية المصفوفة بأشجار النارنج والبرتقال، حيث البيوت التي اكتسى ظاهرها باللونين الأبيض والأزرق، قام بيت مريم بنت محمد. وكان بيتًا جميلًا بابه متصل برواق رخامي طويل تقود نهايته إلى فناء مستدير في وسطه نافورة مياه صغيرة، ويحيط بالنافورة سياج من البلور الملون، والفناء مرصوف بالحجر والرخام، والبيت ككل بيوت الأندلس طابقان، وفي طابقه الأول أعمدة مطلة على الفناء، زخارفها بديعة وحوائطها مكسوة بفسيفساء مبهجة الألوان تسر الناظرين، وللبيت حديقة خاصة امتلأت بأشجار الليمون، والبرتقال، والزيتون، والرمان، والعنب، والنارنج، وأنواع مختلفة من الخضروات.

في حديقة البيت جلست مريم على حافة النافورة، تداعب المياه بيديها وقد بدا السرور عليها، بينما كانت أوراق الورد تغطي سطح مياه النافورة، وصوت خرير الماء ينشد لحنا جميلًا.

فُتح باب المنزل، وولجت قمر رواقه، وبين يديها سلة كبيرة ناءت بحملها، وما إن قطعت الرواق حتى تعلقت عينا مريم بها كأنها كانت تنتظرها منذ دهر، وبادرتها بالسؤال في لهفة:

- لمَ غبتِ عني كل هذا الوقت؟

دنت قمر من مريم ووضعت السلة عند قدميها، ثم قالت:

- زحمة السوق - يا سيدتي - وتنوع ما اقتنيت من بضائع.

فتحت قمر السلة، فتفحصت مريم الذي فيها دون أن تنبس ببنت شفة، ما بعث البسمة في وجه الجارية فقالت:

- هل تبحثين عن شيء بعينه؟

ارتبكت مريم وقالت:

- لا... لا...لا أبحث عن شيء.

أمسكت قمر بكيس من الزعفران ولوحت به قائلة:

- ربما تبحثين عن هذا.

رمقتها مريم بنظرات ضاحكة ولم تتحدث، فقالت الجارية:

- هو أيضًا كان يبحث عنك؟!

انفجرت مريم ضاحكة وهي تقول:

- الزعفران!

أومأت الجارية بالنفي، فقالت مريم في استنكار:

- من هذا الذي يبحث عني؟

ابتسمت الجارية وقالت في دلال وتأنّ:

- الشاب... الأصم... صاحب دكان الزيوت والأعشاب.

التزمت مريم الصمت، واصطنعت عدم الاكتراث، وعادت تداعب مياه النافورة، وتدندن محاكية لحن الماء، فقالت لها قمر:

- ربما نعاود الحديث لاحقًا، فما أراكِ إلا مشغولة.

فما كان من مريم إلا أن أظهرت مزيدًا من التجاهل لكلام الجارية، وكأنها تخشى أن تواجه نفسها بحقيقة إعجابها بالفتى وشهامته. فما كان من قمر إلا أن تحركت من جوارها تنظر شؤونها وتؤدي أعمالها، غير إنها ما كادت تبتعد حتى لحقتها مريم، وفي تلهف سألتها:

- أخبريني يا قمر، ماذا قال ذلك الشاب؟

ارتسمت على وجه قمر ابتسامة كبيرة وراحت تحكي في إطناب:

- ما إن وصلت إلى دكانه - يا سيدتي - حتى غزا البشر وجهه فتهلل، وقد طمع أن تكوني في إثري، فاشرئب بعنقه ينتظر طلتك. فلما طال الوقت ولم تظهري، وجم الشاب كل الوجوم كمن اجتمعت عليه كل أصناف الهموم، وابتعت منه ما أريد، وهو لائذ بالصمت لا يتفوه بكلمة، وأنا أعجب من حاله. فلما هممت بالانصراف، استوقفني قائلًا بصوت خفيت ووجه حييّ: أين هي؟

- تريثت في الخروج بعد سؤاله، وأظهرت له التحير الشديد وأنا أسأله من تقصد؟

فقال لي في تلعثم:

- صاحبتكِ التي حضرت معكِ من قبل

حينها علمت أن قلبه قد تعلق بكِ، فما استطعت أن أخفي ابتسامة صغيرة ظهرت على وجهي وقلت له:

- لما تسأل؟

عندها لم يدرِ المسكين بما يجيب، فأشفقت عليه وقد احمر وجهه خجلاً ونضح جبينه عرقًا، فقلت له هي في البيت ثم قفلت عائدة إليك، وقد تيقنت من احتراق قلب الشاب صبابة.

ما إن سمعت مريم تلك الكلمات حتى رفرف قلبها وهامت روحها كأن جناحين قد حلقا بها فوق السحاب، لكنها اجتهدت في كتمان حالها ذاك عن جاريتها.

(٥)
جارة الوادي

مع أن الحظ لم يسعف زيدًا في رؤية حبيبته إلا أن مجيء قمر لدكانه أضرم في نفسه رجاء اللقاء، فأول الغيث قطرة، وكعادة كل المحبين، فقد هيّج ظهور قمر في قلب زيد الأشواق وأذكى في خافقه بأرقات الحب، وازداد كلفا بالتي لم يرها سوى مرة واحدة.

ولم يخلف زيد موعده مع ضفة الوادي الكبير بالقرب من برج الذهب، فيمم شطره وقت الغروب منتظرًا كعادته رؤية حبيبته، ولم يطل به هذه المرة الانتظار، فقد لمح سيدة وجاريتها تتنزهان على الضفة، فغمرته سعادة لا توصف وانقشعت عنه خيبة الأمل التي لازمته طوال الفترة السابقة، وقرر أن يتجه نحوها ليتحدث إليها مقتنصًا الفرصة لئلا تضيع، فنهض من مكانه وانطلق باتجاه حبيبته التي أخذت بمجامع قلبه، وتخلل حبها جميع أعضائه، وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة حتى جازتها إلى برج الذهب خلف النهر، وزيد ينظر إليها لا همة له غيرها، فالتفتت إليه وقالت له:

- ما لك تمشي ورائي؟!

- قلبي دعاني إلى ذلك فلما العجب، والقلوب تملكنا ولا نملكها وتحركنا ولا حكم لنا عليها.

فأجابته مريم وقد ظهر الجد في نبرتها:

- دع عنك هذا، فلا مطمع لك في البتة ولا إلى ما ترغبه سبيل.

- إني أقنع بالنظر.

قالت مريم في غنج:

- ذلك مباح لك.

- هل لي أن أعرف اسمك؟

- مريم، مريم بنت محمد وهذه جاريتي قمر.

قالت ذلك ثم انصرفت دون التفات، وزيد واقف يراقبها والأرض لا تسعه من شدة فرحه حتى إذا غاب ظلها جلس مكانه، وأخرج دنانيرها من جيبه وراح يقبلها في شغف.

اختفت آخر خيوط الشمس ودخل الليل، وزيد جالس مكانه منعزلًا عما حوله لا يسمع غير صوتها ولا يرى غير ابتسامتها وجمال وجهها، وبقي على حاله في سُكره حتى انتصف الليل فنهض ليعود إلى بيته.

ووسط أزقة إشبيلية سار زيد ميممًا شطر بيته، وفي طريقه مر على رجلين يقبعان في الظلام ويتناجيان فلم ينتبه لهما، غير إنهما لمحاه وخشيا أن يراهما فسكنا من فورهما ولاذا بالصمت إلى أن ابتعد، وما إن حدث حتى التفت برنارد يمينًا ويسارًا ثم خفض رأسه وقرب فمه من أذن صاحبه، وقال بصوت خافت:

- هل تراه انتبه لنا؟

همس له خوسيه:

- لا.... لا أظن ذلك، وإلا لتغيرت حركاته وخطواته، ولتوقف وجادلنا، أو سألنا عن سر وجودنا هنا، في هذا الوقت من الليل.

تنهد (برنارد) في ارتياح وقال:

- أرحت قلبي....، هل حفظت ما لقنتك من آيات القرآن؟

- أجل، قد فعلت.

استطلع برنارد المكان من حوله، ثم قال

- إذن ننام ليلتنا هنا، وفي الصباح ندخل المدينة ليرانا جميع من فيها.

ثم افترش قطعة قماش وتأهب لينام عليها.

تململ خوسيه واستنكر رأي صاحبه قائلًا:

- ننام هنا؟! في هذا المكان؟

بجدية ممزوجة بحدة قال (برنارد):

- نعم نبيت في هذا المكان، أم تريد أن تنزل في خان عظيم فينفضح أمرنا وينكشف سرنا...... والآن نم ولا تتحدث كثيرًا، فهو خير لنا وأدعى إلى سلامتنا.

تجهم وجه خوسيه لكنه لم ينبس بكلمة واحدة، بل استدار مشيحا وجهه عن صاحبه، ثم استلقى على الأرض واضعًا تحت رأسه حجرًا صغيرًا، ليغط بعدها في نوم عميق. وقبيل الفجر استيقظ برنارد وأيقظ صاحبه الذي كان يحمل على وجهه كل علامات النقمة والتأفف من ليلة قضاها في الخلاء بعيدًا عن كل أسباب الراحة.

ثم تحرك الاثنان صوب المدينة النائمة، وهما يثيران جلبة وضجيجًا مفتعلين، حتى إذا وصلا إلى الجامع الكبير، تقدم برنارد وخلع نعليه وتبعه في ذلك صاحبه، وفي زاوية نائية عن المحراب، جلسا ينتظران الصلاة.

مال برنارد على صديقه وقال له بصوت غير مسموع:

- انظر إلى جمال هذا المكان وروعته، ولولا المهمة المنوطة بنا، لقمت من فوري حتى سرقت ما في هذا المسجد من تحف أو أتلفتها أو أشعلت النار فيها.

(خوسيه) في هلع مكتوم:

- لا تفعل، نريده كما هو، أم أنك نسيت مهمتنا؟

- ما نسيت ولن أنسى، والشكر للرب إنهم لم يبرعوا في الحروب براعتهم في رص الطوب، فلو فعلوا لأخرجونا من الجزيرة كلها.

ثم استطرد:

- تذكّر كيف هي صفة صلاتهم، وإن نسيت فقلد فعلهم ولا تزد.

وبينما هما يتخافتان إذا بالمؤذن من أعلى منارة المنصور يرفع النداء للصلاة:

- - الله أكبر الله أكبر...

ارتفع الآذان، فالتزم برنارد وخوسيه الصمت، واستيقظ أهل إشبيلية لحضور الصلاة، وكان من بينهم القائد أبو الحسن شقاق وعبد الرحمن الإشبيلي وغيرهم من أهل إشبيلية، وقد كان المسجد الجامع يموج بصفوف طويلة من المصلين، وكان من عادة شقاق وعبد الرحمن حضور الصلاة مع الناس في الصفوف الأولى، وكان هذا مما يقربهما للناس ويقرب الناس إليهما. ولما قضيت الصلاة، وخرج المتعجلون من المسجد، نظر شقاق حوله فوجد ذينك الرجلين قد اتخذا من زاوية المسجد مستقرًا لهما، فأرسل لهما أحد جنده فأحضرهما بين يديه. نظر شقاق إليهما ثم سألهما:

- من أنتما؟

فأجاب برنارد بصوت يقطر حزنًا:

- أنا يوسف، وهذا أخي، وصاحبي سعد قد ضاقت بنا السبل بعد وقوع مدينتنا في يد القشتاليين، ولم نشأ أن نعيش تحت وطأة حكمهم، فانحزنا إليكم راجين أن ترحموا ضعفنا وقلة حيلتنا.

- من أي مدينة قدمتما؟

يوسف:

- مرشانة يا سيدي.

تمتم شقاق باسم المدينة، ثم قال مستفهمًا:

- مرشانة؟! قد مر على سقوط تلك المدينة أكثر من عام، فأين كنتما كل هذا الزمان؟

أجابه يوسف بنبرات جاهد على شحنها أسى:

- قد عزّ علينا فراق الديار بادئ الأمر يا سيدي، فمكثنا فيها ورضينا بالقشتاليين حكامًا، لكنهم لم يرضوا بنا رعية، ونقضوا عهودهم وضيقوا علينا، وقد علمنا أن أرض الله واسعة وديار المسلمين لا تزال في هذه الجزيرة قائمة، فخرجنا -يا سيدي- إلى مدينتكم العامرة وحملنا معنا أموالنا في غفلة من جند قشتالة، وها نحن بين أيديكم فاصنعوا بنا ما شئتم.

ارتاب عبد الرحمن من أمر الرجلين لكنه آثر التريث وراقب ما يدور في صمت، وإذا بشقاق يقول:

- أريدكما عند قصري قبيل غروب الشمس.

ثم نهض مغادرًا ومن خلفه عبد الرحمن. أما خوسيه وبرنارد فقد اجتمع حولهما خلق من أهل إشبيلية رقّوا لحديثهما، فتحركت فيهم مشاعر الود والأخوة فراح كل فرد منهم يقدم للوافدين الجديدين الطريدين ما يستطيع من معونة لمساعدتهما والتخفيف عنهما.

(٦)
حصار بلنسية

على ضفاف نهر إيبرو، حيث مدينة سرقسطة إلى الشمال الشرقيّ من شبه الجزيرة الإيبيرية، وتحديدًا في قصر السرور (قصر الجعفرية) الذي اتخذه ملوك أراجون مقرًا لحكمهم، مثلما اتخذوا سرقسطة نفسها عاصمة لدولتهم الناشئة على أنقاض بلاد الأندلس.

كانت أجراس الكاتدرائية الكبرى تدق بقوة لتؤكد في كل دقة جرس تلك الحقيقة الواقعة التي تقول أن المسجد قد صار كنيسة، وأن سرقسطة لم تعد عاصمة بني هود أو أسلافهم من التجيبيين، ولم تعد الثغر الأعلى كما كانت زمن الأمويين بل صارت عاصمة تلك الدولة القوية الناشئة التي بلغ من طموحات ملكها أن أرسل جنوده يومًا لاحتلال القدس.

دقت الأجراس بقوة ليصل صدى صوتها إلى حيث مخدع خايمي الأول وزوجته الجميلة فيولانتي.

لم يكن خايمي بحاجة إلى أجراس الكنيسة ليستيقظ، فقد كان نائمًا بعيون مفتوحة لم تذق منذ أيّام طعم الكرى والراحة! مر الوقت ثقيلًا على الملك الشاب حتى إذا تسللت أشعة الشمس الذهبية إلى أروقة القصر، كان خايمي قد سبقها إلى حيث بهو السفراء، مستدعيًا كل قادته ووزرائه وهو يفكر في خطواته القادمة، فقد كان يرى إنه من الصواب التعجيل بأخذ بلنسية، خاصة بعدما أتته الأخبار بموت ابن هود، فازداد الملك الشاب يقينا بأن بلنسية دنا أجلها وحان موعدها. وقد كان ما يشغل (خايمي) قبل كل شيء هي أطماع ملك (قشتالة)، الذي تتابعت حروبه وتوسعاته، ولا يركن إلى الراحة ولا يعرف الدعة، وقد بدت الأمور وكأنّ تنافسًا قد حمي وطيسه بينهما، في اقتطاع أراضي المسلمين وقتلهم!

تابع خايمي مشاوراته مع قادته وبينما هو كذلك إذ دخل عليه أحد حراس القصر وقدم له التحية الملكية، ثم قال:

- رسالة من حامية حصن أنيشة يا سيدي.

ثم تقدم اتجاه الملك وسلمه رسالة مختومة ثم انحنى واستدار خارجًا من القاعة.

فض الملك الرسالة، واتجهت إليه أنظار قادته ووزرائه عسى أن يستشفوا من تقاسيم وجهه مضمون الرسالة القادمة من الحصن المنيع.

قرأ خايمي الرسالة، فتغيرت ملامح وجهه وظهر عليه الحزن الشديد، ومع ذلك فلم يجرؤ أحد من الحضور على مباشرته بالسؤال والاستعلام.

مرت بضع دقائق قبل أن يرفع خايمي رأسه ناظرًا إلى قادته، والدموع تكاد تنفجر من عينيه وهو يقول:

- مات خالي، مات قائد حصن أنيشة.

ثم مسح على وجهه مغمضًا عينيه للحظات محاولاً أن يسترد الدمع عن غربه قبل أن يقول:

- مات دون برناردو قائد حامية أنيشة.

ألجم الخبر القادة فلم ينطقوا بكلمة غير (بجنت) الذي سارع بالقول:

- ليرحم الرب خالك يا مولاي، ولتدق الأجراس حزنًا عليه.

زفر خايمي زفرة حارة وقال:

- رحمك الرب يا خالي العزيز، فقد كنت أتمنى أن تشاهد بعينك ابنك البار خايمي وهو يفتتح بلنسية، ولكن إرادة الرب سبقت، ولئن لم تشهدها فسيشهدها ابنك.

ولأن (بلاسكو دي ألاجون) كان يرى أن احتلال حصن (أنيشة) سيكون عائقًا لهم في سبيل احتلالهم (بلنسية)، فقد أراد أن ينتهز خبر وفاة خال الملك في الوصول لمسعاه، محاولاً إقناع الملك بوجوب سحب القوات من الحصن، حتى تجتمع كلمتهم... لكن خاب مسعاه عندما قرر الملك وفي نفس الجلسة عكس ذلك، فقال:

- لن يثنيني موت خالي العزيز عما قررته تجاه بلنسية، ولن أخلي الحصن الذي بذلت جهدًا ووقتًا ومالاً من أجل حيازته، كما أني لن أجلس هنا باكيًا كالنساء بينما يتابع ملك قشتالة زحفه وحروبه فتتسع مملكته وأظل أنا حبيس هذه الرقعة من الأرض.

ثم استطرد قائلًا:

- أما حصن أنيشة فسأولي عليه ابن خالي خلفًا لأبيه.

بلاسكو دي ألاجون:

- سيدي، ألن ننتظر وصول المتطوعة من فرنسا وإنجلترا وجرمانيا وباقي بلاد المسيح؟

- الحكمة اليوم -يا بلاسكو- في التعجيل بالأمر، بل إن نجاحنا مرهون بمدى سرعة العمل!

انتصب (خايمي) واقفًا ثم تابع:

- لقد مات محمد بن هود فباتت بلنسية وحيدة في الميدان، ولن يهتم لها أحد أو يمنعها منا أحد.

ثم مد خايمي يده إلى مقبض سيفه وجرده قائلًا:

- سأصلي من أجل خالي في مسجد بلنسية الكبير، بعد أن يصير كاتدرائية بلنسية الكبرى، فأسعد بذلك روح خالي وتطيب نفسه ويرضى عنا الرب.

(بلاسكو دي ألاجون):

- سيدي، ماذا عن إشبيلية ومرسية وابن الأحمر في غرب الأندلس؟

تنحنح بجنت واستأذن الملك أن يتولى الرد على هذا السؤال، وذلك لكونه كان يومًا من المسلمين، ويفهم طبيعة ما يدور بينهم، فلما أذن له قال:

- أما إشبيلية فلن تنتصر لبلنسية وذلك للعداوة بين الموحدين سادتها اليوم وبين أبي جميل زيان (أمير) بلنسية، وجميعكم يعلم صنيع زيان بي -وأنا من بني عبد المؤمن- يوم كنت أميرها، لذلك لن يمد والي إشبيلية العون لبلنسية أبدًا.

سكت بعدها قليلًا ليقرأ في أعينهم أثر كلامه، ثم تابع في ثقة:

- أما مرسية فهي من أملاك ابن هود وقد اختل توازنها وفقدت قوتها منذ موت محمد بن هود، ولن يقدم ابنه على معاداتنا وأمره خبط عشواء وملك أبيه تعصف به ريح الفرقة والطمع. وأما ابن الأحمر فهو أعقل من أن يزج بنفسه الآن في صراع مع ملك أراجون الآن فتجتمع له عدواتنا وعداوة العقرب.

نظر خايمي إلى بجنت في إعجاب شديد بينما انبرى بلاسكو دي ألاجون يقول:

- يا سيدي، عدد جندنا الجاهز للنفير ضئيل لا يتجاوز بضع مئات بينما تموج بلنسية بالمتأهبين للدفاع عنها!

خايمي:

- أعلم ذلك، لكن هؤلاء المئات يحملون الموت على أسنة رماحهم ونصال سيوفهم، أما أولئك المدافعون عن بلنسية فهم حقًا بالآلاف لكن أعداد من رمم، فالنفوس بلا همم، والقلوب بلا عزم، فهم يحاربون بالخوف لا بالكيف، فقد لانت معيشتهم وضعفت قلوبهم، وقل نصيرهم، وبعدت عليهم الشقة، وزاد من ذلك كله هزيمتهم عند حصن أنيشة، فماتت آمالهم في النصر وترقبوا الهزيمة قبل وقوعها، فقد هزمهم الرعب وحب الدنيا. فمثل هؤلاء هزيمتنا لهم محققة وغلبتنا عليهم مؤكدة.

ولأنّ الأموال كانت تنقصه بشدة، فقد قرر (خايمي الأول) فرض ضريبة أسماها ضريبة المرافيدي وكانت هذه الضريبة بالأساس تُجمع كل سبعة أعوام، لكن (خايمي) قرر جمعها فورًا، ليمول بها حملته على (بلنسية)، وليحشد بتلك الأموال المرتزقة من هنا وهناك.

(٧)

انتفخ ملك أراجون كبرياء وهو ينظر في زهو إلى حشود جيشه والصلبان تزين صدورهم وخيولهم، فوقف أمام الحشود من الجند والشعب، ونظر إليهم دون أن يتكلم، ثم تقدم جهة الصليب الأعظم وأمسك به ورفع صوته عاليًا في فخر وإصرار:

- أقسم بين أيديكم الآن، وليشهد على ذلك الرهبان والقادة والوزراء، إني سوف أسير إلى فتح بلنسية، ولن أعود للمرور بطرويل أو عبور نهر طرطوشة (نهر إيبرو) قبل أن تسقط بلنسية في يدي، وقبل أن أصلي في مسجدها صلاة الشكر، بعد أن أحوله إلى كنيسة، نعم لن أعود إلى هنا إلا بعد أن أحول مساجدهم كنائس، وكما امتلك أجدادي سرقسطة وطهروها من المسلمين فسأقتفي أثرهم وأكمل مسيرتهم، وكما صلى العقرب في قرطبة، سأصلي أنا في بلنسية، وعزمًا مني على ذلك سأصطحب معي زوجتي الملكة فيولانتي وابنتي الأميرة فيولانتي، فإما بلنسية تحت قدمي أو المنية تحت أسوارها.

وفي فصل الربيع، وتحديدًا في مارس سنة ١٢٣٨ م، خرج خايمي في قواته متجهًا إلى الجنوب صوب بلنسية، بعد أن أعد العدة للقضاء على المدينة الأندلسية التليدة، مصطحبًا معه روح التعصب الديني، وعددًا كبير من الصلبان المرسومة على الصدور والرايات.

ولمزيد من السرية، فقد قطع (خايمي) المسافة بين (سرقسطة) و(بلنسية) في زمن كبير، إذ أصر أن يسير بقواته عبر طرق غير ممهدة وغير معروفة لعدوه، حتى يتسنى له مفاجأة المسلمين، وأخذهم على حين غرة.

ولكن لمّا اقترب جيشه من بلاد المسلمين افتضح أمره ورمقته العيون، فتخلى عن تستره وقرر السطو على كل قرية تصادف مسيرته إلا أن تستسلم له وتعلن طاعته، وكان لبجنت اليد الطولى في ذلك، إذ نجح في محاولاته لاقناع ولاة القرى

بالتسليم والاستسلام، مذكرًا إياهم بأحداث الجزائر الشرقية وما حل بأهلها من قتل واستعباد جرّاء عدم طاعتهم لملك أراجون..... ولما كانت القلوب ضعيفة والهمم واهية فقد أعلنت قرى عديدة طاعتها لملك أراجون، كما استسلمت له حاميات كثيرة في الحصون وفي مقدمتها المنارة، ونوليس، وبطرنة، وبوليا، وأوشو، وغيرها.

(٨)

عند أسوار بلنسية

وقف خايمي مبهورًا من روعة بلنسية وهو يشاهد حدائقها الوارفة وقصورها الباذخة وأسوارها المتينة القوية. وقد كانت بلنسية تختلف عن باقي أنحاء الأندلس، فهي ذات ميادين فسيحة وشوارع مديدة، تطل على بحر الروم، ويكثر فيها زراعة القطن والأرز والفواكه والزيتون والخروع، وتنشر فيها مصانع الورق والصوف، ويزين قلبها ميدان الرصافة الذي فيه قصر الإمارة المحاط بأشجار النخيل من كل جهة، كما يشقها شمالاً نهر توريا، وتكثر فيها الحمامات العربية الأنيقة.

وقف خايمي يتأمل أسوار وأبراج وتحصينات المدينة وجمال أبنيتها وثراء أهلها، كمن يشاهد قطعة من الجنة، ثم بادر بنصب معسكره قبالة باب المدينة الرئيس، في حين خشي قادته أن يلاحظ المسلمون قلة عددهم فيخرجوا إليهم، فلم تكن قوات ملك أراجون عند وصولها بلنسية تتجاوز بضع مئات من فرسان الداوية والإسبتارية وقلعة رباح والفرسان الملكيين، وبضع آلاف من الرجّالة.

وفي الحال نصب المعسكر وفي وسطه الخيمة الملكية يعلوها الصليب الأعظم. أما خايمي فقد اصطحب بلاسكو دي ألاجون وبعض الجند وراح يعاين المدينة باحثًا عن مواضع ضعفها، وبعد فترة من الدوران حول الأسوار عاد إلى معسكره ونزل عن متن جواده، ووقف في اتجاه باب المدينة الرئيس ثم نظر إلى بلاسكو دي ألاجون وقال:

- الأسوار قوية يصعب ثلمها والبلنسيون من فوقها يترقبون، وهم في استعداد للدفاع عنها ولن يعجزهم قتل أي جندي يتقدم من الأسوار.

فكر (بلاسكو دي ألاجون) للحظات ثم أجاب:

- أجل يا سيدي، لذا يجب علينا اتخاذ الحيطة والحذر والتعويل على الحصار الطويل إلى أن تتكامل صفوفنا ويأتينا المدد.

وفي تلك الأثناء، تقدم بجنت متشحًا بسيفه صوبهم وقال:

- لو يسمح لي سيدي الملك في إبداء رأيي؟

نظر خايمي لبجنت وقال:

- هات ما عندك.

أشار بجنت بيده نحو الأسوار وقال:

- ما دام معسكرنا في هذه الناحية من المدينة فلن يكون الحصار ذا جدوى لأنه لن يفلح في قطع الإمدادات عنها. أما إن تركنا هنا عددًا كافيًا من الجند ونقلنا المعسكر الرئيس إلى شرق المدينة وجعلناه بينها وبين ميناء خليج جراو فسنمنع ساعتها عن المدينة الإمدادات التي قد تأتيها من البحر علاوة على ما قد يأتيها من البر، فيكتمل بذلك الحصار.

اقتنع خايمي برأي بجنت وأعجب بحصافته، ونظر إليه قائلًا:

- نعم الرأي يا بجنت.

ثم ما لبث أن أعطى الأوامر لجنده بنقل المعسكر.

تطايرت أنباء الحملة وتسربت أخبار الحرب إلى كل أرجاء أوروبا كما وصلت دعوة البابا للجميع، فلم تمر أيام على الحصار حتى وافت خايمي الإمدادات من كل حدب وصوب، خاصة وأن الأوربيين كانوا يتوقون للانتقام من المسلمين بعد أن فقدوا بيت المقدس في الشرق. وتقاطرت جموع المرتزقة من كل أوروبا وازدادوا عددًا بعدما سمعوا عن بلنسية وثرواتها وحسن نسائها ووفرة ذهبها ومعادنها وحريرها. كما انضم إلى الجيش الكثيرُ من أشراف وأحبار أراجون وقطلونية وأجنادهم، ومن حشود الحرس الملكي ببرشلونة، وحشود المتطوعين الفرنسيين بقيادة مطران أربونة، وكانوا جماعة كبيرة من الفرسان، ونحو ألف من المشاة. وقد جاءت معظم هذه القوات بطريق البحر، وانضمت كلها إلى الجيش الغازي.

(٩)

تنهدت مريم من أعماقِ صدرها وهي تتطلع من نافذة حجرتها إلى البدر المكتمل في سماء إشبيلية تحيط به النجوم من كل جانب. ويعكس عليها القمر ضياءً ونورًا ليزيدها جمالاً فوق جمالها، يبعث في النفس راحة وطمأنينة وسكينة. كانت مريم منعزلة عما حولها شاردة البصر حتى إنها انتفضت عندما شعرت بيد توضع على كتفها والتفت إلى صاحبة اليد هاتفة:

- أفزعتني يا قمر.

ابتسمت قمر في حنان وقالت:

- لم أكن أدري إنكِ شاردة، ثم كيف تنظرين للقمر وتفزعين من قمر!!

ثم قهقهت بينما تنهدت مريم وأغمضت عينيها وقالت:

- لم أكن شاردة.

رمقتها قمر بعين مبتسمة ماكرة وثبتت نظراتها في عينيها وقالت:

- لم تكوني شاردة!

أدارت مريم وجهها الذي احمر خجلاً وقالت:

- بل كنت شاردة، هل استرحت الآن؟

ضحكت قمر وقالت:

- أنا لست متعبة لأستريح، فلماذا لا تبوحي أنت لتستريحي؟

تحدثت مريم وهي تبعد خصلة من شعرها خلف أذنها:

- كنت أفكر في الخروج إلى الوادي الكبير فقد اشتقت للنزهة على ضفته.

تمتمت قمر:

- الوادي الكبير! الآن فهمت.

أشاحت مريم بوجهها الذي تضاعفت حمرة خجله، وقالت:

- فهمت ماذا؟

ردت قمر مقهقهة:

- فهمت كم تحبين الوادي الكبير يا جارته.

اشتد حياء مريم وهي تقول:

- أحبه، وأنت تعلمين ذلك منذ زمن، فما الجديد؟

اتسعت ابتسامة قمر وقالت:

- لا جديد.

ثم تصنعت الانصراف، وعلى باب الحجرة قالت:

- لقد رأيته اليوم.

وفتحت الباب لتنصرف فإذا بمريم تقول لها بلهفة:

- أين؟

استدارت قمر ونظرت إلى مريم التي أخفت وجهها المكسّو بحمرة الخجل وقالت:

- رأيته عند الوادي الكبير، فقد أصبح كثير الجلوس هناك.

- هل تحدثتِ إليه؟

- ألا تسألين من ذا الذي رأيته أولاً؟

- لماذا يا (قمر) وأنتِ تفهمين قولي، لماذا تصرين على إخجالي؟

اقتربت قمر من مريم وجلست بجوارها وهي تقول:

- ليس مقصدي إخجالك، إنما أريد أن تفضي إلي ليرتاح قلبك، فأنا - والله - صحيحة الأمانة مأمونة الخيانة، ولكل عاشق يا حبيبتي كاتمُ سر له، ينصحه ويدله.

ارتمت مريم على سريرها وتقلبت عليه، ثم قالت:

- أجل يا قمر، أسأل عنه، عن صاحب دكان الزيت

جثت قمر على ركبتها عند حافة السرير وهي تقول:

- عجيب أمرك يا مريم، فمن رأى شأنك معه أول مرة لن يصدق سؤالك عنه الآن.

تنهدت مريم بعمق ثم قالت:

- ولا حتى أنا أصدق نفسي، كما لا أصدق أني...

أمسكت مريم عن الكلام بينما شجعتها قمر في حماس:

- أكملي!

رشقتها مريم بنمرقة وهي تقول:

- ما من شيء لأكمله.

- إذن أكمل أنا، أنت لا تصدقين أنكِ أحببته

- يالكِ من شيطانة.

ضحكت قمر وقالت:

- الآن تيقنت مما يختلج في نفسك.

(١٠)

أصاب أهل بلنسية الرعب والفزع، وعم المدينة الوجوم وأطبق عليها الحزن من كل ناحية. وبدأ اليأس يتسلل إلى قلوب الناس ويغشى نفوسهم، فأنساهم فرحتهم بقدوم شهر رمضان، ووصل صدى ذلك إلى رصافة (بلنسية) وقصر الأمير فيها، وبزيه العسكري وسيفه المتمنطق به، نظر الأمير إلى وزيره (ابن الأبّار) وقال:

- لا يجب أن نترك اليأس يأكل قلوب العامة، فهم وقود هذه الحرب.

رد (ابن الأبّار) مؤيدًا:

- إن نكبة أنيشة قد فعلت فعلتها في الناس، ولابد من مسالك لإحياء الأمل في قلوبهم وبعث التفاؤل بالنصر في نفوسهم.

- إن خسارة معركة يا ابن الآبار لا يعني خسارة الحرب، وإلا كنا استسلمنا منذ زمن.

- ماذا لو خرج سيدي الأمير بجيشه وطاف بجنده المدينة، حينها سيتبدل حال الناس وتُذكى فيهم جذوة الأمل التي تكاد تخبو.

تحرك الأمير وخلفه الوزير، وتطلعا من شرفة القصر المطل على ساحات المدينة، ثم قال أبو جميل:

- لا بأس في ذلك، ولنجعل مرور الجند في شوارع المدينة منتظمًا، فلعّل ذلك يبعث في نفوس العامة حب الانضمام للجيش والدفاع عن المدينة.

- أمر آخر يا سيدي.

- ما هو؟

- طلب النجدات.

تنهد أبو جميل متحسرًا وقال:

- لا مندوحة لنا عنه يا ابن الآبار، فالمدينة لن تستطيع وحدها رد عادية أراجون وقطلونية وما صاحبهما من جنود الإفرنجة والإنجليز والجرمان.

- نعم الرأي يا سيدي، وإن كان خايمي الأول قد استعان علينا بهؤلاء فما يمنعنا نحن من الاستعانة عليه بأبناء جلدتنا وقد وحد بيننا الدين الحنيف، ونجدتهم لنا وإغاثتنا حق لنا عليهم كفله لنا الإسلام.

أمسك أبو جميل بلحيته وقال وهو ينظر إلى وزيره متشككًا:

- أتراهم يفعلون، أتراهم يهبّون إلى نجدتنا كما فعل أسلافهم من قبل يوسف والمنصور؟

أجابه الوزير في حماسة بالغة:

- بل يجب عليهم أن يفعلوا، فهزيمتنا هنا هزيمة لهم هناك لو كانوا يفقهون، لن تتوقف هذه الحرب مادام قلب بالإسلام ينبض ولسان بالتوحيد يلهج، ولو تركناهم ما تركونا، ولو سالمناهم ما سالمونا، فما الأندلس يا سيدي سوى مرحلة سوف تعقبها مراحل، وسيُتبعونها بالمغرب الأقصى فالأوسط فالأدنى، ووالله لو بلغوا ذلك لقرعوا بسيوفهم أبواب القاهرة، ومن ورائها القدس إلا أن يشاء الله أمرًا...، لقد أخذوا طليطلة وأتبعوها بمجريط وبلد الوليد ثم سرقسطة وقلمرية والأشبونة، وما كَلّ عزمهم حتى أسقطوا قرطبة، وهاهم يحاصروننا في بلنسية، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

زفر الأمير بقوة ثم هز رأسه قائلًا:

- ليتهم يقتدون بأسلافهم المرابطين والموحدين، ليتهم يفعلون...

فقال ابن الآبار مواسيًا:

- ربما تكون فرصة سانحة لهم ليفعلوا.

- أرجو ذلك وأتمناه...

ثم ساد الصمت للحظات قبل أن يردف أبو جميل:

- أنت - يا ابن الآبار- خير من يقوم بهذه السفارة إلى أمير الحفصيين أبي زكريا يحيى بن حفص.

انتصب ابن الآبار قائلًا بلا تردد:

- أنا لها، إن كان الأمير يرى في خروجي خيرًا للإسلام والمسلمين.

فقال أبو جميل معللًا:

- أما أنا فلا غنى لي عنك يا ابن الآبار، غير أني سمعت أن صاحب تونس يحب التفاخر وسيفرح كثيرًا بذهابك إليه.

- وإني فاعل إن شاء الله.

رفع أبو جميل يديه داعيًا: اللهم هيئ لنا وللمسلمين أمرًا رشدًا.

ثم نظر إلى كاتبه أبو المطرف بن عميرة وقال:

- اكتب يا ابن عميرة رسالة يحملها الوزير محمد بن خلف بن قاسم يتوجه بها إلى بني هود في مرسية، وأخرى إلى ابن الجد في إشبيلية، وثالثة إلى ابن الأحمر في غرناطة، وليكن فحوى الرسالة بليغًا يصف الحال كما هو، ويدعو لنصرتنا وإغاثة المدينة قبل فوات الأوان، ويذكّر بأن بلنسية لن تكون نهاية المطاف لجيوش الصليبيين.

خلع أبو جميل خاتمه وأعطاه لابن عميرة ليختم به الكتب، وتمتم:

- سنرى أيهم أقرب لنا ودًا، وأعظم للمسلمين نفعًا

كانت السماء صاحية والشمس ضاحية والحر يلفح الوجوه عندما وقف أحد تجّار السوق في ظل دكانه المليء بأنواع شتى من الخضروات والفاكهة. بينما يتصبب العرق من كل جسده، وهو يمسك بمروحة في يده محاولا تخفيف وطأة الحر عن وجهه، وهو ينظر إلى بضائعة الكثيرة، اقتربت منه إحدى السيدات وراحت تقلب النظر في بضائعه، ثم أشارت بيديها قائلة: بكم تبيع الرمّان؟

- الرطل بثلاثة دراهم

نظرت المرأة إلى التاجر مستنكرة وقالت:

- ثلاثة دراهم في هذا؟!

فبرر التاجر:

- إنه رمان غرناطة يا سيدتي.

- وإن كان رمان الجنة، لا يستحق هذا الثمن.

- إن أردتِ، فهذا رمان (بلنسية) أبيعه لك بدرهمين.

فردت المرأة معنفة:

- ألا تتقي الله يا رجل، منذ أيام كنا نشتري هذا بدرهم واليوم تقول بثلاثة.

ابتسم الرجل وقال محاولًا امتصاص غضب السيدة:

- قد تبدل الحال، ولا أحد يدري أستصلنا بضائع من غرناطة قريبًا أم لا؟

- يا لك من تاجر جشع، والله لا أشتري منك أبدًا.

ثم تحركت المرأة وتابعت التجول، حتى اختفت في زحمة السوق، واقترب تاجر آخر من الأول ولامه قائلًا:

- لماذا لم تبع لها بثمن أزهد؟

- ألا ترى ما نحن فيه من حصار، فوالله إن لم نستغل هذه الفرصة ونتربح منها فلن نفعل بعدها أبدًا.

- ألم تعلم يا رجل بأمر السفارات وطلب النجدات؟ والله لتكسدن تجارتك إن جاءت نجدات من تونس، فقد سمعت أن صاحب إفريقية هذا سيرسل لنا مئات السفن المحملة بالبضائع، فلا تشتط في الثمن.

هز الرجل رأسه عن غير اقتناع، وقال:

- حسنًا ربما أفعل.

انطلقت الرسل تجوب ممالك المسلمين المجاورة تبحث عندهم عن أسباب الحياة وتحرك فيهم أخوة الإسلام، وفي ذات الوقت خرج الأمير زيّان بفرسانه يجوب شوارع بلنسية يغذي في أهلها روح المجابهة وحب القتال. فكان يمر على الأسوار والأبراج ويراقب كل صغيرة وكبيرة في المدينة، ويطمئن بنفسه على الأقوات وعدل تقسيمها بين الرعية. كما شدد الأمير على قناصته بمراقبة العدو وقنص كل من يحاول منهم الاقتراب من المدينة وأسوارها. فسرت بذلك روح جديدة بين أهل بلنسية وحملوا السيوف والسهام وارتفعت روح المقاومة لديهم على التسليم، وانبعثت فيهم روح الجهاد من جديد، وعمّ التفاؤل وسرى في بلنسية، وتأملوا كثيرًا في النجدات وأيقنوا أنها ستأتيهم من إخوانهم المسلمين في باقي الجزيرة وعدوة المغرب.

أما خايمي فقد نصب المجانيق وبدأ في ضرب الأسوار محاولاً هدمها، لكن أسوار بلنسية كانت أقوى من ضربات آلاته فصمدت ولم تخر. ورغم قلة عدد جند خايمي في بادئ الأمر، فلم يحسن أبو جميل استغلال ذلك ولم يخرج للقائه، بل تحصن في أسواره في انتظار النجدات، ما أعطى خايمي فرصة لاستجلاب مزيد من المرتزقة من كل نواحي أوروبا!

(11)

أمام شاطئ (بلنسية) الجنوبي، وقف (ابن الأبّار) يتأمل البحر وخفقات أمواجه، والشمس التي قريبًا ستعانقه وتغيب في أعماقه الخالدة، ذكريات جميلة مرت بذهن الوزير الشاعر، وكلمات كثيرة تخالجه، وآمال كبيرة تنتظره، فكانت كل خطوة يخطوها إبان صعوده للسفينة التي ستحمله إلى تونس، يرافقها حديث كبير مع النفس وذكرياتها، بينما تعزف أمواج البحر المتلاطمة أجمل معزوفة عرفها الشعراء.

وعلى جانب السفينة، جلس ابن الآبار مستدبرًا البحر مستقبلًا بلنسية وهو يودعها بنظرات حزينة ويستودعها بدعوات كثيرة. فقد كان (ابن الأبّار) يرتعد رعبًا من مجرد التفكير بالمصير المحتوم، لو لم يستجب الحفصي لزيارته.

أبحرت السفينة تمخر عباب البحر، وكل ساعة تمر تبعد السفينة عن (بلنسية)، وتتعمق في المجهول أكثر فأكثر، وعين (ابن الأبّار) تراقب الشاطئ ولا تلتفت عنه، مر الوقت فرحل ضوء النهار، وحلّ الليل بظلامه فاختفى الشاطئ ولم يعد (ابن الأبّار) يرى سوى السفينة وبعض أمواج تتلاطم معها تعاركها وترتطم بها، بينما السفينة لا تعبأ بتلك الأمواج المنتحرة على جوانبها، لتتلوها أخرى حانية تعانقها.

أخرج الوزير أوراقه، وبث فيها أشواقه، وراح يكتب أبياتًا في حب الأندلس يشدوها بقلمه، ومن داخل أعماقه يخيطها وينسجها، كتب وأفاض في الكتابة وكأنه أراد أن يعبر (لبلنسية) عن حبه الأبدي لها، ومع مرور الوقت لم يجد (ابن الأبّار) سبيلًا من كثرة التفكير، فاستسلم للنعاس ونام وأوراقه بين يديه، مرت الأيام تتري منذ خروج السفينة، وبعد أربعة أيام إذا بمن يهتف:

- شواطئ إفريقية على مرمى البصر.

أجال ابن الآبار البصر ودقق النظر فإذا بشواطئ تونس تظهر من بعيد، فحمد الشاعر ربه ودعاه أن يجعل التوفيق حليفه.

رست السفينة وسط فرحة غامرة من ربانها ورجاله بعد أن نجحوا في الوصول لمرفأ الأمان دون الوقوع في يد الأعداء. ودلّ ذلك على حذقهم في الملاحة، فقد كانت السفن القشتالية والأرجوانية تسيطر على البحر وتحسن مراقبته بعدما ضاعت هيبة البحرية الإسلامية بعد قرون من سيطرتها على هذا البحر الذي سماه المسلمون بحر الشام. ففضلًا عن تراجع البحرية الموحدية كثيرًا، لم تكن للدولة الحفصية قوة بحرية كافية لمجابهة بحرية أراجون ناهيك عن بحرية قشتالة.

واستبشر ابن الآبار بنجاح مهمته بعد نجاة سفينته التي ما إن رست حتى غادرها متجهًا صوب قصر المدينة وخلفه الهدايا المرسلة من بلنسية وبيعة الأمير أبي جميل زيان للأمير الحفصي.

كان الأمير أبو زكريا يحيى بن حفص في مجلسه عندما دخل عليه أحد حراسه يخبره بوصول وفد من بلنسية يتقدمهم الوزير الشاعر ابن الآبار القضاعي إلى شواطئ تونس، وأن الوفد في طريقه إلى القصر.

نظر أبو زكريا يحيى إلى أخيه عبدالله وهو يشير إليه بيده ويتمتم قائلًا:

- إنها لفرصة عظيمة أن نبالغ في الاحتفال بالرجل فنظهر قوة دولتنا ونعزز مكانتها بين جيرانها.

في فخر واعتزاز، قال عبدالله:

- لولا مكانة دولتك يا أخي ما اختارها ابن الآبار وجهة له، ومع ذلك سنقيم للوزير حفل استقبال مهيب يليق بمكانة تونس، حفل يذيع صيته ويطير ذكره حتى يصل إلى القاهرة شرقًا وتلمسان ومراكش غربًا.

اعتدل أبو زكريا في جلسته وهو يقول:

- نعم هذا ما أفكر به، فدولتنا حديثه النشأة رغم قوتها، وحفل استقبال كهذا سيوضح ويبين للطامعين كيف وإلى أين وصلت شهرتنا وقوتنا، حتى وافتنا السفارات من عدوة الأندلس، وكانت من قبل تذهب إلى مراكش، فأين نحن اليوم وأين مراكش الموحدين؟

أمّن عبدالله على كلام الأمير وقال:

- هذا ما قصدت يا أخي.

وبتصفيق من يديه، دخل عليه كبير الحرس، فأمر الأمير يحيى باصطفاف الحرس وإقامة حفل استقبال مهيب للوزير القضاعي.

مر الوقت وانتهت الاستعدادات، حتى إذا وصل الوزير ابن الآبار ووفده إلى القصر، ودخلوا على الأمير يحيى أبي زكريا بن حفص بعد أن اجتازوا أسوارًا مرصوصة من الأحراس، فوجدوه في استقبالهم على أحسن حال، فبادروه بالتحية، فردها وأظهر لهم البشاشة وحسن الترحاب، ثم اصطفى الوزير القضاعي بالجلوس إلى جواره.

قال (ابن الأبّار) في تأثر واضح:

- عندما سرت في شوارع تونس لم أشعر بالغربة عن الديار، فكأنما انتقلت بين مدينتين في الأندلس، فالبيوت هي هي، والأزقة هي هي والعادات هي هي كأن الصانع واحد!

نظر الأمير إلى ابن الآبار وقال مغتبطًا:

- دين واحد ولسان واحد ولولا البحر لكنا دولة واحدة.

- قديمًا يا سيدي لم يمنع البحر أن تكون الأندلس وهي في أقصى الغرب أن تكون تابعة وجزءًا من دمشق وهي في أقصى الشرق، فالبحر يا سيدي لا يمنع الوحدة وقد أرادتها القلوب وسعت إليها النفوس.

ثم أخرج ابن الآبار رسالة من جيبه وقال:

- قد قدمت عليك - يا سيدي - ببيعة الأمير أبي جميل زيان ومعه بيعة أهل بلنسية، ونرجو منك أن تتكرم علينا بقبولها، وهذا كتاب البيعة.

ومد يده بالرسالة للأمير.

ابتسم الأمير وعلا البشر وجهه، ثم فتح الكتاب وقرأه، ونظر إلى ابن الآبار قائلًا:

- قبل أن أجيب طلبك، أريد - يا ابن الآبار- أن تخبرني لماذا لم ترسلوا ببيعتكم إلى مراكش وقد كنتم منذ زمن غير بعيد تتبعونها؟

في أسى واضح أجاب (ابن الأبّار):

- لقد فسد أمر الموحدين يا سيدي منذ وفاة المنصور رحمه الله، ولا يخفى عليكم ما حل بهم، ناهيك عن صراعهم حول كرسي الخلافة وصراعهم مع بني مرين، وقد أصبحتم يا سيدي الورثة الشرعيين لأملاك الموحدين ونحن تبع لكم.

استند الأمير على كرسيه وقال بفخر:

- قبلنا بيعتكم وبيعة أميركم.

عقب (ابن الأبّار) وقال:

- سيدي... لقد أصبحتم قبلة المسلمين، وكيف لا وقد ذهبت قوة الأندلس وغربت شمس خلافتها، وانهارت دولة الموحدين في العدوتين، وبايعكم (بنو مرين)، بينما تحتضر دولة الأيوبيين في مصر، وها هي الخلافة العباسية في بغداد في طور نهايتها، ودولة الخوارزميين في آسيا تصارع التتار.

صمت (ابن الأبّار) برهة ثم أكمل، بينما الوجوه شاخصة إليه والآذان مصغية، فقال في صوت أشبه بالنحيب:

- قد سقطت قرطبة يا سيدي منذ عامين، وتحول مسجدها - مسجد الداخل - إلى كنيسة، ورُفِع الصليب فوق منارة عبد الرحمن الناصر، و يا ليت العدو - دمره الله - اكتفي بذلك، بل تقدم فأخذ الجزائر الشرقية، وانتهك حرمات المسلمين فيها، ونكل برجالها، ولما سكتنا عن كل هذا ورضينا بما عان منه إخوتنا ولم ننصرهم، تقدم لأخذ ما تبقى من بلادنا، وقد تركت ملك أراجون يحاصر بلنسية يا سيدي.

وغلبت (ابن الأبّار) عيناه فبكى، ثم تابع مستغيثًا ومحذرًا:

- ولئن لم تنصرنا ليأخذن العدو بلنسية، وإشبيلية، ومرسية، وجيان، غرناطة، والجزيرة الخضراء وجبل طارق، ثم ليملكن موضع أقدامكم، فالعدو لن يقنع بما تحت يده، ولن يرضى إلا إذا أباد المسلمين، فالغوث الغوث، فرجال بلنسية ستحصد أرواحهم، ونساء بلنسية ستنتهك أعراضهن، وأطفال بلنسية سيُغَير دينهم.

ثم وقف وقال بصوت فخيم رنان:

أدرك بخيلك، خيل الله، أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها دَرَسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست

فلم يزل منك عز النصر ملتمسًا

فاستعبرت عيون الأمير وحاشيته، وأكمل ابن الآبار قائلًا:

وحاش مما تعانيه حشاشتها

فطال ما ذاقت البلوى صباح مسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرًا

للنائبات وأمسى جدّها تعسًا

في كل شارقة، إلمام بائقة

يعود مأتمها عند العدا عرسًا

وكل غاربة، إجحاف نائبة

تثني الأمان حذارًا والسرور أسى

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم

إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة

ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسمًا

جذلان وارتحل الإيمان مبتئسًا

وصيرتها العوادي العابثات بها

يستوحش الطرف ضعف ما أنسا

فمن دساكر كانت دونها حرسًا

ومن كنائس كانت قبلها كُنسا

يا للمساجد عادت للعدا بيعًا
وللنداء غدى أثناءها جرسًا

وعندما بلغ ابن الآبار هذا البيت لم يتمالك الأمير نفسه وقال:

- حسبك يا ابن الآبار حسبك، فوالله لأرسلن لها المدد ولأنصرنها.

وغالب الأمير دموعًا خلف أجفنه، وبكى الحضور، ثم رفع الأمير رأسه وقال:

- أعدوا لبلنسية ما يلزمها من المؤن والسلاح فقد حق علينا نصر المؤمنين.

تم تجهيز أسطول مكون من اثنتي عشرة سفينة كبيرة، وست صغيرة. وعهد الأمير بقيادته إلى أبي يحيى بن يحيى بن الشهيد بن إسحق ابن أبي حفص الكبير، وأمره بسرعة إنجاد المدينة المحصورة، ففرح بذلك ابن الآبار واستبشر خيرًا، ثم أمر أبو زكريا بإذاعة القصيدة السينية في ربوع تونس ففعلت القصيدة فعلها في نفوس المسلمين، وتقاطرت جموعهم من كل حدب وصوب ونزلوا أرض بلنسية يفتدونها بأموالهم وأرواحهم.

بين صوت تلاطم الأمواج وارتفاعها، ركب (ابن الأبّار) إحدى السفن المتجهة صوب (بلنسية)، وكان معه في نفس السفينة الأمير (أبو يحيى بن يحيى الحفصي)، أما (ابن الأبّار) فقد ذهب إلى مقدمة السفينة ينظر في أعماق البحر يتطلع لتلك اللحظة التي يرى فيها شاطئ (بلنسية) ويرسو عليه، أغمض (ابن الأبّار) عينيه وراح يتنسم هواء البحر شوقًا إلى نسمة قد تأتي من الشمال، اقترب (أبو يحيى) منه وقال له وهو يغالب أصوات موج البحر:

- سنرسو قريبًا عند شاطئها، فطب نفسًا أيها الشاعر.

فتح ابن الآبار عينيه ونظر إلى الأمير قائلًا:

- أرجو من الله ذلك أيها الأمير.

تساءل ابن يحيى مداعبًا:

- أهو الشوق أم الخوف يا ابن الآبار؟

تنهد ابن الآبار وقال:

- شوق يغالبه خوف يا سيدي.

وضع الأمير يده على الصاري وهو ينظر إلى الماء وابتسم قائلًا:

- عما قريب يزول خوفك ويطمئن قلبك وترتاح نفسك.

أومأ ابن الآبار برأسه في صمت، واستند على حافة السفينة، وظل يتابع ارتطام الأمواج بها.

(١٣)

لوّح (عبدالرحمن) بيده في حرارة عندما لمح صديقه (زيدًا) وهو يجلس على شاطئ نهر الوادي الكبير بالقرب من برج الذهب، غير أنّ (زيدًا) لم ينتبه له أو ينظر إليه، مما حدا (بعبدالرحمن) أن يلوي رسن حصانه ويتجه نحوه، حتى إذا وصل إليه، أرخى سرج حصانه ونزل من فوقه، واتجه ناحية (زيد) الذي كان غارقًا في تفكير طويل، عزله عما حوله وقال له: -

- لمّا لم أجدك في الدكان خلتك ستكون حتمًا هنا!

رفع (زيد) بصره وبنظرات حزينة غير مكترثة، قال متنهدًا:

- لم أعد أطيق الجلوس في ذلك الدكان، فقد ضقت ذرعًا بزبائنه.

جلس عبد الرحمن بجوار صديقه وقال:

- الزبائن هم هم ما تغيروا، لكن زيدًا تغير.

صمت زيد لبرهة، ثم قال دونما اكتراث:

- ربما.

لاحظ عبد الرحمن وجوم صاحبه، فوضع يده على فخذه، وقال بنبرة جادة:

- اسمع يا (زيد)، أنا أعرفك جيدًا، وأعرف علتك. والحبُّ يا صديقي شيء جميل، ولكن لا يجب أن يعزلك عما يدور حولك.

زفر زيد بقوة وقال:

- لم يعزلني يا (عبدالرحمن) ولكنى أحببت الصمت، فلم أرد أن أتحدث إلى الناس، فبرأسي ما يغنيني عن حديث غيري.

هز عبد الرحمن رأسه وقال:

- لا شيء يغنيك عما يدور من حولك يا زيد، وقد جئتك اليوم في شأن عظيم.

تابع زيد في صمته، فأردف عبد الرحمن قائلًا:

- أريدك أن تخرج معي، وأنا أعلم أنك لن تتأخر عن هذا الأمر.

بصوت باهت قال (زيد):

- أي أمر هذا؟

- قد أمر القائد شقاق بأن تخرج النجدات إلى بلنسية، وقد اختارني لأقودها.

نظر زيد إلى صديقه في استهجان، وقال:

- ولماذا لم يخرج هو، هل يضن على بلنسية بنفسه ويخرجك أنت؟

- في هدوء وابتسامة واثقة، قال (عبدالرحمن):

- إنه لا يضن بنفسه يا زيد، وأنت تعلم ذلك جيدًا، بل وجميع أهل إشبيلية يعلمون حب شقاق للجهاد، لكنه خشي إن هو خرج من إشبيلية أن يغدر به ابن الجد.

شعر (زيد) بخطئه فاستدرك قائلًا:

- أستغفر الله، أعلم ذلك والله، لكن ضيق صدري دفعني لقول ما قلت.

- لا بأس عليك يا زيد، والآن أخبرني هل ستخرج معي في هذه المهمة؟

خفض زيد رأسه ملصقًا ذقنه بأعلى صدره قبل أن يرفع بصره بعيدًا عن عبد الرحمن ويقول بصوت متلعثم:

- اعذرني يا صديقي، لن أستطيع الخروج معك.

غارت عينا عبد الرحمن وانعقد جبينه، وهو يقول في استياء:

- لماذا؟

تنهد زيد، وقال وهو يحرك رأسه يمينًا ويسارًا:

- لا أستطيع فراق إشبيلية، لا أستطيع ذلك.

بلهجة حادة قال عبدالرحمن

- بل تستطيع! فأنت لن تخرج منها لبيع أو تجارة أو أمر من أمور حياتك، بل ستخرج منها مجاهدًا في سبيل الله، ومن يدرى فلعل الله أن يهيئ لك من أمرك رشدًا، ويجعل لك من ضيقك مخرجًا، بسبب جهادك وخروجك.

أغمض زيد عينيه بشدة ثم أخفى وجهه بين راحتي يديه، وقال:

- لا أستطيع يا عبد الرحمن، لا أستطيع أن أبدل تداني البلاد تنائيا، لا أستطيع أن أخلف قلبي ورائي، لا يستطيع جسدي أن يفارق إشبيلية وروحي باقية فيها.

نهض عبد الرحمن، ونظر إلى صديقه وقال:

- وا أسفي عليك يا زيد، ما قضينا العمر في تعلم ركوب الصافنات الجياد، والضرب بالقاطعات الشداد، حتى تتقاعس عن واجبك في نهاية المطاف. ووالله يا زيد لن ينفعك مكثك هنا في الوصول إلى إربك، فإن الله لا يبارك في سبيل يصد عن نصرة الدين.

قالها ثم امتطى صهوة جواده الذي صهل بقوة، وانطلق بعيدا حتى اختفى عن الأنظار، بينما دخل زيد في صمت طويل وقد وضع رأسه على ركبتيه ولف يديه حول ساقيه.

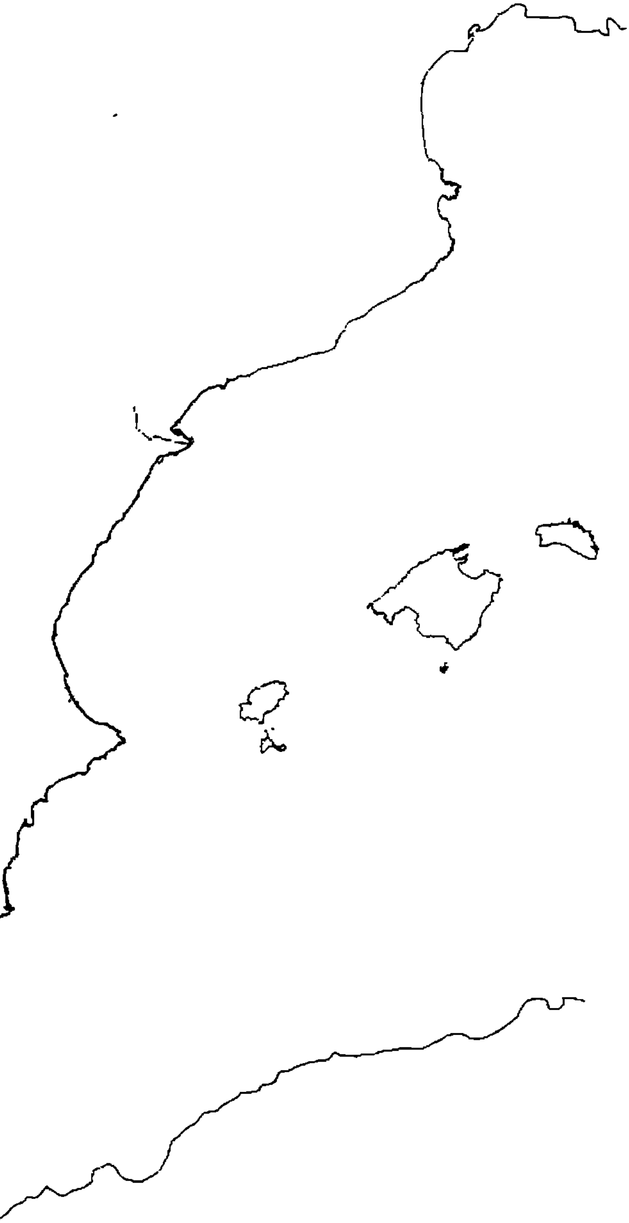

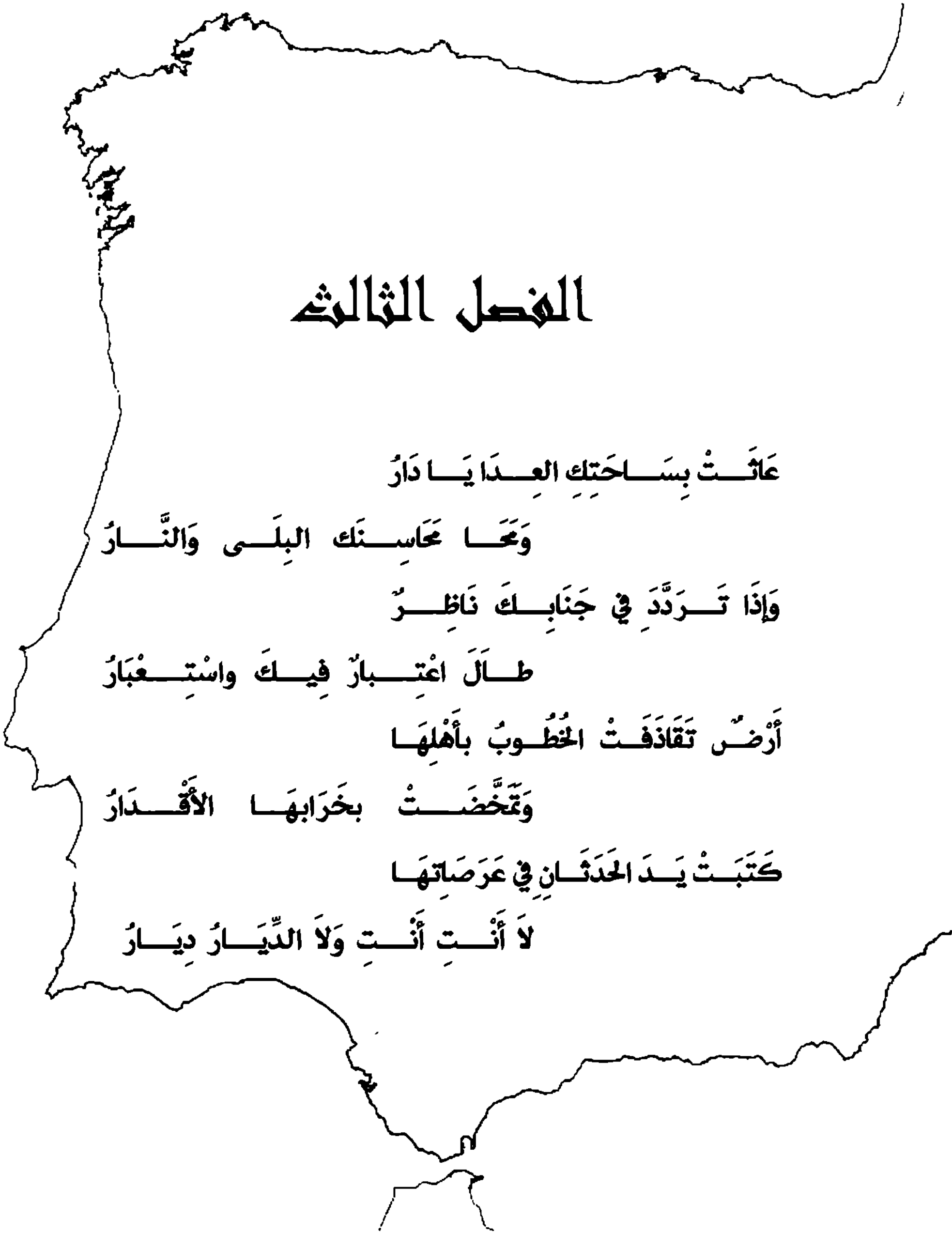

الفصل الثالث

عاثَتْ بِسَاحَتِكِ العِدَا يَا دَارُ
وَمَحَا محَاسِنَك البِلَى وَالنَّارُ

وَإذَا تَرَدَّدَ فِي جَنَابِكَ نَاظِرٌ
طَالَ اعْتِبارٌ فِيكَ واسْتِعْبَارُ

أَرْضٌ تَقَاذَفَتْ الخُطُوبُ بِأَهْلِهَا
وَتَمَخَّضَتْ بخَرَابِهَا الأَقْدَارُ

كَتَبَتْ يَدُ الحَدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا
لاَ أَنْتِ أَنْتِ وَلاَ الدِّيَارُ دِيَارُ

(١)

المدينة المحاصرة

استبشر الأمير زيّان خيرًا وتهلل وجهه عندما دخل عليه حارسه يقول له:

- سيدي، لقد وصلت أعداد أخرى من المجاهدين.

أغمض أبو جميل عينه، وقال بصوت مسموع:

- الحمد لله، الحمد لله.

ثم نظر إلى الحارس وقال:

- أمن الأندلس هم كسابقيهم؟

- بل من عدوة إفريقية يا سيدي.

لمعت عينا الأمير وازدادتا اتساعًا، وقال:

- ائتني بأحدهم.

- أمرك يا سيدي.

خرج الحارس وما لبث أن عاد ومعه أحد المجاهدين القادمين من عدوة المغرب.

نظر أبو جميل إلى الرجل، ثم سأله:

- من أين قدومك يا رجل؟

- من مدينة القيروان يا سيدي.

ترحم الأمير على فاتح القيروان في لهفة قائلًا:

- رحم الله عقبة بن نافع.

ثم استطرد:

- هل بلغك شيء عن الوزير ابن الآبار؟

- أجل يا سيدي، فقد التقى بالأمير أبي زكريا منذ أيام، ولا أظنّ أنّ غيابه سيطول فقد علمت أنه قد غادر شواطئ تونس.

رفع الأمير زيان حاجبيه وأغمض نصف عينيه، وهو يقول:

- أغادرها وحده؟!

- بل غادر مع اثنتي عشرة سفينة يا سيدي الأمير، جميعها محملة بالمؤن والأسلحة، ولولا العجلة لقدمنا معهم، لكنّا آثرنا التعجيل في القدوم إليكم.

وقف الأمير وتقدم نحو الرجل، ثم قال:

- نعم القوم أنتم.

ثم أشار للرجل أن ينطلق، فخرج من عنده بينما عاد الأمير إلى كرسيه وقال:

- أيها الحارس، ابعث في المدينة من يبشر بقدوم النجدات.

ثم نظر إلى يمينه وهو يقبض بقوة على يده، ويقول:

- فليستبشر أهل بلنسية وليعلموا أننا لن نستسلم أو نسلّم.

لم يكد الأمير ينهي قوله حتى دخل عليه الحارس مرة أخرى وهو مشرق الوجه، وقال:

- سيدي الأمير، وصل وفد من إشبيلية، ويرغب قائده في لقائكم.

نهض الأمير من مجلسه قائلًا:

- حسنًا، فلينتظرني خارج القصر، فلن أقضي يومي هذا هنا بينما تدور رحى الحرب على الأسوار.

ثم تناول سيفه وتمنطق به، وخرج من القصر وخلفه كوكبة من الحرس، وما إن بلغ وفد إشبيلية حتى تقدم منه أحدهم وقال له بعد أن أدى التحية:

- مولاي الأمير، قد انتخبني القائد أبو الحسن شقاق بـ٤ فرقة من خير رجال إشبيلية لنكون في خدمتكم وخدمة دولة الإسلام في بلنسية، ولولا ما يحيق بإشبيلية من مخاطر لكان الأمير شقاق في طليعتنا.

في زهو ووجه متهلل قال أبو جميل:

- بارك الله فيك وفي الأمير شقاق، لقد سمعت عنه الكثير والكثير، حتى تمنيت أن ألقاه.

- وهو أيضًا -يا سيدي- كان يود لقاءك لولا خوفه على إشبيلية أن تتبدل أحوالها إن هو خرج منها!

ربت أبو جميل على كتف عبد الرحمن بقوة وقال:

- نحمد الله على وصولكم، ونشكر لكم سرعة نجدتكم، وإني لأرجو أن يحذو الجميع حذوكم، فأيم الله لو تعاضدت ممالك الأندلس ما تجرّأ عليها من كانوا بالأمس يعطوننا الجزية عن يد وهم صاغرون.

في حسرة أجاب (عبدالرحمن):

- لقد دار الزمان - يا سيدي - فأصبح المسلمون يعطون الجزية بعد أن كانوا يأخذونها، وأخزى من ذلك مسارعتهم في تملق ملوك قشتالة وأراجون والتنافس على طاعتهم وكسب رضاهم. ومع ذلك، لا أظن الله يخذلكم وقد رجوتموه.

أعجب أبو جميل بحديث عبد الرحمن فسأله:

- ما اسمك أيها الفارس؟

- اسمي عبد الرحمن الإشبيلي يا سيدي

في كمد قال أبو جميل :

- أشد ما أخشى - يا عبد الرحمن - أن يكون قد سبق القول علينا بما قدمنا من ذنوب، وبقعود باقي المسلمين عن نجدتنا؛ فيكون جهادنا اليوم كتوبة من غرغر.

- لا يأس من روح الله أيها الأمير.

ابتسم الأمير ثم قال:

- صدقت أيها الفارس.

ثم رنا ببصره تجاه الأسوار التي عجّت بجموع المجاهدين المقبلين من أطراف الأندلس وعدوة المغرب، وقال:

- اليوم سنحتفل وتحتفل بلنسية بقدومكم أيها الأبطال، اليوم ستفتح هذه الأبواب لتعلم أراجون أننا قوم أولو قوة، وأولو بأس شديد.

ثم امتسح السيف من غمده وكبّر، فتبعه جنوده وكبروا خلفه، فتردد صدى تكبيرهم في آفاق بلنسية.

كانت أصوات ارتطام حجارة المجانيق لا تتوقف وهي تدكّ أسوار المدينة، حتى إذا تقدم الجنود الأراجونيون جهة السور قابلهم النبّالة المسلمون، وأوقعوا بهم خسائر فادحة، مما أرّق (خايمي الأول) وقادته، غير أن ذلك لم يفت من عضده أو يثني من عزمه على تحقيق طموحه الكبير ومشروعه العظيم.

أما في داخل المدينة، فقد تابع أبو جميل حديثه قائلًا:

- لن يتوقع الأراجونيون أن تفتح تلك الأبواب إلا لتقدم لهم مفاتيح المدينة، مما يعني أننا سنهاجمهم من مأمنهم، فنثير رعبهم ونلقي الخوف في قلوبهم، وكيف لا وقد ألفوا منا الوقوف في موقف المدافع.

أقسم (عبدالرحمن) في عزة:

- والله إني لأتوق إلى أن ألقنهم درسًا، ليعلموا أنّ المسلم قد يضعف، ولكنه لا يجبن أبدًا.

ابتهج أبو جميل وقال في اعتزاز:

- إي والله، لا يجبن، وسيعلم ملك أراجون ذلك منا.

اقترب عبد الرحمن من الأمير ونظر إليه مستفهمًا:

- هل من خطة حاضرة يا سيدي؟

- الضرب بقوة هو خطتنا، والمفاجأة سلاحنا، الذي سيبث الرعب في قلوبهم.

شهر عبد الرحمن سيفه وقال في حمية:

- نفسي فداء لبلنسية.

- لن تخرج وحدك فأنا خارج معك.

- لا يجدر بك فعل هذا يا سيدي، فمن لبلنسية إن أصابك مكروه؟ أما أنا ففرد مغمور لا يغير موته شيئًا، فالجهاد سيستمر من دوني بقائد غيري، وما أكثر القادة يا سيدي.

أومأ الأمير موافقًا ثم قال:

- على بركة الله.

وعندما انتصف الليل وحلك من غيبة القمر، فتحت أبواب المدينة، وصعد الأمير زيان إلى أعلى برج في الأسوار يراقب ما سيحدث عن كثب، واندفع عبد الرحمن يحدوه إيمانه برفعة الجهاد ويبعثه يقينه بشرف الشهادة، ومعه فرقة من الأبطال وقد وضعوا عنهم دروع الحديد الثقيلة، وتخلصوا من السابغات الواسعة كي تخف حركتهم وينشط سيرهم.

كانت سنابك الخيل تقدح الشرر، وتثير النقع وهي تعدو صوب جيش أراجون المطمئن لعدوه، أما (عبدالرحمن) فقد حزم أمره، وانطلق كالسهم يشق صفوف الأرجوانيين شقًّا، وهدفه الأول هو القضاء على رأس الأفعى (خايمي الأول) وقتله، وفي ذات الوقت فقد أمر أبو جميل ثلة أخرى من الجيش، أن تهاجم أطراف الجيش الأراجوني بقوة، فتشتت شمله وتخفف الضغط على فرقة عبدالرحمن، علها تنجح فيما رمت إليه...

التحم (عبدالرحمن) مع جيش (خايمي)، وواكب ذلك دق الأبواق بقوة من جهة (أراجون)، ونداء الله أكبر من جهة المسلمين، وصهلت الخيل، ولمعت أسنة السيوف تحت جنح الليل، وتطايرت الأشلاء، وفتح شلال الدماء يروي رمال (بلنسية) وترابها، فأثار (عبدالرحمن) بجرأته وفرقته الرعب، في قلوب الأراجونيين وكانت مقتلة عظيمة، ورغم سقوط العديد منهم قتلى، فقد استجمع الجيش الأراجوني نفسه، وتدافع لحماية الملك، الذي أفزعته المفاجأة فخرج من خيمته بلباس نومه مستلًّا سيفه، بينما تجمع الكثير من العساكر حوله، يمنعونه كي لا يؤخذ على غرة.

ومع مرور الوقت، تكاثر الجند حول خايمي، وبدأت كفته ترجح، ومع ذلك فقد نجح أحد الجنود البربر الشجعان في جرح خايمي وكاد أن يقضي عليه لولا أن عاجله بجنت بضربة أنهت حياته، وملكت فطنة القيادة البصيرة عبد الرحمن، فقرر أن ينسحب بفرقته بدل المجازفة بفنائها، فألوى العنان عائدًا إلى بلنسية بعدما أثخن في معسكر الأعداء.

كل ذلك وزيّان يتابع المعركة من أعلى الأسوار، فلما رأى انسحاب عبد الرحمن بالفرقة، أمر حاملي السهام بالاستعداد للرمي وطالب حارسي الأبواب بالتأهب للفتح، وما إن دخل عبد الرحمن والفرقتان حتى أوصدت الأبواب، وطفق حاملو السهام يقنصون متتبعيهم من الأراجونيين.

عم الفرح أزقة المدينة وشوارعها،، وشعر البلنسيون بأنّ الأرض قد اهتزت من تحت أقدام الأراجونيين، فاستبشروا خيرًا، أما الأمير فقد ضاعف الأهبة، وتوقع ردة فعل قوية من عدوه (خايمي).

(٢)

أمسكت الملكة فيولانتي بخرقة، وراحت تنظف بها جرح زوجها الذي كان يجلس في خيمته، وما إن رفعت يدها عن رأسه حتى وضع خايمي يده يتحسس جرحه، ثم قال:

- أما زال ينزف؟

تنهدت فيولانتي وقالت:

- بل توقف فاطمئن بالاً.

رفع خايمي يده عن جرحه وراح يدقق النظر فيها ليرى إن كان قد علق بها شيء من الدم، وهو يقول:

- لن أطمئن حتى أنتقم منهم. الأوغاد! كادوا يقتلونني.

- الشكر للرب على نجاتك يا حبيبي.

زفر خايمي، ثم رفع رأسه وقال:

- ماذا حل بالمعسكر؟

- تعرض لبعض الأضرار، فقد كانت غارة العرب خاطفة موجعة.

نهض خايمي وهو يقول:

- يجب أن أتفحصه بنفسي.

ثم همّ بالخروج، فاعترضت سبيله فيولانتي قائلة في جذع:

- لا ينبغي أن تطال الشمس جرحك، فلماذا لا تجلس هنا ونرسل من يأتي لك بالأخبار؟

في تحد وقوة، قال (خايمي):

- بل أخرج بنفسي ليرى المتربصون خلف الأسوار أن ملك أراجون لا يهزم ولا يخور.

ثم نحّى زوجته عن سبيله برفق وخرج من الخيمة الملكية. وما إن رآه حراسه حتى أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، ودنا منه بلاسكو دي ألاجون مؤديًا له التحية الملكية.

جال خايمي في معسكره وهو ينظر هنا وهناك، وراعه أن الجنود لم يفرغوا من نقل الجثث ودفنها رغم مرور الوقت، ولاحظ خايمي الدمار الذي حل بمعسكره فقال:

- هل هذا كل شيء؟

طأطأ بلاسكو دي ألاجون رأسه في أسف وقال:

- لقد نجحوا في الاستيلاء على بعض الأسلحة كما أفسدوا الكثير من المؤن.

عض خايمي على نواجذه وزمجر:

- أقسم أنهم سيدفعون الثمن، لن أغفرها لهم أبدا.

ثم رمق بلاسكو دي ألاجون بطرفه، وقال معنفًا مأنبًا:

- أما أنت يا بلاسكو فعليك بعسكرك، اعرف المتخاذلين والمتقاعسين وعاقبهم.

أومأ بلاسكو دي ألاجون وقال:

- أمرك يا سيدي.

نظر خايمي إلى بلاسكو دي ألاجون وقال في غلٍ شديد:

- لا أريد أن أرى في هذه المدينة حجرًا على حجر، اقذفوها بالمجانيق، اضربوها بكل قوتكم حتى يعلم هؤلاء المسلمون كيف يكون انتقام ملك أراجون.

سارع (بلاسكو دي ألاجون) بتنفيذ أوامر الملك، ولم تمر دقائق حتى انطلقت المجانيق تدك بحجارتها الضخمة أسوار (بلنسية)، و(خايمي) يتابع ذلك ويقول محمسًا لجنده:

- لا تدعوا فيها حجرًا على حجر، ولا توقفوا الضرب حتى تذعن المدينة إلى الطاعة.

ثم عاد إلى خيمته وتبعه بجنت الذي قال:

- مولاي الملك، إن أسوار بلنسية قوية التحصين وما أراها تتصدع من حجارتنا، كما أن نبالتها يقظون فلن نفلح في الاقتراب منها لنقبها بدباباتنا أو تسلقها بسلالمنا.

أمسك خايمي كأس خمر وراح يرتشف منه، ثم وضعه جانبًا، وقال لبجنت:

- فما الحيلة إذن؟

ابتسم بجنت في خبث وهو يقول:

- الجوع يا مولاي، أرى أن نجوّع المدينة فيسقط بالسغب ما لن يسقط بالحرب.

نهض خايمي إلى باب خيمته دون أن يخرج منها ميممًا وجهه شطر أسوار بلنسية، ثم قال:

- لن نوقف المجانيق يا بجنت، بل نجمع بين الجوع والفزع، ولن ندع لهم سبيل حياة إلا أغلقناه.

وسعيًا منه للتمسح بأذيال الملك، أردف بجنت قائلًا:

- ماذا عن البحر يا مولاي؟

استوى خايمي على كرسيه متعاظمًا، وقال:

- سبق وأن أشرت علينا في هذا يا بجنت فأجدت، ومع ذلك سنرسل إلى أمير البحر نأمره أن يغرق كل سفينة تقترب من شواطئ بلنسية، وأن يقتل كل من يحاول الخروج من المدينة أو الدخول إليها بحرًا.

(٣)

النجدات

مر زمن طويل لم ينفك فيه ابن الآبار عن النظر من أعلى صاري السفينة باتجاه الشمال حيث بلنسية الحبيبة وكأنه يستعجل اللقاء، وقد ساوره الخوف من سقوطها قبل وصوله. لذلك ظل واقفًا يراقب الماء وينظر إلى أبعد نقطة تصل إليها عينه، ويرجع بصره هل يرى لها ساحلًا ثم يرجع البصر كرة أخرى عساه يرى لها جبلًا!

كان الوقت يمر عليه ثقيلًا بطيئًا حتى خُيِّل إليه أن البحر قد تمدد مباعدًا بين تونس وبلنسية! وكانت أشعة الشمس تسقط على وجهه لافحة حتى أزاغت بصره، فلم يجد بدا من النزول إلى سطح السفينة. واقترب منه أبو يحيى قائلًا:

- لن تغيب شمس هذا اليوم إلا ونحن نشاهد أسوار المدينة، فطب خاطرًا.

أغمض ابن الآبار عينيه وسحب قدرًا عظيمًا من هواء البحر إلى رئتيه، ثم تنهد قائلًا:

- أرجو من الله ذلك أيها الأمير، فقد كدت أهلك خوفًا.

لم يكمل ابن الآبار كلمته حتى صاح أحد الملاحين:

- اليابسة... بلنسية على مرمى البصر.

تهلل وجه (ابن الأبّار) وابتسم حتى ظهرت نواجذه، وقال بحرارة:

- الحمد لله، الحمد لله.

أما الأمير أبو يحيى فقد أعطى أوامره للملاحين بسرعة التجديف ومضاعفة الهمة حتى يتسنى لهم دخول المدينة قبل الغروب، فاندفعت السفن تمخر ما تبقى من مياه البحر، في سبيلها إلى شواطئ المدينة المحاصرة.

وفجأة صرخ الأمير أبو يحيى آمرا:

- توقفوا! توقفوا عن التجديف!

ارتاع ابن الآبار لصوته وقام من فوره ينظر إلى الأمير تارة وإلى البحر تارة وهو يقول:

- لماذا يا سيدي؟

زفر أبو يحيى في أسف وأشار وهو يقول:

- انظر!

نظر ابن الآبار إلى حيث يشير الأمير أبو يحيى فرأى أسطولا أراجونيا يرابط قريبًا من شواطئ بلنسية، فاسودت الدنيا في عينيه واكفهر وجهه ولاذ بالصمت.

ركدت السفن الحفصية على ظهر البحر، وراح أبو يحيى ينظر إلى سواحل بلنسية في أسف جمّ وقد عيي بالمخرج. وظلٍ أبو يحيى يدور في السفينة ويدوّر الأمر في رأسه حتى اقترب منه ابن الآبار قائلا:

- لابد أن ندخل المدينة وإلا مات من بها جوعًا وقد طال الحصار.

- يا (ابن الأبّار)، انظر إلى السفن الأراجونية فهي أكثر منا عددًا وعدة، ولو اقتربنا منهم، سندخل معهم في حرب خاسرة.

تحسر ابن الآبار أيما حسرة وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لو أرسل الأمير مع هذا السلاح جندًا لما كنا في مثل هذا الحال الآن!؟ وا حسرتاه، فلك مشحونة بالمؤن والأسلحة بلا رجال! ثم نظر إلى السماء مناجيًا نفسه: رحم الله ابن تاشفين، فقد لبى نداء إشبيلية بنفسه وجنده، وما فائدة السلاح إن عُدِم من يحمله! وما فائدة المؤن إن عجزنا عن حمايتها وإيصالها.

شعر أبو يحيى بما يدور في خلد ابن الآبار، فتقدم منه واضعًا يده على كتفه وقال:

- إذا حلت المقادير ضلت التدابير يا بن الآبار، فلا تتحسر على ما فات وهلمّ نفكر فيما هو آت.

نظر ابن الآبار إلى الأمير وقال:

- يجب أن نوصل هذه المؤن مهما كلف الأمر.

صمت أبو يحيى وجحظ إلى سفن الأراجونيين وهو يدير الأمر في رأسه محدثًا نفسه: لسنا مستعدين لخوض حرب بحرية... لقد جئنا لإيصال المؤن والأسلحة فحسب! كيف السبيل لإنجاز المهمة والحال على غير ما ظننا؟

كان لجب البحر وصخب الموج يصم الآذان، ورذاذ الماء يتطاير على الوجوه ويبلل سطح السفينة، وعيون الأراجونيين قد انتبهت إلى السفن الحفصية وراحت تراقبها عن كثب. وبعد تفكير طويل، قرر الأمير أبو يحيى بن يحيى أن يُظهر الابتعاد عن الشاطئ حتى إذا جن الليل وأرخى سدوله، تقدم بالسفن متسللًا إلى شواطئ المدينة المحاصرة عسى أن يبلغ الأسوار.

فطن الأسطول الأراجوني للحيلة واستعد لها، فما إن اقتربت السفن الحفصية حتى اشتبك معها في حرب غير متكافئة، اضطر على إثرها الأسطول الحفصي إلى الانسحاب بعد أن فقد بعض قطعه.

وهنا تقدم (ابن الأبّار) ونصح الأمير أن يحاول الوصول إلى خليج جراو Grao، الواقع جنوب شرقي المدينة، بحذاء مصبّ نهر طورية، أو نهر الوادي الأبيض Guadalaviar، الذي يخترق (بلنسية) بعد مصبه بقليل، ولكن المحلة النصرانية كانت تحتل اللسان، الواقع بين الخليج وبين المدينة، ومن ثم فإنَّ رجال الأسطول، لم يستطيعوا الوصول إلى المدينة، ولم يتمكن أهل المدينة من جهة أخرى، من الوصول إليهم.

وعندئذ حاولت السفن المسلمة أن تبعث الأمداد إلى أهل المدينة من ناحية الشمال، فسارت شمالًا بحذاء الشاطئ حتى ثغر بُنُشكلة الصغير، الواقع شمالي قسطلونة، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضًا لظهور السفن الأراجونية، واضطرار السفن التونسية إلى الإقلاع صوب الجنوب، ولأنه كان غير مستعد للقتال، ولأنه لم يخرج بنية الجهاد كسابقيه، فقد انتهى الأمر بأن أفرغت السفن التونسية شحنتها في ثغر دانية، بعيدًا عن الثغر المحاصر، ثم أقلعت عائدة إلى إفريقية، ومعها المال إذ لم يحضر من قبل الأمير زيّان من يتسلمه!

وما فائدة المال في مدينة محاصرة؟ وهل سيأكل أهل (بلنسية) ذهبًا أو فضة؟!!

وهكذا فشلت هذه المحاولة التي نظمت لإمداد المدينة المحاصرة ونجدتها، وتُركت بلنسية لمصيرها المحتوم وحيدة في وجه ملك أراجون الذي حشد لها من كل أوروبا بينما تقاعس المسلمون عن إخوانهم المحاصرين! وكأن التاريخ حكرًا على أعدائهم ففهموه ولم يفهمه المسلمون منذ سقوط طليطلة!

وحاول الأمير أبو يحيى بن يحيي أن يصطحب معه الوزير الشاعر عائدًا إلى تونس، لكن ابن الآبار أبى وقرر مشاطرة أهل بلنسية محنتهم، فنزل في ثغر دانية، ومنه تسلل إلى بلنسية واستطاع دخولها.

(٤)

وقف زيد صامتًا ساكنًا على ضفة الوادي الكبير يراقب جريان مائه وارتداد ضوء الشمس على صفحته، وقد انعقد حاجباه في شدة، توحي بغرقه في بحر من التفكير العميق

مر الوقت و(زيد) لا يبدل وقفته، وفجأة سمع صوتًا يقول له:

- أستظل هكذا طويلًا؟

استدار زيد، فلانت ملامحه وأرسل زفرات يأكلن قلب الجليد، ثم قال:

- إلى أن أسمع صوتك.

ابتسمت مريم وقالت في دلال:

- ماذا لو لم آتِ؟

شهق زيد وقال:

- إذن لبقيت هكذا أبد الدهر، لا أفكر إلا فيكِ.

خطت مريم بضع خطوات إلى الأمام مبتعدة عن زيد، ثم التفتت إليه وقالت وهي تعبث بأصابعها:

- أتدري يا زيد، إن كل كلمة تقولها لي تثبت في ذهني كما ثبتت في راحة الكف الأصابع، حتى إذا خلوت إلى نفسي رحت أتخيل طيفك وأردد قولك فيخفق وجداني ويضطرب فؤادي كأنك ماثل أمامي.

بادلها زيد الابتسامة ونظر إلى عينيها، فأشاحت بوجهها عنه في خجل، فقال لها:

- حالي كحالك، فلا أكاد أفارقك حتى يلمّ بي طيفك أحدثه ويحدثني، وأسبح في حلم جميل، لا أريد أن أصحو منه أبدًا، حتى إذا حان موعد لقائك، ذهبت أفكر فيما سأقوله لك، وأبثه من أشواق، فأنا بذلك بين ما قلته لك أو سمعته منك، وبين ما سأقولَه لك، فكأنّ اليوم كله معكِ وما أسعدني بهذا!

أسكرت كلمات زيد قلبَ مريم، فرنت إليه بمحاجر دعجاء وسرعان ما تسترت بالإطراق والسكوت، فراح زيد يبدد خجلها ويستنطقها قائلًا:

- انظري حولك، أليس هذا جميلًا؟ قد كنت أرى أنّ هذا المكان كغيره من (إشبيلية)، لكني الآن أراه أجمل ما فيها.

رفعت مريم رأسها وقد بدا مبسمها وقالت:

- فما الذي جَمّله في عينك؟

- جَمُل في عيني لأني انتظرتكِ فيه والتقيتكِ فيه وكلمتكِ فيه.

ثم يمّم وجهه شطر النهر ورفع صوته في سعادة قائلًا:

- أنا أسعد الأنام بك وبهذا المكان.

تبادل و(مريم) النظرات، والكلمات، ومر الوقت سريعًا، ولم ينتبها إلا عندما تحدثت (قمر)، التي التفتت إلى الشمس المحمرة في كبد السماء، وقالت:

- أوشكت الشمس أن تغيب، يجب أن ننصرف.

نظر زيد إلى الشمس، ثم قال ضاحكًا:

- أما كان لك أن تتأخري قليلًا؟

ثم استطرد قائلًا:

- لم تغرب بعد يا قمر.

قمر:

- إن غربت فلن ألقى من سيدتي سوى التعنيف والتقريع، وربما يكون عقابها منعنا من الخروج.

أومأت مريم برأسها توافق قول قمر، ثم قالت:

- يجب أن ننصرف الآن.

نظر زيد إليها في هيُام وقال:

- عزائي إنكِ في قلبي ووجداني، فهل أنا كذلك؟

احمر وجه مريم خجلًا ثم استجمعت قوتها وقالت:

- بل أنت كل قلبي وعقلي، وتالي أيامي.

زيد:

- سقيتني بكلامك هذا سُلوانا.

قمر:

- لو تركتما لما فرغتما.

ثم أمسكت بيد مريم وجذبتها فمشت معها، وعيون زيد لا تفارقها حتى غاب ظلها. ثم نظر زيد إلى الشمس التي توارت بالحجاب وقال:

- لماذا أنت هكذا دومًا، ألا من أحد يُمسك غيابك، فلا تغيب وتحرمني (مريم)؟

(٥)
اليـــأس

سرت الأنباء عن عودة الأسطول الحفصي بعد خيبة مساعيه في الوصول إلى شواطئ المدينة، فانتاب أهلها الهمّ وعمّ فيهم الحزن وتسرب إليهم اليأس خاصة، وقد بدأت أقوات المدينة تنفذ وشبح الجوع يطل، بينما عدوهم في سعة من حاله، تأتيه المؤن من كل مكان بل إن جمهورية جنوة أرسلت تمده بالجند والعتاد ليس لشيء إلا لأنهم كاثوليك بعضهم على دين بعض. لذا فقد كانت مشاركة ملك (أراجون) حربه ضد المسلمين في عقيدة الكاثوليك، صك غفران لمن شارك فيها، فتسارعوا في ذلك، يمدهم حقدهم العميق ضد الإسلام وأهله.

حاول ابن الآبار أن يبث بشعره روحًا جديدة بين البلنسيين، وأن يكون ملهمًا لأهل بلنسية في محنتهم، محاولاً أن يجعلهم يتمسكون ببصيص الأمل في حربهم تلك، رافضا في ذات الوقت أن يجعلوه سببًا ليأسهم، بعدما عاد إليهم خالي الوفاض وقد كانوا يأملون ويمنون أنفسهم بعبور مغربي جديد!! وما علموا أن ابن تاشفين قد مات ودفن في تراب مراكش! فلا زلاقة بدون يوسف ولا أرك بدون المنصور، وطارق وموسى قد ماتا من قبل، ولم يعد لأهل بلنسية غير سيوفهم في ساحة الوغى.

ورغم كل شيء، فقد استقبل الأمير زيان وزيره بالترحاب وأكبر له عودته وقد كان قادرًا لو شاء أن يمكث في تونس ويبعد بنفسه عن الأهوال. فما كان من الأمير إلا أن أحسن استقباله بل واحتضنه بقوة وقال:

- مرحبًا بعودة الوزير الشاعر، لقد افتقدتك يا ابن الآبار.

خفض ابن الآبار رأسه، وقال في أسف وشجو:

- ما كان لي إلا أن أعود أيها الأمير، فبلنسية مني وأنا منها، ولكم وددت لو عدت لها بما يحييها.

زفر أبو جميل وقال:

- قدّر الله وما شاء الله، فلا تحزن يا بن الآبار...

ثم استطرد قائلًا:

- ماذا عن المؤن والسلاح؟

- لقد حاول الأسطول الحفصي إيصال المؤن والمال إليكم ولكن إحكام الأراجونيين للحصار حال دون ذلك يا سيدي.

تمتم أبو جميل في حزن:

- يفعل الله ما يريد...

وفي تلك الأثناء دخل عبد الرحمن الإشبيلي، وفي أنفة وشكيمة رفع صوته قائلًا:

- لم نكن بحاجة إلى الأسلحة والمال أيها الوزير الشاعر، قدر حاجتنا إلي الرجال ومن يحمل السلاح، وإلا فما الفائدة من الذهب والمال هنا؟ هل سيحارب المال عنا؟ هل سيرفع الذهب هذا الحصار؟ هل سيأكل أهل (بلنسية) ذهبًا أو فضة؟ أم أنّ أمير تونس كان يظنّ أن (خايمي) سيرضى بالمال، ويترك لنا الديار؟!!

ثم استطرد قائلًا:

- والله لو صدق الله معنا لخرج بقواته إلينا لا بماله، ولأعاد للدينا سيرة ابن تاشفين الذي استنصره ملوك الطوائف، فنصرهم بسيفه ونفسه لا بذهبه وماله! ثم هب أن الذهب والمال قد وصلا إلينا، فماذا سنصنع بهم ونحن خلف تلك الأسوار اللعينة؟ هل سنخرج نبتاع من الأراجونيين السلاح والطعام؟

ثم طأطأ رأسه أسفا وقال:

- لا أيها الوزير نحن لسنا في حاجة لأموال الحفصيين إن تقاعسوا عن نصرتنا بأنفسهم.

انعقد حاجبا (ابن الأبّار) وهو ينظر إلى الشاب معجبًا بحماسته وطلاقة لسانه، ومستفهمًا عن شخصه في ذات الوقت، ومتعجبًا كيف يرفع صوته في وجه الوزير وأمام الأمير هكذا، وبينما هو كذلك يفكر في صمت إذ أكمل (عبد الرحمن) فقال بصوت أقل ارتفاعًا ممتزجًا ببعض الهدوء:

- اعذرني أيها الوزير على حدة لهجتي ولا تؤاخذني بغلظة قولي، فلولا أن نطق به لساني لانفجر عنه صدري.

فهم أبو جميل نظرات وزيره فقال وهو يشير بيده إلى عبد الرحمن بينما يقبل بوجهه نحو ابن الآبار:

- هذا عبد الرحمن الإشبيلي، صاحب الأمير شقاق وحافظ سره، وهو هنا منذ خروجك يشاركنا الحصار وأهواله.

نظر (ابن الأبّار) إلى (عبدالرحمن) نظرة إكبار، وقال ممتنًا:

- بوركت أيها الشاب وبورك مسعاك، والله لقد صدقت في حديثك، غير أنه ما كان لي أن أرغم أمير تونس على تقديم أكثر مما قدم، وقد كنت آمل أن تصل المؤن فتعيننا على الحصار.

عبد الرحمن:

- ماذا كان على أمير تونس لو بعث إلينا بجيش يعيد أمجاد الزلاقة والأرك؟

ابن الآبار:

- لو شاء يا عبد الرحمن لفعل، لكن لم تطمح نفسه إلى ذاك وليس كل الحكام يوسف بن تاشفين يا ولدي.

أمّن الأمير على كلام وزيره، وقال:

- نعم ليس كلهم (يوسف بن تاشفين).

ظهر الحزن على وجه الأمير، بينما سيطر الغضب على وجه (عبدالرحمن) وإذا بالوزير يقول:

- لقد عدت إلى هنا لأتحمل معكم الحصار وأشارككم فيه، فإما ننجو جميعًا أو نرقى جميعًا إلى الجنة، لذلك لا أريد أن تكون عودتي سببًا في اليأس الذي أراه في الوجوه، وإن عزّ علينا النصير والمغيث، فما زلنا نملك القدرة على حمل السيف وضرب الرمح وركوب الخيل، ولن يدخل (خايمي) (بلنسية) قبل أن نرويها بدمائنا ونفديها بأرواحنا.

(٦)

استغل خايمي حالة اليأس التي خيمت على أهل بلنسية بعد نجاح أسطوله في رد الأسطول الحفصي، فأنزل بالمدينة ضربات عنيفة متوالية. وأفاد من الجوع الذي كان يقطع أمعاء أهلها وجندها، فأرسل بسرية من جنده قصدوا احتلال الرصّافة واقتحامها من ضاحيتها الشرقية، فهّب الأمير أبو جميل وجيشه للدفاع عنها، ومعه عبد الرحمن وجموع من المتطوعين، فاستطاعوا بعد جهد ورغم الجوع أن ينزلوا بالمهاجمين خسارة فادحة أجبرتهم على التراجع.

لكن الأراجونيين لم ييأسوا ولم يستكينوا للهزيمة أو يعترفوا بها، بل عاودوا الهجوم مرة أخرى محاولين ثلم الأسوار، وبنصح من بجنت وأمر من خايمي، كثف الأراجونيون الهجمات وركزوا الضرب حول بلدة سليا ضاحية بلنسية الجنوبية، فهّب الجميع لنجدة الضاحية، وحمي وطيس الحرب، فالمهاجمون يقاتلون بشراسة والمدافعون لا يتراجعون بل يُقتلون في أماكنهم، ولم تنج حتى الخيول من القتل، فقد كانت هدفًا للنبّالة، وراح عبد الرحمن يضرب بسيفه هنا وهناك، يفلغ الرؤوس ويبعج البطون كأنه الموت الزؤام يعجل بالنفوس، فلم ينبو صارمه ولم يكل ساعده، وكذلك كان الأمير، أما عامة جند بلنسية فلما رأوا أميرهم يقاتل في بسالة حذوا حذوه، وراح كل فرد يقاتل كأنه جيش وحده، حتى أن الجرحى رفضوا أن يبارحوا الميدان وظلوا يستميتون في القتال، ومن عجز منهم عن الوقوف وحمل السيف أخرج خنجره وأعمله في أرجل العدو. وظل الوضع هكذا حتى فني معظم جيش بلنسية، إذ كانت أعداد المهاجمين كثيرة وكلما قتل منهم فرد خلفته أفراد، أما البلنسيون - فرغم شجاعتهم - كانت أعدادهم محدودة ومن سقط منهم خلا محله ولم يوجد من يعوضه. ومع مرور الوقت، ظهرت بدت أمارات الفناء على المدافعين، فاضطروا لترك الضاحية لمصيرها بعد أن رووها بدمائهم، ورووا سيوفهم من دماء أعدائهم.

(٧)
خريف بلنسية

تطايرت أوراق الشجر الصفراء اليابسة، تذروها الرياح هنا وهناك، فقد حلّ الخريف بكل ما يحمله من معان، فالأشجار غدت عارية وقد خلت من أوراقها، والرياح قد اقتلعت ما تبقى منها، والشمس قد أصبحت عزيزة تخرج أحيانًا على استحياء، وتحجبها السحب أغلب الوقت، وبدا الخريف هذا العام مختلفًا فقد عم فيه شبح الفناء أرباض (بلنسية) وأزقتها، فكان نذيرًا بالفناء خاصة بعد نجاح الأراجونيين في احتلال ضاحية سليا، وخبو الروح المعنوية للجند، وموت الكثير من أهل (بلنسية) جوعًا وحرمانًا، وامتلأت الأزقة بالجند جالسين وأسلحتهم بجوارهم، لا يقدرون على حملها بعدما بلغ منهم الجوع مبلغه!

كان المشهد مريعًا، وكان قد مر على الحصار زهاء خمسة أشهر، فماتت الحماسة داخل الجند، واشتد البلاء بأهل المدينة، وثلمت الأسوار والأبراج في غير موضع، واستغل خايمي ذلك فأمطر المدينة برسائل تحذير، يخوّف البلنسيين فيها من عاقبة تحديهم له وعدم الانصياع لأمره، مذكرًا إياهم بما حل بالجزائر الشرقية، بل ومهددًا الأمير أبو جميل نفسه بمصير حاكم الجزائر وكيف مثل به وقتله.

وأتت تلك الرسائل أكلها، فقد زادت الناس خوفًا على خوفهم ويأسًا على يأسهم، وهم يرون إصرار الأراجونيين على سلب مدينتهم، ويسمعون ألسن المعوقين تردد إلى متى يستمر الحصار؟ ماذا لو أخذ ملك أراجون المدينة عنوة؟ لماذا لا نستسلم ونسلم نظير الأمان؟ أليس ذلك أفضل من الموت جوعًا أو قتلًا على يد ملك أراجون؟

راجت تلك الأقاويل في المدينة وانتشرت كانتشار النار في الهشيم، وراح كل بلنسي يقوم مقام الأمير ويقضي في الأمر عنه. وبالنهاية تدخل أعيان المدينة ووجوهها لإقناع الأمير بعبث الحرب ووجوب التسليم، فأتوه صفًا واحدًا، وقال أكبرهم سنًا:

- سيدي الأمير لا جدوى من هذه الحرب وقد عدمنا الأنصار وثلمت الأسوار واستشهد الأخيار، وجاع الصغار.

ثم صمت وتابع الأدنى منه سنًا فقال:

- وقد أعذرت إلى ربك بما قدمت طول هذه الأوقات، فأرسلت بالسفارات، وطالبت بالنجدات، وحاربت بنفسك في الصولات، وانتصرت عليهم في بعض الجولات.

وتابع ثالث فقال:

- غير أنهم يا سيدي لن يرضوا بغير أخذ المدينة، وقد شحت الأرزاق وأصابنا الوهن من الجوع، ولا نريد يا سيدي أن نستسلم مرغمين فيمثل بنا الصليبيون كما فعلوا في الجزائر الشرقية.

نقل الأمير ناظريه في وجوه الناس ثم قال:

- قد عاودت الاتصال بممالك المسلمين المجاورة، فلو تريثنا وصبرنا فلعلهم ينفذون إلينا بعوثا بالإغاثات.

وما كاد الأمير يتم كلامه حتى كثر اللغط، فصاح بهم الأمير وزجرهم، عندها تقدم أحد التجار فقال:

- يا سيدي الأمير ما نحن إلا خدم بين يديك، ولو خضت بنا هذا البحر لخضنا معك...، وإنا نعلم يا سيدي أنه يعتريكم بعض الأمل فيحملكم على إسكات صوت العقل، أتحسبون أن هؤلاء الذين استصرخناهم في أول المصاب - وكان الأمر أهون - فأصموا عنا الآذان ينصروننا في آخر المطاف وقد صار الأمر أصعب.

خفض أبو جميل رأسه ثم طأطأه في حزن، وقال في هدوء:

- لا حول لا قوة إلا بالله، لقد حاق بنا صنيعنا بأهل قرطبة يوم تقاعسنا عن نجدتهم، فلم يمتنا الله حتى أوردنا مشربهم وأوقفنا موقفهم.

تعالت أصوات أعيان بلنسية ووجوهها مرة أخرى قائلة:

- سلمها يا سيدي صلحًا خيرًا من أن نُستعبد فيها، أخرجنا منها بالأمان خير من أن تدخل علينا من أقطارها، دعنا نخرج بأفضل الشروط.

نزلت تلك الكلمات كالصواعق على سمع الأمير الذي نظر إلى وجوه فرسانه يلتمس قبسًا من الأمل أو جذوة من الحماس، فما وجد. أما عبد الرحمن فقد رفع صوته رافضًا التسليم، فضاع صوته الوحيد بين أصوات المطالبين بالتسليم، وعدوه غريبًا عنهم رغم ما فعله من أجلهم ورغم الدين الذي جمعه بهم وجاء به إليهم، لذا تولى عنهم إلى مسجد المدينة يودعه وقد استيقن أنها مسألة أيام ويصير كما صار مسجد قرطبة من قبله كنيسة يعبد فيها غير الله.

وفي أحد أركان المسجد، جلس (عبدالرحمن) يبكيه ويصلي فيه ويودعه بحرارة شديدة، ويبدى أسفه لما كان وما سيكون، ثم نهض وتوجه إلى المحراب ووضع يده على آيات منقوشة فيه، وهو يقول بصوت باكٍ:

- كيف لهذه الآيات أن تُطمس؟ وللمصلين أن يُمنعوا من الدخول فيه؟ كيف يحول الطاهر إلى نجس والطيب إلى خبيث؟ كيف يتم دقّ الأبواق بدل الأذان وفينا عِرق ينبض؟

ثم انتحب قائلًا:

- يا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسيًا منسيًّا!

مرّ الوقت وعبدالرحمن على حاله، وبعد ساعة وقبل أن تكتب بنود التسليم، خرج عائدًا إلى (إشبيلية)، حتى لا يشاهد المدينة التي حارب من أجلها وصام فيها، قد تحولت إلي بلد لا يذكر فيه اسم الله... تركها قبل أن يتركها أهلها، تركها قبل أن يُجبر على تسليمها.

بعد اجتماع الأعيان بالأمير، فتُحت أبواب المدينة وخرج منها ثلاثة رجال رافعين راية الرسل، في طليعتهم الوزير ابن الآبار، ومعه ابن أخ الأمير- أبي الحملات - الذي شاء القدر أن يكون شاهدًا على كتابة المعاهدة الذليلة.

وما إن خرج الوفد للتفاوض حتى سكتت حجارة المجانيق، بعد أن علم القوم أنها بوادر التسليم، فلما يهدمون ويخرّبون ما سيكون لهم بعد قليل!

وما إن وصل (ابن الأبّار) إلى خيمة الملك حتى بادر بالتحية، وهو يرمق الملك بنظرات حزينة لكنها عزيزة، ثم قال:

- أتيناك أيها الملك، لنتفاوض في أمر تسليم مدينتنا صلحًا.

هز الملك رأسه واسترخى على كرسيه، قبل أن يمسك بكأس فيه بعض الشراب ثم ارتشف منه وقال مستنكرًا:

- مدينتكم!!

في إصرار قال (ابن الأبّار):

- أجل، مدينتنا التي ما جئنا نسلمها إلا بعد أن أعذرنا في الدفاع عنها ولولا تخاذل إخواننا وتشتت ممالكنا ما كنت لتدخلها علينا أبدًا. نعم مدينتنا التي ستأخذها، بضعفنا وتفرقنا أطيافًا وشيعًا متقاتلة.

مط الملك شفتيه وقال في خبث ودهاء:

- قد علمت من رجالي أن نسب الوزير ينتهي إلى قضاعة.

نظر ابن الآبار إلى بجنت في احتقار وحسرة، ثم التفت إلى الملك وقال في اعتزاز:

- نعم أنا قضاعي الأصل.

تمتم الملك وقال في مكر:

- كيف إذن تقول إن (بلنسية) مدينتكم، وأنتم لستم أهلها ولم تكونوا يومًا منها وما ملكتموها إلا بحد السيف؟

ثم أردف في تغطرس وصلف:

- أليس الأصح أن تقول - وأنت الشاعر البليغ- أتيناك أيها الملك لنرد إليكم مدينتكم التي أخذناها زمن ضعفكم.

ابتسم ابن الآبار ابتسامة قهر ثم قال محاولاً اختصار الجدال:

- جئناك أيها الملك للتفاوض على كل حال!

استبد بخايمي الغرور فقال:

- إذن تقرُّ أنها أرضنا وقد عادت إلينا؟

وفي عز يناطح شمم الجبال، قال ابن الآبار:

- بل هي بلادنا التي سنسلمها لك أيها الملك.

رد خايمي مستخفًا:

- إن كانت بلادكم فلمَ تسلموها؟

أخذ ابن الآبار نفسًا عميقًا، ثم قال:

- نسلمها لأننا حدنا عن طريق صونها، يوم أن تقاتلنا وصار بأسنا بيننا شديدًا، يوم أن نسينا الطريق الذي سار فيه أسلافنا من بني أمية والمرابطين، يوم أن استعان أجدادنا بأجدادكم أيها الملك...

استعنّا بكم علي أنفسنا وضربنا بعضنا بكم...

بلى يا سيدي الملك هي بلادنا التي لا نعرف لنا أرضًا سواها، وإن كنت أنا الوزير (ابن الأبّار) من قُضاعة، فأنا لست كل (بلنسية) ولست كل أهل الأندلس، وأنا وقومي لا نمثل إلا أقل القليل من أهل الأندلس اليوم، أما جل أهلها يا مولاي فهم أهلك الذين أسلموا، فلما أسلموا حسبتموهم غرباء عنكم أعداء لكم...

لقد دخل (طارق بن زياد) يا سيدي تلك الأرض ومعه اثنا عشر ألف جنديَ فقط، ثم تبعه (موسي بن نصير) بثلاثين ألفًا، فما هي نسبة هؤلاء بالنسبة لأهل تلك البلاد وقتها؟؟ هذا ولو طبقنا قولك أيها الملك علي جيشك لعلمنا من هو صاحب تلك الديار، فجلالتكم تعلم و(بجنت) نفسه يعلم، أن جيشكم ليس من أهل تلك الجزيرة، بل أتيتم به من بلاد الغال والنورمان والجرمان، فمن أحقُّ بتلك البلاد إذن أيها الملك؟

ضاق خايمي ذرعا بحديث ابن الآبار بعد أن ألجمه بقوة حجته، فاستشاط غيظًا وقال وهو يعض على نواجذه:

- أخذناها منكم بقوتنا وضعفكم.

ثم أشاح بوجهه عنه يريد التقليل منه، وقال:

- رضينا أن تستسلموا لنا، ولكن ليأتِ أميركم إلى خيمتي، إلى هنا...

(وأشار إلى أسفل قدمه)!

ثم أردف في تشف:

- ويعقد الصلح معنا بنفسه، وتكتب أنت أيها الوزير معاهدة التسليم بخط يمينك وقلمك، فإن كانت بلادكم كما تقول فقد ورثناها بقوتنا، وإن كانت بلادنا فقد استرددناها أيضا بقوتنا.

ثم أشار الملك بيديه إلى ابن الآبار أن انصرف، فخرج الرجل وقد اصطلى قلبه بنار الذل واكتوى بلظى المهانة، ولكنه تذكر أنه إنما يفعل ذلك من أجل نساء وأطفال (بلنسية)، ولولاهم لأخرج سيفه، ولروى (بلنسية) بدمائه قبل دمائهم.

(٨)

ما إن خرج ابن الآبار من الخيمة الملكية حتى ظهر الضجر على وجه الملك، فلم يكن يعلم أن أحدًا يملك هذه الجرأة، وهذا الرد المفحم خاصة في هذه الآونة والظروف العصيبة، فقد كان يتخيل أن المسلمين وهنوا ووهنت معهم حججهم، ولكنه لمس منهم احتفاظًا ببعض من القوة التي أخافته، فقال:

- لولا أنّ الرسل لا يُقتلون لقتلته، فمثل هذا قادرٌ على إحياء نفوس موتى!

لم يكد يتم خايمي كلمته، حتى دخلت عليه زوجته فيولانتي وابنته الصغيرة، فما كان من بجنت إلا أن استأذن وانصرف.

وبوجه فرح وابتسامة عريضة، قالت فيولانتي:

- أحقا... أحقا سننعم أخيرًا ببعض الراحة وشيء من الأمان؟

حاول خايمي أن ينسى ما كان من أمر ابن الآبار، فابتسم وقال بصوت جذل:

- نعم، فقد استسلموا رغمًا عنهم ولو لم يفعلوا لدخلتها عليهم عنوة.

سألت فيولانتي الابنة في تلهف:

- هل سنعود إلى سرقسطة يا أبي؟

بابتسامة أبوية رد (خايمي) قائلًا:

- ستعودين إليها قريبًا يا صغيرتي.

صفقت فيولانتي الابنة في حماس وراحت تتراقص من شدة الفرح وهي تقول:

- أخيرًا سأعود إلى سرقسطة.

علا الضحك وجه أمها وأبيها، ثم هبّ (خايمي) من مكانه، واحتضن ابنته وأمسك بيد زوجته، وخرج بها في اتجاه أسوار (بلنسية)، وقال في زهو كبير:

- قريبًا سندخلها فاتحين في موكب عظيم.

فيولانتي الزوجة:

- نعم يا حبيبي، قريبًا ستتحقق أحلامك وتتوسع مملكتك وتضيق الأرض على أعدائك.

قبّل خايمي يد زوجته، ثم أمسك بيدها ويد ابنته وراحوا يتجولون في أنحاء المعسكر بعدما توقفت أصوات المجانيق المزعجة ليشاركوا جندهم نشوة الظفر، ويشاهدوا السعادة والفرحة في عيونهم وهم يحتفلون كل على طريقته، فهذا الجندي يمني نفسه بذهب بلنسية، وذاك يمني نفسه بدار عظيمة فيها، والآخر يفكر في حريرها وصوفها وزيتونها.

كانت الضحكات تملأ معسكر أراجون ويفيض بها، وكاسات الخمر تقرع هنا وهناك، وخلف الأسوار قبع شعب مهزوم مكلوم، وأطفال جوعى ونساء تبكي ورجال تلعن هذا الزمان الذي هُزم فيه المسلمون ونكبوا بعد نصر، وذلوا بعد عزة، وكسروا بعد مجد، وذهبت بلادهم وشردوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فضاقت عليهم أنفسهم.

عاد ابن الآبار إلى بلنسية منكسرًا حزينًا، ليخبر الأمير أبا جميل زيّان بحديث الطاغية،، فاستقبل الأمير الأمر بصدر ضيّق، وكاد يموت حزنًا وغمًّا، ومع ذلك فلم يستطع إلا أن ينفذ ما أراده (خايمي)، فقد خبت قوة (بلنسية)، وهزمت يوم أن فكرت في التسليم والاستسلام.

زفر الأمير أبو جميل بقوة وقال:

- فلنعجل بهذا الأمر حتى ننتهي منه.

ثم خرج من ساعته إلى لقاء خايمي في معسكره، وهو في أهل بيته ووجوه الطلبة والجند، وأقبل الطاغية، وقد تزيا بأحسن زي في عظماء قومه، مصطحبًا زوجته وابنته.

وتم الاتفاق بين الأمير زيان وبين خايمي على الآتي:

أولاً: يتسلم الملك خايمي البلد سلمًا لعشرين يومًا من كتابة هذا العهد.

ثانيا: ينتقل الأمير زيان وأهله أثناء تلك الفترة بأموالهم وأسبابهم إلى حيث أرادو.

ثالثا: يُسمح لسائر المسلمين بها رجالاً ونساء، بأن يحملوا سائر أمتعتهم دون أن يعترضهم أحد، وأن يسيروا آمنين حتى قلييرة (أو غلييرة) أو دانية.

وهكذا تم الاتفاق على تسليم بلنسية، وكتب تلك المعاهدة الوزير ابن الآبار، وبعد ذلك بدأ الناس بالخروج من المدينة فساروا في البحر إلى نواحي دانية، واتصل انتقال سائرهم برًا وبحرًا، وقد خرج منهم منها خمسون ألفًا، وساروا آمنين حتى قلييرة (Cullera)، وهي ثغر صغير يقع على مقربة من جنوبي بلنسية، ومنحوا عشرين يومًا لإتمام الرحيل. وعقد الملك خايمى كذلك مع الأمير زيّان هدنة مدتها سبع سنين، وأقسم باحترامها بالنسبة لدانية وقلييرة، طوال هذه المدة. وتم ذلك في اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٢٣٨ م.

وفي يوم الجمعة التاسع من أكتوبر سنة ١٢٣٨ م، الموافق للسابع والعشرين من صفر سنة ٦٣٦ هـ، دخل خايمي ملك أراجون وزوجه الملكة فيولانتي وأكابر الأحبار والأشراف والفرسان الأراجونيون والقطلان وممثلو الجماعات الدينية والمدن مدينة بلنسية، ورفع علم أراجون على قمة أعلى برج في أسوار المدينة، وحولت المساجد في الحال إلى كنائس وطمست سائر قبور المسلمين. وقضى الملك خايمي بضعة أيام في تقسيم دور المدينة وأموالها بين الأحبار، والأشراف، والفرسان، كل وفق ما اشترك به في الحرب، وبلغ عدد من وزع عليهم من فرسان أراجون وقطلونية، ثلاثمائة وثمانون، هذا عدا الأحبار والأشراف، وجعلت هذه الأملاك وراثية بالنسبة لأعقابهم، وسموا بفرسان الفتح، وترك لهم حراسة المدينة والدفاع عنها. وأقبل النصارى من كل فج على سكنى بلنسية. ومع ذلك فقد بقيت بها جماعة كبيرة من أهلها المسلمين، تدجّنوا واستسلموا لمصيرهم الجديد. وهكذا سقطت بلنسية في أيدي النصارى، بعد أن حكمها المسلمون، منذ الفتح خمسة قرون وربع قرن، سطعت خلالها في شرقي الأندلس، وتزعمت قواعده، ولعبت أعظم دور في أحداثه ومصايره، وكانت أعظم مركز للعلوم والآداب في شرقي شبه الجزيرة.

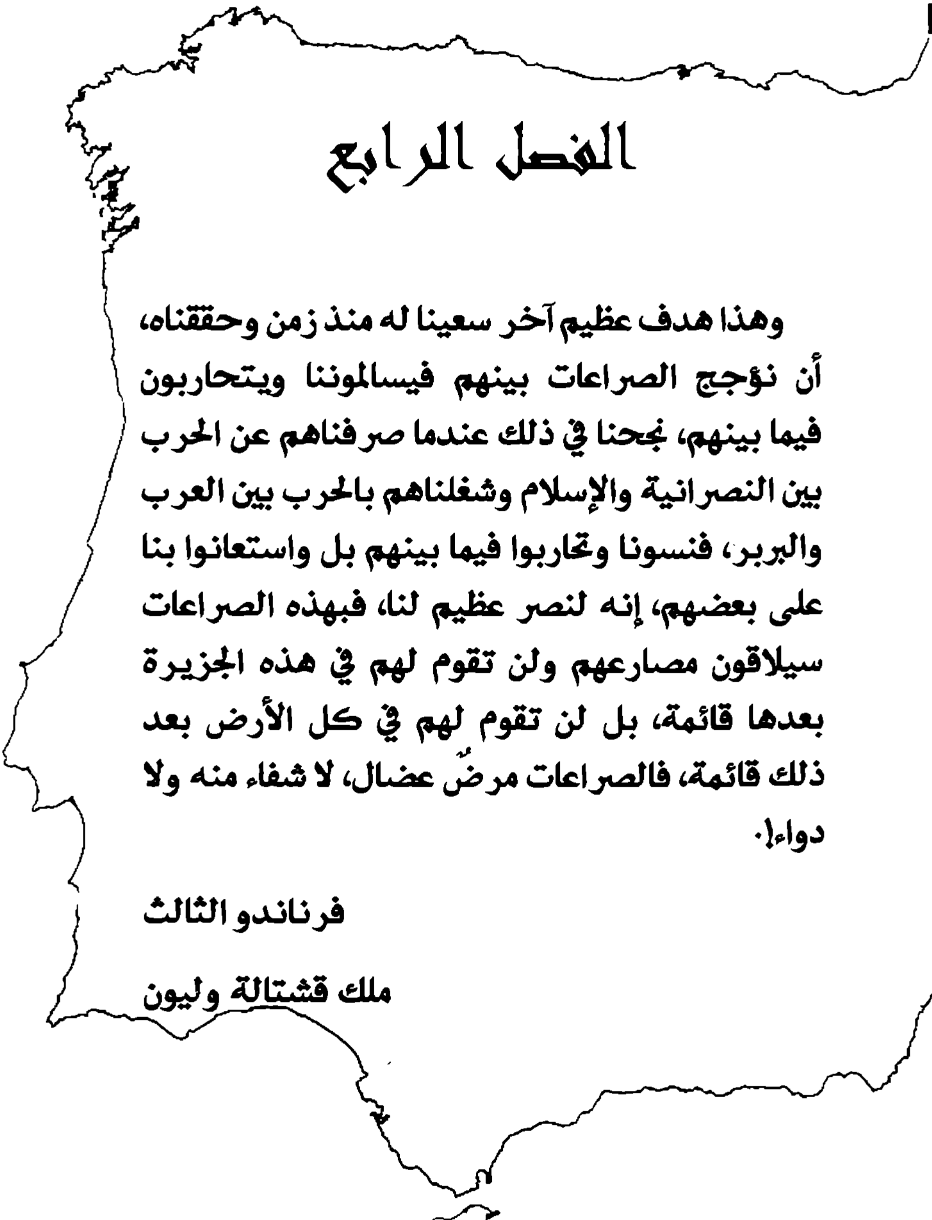

الفصل الرابع

وهذا هدف عظيم آخر سعينا له منذ زمن وحققناه، أن نؤجج الصراعات بينهم فيسالموننا ويتحاربون فيما بينهم، نجحنا في ذلك عندما صرفناهم عن الحرب بين النصرانية والإسلام وشغلناهم بالحرب بين العرب والبربر، فنسونا وتحاربوا فيما بينهم بل واستعانوا بنا على بعضهم، إنه لنصر عظيم لنا، فبهذه الصراعات سيلاقون مصارعهم ولن تقوم لهم في هذه الجزيرة بعدها قائمة، بل لن تقوم لهم في كل الأرض بعد ذلك قائمة، فالصراعات مرضٌ عضال، لا شفاء منه ولا دواء!.

فرناندو الثالث

ملك قشتالة وليون

(١)

قصر باديس

في أعلى الهضبة على الضفة اليسرى لنهر حدرة، وعلى أنقاض قصر باديس بن حبوس، لم يتوقف العمل ساعة من ليل أو نهار، فالعمال يسابقون الزمن لإنشاء حصن الحمراء، ليكون الحصن مقرًا لقصر الأمير، ومأمنًا له من غدر القشتاليين إن تقدموا ناحية غرناطة.

تابع محمد بن الأحمر البنائين، وراح يشد من عزمهم لإنجاز مهمتهم في أسرع وقت ممكن، ووزيره أبوبكر بن عياش معه لا يفارقه.

اقترب ابن الأحمر من أحد البنائين وربت على كتفه وأوصاه ببعض الأمور، ولم يكد ينتهي حتى وفد عليه وزيره أبو جعفر التنزولي وقد تغير لونه وبدا الحزن على وجهه وقال:

- لقد حُسم الأمر يا سيدي، وسقطت بلنسية وخرج منها أبو جميل زيّان وعامة المسلمين إلا من تدجن منهم ورضي العيش تحت رحمة الأراجونيين.

وقع الخبر على مسامع ابن الأحمر وقع الصاعقة، فاسود وجهه ولفه الحزن، إذ كان يعلم أن صمود أي مدينة في الأندلس هو صمود لملكته ذاتها، وأن فناء مملكة مجاورة يعني اقتراب الخطر منه ويوشك أن يحدق به، فما الأندلس إلا كعقد، إن انفرطت منه حبة انفرطت باقي حباته، فقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم جال ببصره يمينًا ويسارًا واستطرد قائلًا:

- وما فعل الأمير زيان؟

- لقد خرج بأهله إلى جزيرة شقر.

أومأ ابن الأحمر في انكسار وقال:

- ربما كان ينبغي علينا أن نمد لبلنسية يد العون، غير إنه ما كان باليد حيلة فدولتي فتية لم يشتد عودها بعد، وهي تجهد في مجابهة أخطار قشتالة المحدقة، فكيف إذا اجتمعت عليها عداوة قشتالة وأراجون!

بأسلوب الوزير الذي يريد أن يريح أميره، قال أبو جعفر:

- لا بأس عليك يا سيدي، فقد أُعذرت في ذلك.

هز ابن الأحمر رأسه، ثم أشاح بوجهه نحو الغرب، فرأى قرص الشمس مصفرًا يؤذن بالغروب، فضاق صدره وشعر أن الفناء يترصده، وأن دوره قادم لا محالة، ولا بد من مجابهة هذا الخطر المحدق بتشييد الحصون والقلاع!!

(٢)

انتقل خبر سقوط بلنسية إلى سائر البلاد الإسلامية، حتى تردد صداه في عدوة المغرب وتونس ومصر والشام، لكن وصوله إلى إشبيلية ومرسية كان أسرع وأثره على أهلها أبين، فقد طعن أهل الأندلس مرة أخرى في مقتل، وشهدت مدن الأندلس - كرة أخرى - أختا لهن تُسحل، ورأى أمراء الأندلس عرشًا آخر يُثَل، فخيم الأسى في أرجاء البلاد، وضرب الحزن الأكباد، وأصاب الذهول العباد، فأقدم بعضهم على ترك الأوطان والارتحال إلى عدوة المغرب والشام.

أما عبد الرحمن فقد توارى عن أنظار الناس، والتفع بالحزن واليأس، وتجرع ريق الشجو والأسى، ولم يكن يغلق عينيه إلا على مشهد تسليم المدينة، فيعتصر قلبه ألمًا، ولا ينقطع يسأل نفسه كلما خلا بها ودمعه على الخد أنهارًا: كيف سقطت بلنسية ورأسي ما زال على جسدي معلقًا!!

أما (زيد) فقد حاول غير مرة أن يُخرج (عبدالرحمن) من عزلته، ولكن محاولاته باءت بالفشل، فتركه للأيام تداوي جراحه وتطبب نفسه.

ثم استحى من نفسه، وشعر أنه خذل صاحبه ووطنه، وأنه ساهم بتقاعسه في سقوط (بلنسية).

كانت سحب سماء (إشبيلية) تخفي وراءها الكثير والكثير، فقد اسود لونها وحجبت الشمس بالكلية، حتى يظن المرء إنه الفجر، فالظلام بدأ ينسج خيوطه في وسط النهار، ثم لم تلبث أن أمطرت، وانهمرت في غزارة شديدة، وراحت تروي ربوع (إشبيلية) وحقولها الخضراء، وتصنع أنهارًا صغيرة تجرى من التباب إلى الوديان، فتتجمع وتمتزج وتصنع بركًا وبحيرات، لا تلبث أن تمتصها الأرض أو تلك القنوات التي أجاد أهل الأندلس صناعتها (تشبه مجارى الصرف الصحي الآن) وتروي الأعشاب والأشجار الباسقة وتتراقص حبات المطر على أوراق الشجر وخصوصًا أشجار النارنج والبرتقال، المنتشر بكثرة في شوارع وأزقة (إشبيلية).

لم تمنع الأمطار الناس من التجمع حول مسجد إشبيلية الجامع، كما لم تمنع الأطفال من اللهو واللعب، فقد كانوا أكثر الناس ابتهاجًا بزخات المطر. وفي الحي اليهودي القريب من المسجد وقف جمع كبير من الإشبيليين يتحاورون حول مستجدات الأحداث والكلّ يدلي بدلوه، فقال أحدهم:

- الخطأ خطأ البلنسيين فهم وحدهم يتحملون أسباب تعاستهم.

استدرك الثاني:

- بل يتحملها أبو جميل لرعونته وسوء تقديره للأمور.

فقال آخر:

- بل نتحملها جميعًا، فنحن أيضًا لم نعاضدهم أو نعاونهم بما يليق بنا، ولا يرفع العتب عنا خمسون فارسًا خرجوا إليها.

وبينما احتدم الجدال بين أولئك، كانت هناك طائفة لا يهمها ما حدث ولا يشغلها ما سيحدث لا في بلنسية ولا غيرها من مدن الأندلس ما داموا هم وأموالهم بخير، بل لم يتعدّ اهتمامهم عتبات دورهم، وكأنهم يتخيلون أنّ القشتاليين أو الأراجونيين سيستثنونهم!!!

وبينما السجال على أشده، إذ جلجل صوت يوسف المرشاني قائلًا:

- بلى، لقد أخطأ الأمير أبو جميل زيّان يوم قرر خوض المعارك ضد مملكة أراجون.

نظر الجميع إلى يوسف المرشاني، ورمقوه بنظرات بعضها حادة وبعضها متعجبة ومستفهمة، وبعضها ماكرة، ورفع المرشاني كفّ يده في وجوه الناس، ليستمعوا إليه ثم قال لهم:

- لنعمل العقل -يا سادة- ولننظر إلى المآل، لقد حارب الأمير خمسة أشهر، ثم ماذا بعد؟

استبق صديقه سعد الناس في الجواب وقال:

- ثم سقطت بلنسية ودخلها العدو.

وكان هطول المطر قد توقف والسماء قد أقلعت، وأشار يوسف بيديه مؤكدًا على كلام سعد قائلًا:

- وهذا ما قصدته.

ثم استدار للناس وأردف:

- إن كانت بالنهاية قد سقطت المدينة، ودخلها العدو بعد أن أفنى من أهلها ما أفنى، فلماذا الحرب إذن؟ ألم يكن من الأفضل والأنسب للأمير، أن يبادر بالتسليم حقنًا للدماء وحفظًا للأرواح والأموال، إذ لا جدوى من المقاومة وقد كانت النهاية معروفة، وقديمًا قيل لا ماءك أبقيت ولا درنك أنقيت.

ارتفعت الأصوات حول يوسف بين مؤيد لكلامه وساخر منه وبين متردد في قبوله أو رفضه، فأكمل يوسف بوجه هادئ وصوت رزين محاولاً إقناع الناس:

- التسليم بشرف خير من التسليم بقوة وإجبار، فهل تبينتم الفرق؟ ثم انظروا أين نحن اليوم وأين القشتاليون؟ إنهم يملكون قوات لا تقهر ورجالات لا تنتهي، أما نحن فقد ذوى شبابنا، وحل خريفنا، وصرنا أمة بلا قوة تحمينا أو وحدة تجمعنا أو راية تظلنا. قد بلغت مملكتا قشتالة وأراجون ذروة القوة، فما عاد في الإمكان مجابهتهما، والعاصفة التي تقدر على اقتلاعك انحني لها وهادنها.

رمقه أحد الحاضرين شزرًا وقال:

- نكلمك عن بلنسية وتكلمنا عن قشتالة، ما شأن هذه بتلك حتى أسرفت في تعديد مدائح القشتاليين ومناقبهم التي لم يرها سواك؟.

ارتبك يوسف للحظات، فسارع سعد وقال بخبث ودهاء منقذًا له:

- إنّ قشتالة أو أراجون أو البرتغال، كلهم لنا عدو وبنا متربص، فالحديث عن بعضهم هو حديث عن جميعهم.

تنفس يوسف الصعداء، وقال بصوت مرتفع:

- وهذا ما أردته!

وهكذا بدأ خوسيه وبرنارد في بث سمومهما بين أهالي إشبيلية وهما مستتران بأسماء وألقاب إسلامية، تراهما يدخلان المسجد يصليان مع الناس كأنهما من أئمة الهدى وأعلام التقى، يزعمان أنهما يكرهان قشتالة ويتمنيان زوالها بينما هما يخذلان الناس عن الدفع والجهاد ويوطنان أهل إشبيلية على الهروب والاستسلام ويوهمانهم بعقم محاولات تحدي قشتالة وأراجون. وقد حدث هذا في

ظل غفلة كبيرة من والي إشبيلية المنغمس في ملذاته، وفي ظل شعب نسى التاريخ والعلم، ولم يشغل عقله بالتفكير إلا في أمور حاضره دون ماضيه، فترك نفسه ضحية الجهل خاضعًا لملوك الطوائف الذين أوهموا هذا الشعب بأن الأندلس القوية لن تعود، كما أوهموهم بأن الخلافة الأموية لم تكن خيرًا للأندلس! وبدلًا من أن يحكم الشعب عقله راح ينهل من عبث الطوائف وسمومهم!

(٣)

وسط قصره المبنى على تل سبيكة، وقف ابن الأحمر مرتديًا ثيابه الحمراء باسطًا ذراعيه، وقد رفع صوته قائلًا:

- وأخيرا انتهينا من بناء القصر...، آه يا بن عياش، لقد كان عملًا شاقا طويلا أتى على كثير من المال واستغرق كثيرًا من الوقت.

- أجل يا سيدي، ولكن ما قيمة الوقت في إنجاز عمل بديع كهذا؟

- سأجعله مقر حكمي وحكم عقبي من بعدي.

- أراك يا سيدي، قد شيدت قصرًا عظيمًا لا يقل فخامة عن قصر زهراء الناصر الذي تواترت أخباره، كما لا يقل روعة عن قصر ابن هود المسمى بقصر الجعفرية، فهل فكرت يا سيدي ما الاسم الذي ستطلقه على هذا القصر؟ إذا يجب أن يكون له اسم يعرف به!

فكر ابن الأحمر قليلًا، ثم تحرك جهة شرفة القصر ونظر إلى حديقة القصر البديعة، وقال:

- سأسميه: قصر الحمراء.

عقد ابن عياش حاجبيه وقال مستفهمًا:

- قصر الحمراء، اسم جميل يا سيدي، ولكن هل لي أن أعرف سبب الاسم ومعناه؟

ابتسم ابن الأحمر وقال:

- هم يطلقون عليّ اسم (ابن الأحمر) بسبب احمرار شعر رأسي، وأنا سأطلق اسم الحمراء على مدينتي تلك لاحمرار تربتها، فكما أخذت لقبي من شعري، سيأخذ قصري لقبه من تربته ومني.

طرب ابن عياش لكلام الأمير وهز رأسه في زهو وتمتم:

- قصر الحمراء، قصر الأمير ابن الأحمر ملك غرناطة.

خطا ابن الأحمر خطوات وئيدة وهو يقول:

- أجل، قصر الحمراء يا ابن عياش.

واستمر ماشيًا حتى وصل إلى النافورة البديعة، وراح يمتع عينه بتدفق مياهها، ثم قال:

- اسمع يا (ابن عياش)، أصدر أمرًا بأن يكون الزي الرسمي للجيش هو اللون الأحمر، وليكن لون الحبر المستخدم في مراسلتي من عمالي، هو أيضًا اللون الأحمر.

أومأ ابن عياش برأسه قائلًا:

- أمرك يا مولاي.

وفي تلك الأثناء دخل الوزير أبو جعفر التنزولي حزين الوجه منطفئ البسمة، فرمقه ابن الأحمر بنظرة متفحصة وقال له مستبقًا:

- الوزير أبو جعفر حزين..... أفصح عما أحزن وجهك، أفصح يا وجه الخير!

خفض أبو جعفر عينيه وقال:

- لقد حاز أبو جميل زيّان رياسة مرسية وقتل واليها السابق أبا بكر عزيزًا ضياء الدولة.

حوقل ابن الأحمر ثم قال لوزيره:

- ألا تدخل عليّ مرة واحدة بخبر سار؟!

تلعثم أبو جعفر وهو يقول:

- لا ذنب لي يا مولاي.

صمت ابن الأحمر مفكرًا قبل أن يقول:

- أليس أبو بكر عزيز هذا حفيد ابن خطاب الذي استضاف جيش المنصور العامري عندما مر من مرسية لافتتاح برشلونة؟

ابن عياش:

- بلى يا سيدي.

هز ابن الأحمر رأسه ومط شفتيه، وقال:

- الأيام دول، ومن سره زمن ساءته أزمان...

ثم قصد بهو السفراء، وجلس على كرسيه وحوله وزيراه، وما إن اتخذوا مجالسهم حتى قال:

- أكمل يا أبا جعفر وقص علينا ما حدث.

أبو جعفر:

- لما غادر الأمير أبو جميل زيّان وطنه القديم ومقر رياسته، ورياسة آبائه وأجداده، مدينة بلنسية العظيمة، بعد أن سلمها إلى الملك خايمي، سار في آله وصحبه إلى جزيرة شُقر، الواقعة جنوبها على ضفة نهر شقر، وسار وزيره ابن الأبار في أهله إلى تونس بعد أن أيقن أنه لا أمل في حياة مستقرة في ربوع الوطن القديم، وأخذ زيان بيعة أهل الجزيرة للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية، ولكنه ما كاد يستقر بها حتى زحف عليها الأراجونيون وطوقوها لأنها لم تكن داخلة في نطاق الهدنة التي كانت تشمل فقط دانية وقليرة، فاضطر زيّان إلى التخلي عن الجزيرة للنصارى، وغادرها إلى دانية، ونزل بها ودعا بها للأمير أبي زكريا الحفصي، في الوقت ذاته تجهمت الحوادث في شرقي الأندلس، وقلقت النفوس في مرسية وغيرها، ورأى جماعة من أهل مرسية استدعاء أمير بلنسية السابق أبي جميل زيان ليتولى الرياسة عليهم، وهو يومئذ بدانية يرقب الحوادث. فسار زيان إلى مرسية ودخلها، فثار أهلها بأبي بكر عزيز ضياء الدولة وانتزع زيان منه الرياسة وقبض عليه، ثم أمر بقتله، ودعا زيان بمرسية للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية، ودخلت في طاعته معظم البلاد الباقية في شرقي الأندلس.

تعجب (ابن الأحمر) وقال:

- بخ بخ، زيّان الذي سلّم بلنسية للأراجونيين غدا اليوم سيد الشرق!

أبو جعفر:

- لا يا سيدي، فقد خرجت على رياسته أوريولة واستقل بها ابن عصام، وكذلك خرجت لورقة واستقل برياستها الفقيه محمد بن علي بن أحلى، وهذان من أنصار ابن هود.

لم يكد أبو جعفر يكمل حديثه حتى دخل الحارس مهرولاً، وقال:

- سيدي الأمير، رسول من أرجونة يستأذن الدخول عليكم.

نظر (ابن الأحمر) إلى الحارس وأشار بيديه وقال:

- أدخله الآن.

دخل البهو فارس مغبر يبدو عليه التعب والإرهاق، فسلم على الأمير وقال لاهثًا:

- أدرك أرجونة يا سيدي فقد هاجمها جيش من قشتالة.

ما إن سمع (ابن الأحمر) الخبر حتى هبّ واقفًا، وقد تبدلت ملامحة وتجهم وجهه، واضطرب حاله، واتسعت عيناه قبل أن يقول:

- ربما قد حان الوقت لأخذ المبادرة، وردع (قشتالة) وجيشها.

ثم نظر إلى الوزير ابن عياش وقال:

- قد أخطأنا يوم تقاعسنا عن نجدة بلنسية.

- ما كان ذلك بأيدينا يا سيدي الأمير، فقد كنا نبحث عن السلامة، ولم نك نملك القدرة على مجابهة (قشتالة)، ناهيك عن (أراجون)!

- أما في هذه فقد صدقت، لكن إن كنا لم نملك القدرة سابقًا، فلربما نمتلكها اليوم!

صمت ابن الأحمر وراح يفكر في المدن الأندلسية وتساقطها بين يدي ملوك النصارى كتساقط أوراق الشجر في فصل الخريف، فها هو ملك أراجون يستولي بعد بلنسية على ثغر دانية بينما ملك قشتالة لا يتوقف عن الانتقاص من أطراف بلاد المسلمين، أما ملك البرتغال فلا يفوت فرصة إلا وضرب في غرب الأندلس مستغلا تفككها المريع، ثم قال في نفسه: لا بد من المبادرة بالهجوم على قشتالة فقد بلغ الغرور بجيشها مبلغه حتى توهم قادته أن لا أحد من المسلمين يجرؤ على الإغارة عليهم.

استغل ابن الأحمر غرور الجيش القشتالي وخرج من غرناطة في قوة كبيرة، وقصد إلى مرتش وهي بلدة حصينة تقع جنوب غربي جيان، كانت بيد القشتاليين،

وضرب حولها الحصار، مريدًا من ذلك أن يخفف الضغط عن أرجونة، وكادت المدينة الصغيرة أن تسقط في يده، غير أن النصارى بقيادة دون رودريجو ألفونسو - الأخ غير الشرعي لفرناندو الثالث - قدموا لانجادها على جناح السرعة في قوات كبيرة، فاضطر ابن الأحمر أن يرفع الحصار ويعود أدراجه صوب غرناطة.

وأمام مرتش، وقف دون رودريجو ألفونسو في خيلاء وغطرسة عظيمتين، وقال وهو ممتط صهوة جواده:

- لقد انسحبوا كالفئران.

ثم أطلق ضحكة كبيرة دوت في أرجاء المكان، فقال له أحد جنوده:

- ليست لهم قدرة على مجابهتنا يا سيدي.

لمعت عينا دون رودريجو قبل أن يقول:

- ونحن لن نكتفي بانسحابهم.

- لقد انسحبوا على أي حال يا سيدي، فبمَ تفكر؟

- سنطاردهم ونوقع بهم شر الهزائم.

- ألن نستأذن مولاي فرناندو في ذلك؟

- بل نجعلها مفاجأة سعيدة له، وسيسرّ مولانا الملك بنا عندما ينمو إلى سمعه جميل فعالنا في المسلمين، وإني لأعلم أن هلاكهم يسعده ويطربه. ومن يدري؟ فلعلنا نأخذ سيدهم أسيرًا ونرسله مصفدًا إلى طليطلة فسيعد بذلك قلب مولاي الملك.

ثم لكز بطن جواده وانطلق خلف جيش ابن الأحمر يسبقه غروره، وكله شوق أن يروي الأرض من دمائهم ويسعد بذلك قلب أخيه ويكسب ثقته ورضاه.

غادر جيش ابن الأحمر عائدا إلى غرناطة، وهو لا يشك أبدًا أن أحدًا قد يتبعه، فما الباعث على ملاحقته وقد ترك لهم مرتش ولم ينقذ أرجونة؟ لهذا سار الجيش بخطى وئيدة، كمن يتفقد البلاد لا كمن عاد من معركة خاسرة لم يوجف فيها بركاب.

ومن فرط تكاسلهم الشديد، نزل أحد الجنود المسلمين وتأخر عن بقية الجيش ليبحث عن بعض متاع سقط منه. وبينما الجندي يبحث هنا وهناك إذ به يسمع صهيل خيل قادمة من بعيد.

التفت الجندي وقلبه يرتعد خوفا، فشاهد أعلام قشتالة ترفرف في الأفق، فأيقن أن الجيش القشتالي قد خرج لمطاردتهم، فترك ما يبحث عنه ووثب على ظهر فرسه يطوي الأرض طيا حتى وصل إلى الأمير فأخبره بما رأى.

كانت المسافة الفاصلة بين الجيشين لا تتعدى ساعة من نهار، لذا وفي عجالة قرر محمد بن الأحمر أن يستعد للمجابهة المحتومة والمفروضة عليه رغما عنه فقرر أن يجعل جيشه قسمين، فأما القسم الأول - وعليه ابن عياش - فيتابع المسير نحو غرناطة بخطى وئيدة، أما القسم الثاني فيقوده ابن الأحمر بنفسه ليختبئ خلف غابات الزيتون الكثيفة، حتى إذا مر الجيش القشتالي واقترب من مؤخرة جيش ابن عياش، ارتد هذا الأخير وقاتل القشتاليين الذين سيقاتلونه على أنه كل الجيش، فيخرج عندها ابن الأحمر في باقي الجيش من الغابات ويضربوا مؤخرة الجيش القشتالي المغرور فيقع بين مطرقتين، وبذلك سيتحقق النصر الأكيد للمسلمين.

تقررت الخطة، ونجح المسلمون في تطبيقها كما رُسمت، وساعدهم في ذلك غرور رودريجو وفائض ثقته في نفسه وجيشه، فلم يلتفت يمينًا أو يسارًا ولم يحتط للكمائن، بل سار مسرعًا اتجاه الجيش المنسحب لا يبغي إلا إذلاله. فكانت المفاجأة المدوية، وبدأت الحرب شديدة مروعة، وصهلت الخيل وصلصلت السيوف، وراحت السهام تشق الهواء قبل أن تشق صدور القشتاليين المغرورين، وتصادف أن أمطرت السماء وأوحلت الأرض وتطايرت منها رائحة المطر، فتثاقلت حركة الخيل ولكن حركات السيوف لم تتثاقل بل امتزج ماء المطر بدماء المحاربين الأشداء، فكان الماء يجري على الأرض أحمر اللون، ولم تمر ساعة حتي أسفرت المعركة عن انتصار ساحق للمسلمين، وهزيمة منكرة للقشتاليين، وقتل دون رودريجو ألفونسو ومن كان معه من فرسان شنت ياقب، ولم ينجِ من المعركة إلا فارس أو فارسان لاذا بالفرار.

(٤)

بدأت الشمس رحلتها اليومية نحو المجهول، وتحركت بسرعة ودارت حتى اختفت خلف جبال (إشبيلية) لتضع بذلك نهاية يوم وبداية ليل طويل، و(زيد) ينظر هنا وهناك وقد ارتدى أفضل ثيابه وأجملها، وهو لا يستطيع الجلوس أو السكون فكان يتحرك جيئة وذهابًا، والتوتر يعلوه والاضطراب واضح عليه، وهو يقول في نفسه:

- لماذا كل هذا التأخير؟ ما الذي حدث ومنعها من القدوم؟ أم تراها نسيت؟ أم أكون قد أغضبتها دون قصد مني؟

أسئلة حائرة كانت تدور بعقل وخلد (زيد) فتزيده اضطرابًا وتوترًا، وبعد مرور المزيد من الوقت، نظر (زيد) فلمح خيالًا قادمًا من بعيد... دقق (زيد) النظر فإذا هي الجارية (قمر).. تنفس (زيد) الصعداء وابتهج، ثم عاد للتجهم بسرعة وقال في نفسه:

- يجب أن تعلم مريم أن تأخرها قد أزعجني، ثم وضع يديه خلف ظهره وتصنع النظر إلى النهر.

اقتربت (قمر) أكثر وأكثر و(زيد) متصنع التجاهل، حتى إذا اقتربت منه، قالت بصوت حزين وعيون زائغة:

- هذه من سيدتي لك.

التفت (زيد) لها وقال بلهفة بدلت حاله:

- أين هي؟ ولماذا تأخرت؟ ثم بعد كل هذا الانتظار لا تأتي؟

(قمر):

- في هذه الورقة ما منعها من القدوم.

ثم ناولته الرسالة وانصرفت، ووجهها يحمل كل معاني الأسى والألم!

بيد مرتعشة، فضّ (زيد) الرسالة وطالعها، ومن فوره تغير وجهه وكأنّ صاعقة أصابته وأفقدته صوابه، وهو لا يكاد يصدق ما يقرأ، فإذا بالرسالة تقول:

من جارة الوادي إلى سابي قلبي، كتبت لك هذا الجواب بمداد سقيته بدموع عيني، وإني منك في حب عظيم... يا (زيد) إن قلبي لك طائع وما لأحد على القلوب حكيم، لقد تملك حبك قلبي فما عدت أرى فيه غيرك، فأنت يومي وأنت غدي، كم أحبك ولكم تمنيت قربك... لقد كنت أنتظر اليوم على أحر من الجمر للقياك، ولكنَّ حدثًا جللًا قد وقع... لقد تقدم لخطبتي ابن عمي، وبين ليلة وضحاها وافق أبي... ولمّا اعترضت ورفضت وأبديت غضبي قرر حبسي وسجني، تساعده في ذلك أمي، لأذعن لأمره وأوافق هواه... وكأنّ قصص الحب يا (زيد)، مكتوب عليها تلك النهاية المؤلمة الحزينة..! فلا حبّ ينتهي كما نريد!!

أذهلت كلمات الرسالة زيدًا، فما عاد يدري أفي الحلم هو أم في اليقظة، ثم عاد يتفحص الرسالة لعلها مزحة، أو عله كابوس مؤلم وعما قريب منه سيستفيق، وجال نظره في الطريق لعله يرى مريم قادمة، وتساءل زيد أيكون ما في الرسالة حقًا؟ أيقسو الأبوان إلى هذا الحد؟ أتنكسر إرادة حبيبته إلى هذا القدر؟ أسئلة حائرة هاجمت رأس (زيد) وعقله، بينما كأن سكينًا عظيمة أو خنجرًا مسمومًا اخترق قلبه فأدماه... اسودت الدنيا في وجه (زيد) وضاق به رحب الفضاء، وانقلب فجأة إلى يائس كبير، وانهمرت الدموع من عينيه، ولم يعد يشعر بطعم الحياة، (فمريم) هي حياته إن فقدها فقد حياته...

تثاقلت قدما (زيد) عن الحركة، فلم يرد أن يترك المكان الذي اعتاد فيه رؤية حبيبته، ولربما أتت إليه تخبره أن أباها عدل عن حديثه لها، لكن مر الوقت ولا جديد، غير الألم الذي كان يتزايد عليه، حتى إذا تأخر الوقت وانتصف الليل غادر المكان ورحل عنه.

وبخطوات باكية وصل إلى بيته دون أن يتفوه بكلمه واحدة، ثم دخل غرفته وأغلق عليه بابه، وراح يبكي بكاءً شديدًا يقطع نياط القلوب، ثم سكت وامتنع عن الحديث.

ومر اليوم تلو اليوم، وزيد حبيس حجرته لا يخرج منها، ممتنع عن الحديث لا ينبس ببنت شفة، ممسك بكتاب مريم لا يتركه من يده، ولا يمل من مطالعته وقراءته، مهراق العبرة لا تكاد عينه تجف، وكان كلما أتى على السطر الذي تصف فيه دمعها ونحيبها يرد عليها في نفسه ويقول أما أنا يا مريم فقد سكبت من الدمع

أضعاف ما سكبت، وأنا يا مريم أردت أن نضاهي في قصة عشقنا المعتمد واعتماد، وأنا يا مريم ما ظننت أن أيام الوصل قلائل.

ومع مرور الوقت، ذبل جسد زيد ونحل واصفر وجهه وشحب، وظن أهله أن مرضًا قد أعياه أو أن مسا قد دهاه.

كان زيد لا ينفك يتذكر صورة حبيبته وحركاتها وسكناتها وكلماتها ونغمات صوتها، وأكثر ما كان يؤنسه ذكرى آخر عهده بها. كان اللقاء عند برج الذهب في يوم الجمعة الموعود، وكان الاتفاق أن تخرج إليه قبيل الغروب.

في ذلك اليوم، وصل زيد قبل الموعد المنتظر بساعة، وظل جالسًا على ضفة النهر يراقب الطريق منتظرًا قدوم حبيبته التي ملكت قلبه، وسمعه، والبصر، نظر زيد إلى ماء النهر فرآه وقد كسته الشمس حلة ذهبية موشية بسنا أحمر، واضطربت المياه في موجات صغيرة ابتهاجًا بالكسوة الأنيقة. كان زيد يجمع بنات فكره حتى لا تشرد منه عند قدوم حبيبته، ويرتب بما سيبدأ الحديث حتى لا يتلعثم ويسرقه الوقت قبل أن يبوح لها بكل ما في قلبه. مر وقت الانتظار جميلًا، وما أجمل الوقت وأمتعه عندما تقضيه في التفكير فيمن تحب وتهوى!

كان الجو ربيعًا ونسمات الهواء تغازل وجه زيد عندما رنا ببصره فشاهد مريم مقبلة، بينما قلبه يهتز مع كل خطوة تدنيها منه، وأخيرًا وصلت منية القلب وسلوة النفس، وبوصولها رحلت الكلمات فما عاد يدري ماذا يقول. فاستبدل الكلمات بالنظرات عساها تفصح عما في قلبه من حب وعشق وهيام!!

تبسمت له مريم وعاتبته قائلة:

- ها قد صمتّ مرة أخرى، وكأني أحمل بوجهي ما يُمسك لسانك.

- بعض الصمت أبلغ من بعض الكلام، وأي كلام هذا الذي يطيق وصف وجدي أو نعت عشقي؟!

كان زيد يتذكر هذا اللقاء فيبتسم، ثم يستفيق على حاضره فيتألم، ويعود وجهه يتجهم.

(٥)
برغش

تواصلت زخات المطر في شبه الجزيرة الإيبيرية، ودامت لأيام متتالية، حتى تحولت الطرقات إلى وحل، وغسلت الأشجار، وفاضت بعض الأنهار، فخلت بسبب ذلك شوارع مدينة برغش وأزقتها القديمة من الحياة، فكلٌّ مختبئ في منزله، حتى يظن الناظر أنها مدينة أشباح. وسط هذا السكون إلا من صوت قطرات المياه وخريرها، سُمعت حوافر فرس قادمة من بعيد، وقد أنهك الوحل الفرس والفارس معا فبدا ذلك عليهما، فالفرس بطيء الخطى والفارس خائر القوى، قد استسلم للفرس تحته وأحنى ظهره على ظهره.

اقترب الفارس من بعيد فتبين أنه من فرسان الأمير ألفونسو ولي عهد المملكة، جاء يريد لقاء الملك فرناندو الثالث الذي أقعده المرض بعيدًا عن عاصمة مملكته، وحبسه في قصره بمدينة برغش، والأطباء من حوله يحاولون تطبيبه، بعدما ساءت حالته، ولازم الفراش.

اقترب أحد الأطباء من الملك وناوله قنينة دواء، فأمسك فرناندو القنينة ورفعها ثم ارتشف منها رشفة سرعان ما تفلها وألقى بالقنينة في وجه الطبيب قائلًا:

- أما من سبيل لتحسين طعمها القبيح!

أجفل الطبيب وأجاب في وجل:

- إن الدواء الذي به مرارة يشفي من السقم يا سيدي.

تأفف فرناندو وقال:

- هذا داء وليس دواء.

ثم أشاح بوجهه عن الطبيب الذي أطرق صامتا.

لاحظت الملكة خوانا دي بونثيو ضجر الملك وانزعاجه، فأمرت الأطباء بالخروج حتى يتسنى للملك أن ينعم بالقليل من الراحة. فانصرف الجميع من حوله وجلست تتحدث إليه وكانت ترتدي زيها الملكي الجميل وعلى رأسها تاج الملك، وبدا الإعياء واضحًا على ملامح الملك، فالسعال لم يكن يتوقف والحمى لا تريد أن تفارقه.

اقتربت الملكة منه محاولة تكرار طلب الأطباء سقيه للدواء، ولكن دون فائدة إذ قال لها الملك:

- لا تجهدي نفسك يا خوانا فليس طعم الدواء ما يمنعني عنه.

نظرت خوانا إليه مندهشة واستفسرت في تعجب:

- فما يمنعك إذن يا حبيبي؟

فرد فرناندو:

- عدم ثقتي بدوائهم...!!

ثم استطرد ساخرًا مستهزئًا:

- انظري إليهم فهيئتهم ودواؤهم يدلان عليهم.

بهدوء قالت (خوانا):

- كيف تزدريهم يا حبيبي وهم أمهر وأشهر أطباء مملكتك؟

سعل فرناندو وقال:

- أما أنهم أمهر وأشهر أطباء المملكة فأجل، ومع ذلك ما بلغوا من الطب معشار ما بلغه طبيب مسلم مغمور في ربض من أرباض إشبيلية، إنهم لا يحسنون الطب ولا يقدرونه.. انظري إلي دوائهم، ورائحته الكريهة وطعمه السيء الكريه، إنه يُمرض ولا يشفي، ولولا أن يقال إنني بحاجة إلى هؤلاء المسلمين، لأرسلت من فوري لاستدعاء أحد أطبائهم!

نظرت خوانا إلى زوجها نظرات مختلطة بين الاستغراب الشديد والاستنكار الشديد، فهي تعرف عنه بغضه لكل ما يمت للمسلمين بصلة، فكيف يقول ما قال آنفا!؟ وفطن فرناندو إلى ما يدور في خلد زوجته، فقال لها:

- أن أكره المسلمين فهذا لا يتنافى مع احترامي لعلومهم وفنونهم، وإلا لما أبقيت مسجد (قرطبة) كما هو، وذلك لروعة نقوشه وجودة بنائه.

- لكنك أحرقت كتبهم في سلمنقة وقرطبة بعد فتحهما.

حاول فرناندو الحديث، فانتابه سعال شديد، فأمسك كوبًا من الماء وارتشف منه قليلًا ثم عاود الحديث قائلًا:

- من قال لك إني أحرقت مكتبة قرطبة وسلمنقة؟

هزت خوانا كتفيها وقالت:

- كل المملكة تردد هذا في فخر.

- أنا لم افعل ذلك، بل أسقف أوسمة الأحمق الجاهل من فعل ذلك، وما أمرته به، إنما أذنت له بدخول المدينة وتطهير المسجد مما فيه، وطمس محرابه وإقامة المذبح للصلاة، فإذا به يحرق الكتب تشفيًا من المسلمين ظنًا منه أن هذا العمل يرضيني، ولم يعلم أنه حرق قلبي بحرقه تلك العلوم الفريدة، ثم لماذا أحرقها يا خوانا وقد كان بالإمكان الاستفادة منها والاستعان بها لمواكبة هذه الحضارة الإسلامية الساحرة الفريدة.

اتسعت عينا الملكة، وقالت مستهجنة:

- وتنعتها بالساحرة الفريدة!

- وأي سحر!! لو أنك شاهدت مسجدهم في (قرطبة) أو قنطرة الدهر بها أو منارة مسجدهم في (إشبِيلية)، تلك المنارة الغريبة التي تلامس السحاب ارتفاعًا، لعلمتِ أنهم سحرة هذه الدنيا الكبيرة...

وبينما تسمع (خوانا) هذا الكلام فاغرة فاهها من التعجب، تابع (فرناندو):

- ما زلت -يا عزيزتي خوانا- حديثة عهد بي، لا تعرفين عني إلا القليل، لهذا سأخبرك بأعظم درس تعلمته من الحوادث السوابق.

سعل فرناندو مرة أخرى، ثم تابع حديثه:

- لكي نهزم المسلمين هزيمة نكراء لا تقوم لهم قائمة بعدها لابد أن نحكم العمل على أربعة خطط، هاتي يدك يا عزيزتي.

ناولت خوانا يدها لزوجها فأمسك بخنصرها وباعده عن باقي بنانها ثم قال:

- أولًا: نترجم علومهم بدل حرقها وإبادتها.

ثم أمسك ببنصرها وضمه إلى خنصرها وقال:

- ثانيًا: نقطع علاقتهم بماضيهم، ونشيع الفرقة بينِهم، فإذا حدثت الفرقة ولابد أن تحدث، نجتهد في توسيع شقتها حتى لا تُرْأب.

ثم أمسك بأصبعها الوسطى وضمها لأختيها وقال:

- نفسد اجتماعهم على أي حاكم صالح أو قائد فالح إما بالتأليب عليه أو بالتنفير منه.

ثم ضم سبابتها إلى باقي أصابعها وضغط عليهم جميعًا قائلًا:

- رابعًا: أن نصدر لهم أننا خير منهم علمًا ورشادًا وأكثر منهم عدة وعتادًا، ولن يتأتى لنا السبق العلمي عليهم إلا بعلومهم ذاتها.

أبقت خوانا إبهامها منتصبًا وقالت:

- خامسًا؟

رفع فرناندو إبهامه وأخذ يبارز إبهام خوانا وهو يقول ضاحكًا:

- السيف، ما حسبت هذا يغيب عن عقلك يا خوانا.

ضحكت خوانا، ثم هزت رأسها وضيقت عينها واقتربت من وجه زوجها وهي تقول:

- الآن علمت لما تشجع ولي العهد على دراسة العلوم العربية.

ابتسم فرناندو وقال:

- أود أن ينهل ولي عهدي من تلك العلوم فتتوسع مداركه وينضج فكره، ولولا أني قد عاهدت نفسي على طرد المسلمين من الجزيرة لأوليت لهذه العلوم اهتمامًا ورعاية، و لفرضت على كل أبناء النبلاء تعلمها، لكن طرد المسلمين أولى، أما علمهم فمتاح بواح.

ثم أخذته نوبة فسعل (فرناندو) عدة سعلات متتابعة، وحاولت (خوانا) مرة أخرى معه لتناول الدواء فأبى، فقالت له:

- إن لم تشرب هذا الدواء فلا أقل من أن تحضر طبيبًا عربيًا ولو في الخفاء.

هز فرناندو رأسه، وقال بصوت خافت وهنه السعال:

- لو أن حياتي بيد مسلم ما طلبتها.

أرخت خوانا جفنيها في حزن وقالت:

- لماذا يا حبيبي؟

- لا أريد أن تأخذني الرأفة بهم، أو أن يعلم القشتاليون أنّ المسلمين أصحاب فضل علينا، أو يشعر القشتاليون بفضل المسلمين في أي مجال، وقتها ستكون هزيمة نفسيّة لي ولجيوشي.

تنهدت خوانا والتزمت الصمت وهي تنظر إلى فرناندو، ثم وضعت يدها على رأسه فوجدته يغلي من الحمى، فما كان منها إلا أن بللت خرقة بماء بارد ووضعتها على جبينه.

وفي تلك الأثناء دخل الأمير فارديكي - الابن الثاني لفرناندو من زوجته السابقة إليزابيث - وهو يقول:

- فارس قادم من (طليطلة) يريد أن يلقاك يا أبي.

أشار فرناندو إلى ابنه في صمت، فقالت خوانا لابن زوجها:

- مهما كان ما جاء به فسينتظر حتى الصباح، فصحة الملك مقدمة على كل قشتالة بل على كل الجزيرة.

حمل صباح اليوم التالي البشريات(لفرناندو)، فقد بدأ في التعافي من علته، واستطاع النهوض لأول مرة من مرقده، بعد أيام قضاها لا يبارح فراشه، فكان أول شيء فعله، هو متابعة أمور المملكة، وأمر للفارس أن يمثل بين يديه.

دخل الفارس وقدم التحية وانحنى أمام العقرب كجندي مخلص من جنوده، ثم تقدم جهة الأمام وأعطاه رسالة مختومة، كانت تلك الرسالة من ولي العرش (بطليطلة)... تأخر الفارس عن مخدع الملك، ووقف ينتظر الأوامر، فتح (فرناندو) الرسالة، وظهر من ملامح وجهه أنها تحمل خبرًا قد أسعده، فقد تهلل وجهه وارتسمت علامات الفرح على محياه.

طوى (فرناندو) الرسالة، ثم أمر الرسول أن يلتزم بابه وألا يبرحه، فانطلق الفارس الرسول وخرج من فوره.

وأقبلت خوانا على زوجها قائلة:

- منذ ما يربو عن شهر لم يبتسم الملك أو يفرح برسالة كفرحه اليوم!!

رد عليها فرناندو في هدوء:

- يفعل الرعب مالا يفعله السيف.

ثم نظر إليها محدقًا وقال:

- فتحت بالرعب مرسية.

رددت خوانا في دهشة:

- مرسية!

- أجل مرسية، لقد وصلت سمعة الجيش القشتالي الآفاق، وطرقت باب مرسية ففتحت الباب بلا سيف أو حصار!

ثم أطلق ضحكة دوى هديرها في كل القصر.

ازدادت دهشة خوانا بينما تابع الملك حديثه فقال:

- لقد وفد على طليطلة أحمد بن محمد بن هود ابن والي مرسية، يحمل معه نبأ اجتماع أهل مرسية على طاعتنا وتأدية الجزية لنا..... صارت البلاد تفتح ذراعيها لنا يا خوانا قبل أن تطأها خيولنا!

ابتهجت خوانا وصمت فرناندو مفكرًا في أنسب رد على هذا العرض المغري. وبُعيد لحظات، نادى فرناندو آمرا بإدخال رسول ولي العهد، فأقبل الفارس وانحنى مرة أخرى أمام فرناندو الذي قال له:

- أخبر سيدك ألفونسو ألا يقبل عرض الصلح مع مرسية إلا إذا وافقوا على السماح بوجود حامية قشتالية بمرسية، وأن يحضر محمد بن هود -واليها- مجلس الكورتيس وقت انعقاده، وأن يتولى الأمير ألفونسو ترتيب أمر الحامية والإشراف عليها بنفسه.

ثم أمر فرناندو الفارس أن ينطلق، وأرعد قائلًا:

- دانت لي شرق الأندلس، وبقى أن أنتقم من غربها!!

(٦)

المخترع

في حجرة كبيرة ببيته الكائن في أطراف إشبيلية، ووسط أكوام من المعادن والحديد، وقف ابن شعيب يمسح عرقه المتصبب من جبينه، وهو يتابع عمله وقد تصاعد الدخان وانتشرت رائحته من كل مكان في الحجرة. انتصب ابن شعيب ووضع يده على خصره وهو ينظر يمينا ويسارًا محدثًا نفسه: يجب أن أبني فرنًا شديد الحرارة!

ثم استطرد وقال متحيرًا:

- ولكن أين أبنيه؟....

جال ابن شعيب ببصره هنا وهناك وبعد تفكير صاح:

- سأشيده في الغرفة الداخلية فهي سميكة الجدران وتتسع لما أريد...

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وجلس ليستريح قليلًا وهو يتابع تجفيف عرقه الذي سال حتى بلغ صدره.

أخذ ابن شعيب قسطًا من الراحة، ثم شرع في إحضار مواد البناء وراح يبني بمفرده ما يبتغي بناءه، كان يضع الحجر على الحجر في صبر عجيب، ويلوطه في إتقان وأناة.

مر اليوم واليومان قبل أن يتم ابن شعيب ما أراد، ثم وقف يتفحص ما بناه وقد اتسخت ملابسه وتلطخ وجهه بمواد البناء، وقال مبتسمًا:

- ها قد انتهيت منك أخيرًا.

ومن ثم ترك ابن شعيب فرنه، وذهب إلى غرفة مجاورة بها أكياس من ملح أسود اللون، وأكياس أخرى من مواد صفراء، إضافة إلى كميات كبيرة من الفحم الأسود. ثم أمسك ورقة بها رموز وكلام غير مفهوم كأنه الطلاسم، وراح يدقق

فيها النظر والعرق يتصبب منه، وغرق في تلك الأوراق يبحث فيها، لم يقطع تفكيره سوى طارق يطرق بابه....

لم يهتم ابن شعيب في أول الأمر وتابع عمله، وقال:

- سييأس الطارق وينصرف.

لكن الطارق لم ييأس بل تابع طرق الباب. ومع توالي الطرقات واشتدادها، استسلم ابن شعيب لإصرار الطارق، فترك عمله، وقام لفتح الباب فألفى عبد الرحمن الإشبيلي عنده.

رحب ابن شعيب بصديقه وأدخله إلى الدار التي لم يكن فيها أحد غيره.

التفت عبدالرحمن يمينًا ويسارًا ثم قال:

- مر وقت طويل مذ لقيتك آخر مرة يا بن شعيب.

- أرجو أن تلتمس لي العذر يا صديقي، فقد أخذت تجاربي كل وقتي وفكري، فما عدت أخرج من المنزل إلا لأعود إليه، على أني جد سعيد برؤيتك وخروجك من عزلتك ومخالطتك الناس مرة أخرى، ولقد كنت أنتوي زيارتك للاطمئنان عليك بعد الذي كان.

تنفس عبد الرحمن بعمق، ثم قال:

- الحمد لله على كل حال، لقد علمت أن عزلتي وآلامي لن تعيدا (بلنسية)، فقد قضي الأمر يا ابن شعيب، والآن عليّ واجب تجاه ديني وأرضي، لهذا خرجت لأحاول الإصلاح حتى لا تتكرر الأحداث الأليمة.

ربت ابن شعيب على فخذ صاحبه وقال مبتسمًا

- خيرًا فعلت يا صديقي، والآن انتظرني بضع دقائق هنا.

ثم غاب بضع لحظات، وعاد حاملًا إبريقًا من شراب اللوز وأكوابًا ووضعهم أمام ضيفه، ثم صب كوبًا وناوله له.

ارتشف عبد الرحمن بضع رشفات، ثم قال:

- ما زلت تعيش وحدك يا بن شعيب، وما زلت مصرًا على هجر تجارة أبيك رحمه الله، حتى نسي أهل إشبيلية أمر الدكان وما عاد أحد يترقب عودة التجارة إليه.

استرخى ابن شعيب على كرسيه، وتنفس بعمق قبل أن يقول:

- أنا لا أحسن التجارة - يا عبد الرحمن - ولا أحب مخالطة الناس، ولا أعدل بمطالعة التصانيف وعمل التجارب شيئًا.

أجال عبد الرحمن بصره في المكان فرأى الأكياس ومواد البناء، فاتجه صوبهم وأدخل يده في أحد الأكياس ممسكًا بحفنة من بعض ما فيه، ثم قال:

- أعلم ذلك يا بن شعيب، لكن إلى متى ستظل هكذا بدون عمل تبيع ما ترك أبوك لتسد رمقك؟

نهض ابن شعيب ووقف بجوار عبد الرحمن عند الأكياس وقال:

- ليس عندي وقت للتجارة يا صديقي، وربما انتهى قريبًا مما أصنع فيضمني القائد عبد الرحمن إلى جنده.

ثم قهقه ضاحكًا، فضحك عبد الرحمن لضحكه، ثم استطرد قائلًا:

- لا فائدة منك يا بن شعيب...، والآن أخبرني ما هذا الشيء الغريب؟!

ضحك ابن شعيب وقال:

- إنه فرن.

انعقد حاجبا عبد الرحمن وقال:

- فرن!

- نعم فرن، فلما العجب؟

- أعرف الفرن جيدًا، غير أن هذا الشيء يختلف عنه في الشكل والحجم، ثم ماذا يصنع رجل مثلك لا زوجة له بفرن!

ابن شعيب ممازحًا:

- أقشقش فيه اللحم وأنشنش فيه الدجاج.

ثم انفجر ضاحكًا وقال:

- إنه فرن لصهر الحديد.

علت الدهشة وجه (عبدالرحمن) وتساءل مجددًا:

- صهر الحديد! لماذا تصهره؟ وماذا بعد صهره؟

- أصبه في قوالب لأصنع ما أريد.

- ألا يحتاج هذا جهدًا كبيرًا وأنت وحدك؟

- من فرط استمتاعي بعملي لا ألقي بالًا لتعبي.

ابتسم عبد الرحمن وقال:

- أرجو أن تصل يومًا إلى ما تبتغي وتحقق ما تريد.

(٧)
الفرسان الثلاثة

ارتفع صهيل ثلاثة خيول عربية، وهي تضرب بحوافرها الأرض، وفوق متنها ثلاثة رجال هم أبو الحسن (شقاق) وقائد الشرطة (يحيى بن خلدون) ومعهم (عبدالرحمن الإشبيلي)، توسط (شقاق) الرجلين، وتحرك ليتفقد بنفسه أحوال أسوار المدينة وأبراجها.... رفع شقاق وجهه ونظر إلى الشمس المتوهجة في كبد السماء، وسرعان ما ارتد بصره للأسفل وهو يقول:

- ما أشد حرارتها!

رد (عبدالرحمن) معللًا:

- الوقت وقت الظهيرة يا مولاي، ونحن في منتصف الصيف.

شقاق:

- لنعجل إذن قبل أن تحرقنا بقيظها.

ثم لكز بطن جواده وأرخى عنانه، فانطلق الفرس يعدو بقوة. وبعد فرسخ، توقف الرجال وترجلوا عن خيولهم، واقترب الثلاثة من الأسوار وراحوا يعاينونها.

وضع شقاق يده على السور وقال:

- لم يهتم أحد بتعزيز هذه الأسوار أو تقويتها منذ زمن يعقوب المنصور رحمه الله.

تقدم يحيي بن خلدون خطوات جهة شقاق وقال:

- ربما لأنها ما زالت تحتفظ بقوتها ومنعتها أيها الأمير، مما يعني عدم حاجتها لذلك.

دقق عبد الرحمن النظر، ثم قال:

- بل هي في أمس الحاجة للترميم، انظرا هناك، لقد تهدمت أجزاء منها.

أكد (شقاق) حزينًا:

- أجل يا عبد الرحمن، وينبغي المسارعة في الاعتناء بها.

ثم توجه ناحية الصدع وقد تجهم وجهه وقال:

- ما الحيلة لرأب هذه الصدوع وتعزيز الدفاعات، وكلما تحدثت في هذا مع أبي عمرو بن الجد رد على قائلًا... لماذا يا شقاق؟ فلندخر الأموال لنفقات أهم من تلك الأسوار التي لا حاجة لنا بها.

قالها مقلدًا صوت (ابن الجد)، فضحك ثلاثتهم.

ردد (عبدالرحمن) متهكمًا:

- لا حاجة لنا بها! يشعرني ابن الجد أحيانًا أننا نعيش في زمن المنصور بن أبي عامر أو الناصر الأموي.

عقد يحيى حاجبيه وقال:

- كيف ذاك، ولماذا هذان تحديدًا؟

عبد الرحمن:

- لأن الأندلس في زمنهما لم تكَ بحاجة إلى أسوار تحميها.

شقاق:

- ذاك حينما كانت (قشتالة) وجليقية وبنبلونة، هي التي تعوزها الأسوار، لتقيها ضربات المسلمين، بل كان جل اهتمامهم أن ينشدوا صداقة المسلمين لا حربهم، أما الآن فنحن من صرنا حبيسي الأسوار، ويا ليتها تستطيع دفع العدوان عنا... صرنا نحارب من خلفها مترسين بها، وندافع فقط، بينما قديمًا كنا نحارب وصدورنا مكشوفة ولا يجرؤ أحدهم أن يهاجمنا أو يجد لذلك سبيلًا.

عقب عبد الرحمن قائلًا:

- صدق السابقون حين قالوا: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، كنا سالفًا نغزوهم ولا يغزوننا، فلما سكتنا عنهم غزونا حتى أشربونا كؤوس الذل ألوانًا.

اتجه الثلاثة إلى شجرة برتقال تحاذي نهر الوادي الكبير بالقرب من برج الذهب، وجلسوا تحتها مستظلين بها. وقال يحيى بن خلدون للقائد شقاق:

- سيدي أمير الجند، لماذا لا تتحدث مع أبي عبد الله بن السيد أبي عمران الموحدي وهو متولي أمر إشبيلية منذ سنوات في أمر ترميم الأسوار وتقويتها.

استنكر (شقاق) سؤاله وقال:

- هل توهمني - يا بن خلدون - أنك لا تعلم أن الوالي الموحدي لا يعدو أن يكون اسمًا، وأن زمام الأمر كله بيد ابن الجد!!

غمغم يحيى بن خلدون قائلًا:

- أعلم ذلك يا سيدي، ولكن ربما لو تعارض رأيه مع رأي (ابن الجد)، اختلف الأمر! فيمضي الوالي الموحدي رأيه.

نهض شقاق ودار نصف دورة حول الشجرة، ثم اتكئ على جذعها وأمسك بفرع من فروعها وقال:

- الأماني رأس مال المفاليس يا بن خلدون، فلن يختلف الأمر كثيرًا، ولن يجرؤ الموحدي على مخالفة رأي (ابن الجد) قلامة ظفر!

حمحم جواد عبد الرحمن وصهل، فاقترب منه عبد الرحمن، ومسح على عرفه ثم طفق يطعمه بعضًا من فروع الشجر وهو يقول:

- لكن يا سيدي ما كل هذه الثقة في القشتاليين!؟ أقصد هذه الثقة التي يوليها إياهم (ابن الجد)؟ وكيف أمن مكرهم، فلم يعد يرغب في تقوية الجيش، أو تجديد الأسوار.

رد (شقاق) بحسرة:

- ليست ثقة بل خُتِم على قلبه فأصبح لا يعرف وَلِيّه من عدوه.

يحيى بن خلدون:

- وأعجب من ذلك افتتانه بيوسف المرشاني، فأصبح لا يفارقه ساعة من ليل أو نهار، والمرشاني هذا من دعاة الصلح مع القشتاليين، إذ ما فتئ يشيد بسلام مرسية مع قشتالة وحنكة صاحبها حفيد ابن هود الذي صالح فرناندو فأمن شره. ولا يدع ناديًا أو تجمعًا إلا ويردد فيه أن عداوة قشتالة

لن تفيد، فجيوشهم لا تقهر، ومصادقتهم نظير المال خير من عداوتهم التي تجلب البلاء كما حدث في مرشانة وبلنسية وقرطبة!

زفر عبد الرحمن بقوة وقال:

- لما لا نقتل المرشاني هذا ونستريح؟

نهره شقاق قائلًا:

- لا تفعل.

اعترض يحيى بشدة وقال:

- لما -يا سيدي- فهو والله يستحق القتل؟

فقال لهما شقاق وهو يرنو للأفق، كأنما يقرأ المستقبل:

- إن نحن قتلنا يوسف المرشاني فستتأجج نار العداوة بيننا وبين ابن الجد، فلا نعود نأمن على أنفسنا.

اندفع عبدالرحمن هاتفًا:

- نقتل ابن الجد إذن.

ضاق شقاق ذرعًا بطيش الشاب فانفجر صارخًا:

- تتحدث وكأنك ستقتل كلبًا أجربًا لا ابن الجد صاحب المدينة.

ثم زفر شقاق، و استطرد قائلًا:

- لا تقتل لا هذا ولا ذاك، واحذر أن تحدث أمرًا دون إذني، وضع في حسبانك أن لابن الجد أنصارًا في كل إشبيلية.

أومأ عبد الرحمن برأسه موافقًا، ثم قال لشقاق مطمئنًا:

- لا تقلق - يا سيدي- فأنا رهن أمرك ولن أحدث شيئًا دون علمك.

ثم نظر إلى الأفق البعيد، وقال متعجبًا متهكمًا:

- من كان يظن أن الطريدين اللذين أنعم عليهما الأمير شقاق ذات يوم بأموال الصدقة سيصبحان من أصحاب الرأي في إشبيلية.

(٨)
تحت برج الذهب

مرت الأيام ثقيلة كئيبة بخطوات متكاسلة واهنة، و(زيد) لا يستطيع أن يسلو حبيبته، فتكاثر همه وغمّه، وأهمل تجارته، ولم تعد الحياة ذات قيمة عنده أو معنى، فما قيمة الحياة إن عشناها بدون من نحب؟ وما فائدة المال إن لم يقربنا إلى من نحب؟! فالحياة إن هي إلا تلك اللحظات السعيدة، التي يحياها الإنسان ويتمناها، فإن فقدها فقد معاني الحياة.

وقد كان (زيد) يرى في (مريم) كل الحياة، فهي من سلبت قلبه وعقله، وتعلقت بها روحه، هي لحظات فرحه وهنائه، وضحكاته وبكائه، فكانت كل الحياة بالنسبة له، فلما ابتعدت عنه، وصار مصيرها إلى غيره، شعر أن لا قيمة للدنيا عنده، فزهد فيها، ولم تستطع فتاة غيرها أن تحتل مكانها الشاغر! فمن أحب لا يعود يرى غير من يحب!

في إحدى الليالي حالكة الظلمة، كظلام أيام (زيد) وحياته، فلا (قمر) في السماء والنجوم تحجبها السحب، فتترك في قلب الحزين حزنًا أشد، وتزيد ظلمتها هم المهمومين، تحرك الفتى وحيدًا إلى حيث برج الذهب، حيث ألف لقاء حبيبته، ذهب هناك يتنسم طيبها، وينظر إلى طيفها ويسترجع أيامها...

ولما وصل إلى البرج جلس تحته منتظرًا أن تمر به كما تعودت غير أنها غابت. وفجأة ترى له طيفها من بعيد لكن كأنه مدبر عنه لا مقبل... نهض زيد راكضًا خلف الطيف لكنه تعثر وسقط أرضًا وتعفرت ملابسه... رفع رأسه وراح يبحث مجددًا عن طيف مريم غير أنه اختفى تمامًا، فانهمر ماء عينيه وهو يقول:

- أين تذهبين يا مريم؟ لقد توقف كل شيء بعد رحيلك، وأصبحت الدنيا بلا معنى، حتى حساب عمري لا معنى له من دونك وبعيدًا عنك، كيف تكونين زوجًا لغيري ويكون الغرام والبكاء لي؟

أما مريم فما كانت تملك من أمرها شيئًا، وقد سجنت في بيتها، وأغلقت أبوابه عليها، فمكثت في بيتها أسيرة أحزانها، وصارت كوردة ذبلت وراحت روحها ولم يبقِ منها إلا الجسد، ولكنه جسد ضعيف نحيل ذابل، لم يعد يرويه الحب أو يسقيه الهوى!.

وما كانت قمر بمعزل عما تلاقيه سيدتها من قسوة أبويها وعما تكابده من حرقة قلبها. وكانت لا تفتر عن مواساتها ولا تذخر جهدًا في إقناعها بالتسليم للقضاء، والإقبال على شأنها تصلحه، وعلى خطيبها تحدثه عساها تستظرفه. وما كانت قمر تلقى من سيدتها إلا جوابًا واحدًا:

- يا قمر، خلط الله روحي بروح زيد فهما في جسدي واحد، فأنا أحيا ما اصطحبا، فإذا ما افترقا مات الجسد.

ومما زاد مرارة الأمر أن ابن عم الفتاة جلف غليظ، لا يُستلطَف له حديث ولا تُستظرَف له عبارة ولا تُستملَح له حركة ولا تُستَرق له حاشية.

ولم تَألُ مريم جهدًا في محاولة إقناع ابن عمها بالعدول عنها، فذكرت له أن ما يجمعهما لا يعدو أن يكون قرابة وأخوة، وأنها تستعظم أن تكون له زوجًا، وهي تشعر أنه لها أخ، وأنها ما بيدها أن تبدل أحاسيس قلبها فالقلوب بيد الله ولا سلطان ليد البشر عليها، فما زاد حديثها قلبه إلا سخيمة. وأخذته عزة نفسه لما رأى منها الصدود والرفض، فازداد إصرارًا على الزواج منها، وكأنه يتحين ذلك لإذلالها وإهانتها عقابًا على ما بدر منها، وما كانت خطبته لها استملاحا أو حبًا إنما كبر عنده أن يذهب شيء من إرث عمه الغني - الذي لم يعقب إلا مريم - إلى غيره.

(٩)
طليطلة من جديد

كانت أشعة الشمس تداعب بوابة الشمس، عندما قفل فرناندو الثالث عائدًا من برغش بعد فترة غياب طويلة عن طليطلة. تصحبه زوجته خوانا وحرسه الملكي وهو يحث الخطى ويقول:

- ما أشد لهفتيَ لبلوغ طليطلة!

نظرت إليه خوانا من فوق جوادها وقالت:

- لن يمر الكثير من الوقت حتى نصلها.

نظر فرناندو إلى السماء وقال:

- أرجو أن نبلغها قبل الغروب.

ثم تابع المسير مع زوجته وخلفهما ثلة كبيرة من الحرس، وبعد ساعات، لاحت لهم من بعيد المدينة الرابضة على أعلى التلة، فقد كان يمكن للراكب أن يرى (طليطلة) من بعيد لارتفاعها كثيرًا ونشوزها عن ما حولها من الأرض....

راقب فرناندو اقتراب الأسوار منه واقترابه منها حتى إذا صار على حافة نهر التاجة، الذي أحاط بطليطلة يحرسها كأنه قوس فضة، ترجل الملك عن فرسه، وقرر دخول المدينة على قدميه، وكأنه أراد أن يقضي بهذا شوقه منها قبل أن يصل إلى قصر الحكم فيها.

سار فرناندو راجلًا ليعبر قنطرة القنطرة الشهيرة، وقد تمسكت خوانا بيده، وما إن قطع نصفها حتى وقف متأملًا الماء أسفلها وهو يشتم رائحته بانتشاء، وينظر إلى دوامات الماء المنتشرة هنا وهناك... بينما توقف الحرس الملكي على أول القنطرة، ولم يعبر خلف الملك، وألفونسو في حاشيته واقف في نهايتها منتظر استقبال أبيه.

نظر فرناندو إلى زوجته وقال لها وهو يتنسم هواء طليطلة العليل:

- لكم اشتقت إلى (طليطلة) وهوائها وأيامها!

ابتسمت خوانا في مرح وقالت:

- ها قد عدت إليها يا حبيبي!

تابع فرناندو نظراته متفقدًا ما حوله ثم قال:

- أتعلمين إن أشد ما يؤلمني - يا خوانا - في هذا المنظر الساحر أننا نعبر على قنطرة شيدها ملك من ملوك المسلمين.

ثم هز كتفيه ومط شفتيه وقال:

- ذاك الذي يسمونه الحاجب المنصور.

تمتمت (خوانا) وتساءلت:

- أليس المنصور هذا هو صاحب القبر الذي في مدينة سالم القريبة من هنا؟

أومأ فرناندو برأسه وقال:

- نعم هو، ولكم أتمنى أن يخرج اليوم من قبره ليرى أين صار مُلك قشتالة وأين صار مُلك المسلمين أحفاده! فقط لو يخرج للحظات لأرى الحسرة في نظرات عينيه، والهزيمة على صفحة وجهه.

- لقد سمعت أنه كان شرًا على قشتالة كلها، فقد كان يغزوها في السنة مرتين، مرة في الصيف ومرة في الشتاء، فألحق ببلادنا الخراب، وقتل الرجال وسبي النساء. حتى أني سمعت أنه لم تنكسر له فيها راية، ولا فلّ له جيش، ولا أصيب له بعث، ولا هلكت له سرية.

صر فرناندو على أسنانه، وقبض على يده، وبرزت عروق نحره النابضة بقوة، وزمجر قائلًا:

- فأين هو الآن لينظر إلى موضع أقدامنا؟ (يشير إلى قدميه) فهأنذا انتصرت لأجدادي الذين أذلهم وأذلُ أحفاده.

غمزت خوانا بعينها ثم قالت مبتسمة:

- أراك شديد الحقد عليه يا حبيبي.

قهقه فرناندو قائلًا:

- لا أبغضه إلا بقدر ما أجله وأحترمه، فمن الأعداء - يا خوانا - من يفرض علينا احترامه، فيكون عدونا وقدوتنا في ذات الوقت، وأنا أتأسى بالمنصور في كل حروبي التي أشنها على قومه!

رفعت خوانا حاجبيها وزمت شفتيها مستفظعة كلام زوجها الذي غرق في تأمل خيوط الأصيل التي انتثرت على صفحة نهر التاجة حتى توهمه جوشنا ذهبيًا، ثم قالت متعجبة:

- عدوك وقدوتك!

- نعم يا خوانا، فهذا الملك لم يتوقف عن تخريب بلادنا صيفًا وشتاءً، ولم يمهلنا أي وقت نلتقط فيه أنفاسنا، بل كان يشن علينا الغارة تلو الغارة، والحرب تلو الحرب، حتى كثر خير بلاده بما أصاب منا، وها أنا افعل نفس فعله، أحارب المسلمين صيفًا وشتاءً وخريفًا وربيعًا ولا أتوقف عنهم أبدًا، وأخرب بلادهم وأسبي نساءهم، وأحول المساجد كنائسًا، أو أهدمها من أساسها، وأزيد على ذلك بتجنب أخطائه والتعلم منها.

مستفهمة قالت خوانا:

- وما تلك الأخطاء يا مولاي؟

- الأخطاء التي بفضلها صرنا أسياد الجزيرة يا خوانا، فقد كان المنصور يخرب بلادنا، ثم يتركها لنا ويرجع عنا بجيشه، فنعود ونصلح ما أفسده، حتى إذا واتتنا الفرصة عدنا سيرتنا الأولى من الإغارة على بلاده. أما أنا فلا أفعل ذلك، بل أفتح المدينة من بلاد المسلمين فأزيلهم عنها وأطردهم بعد أن أسقيهم الذل ألوانًا، ثم أسكن شعبي فيها. والمنصور -يا عزيزتي خوانا- مات فماتت معه دولته، أما أنا فحريص أشد الحرص على خلود دولتي بما غرسته في نفس ولي عهدي ألفونسو وأوصيته أن يحرص على تعهده في نفوس عقبه من بعده.

صمت فرناندو برهة ثم نظر إلى خوانا وقال:

- أتذكرين يوم قرطبة؟!

- ومن ينسى ذاك الفتح العظيم؟

- تذكرين إذن ما فلعته في نواقيس مسجدها؟

- ومن في قشتالة كلها ينسى ذاك المشهد العظيم، حينما أمر الملك بأن تنتزع النواقيس التي كان الحاجب المنصور قد أخذها من كنيسة شنت ياقب (سنتياجو) بعد غزوها في سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) وكان قد أجبر الأسرى النصارى على حملها على كواهلهم حتى قرطبة، وهنالك جعلها رؤوسًا للثريات الكبرى بالجامع. فأمرت - يا سيدي - بأن تنزع هذه النواقيس وأن يحملها الأسرى المسلمون على كواهلهم إلى شنت ياقب لترد هنالك إلى أمكنتها بالكنيسة الكبرى!

نظر فرناندو إلى زوجته في فخر وزهو ثم قال:

- وهكذا يا خوانا حكم التاريخ، فالتاريخ لا يقف أبدًا بجانب من ينساه أو يتجاهله، لم ننس ما فعلوه بنا، وسنرد لهم الصاع صاعين، وسنورّث ونحكي لأحفادنا قصتنا مع هؤلاء العرب، قصة انتصارنا عليهم وإبادتنا لهم....، قصة خيانتهم وتقاتلهم، قصة دخولهم الجزيرة وخروجهم منها...

ثم أخذ بيدها وتحرك في اتجاه الأمير ألفونسو الذي ما إن شاهد أباه حتى قبل الأرض بين قدميه، ثم سار الملك ومن حوله ولي عهده وزوجته وحرسه الملكي مخترقًا شوارع طليطلة حتى وصل إلى قصره. بينما جموع القشتاليين حافّين بالملك مرحبين بعودته، وفور وصوله إلى قصره، كان أول ما فعله هو زيارة والدته المريضة الملكة برنغيلا، التي كانت تنتظره على أحر من الجمر، فأقبل عليها وقبّل رأسها وجلس يحادثها متفقدًا أحوالها، فلما اطمئن عليها خرج ليتابع أمور المملكة، وليطلع عن قرب على مجمل ما حدث في وقت غيابه.

وفي مجلس العرش، جلس الإنفانت ألفونسو على يمين أبيه في أقرب كرسي له، وجلست خوانا بجوار الملك مباشرة، وما هي إلا لحظات حتى كان أمير البحار رامون دي بونيفاس قد حضر، ثم تلاه قائد الجيش أردونيو الباريث ومعه ألبار بيرت، فشكر الجميع الرب على عودة الملك وسلامته وتعافيه من مرضه، وكما رحبوا بالملك فقد رحب الملك بهم، ثم نظر إلى ولي عهده وقال:

- ماذا صنع ولي العهد في غيابي؟

تنحنح ألفونسو ثم قال:

- لقد طورت من دار الترجمة بطليطلة التي أسسها ألفونسو السادس، وقام المترجمون بترجمة العديد من المؤلفات إلى اللغة الإسبانية أهمها: كتاب الإنجيل، وكتاب كليلة ودمنة، وكتاب التلمود، وقسم من مؤلفات ابن رشد. كما أمرت - يا سيدي - بترجمة كتب في الألعاب الشرقية مثل كتاب الشطرنج. واستخدام الموسيقى الأندلسية في وضع أناشيد ذائعة الصيت (لاس كانتيجاس دي سانتا ماريا)، وأشرفت على ذلك بنفسي.

نظر فرناندو إلى خوانا التي فهمت مقصد زوجها من تلك النظرات، فقد تحدث الاثنان من قبل عن أهمية نقل علوم المسلمين للانتصار عليهم، وها هو ولي العهد ينفذ الخطة كما أرادها فرناندو. فها هو النصر العلمي بدأ يواكب نصر قشتالة العسكري ليزحزحا المسلمين عن أراضيهم وريادتهم.

أثنى فرناندو على ولده قائلًا:

- خير ما فعلت يا ألفونسو، فقشتالة يجب أن تتقدم في كل شيء، فالتفوق العسكري وحده لا يكفي إلا كان مدعومًا بتقدم علمي.

صدق الجميع على كلام فرناندو الذي تحول ببصره تجاه رامون دي بونيفاس وقال:

- ماذا يصنع الأدميرال في هذه الأيام؟

قال رامون دي بونيفاس في افتخار شديد:

- لقد أصبحت البحرية القشتالية يا سيدي سيدة البحار، فما عاد هنالك أسطول بحري يجابه سفن قشتالة أو حتى يفكر في ذلك.

تابع (فرناندو) مستفهمًا:

- كم عدد سفننا الحربية حالا؟

- تزيد السفن الكبيرة عن العشرين يا سيدي.

- ممم، عشرون سفينة عدد قليل لا يناسب تطلعات مملكة قشتالة العظيمة.

- فماذا تأمر مولاي؟

- ما ننوي أن نأتيه من عظيم الأعمال في قابل الأيام يحتاج أسطولًا قويًا ولن تغطيه عشرون سفينة، لهذا أريد ان يتضاعف هذا العدد حتى يوائم قشتالة بمواردها ومكانتها اليوم بين الأمم.

قدم رامون التحية العسكرية لفرناندو وأومأ برأسه، بينما تحول بصر فرناندو إلى ألبار بيرت وقال:

- ما أخبار إشبيلية يا ألبار؟

ابتسم ألبار وقال في ثقة:

- لقد نجحنا كل النجاح يا سيدي، وقريبا ستلحق إشبيلية بمرسية، قريبًا سنأخذها بدون قتال، فرجالنا يمهدون لنا الأمر ويعملون بكل جد ليل نهار لإنجاز الأمر على أكمل وجه.

أعجب فرناندو بكلام ألبار بيرت وهز رأسه مبتسما، إذ كان يثق به ثقة عظيمة، ثم استرخى على كرسيه، وفتح المجال لألبار ليكمل حديثه.

ملأت وجه ألبار ابتسامة عريضة وتابع قائلًا:

- نجح برنارد وخوسيه نجاحًا مبهرًا حتى أن برنارد أصبح اليوم مستشارًا لابن الجد، وعما قريب سيعلن هذا ولاءه للتاج القشتالي أسوة بمرسية، فما يزال برنارد -أو يوسف كما يسميه العرب- يجد في إقناع ابن الجد بأن خير طريق لحفظ إشبيلية هو أن تحذو حذو مرسية.

صاح فرناندو قائلًا:

- مرحى مرحى يا ألبار.

في فخر قال (ألبار):

- بعض مما عندكم يا مولاي، وما أنا إلا تلميذك الذي ما كان لينجح لولا توجيهاتك.

طرب فرناندو لثناء ألبار وأعجب بكلماته، واستمر في سؤاله قائلًا:

- وماذا عن شعب إشبيلية؟

- جلهم يا سيدي قد أصبح مؤمنًا باستحالة اللحاق (بقشتالة)... لقد نسوا تاريخهم وتذكروا فقط حاضرنا وما نمليه عليهم، فصاروا يستقبلون الهزيمة بصدور رحبة، بل صاروا لا يسعون للنصر، ويشعرون أنَّ بقاءهم في الجزيرة أصبح رهن كلمتنا وإشارتنا ورضانا عنهم...

قهقه ألبار طويلا قبل أن يضيف:

- ما بقي إلا أقل القليل ونحكم إشبيلية بدون سيف.

- نجاح عظيم يا ألبار لا يفعله سواك.

تبسم ألبار سرورًا بكلام الملك الذي أشار إليه بالجلوس، فامتثل ألبار وقلبه يكاد يطير فرحا بما سمع، فقد شعر بأنه الوحيد بعد الأمير ألفونسو الذي نال ثناء الملك لا توبيخه.

تابع الملك (فرناندو) حديثه للوزير:

- أريدك يا ألبار أن تكمل ما بدأت وتتقنه، فلا تكتفي بتصدير الهزيمة للإشبيليين، بل أريد أن تذهب إلى أبعد من ذلك.

أومأ ألبار برأسه وطرف بعينيه بينما تابع فرناندو قائلًا:

- أعط التوجيهات لرجالك باتهام من يعادينا من أهل إشبيلية في دينه وولائه وبهذا يسهل القضاء عليهم، فإذا حان الموعد المحدد لم يجد هؤلاء من ينصرهم أو يسمع لهم.

ثم أشار بيديه قائلًا:

- ولا تنس أن تغدق على رجالنا الأموال، فالمال يصنع مالا تصنعه السيوف والرجال.

- أمرك يا مولاي.

- وماذا عن ابن الأحمر في غرناطة وابن محفوظ في لبلة؟

- العلائق بين ابن محفوظ وابن الأحمر تتحول يوما بعد يوم من سيء إلى أسوأ، وكذلك الحال بين ابن الأحمر وابن الجد في إشبيلية....، جميعهم متصارعون متقاتلون.

نهض فرناندو من مجلسه وخطا إلى الأمام، فوقف الوزراء لوقوفه، فأمرهم فرناندو بالجلوس بينما ظل هو يتحرك ذهابا وإيابا، وقال:

- وهذا هدف عظيم آخر سعينا له منذ زمن وحققناه، أن نؤجج الصراعات بينهم فيسالموننا ويتحاربون فيما بينهم، نجحنا في ذلك عندما صرفناهم عن الحرب بين النصرانية والإسلام وشغلناهم بالحرب بين العرب والبربر، فنسونا وتحاربوا فيما بينهم بل واستعانوا بنا على بعضهم، إنه لنصر عظيم

لنا، فبهذه الصراعات سيلاقون مصارعهم، ولن تقوم لهم في هذه الجزيرة بعدها قائمة، بل لن تقوم لهم في كل الأرض بعد ذلك قائمة، فالصراعات مرضٌ عضال، لا شفاء منه ولا دواء!.

انتهى الاجتماع وانصرف الجميع، وقضى فرناندو يومه متهلل الأسارير مما دار في مجلس ملكه، فقد أيقن أنه عما قريب سيحقق هدفه العظيم، كما أيقن أنه لو مات في أي وقت فسيكون خلفه من يكمل مسيرته وهدفه، كان إحساس النجاح رائعًا خاصة عندما يقابله فشل الأعداء، فيكون الانسان وحده في الميدان، لا يهمه مقدار نجاحه بقدر ما يشغله فشل غيره.

توجه فرناندو إلى مخدعه يبتغي النوم بعد أن أرهقه السفر من برغش لطليطلة، غير أنه ما إن ولج حجرته حتى خطر له أمر كان غائبًا عنه. فوجد نفسه يحدث الملكة خوانا بخاطرته هو ينظر إليها مبتسمًا:

- أتدرين يا خوانا؟ لن أشعر بتمام الرضا والنجاح إلا عندما أسيطر على مملكة أراجون وأوحدها مع قشتالة.

نظرت خوانا إلى زوجها في دهشة كبيرة وقالت:

- مولاي، هل ستعلن الحرب على أراجون؟

قهقه فرناندو وقال:

- قطعًا لن أفعل يا خوانا.

- فما السبيل للسيطرة عليها؟

ازداد ضحك فرناندو، وهو ينظر إلى زوجته ويقول:

- لن أحارب أراجون أبدًا، فما كنت لأغير مسار الحرب من حرب بين النصرانية، والإسلام لحرب بين النصارى.

ثم استطرد قائلًا:

- أتظنين يا خوانا أني أقلد الأغبياء المسلمين!

مدت خوانا شفتيها في إشارة إلى عدم استيعابها لكلام الملك الذي أكمل وقال:

- سأسيطر على أراجون بدون قتال!

- لا أفهم شيئًا مما تقول.

قهقه فرناندو وقال لها:

- ستفهمين في الصباح كل شيء، أما الآن فيجدر بنا النوم فملك قشتالة وليون ينتظره يوم حافل.

وفي الصباح استيقظ فرناندو، وبدأ يومه بالخروج إلى حديقة قصره - كما جرت العادة - يستنشق هواءها النقي ويملأ عينيه من زروعها النضرة، ويطرب أذنيه بشذو عصافيرها، ويتناول طعام إفطاره تحت أشعة الشمس الدافئة.

ومرت لحظات قبل أن تجلس الملكة بجواره وتحاصره بنظرات مستفهمة. نظر إليها الملك مبتسمًا، إذ علم أنها ما تزال تفكر في أمر الأمس. بدأ الملك تناول طعامه تشاركه في ذلك الملكة، ثم قال لها وهو يمضغ طعامه:

- بلغني أنّ (خايمي) ملك (أراجون) لديه أميرة جميلة، وقد أسماها فيولانتي على اسم زوجته.

- ممم، فيولانتي. لماذا لم تطلق اسمي على ابنتك؟

استدرك (فرناندو)، وهو يقهقه:

- اسمك منقوش على قلبي يا حبيبتي، ولا أريد أن أنادي به غيرك.

نظرت خوانا لزوجها في حياء، ولم تتحدث بل اكتفت بالبسمات الناعمة والنظرات الحانية التي لاحظها ألفونسو وهو مقبل عليهما فهمّ بالعودة من حيث أتى حتى لا يفسد عليٍ الملك والملكة خلوتهما، لكن فرناندو لمحه فنادى عليه، وأمره بالجلوس إليهما قائلًا:

- اجلس يا ولي العهد فلقد شغلني أمرك طول الليل.

في اهتمام تساءل (ألفونسو):

- لما يا أبي؟ هل فعلت ما أقلقك؟

طمأنه (فرناندو) وهو يربت على فخده قائلًا:

- قطعًا لم تفعل.

- فماذا إذن يا سيدي؟

نظر فرناندو ناحية الشرق وقال:

- لا يخفى عليك يا ألفونسو ما أحرزه ملك أراجون من توسعات، فقد فتح في أعوام قليلة بلنسية، والجزائر الشرقية ودانية وغيرهما، من الحصون والقرى وضمها لملكته.

- نعم يا سيدي، ولا ضير ما دامت كل فتوحاته لم تخرج عن معاهدة كاسولا!

أربد وجه (فرناندو) فجأة، وهتف مغضبًا:

- يشغلنا الطمع، يا وليَّ العهد!!

بوغت (ألفونسو) برد فعل الملك، فارتد بوجهه للخلف قليلاً وسأل:

- أتقصد -يا سيدي- أن يخالف خايمي بنود المعاهدة؟

- ولمَ لا؟.. وما الذي يمنعه؟!

ثم تصاعدت نبرة صوته وهو يتابع شارحًا:

- ولم لا!! فعما قريب سيسيطر على كل الأراضي التي ضمنتها له المعاهدة، وبعدها سيحدث أمر من اثنان لا ثالث لهما. إما أن يخالف قواعد المعاهدة، ويقوم بتخطيها وتوسعة أملاكه على حساب قشتالة متعللا بقصورنا عن الفتح فينال رضا البابا في روما عن فتوحاته........

سكت الملك ليسترد أنفاسه المبهورة من الغضب، ثم استطرد بصوت أعلى نبرة، وأشد حدة من ذي قبل...

- وإما أن يحاربنا نحن ويترك المسلمين، ووقتها سيلتقط أولئك أنفاسهم وربما يبتسم لهم الحظ من جديد وتتحسن أمورهم.

ظهرت الدهشة والحيرة على وجه (ألفونسو) فالتزم الصمت واجمًا، بينما صاحت (خوانا) وقد برقت عيناها، كأنها توصلت إلى حل اللغز:

- فيولانتي!!

نظر كل من فرناندو وألفونسو إلى خوانا، وبينما تعجب ألفونسو، ابتسم فرناندو وقال:

- أجل فيولانتي.

ازدادت حيرة ألفونسو، فبادره فرناندو مبددًا حيرته:

- إنها من ستضمن التفوق (لقشتالة)، ومن يدرى لعلها تكون سببًا في اتحاد بين (قشتالة) و(أراجون) يومًا ما!

تساءل (ألفونسو):

- كيف ذلك يا مولاي؟

أنهى فرناندو طعامه ثم أمسك بكوب ماء وارتشف منه، وهو يقول:

- إن تزوج الأمير ألفونسو بالأميرة فيولانتي، وصار ملك أراجون إليها، فهذا يعني اتحاد التاجين بهذا الزواج.

اعترض (ألفونسو) مستدركًا:

- لكن لملك أراجون أولادًا ذكورًا.

- لكن تظل فيولانتي الابنة الكبرى، ثم هب أنها لم تنل ملك أراجون، سيكفينا وقتها أن تكون هذه الزيجة رادعة لأحلام خايمي في السيطرة على شبه الجزيرة.

شاركت (خوانا) في الحديث مؤيدة لفكرة الملك، وأضافت:

- وبهذه المصاهرة سنضمن التزام خايمي بمعاهدة كاسولا، ونكسبه حليفًا قويًا للمملكة.

عقب (فرناندو) مبتهجًا:

- مرحى مرحى، قد أصبحت خوانا ضليعة في أمور الملك والسياسة.

ضحكت خوانا وقالت:

- ما أنا إلا بعض منكم يا مولاي، وها أنا أتعلم منكم.

(١٠)

ما إن وصل الأمير ألفونسو إلى البهو الملكي في القصر، حتى خلع خوذته ووضعها تحت إبطه، وتعلقت أنظاره بالملك الذي كان جالسًا على عرشه منهمكًا في تفكير عميق. لم يشأ الأمير ألفونسو أن يقطع تفكير والده فانتظر لعل الملك ينتبه لدخوله. وطال الصمت وطال معه استغراق فرناندو في التفكير قبل أن يدير رأسه ويرفع بصره متطلعا إلى ألفونسو. زفر فرناندو زفرة قوية ثم قال:

- مرحبًا بك يا ألفونسو، هل أنت هنا منذ زمن؟

ابتسم ألفونسو وقال:

- ليس منذ وقت طويل يا مولاي.

نظر فرناندو إلى ورقة بيد ألفونسو وقال مستفهما:

- ما هذا؟

- إنها رسالة من إشبيلية يا مولاي.

ثم تقدم وأعطاها لوالده. فتح فرناندو الرسالة وطالع ما فيها، بينما أشار ألفونسو للحرس، فدخلوا حاملين بعض الصناديق الخشبية. ولما انتهى فرناندو من الرسالة نزل من عرشه، وأشار للحارس ففتح الصناديق حتى يرى فرناندو ما في داخلها. تفحص فرناندو الصناديق، ثم أمر بأن تحمل إلى الداخل، وعاد للجلوس على كرسيه، وأشار لألفونسو فجلس عن يساره.

تمتم فرناندو قائلًا:

- إشبيلية!

ثم أطلق ضحكة ساخرة رجت أركان المكان.

فسأل ألفونسو:

- ما الأمر يا سيدي؟

- إنها رسالة خضوع وخنوع لنا، يطلب فيها ابن الجد صداقتنا.

ثم تحرك صوب الصناديق، وأمر بفتحها وراح ينظر فيها وهو يقول متابعًا حديثه لولي عرشه:

- فما رأيك يا ألفونسو؟

التفت ألفونسو إلى الملك وقال:

- إن طلبوا الصداقة فليدفعوا من أجلها.

وقف فرناندو وقال:

- وبهذا سأرد على ابن الجد، فاكتب عني.

أمسك ألفونسو بورقة ومحبرة منتظرًا ما يمليه عليه الملك. فقال فرناندو:

- نقبل صداقتكم ونحالفكم بأربعة شروط:

أولًا: أن تؤدي إشبيلية الجزية.

ثانيًا: أن يحكم ابن الجد إشبيلية كنائب للملك.

ثالثًا: أن يشهد ابن الجد اجتماعات الكورتيس باعتباره من أتباعه، وأن يقدم إليه العون متى طلب إليه ذلك.

رابعًا: أن يسلم لقشتالة مجموعة من الحصون والمواقع برهانا على طاعته.

سكت فرناندو، فقال ألفونسو:

- أتراهم يقبلون بهذه الشروط يا مولاي؟

ضحك فرناندو وقال في دهاء:

- أول الغيث قطرة، فمن بعث برسالة يطلب فيها الصداقة والتحالف، وأرسل معها نفيس الهدايا لابد أن الخوف قد بلغ منه مبلغه، فهو بين مطرقة قشتالة التي لا يأمن غاراتها وبين سندان شعبه الذي لا يأمن ثورته عليه، فما كان منه إلا أن يطلب صداقة المطرقة لعلها لا تهوي عليه، وسيقبل كل ما تمليه عليه ليتوقاها. وتنازله إلى حد عرض الصداقة والتحالف سيعقبه تنازلات لا تخطر على بالك يا ألفونسو، هل وعيت الآن ما وراء هذه الرسائل؟

فغر ألفونسو فاه مما سمع ولمعت عيناه، ثم قال:

- منكم نتعلم الحكمة يا مولاي.

- يومًا ما ستكون مكاني يا ألفونسو، فتعلم ألا تضع السيف موضع السياسة والحكمة، واحرص دائمًا على معرفة مواطن الضعف في عدوك وهاجمها بلا رحمة ولا هوادة، واعرف مصادر قوته فجففها واقض عليها بالمكر والحيلة.

ثم أمسك فرناندو بحفنة من الدنانير الذهبية وراح يرفعها ثم يتركها لتنزل في الصندوق مرة أخرى.

وهكذا ابتهج فرناندو بهذه المعاهدة ورأى أنها انتصار له ولرجاله المندسين الذين تمكّنوا في وقت وجيز من استغفال المسلمين حتى صاروا مستشارين لحكامهم! فكانوا من أعظم أسباب النكبات التي ألمت بتلك البلدان الحزينة.

وبعد هذه المعاهدة الذليلة، استطاع فرناندو أن يتفرغ لغرب الأندلس وعدوه اللدود محمد بن يوسف بن الأحمر. وقد كان فرناندو يتوق إلى الانتقام لما حدث في مرتش، والأخذ بثأر أخيه الذي قتله ابن الأحمر بعد أن هزم جيشه هزيمة منكرة بالقرب من غرناطة.

(١١)

الهدية!

داعب ابن الجد لحيته وهو يتطلع مليًا إلى يوسف المرشاني قبل أن يقول:

- وافق الملك إذا.

أجابه يوسف على الفور:

- أجل يا سيدي، وبادلك بهديتك هدية أخرى.

ابتهج ابن الجد وقال:

- أين هي؟

- في حديقة القصر يا مولاي.

- ولماذا لم تحضروها إلى هنا لأراها؟

- كما ترغب يا مولاي.

تمتم ابن الجد:

- لا بأس، سأخرج لأشاهدها.

نهض ابن الجد وخرج من الإيوان وخلفه يوسف المرشاني حتى إذا وصل حديقة القصر التفت قائلًا:

- أين الهدية؟

صاح يوسف بأحد الحراس فجاءه يجر خلفه كلبًا ضخمًا. ارتاع ابن الجد من مشهد الكلب، واربد وجهه غضبًا، ثم انصرف قافلًا إلى مجلسه وخلفه يوسف.

لاحظ يوسف الوجوم على وجه ابن الجد فقال له في خبث ودهاء:

- إنه كلب حراسة وكأن الملك فرناندو أراد أن يقول لك أنك بعينيه يرعاك ويحميك.

رمق ابن الجد يوسف وقال:

- أحقًا يقصد ذلك أم يقصد إهانتي؟

ابتسم يوسف ابتسامة خبيثة وقال:

- لو قصد الإهانة ما قبل المعاهدة يا سيدي، فكيف يقبل بصداقتك ثم يهينك؟

انفرجت أسارير ابن الجد وقال:

- صدقت يا يوسف صدقت، وإن كان الأمر كما تقول فلنحتفل بهذا التحالف وليعلم القاصي والداني أن إشبيلية قد دخلت في حلف مع قشتالة.

(١٢)

بعد أن فرغ من أمر إشبيلية، جهز فرناندو جيشا ليخرج على رأسه إلى أرجونة، مسقط رأس ابن الأحمر، مريدًا بذلك تحطيم قلب ابن الأحمر بضرب تلك القرية التي شهدت ولادته وكانت محل ومقر عصبته قبل أن يتحول منها إلى غيرها.

اقترب الأمير ألفونسو من الملك الذي كان في طليعة جيشه على جواد أدهم وقال له:

- مولاي، لو تركتني أخرج بهذا الجيش واسترحت أنت، فإني أخشى أن يعاودك المرض، كما أن هؤلاء - يا سيدي - يقدر عليهم عبد من عبيدك فكيف بولي عهدك، فلم تجهد نفسك؟

قال فرناندو بصوت حاد ولهجة جادة:

- لن ينتقم لأخي أحد غيري فلا تراجعني في هذا الأمر مرة أخرى.

ثم لكز جواده وتحرك بجيشه قاصدًا أرجونة، سالكا أقرب الطرق إليها. وفي الطريق أصدر فرناندو أوامره لجنوده بتخريب كل ما يقع تحت أيديهم من أموال المسلمين التي لا يمكن حملها. فطفق الجند يقتلون البقر والأغنام ويتركونها ميتة مكانها، ويجتثون الزروع ويحرقون الأشجار حتى غدا ما بين حدود قشتالة وأرجونة قاعًا صفصفًا، وارتفعت ألسنة اللهب وارتوت الأرض بدماء الحيوانات البريئة التي كان ذنبها أن أصحابها مسلمون!

وبعد أيام وصل فرناندو إلى نواحي أرجونة، وعسكر بالقرب منها، وهو يرقب الأحداث ويدرس المكان، وقد حملته تجربة أخيه من قبل على أن يتريث قبل الهجوم.

ترجل فرناندو عن صهوة جواده، وراح ينظر يمينًا ويسارًا وبجانبه أردونيو فقال له:

- لا ينبغي أن نكرر سالف الأخطاء ولا أن نأمن مكر الثعلب ابن الأحمر.

فأومأ أردونيو الباريث برأسه موافقا، ثم أضاف مقترحا:

- أرجو أن يترك لي سيدي الملك مقاتلة ابن الأحمر حتى يظل هو في أمان وتكون قلوبنا في اطمئنان.

قهقه فرناندو ساخرا وقال:

- لو كنت أهاب الموت يا أردونيو ما صرت اليوم ملكًا على كل هذه البلاد، فلا تخشى عليّ، وسأترك لك قتال ابن الأحمر، ليس خوفًا فمن ذا الذي لا يزال يخاف هذه الشرذمة من المسلمين! لكن الخطة تستدعي هذا.

تساءل أردونيو الباريث في عجب:

- خطة؟!

إذ أنه كان يظن أن الخطة هي محاصرة أرجونة حتى تستسلم، فقطع عليه فرناندو تعجبه وقال:

- نعم الخطة يا أردونيو، فلا يجب أن ندخل حربًا بدون أن نخطط لها جيدًا.

فقال أردونيو مستخفا:

- وهل تحتاج بلدة صغيرة كهذه إلى خطة؟

فنهره فرناندو قائلًا:

- لا تفعل يا قائد الجيش، لا تستهن بعدوك كائنًا من كان، وإلا فأنت لا تستحق أن تكون قائد جيوشي.

تلعثم أردونيو وهو يقول:

- عفوًا يا سيدي فقد وعيت الدرس جيدًا، هلا أعلمتني بالخطة؟

- لا بأس عليك يا أردونيو، أما الخطة فتقتضي أن أظل أنا وكتيبة من الجيش هنا، نؤمن الطريق ونحمي ظهرك ونراقب ما يجري من أحداث، بينما تخرج أنت بالكتائب الأخرى لتحاصر أرجونة، فإن ظهر خطر ما أو حاول ابن الأحمر إنجاد المدينة، كنا له بالمرصاد وإلا فسوف أسير بكتيبتي لأحاصر المدينة معك.

ثم أمر فرناندو بضرب المعسكر في تلك الناحية، وخرج أردونيو في قواته إلى أرجونة، وما إن رآه أهلها حتى سارعوا بإغلاق أبواب مدينتهم ثم أرسلوا إلى

غرناطة في طلب النجدات، فضرب أردونيو حولها الحصار، رجاءً أن يستسلم أهلها بعد نفاد أقواتهم.

أما فرناندو فقد ضرب محلته بعيدًا عن القرية، تاركًا الحصار لقائده أردونيو. ومر يومان على الحصار، وكانت المدينة صغيرة غير منيعة، وبها حامية صغيرة لا تستطيع رد القشتاليين أو حتى الاشتباك معهم، إذ لم يكن المسلم بمائة أو بعشرة أو حتى بواحد، بل كان المسلمون مهزومين بالرعب بعد أن خارت نفوسهم وأخذوا أذناب البقر وكرهوا الجهاد. وفي اليوم الثالث، قرر أهل أرجونة الخروج من المدينة بالتسليم والأمان مشترطين على فرناندو أن يتركهم يغادرون بما يحملون معهم، فوافق فرناندو على ذلك. وفي اليوم الرابع دخل المدينة بعد أن أخليت من أهلها. وهكذا سقطت أرجونة بدون أن يرفع أحد من رجالها سيفًا في وجه القشتاليين أو يطلق سهمًا!

وما إن دخل فرناندو مدينة أرجونة حتى نهبها القشتاليون، وقام فرناندو بتوزيع بيوتها على جنده، ثم دخل مسجدها الجامع، وكان مسجدًا جميل الصانعة، فأمر به فسوي بالأرض تشفيًا من ابن الأحمر وأهله.

ثم سأل عن بيت ابن الأحمر فدلوه عليه، فأمر بتخريبه ونقل ما فيه من أموال إلى خزانة قشتالة. ولم يُشفَ صدر فرناندو بعد كل ما أتى، بل أمر أردونيو بالسير في قوة نحو غرناطة أيضًا، فعاث ذلك البعث في بسائطها وخرب زروعها وأحرق أشجارها وبساتينها بينما اكتفى ابن الأحمر بالنظر إلى الجيش المغير من خلف الأسوار. وبعد ذلك قصد فرناندو إلى قرطبة فاستراح بها رافضًا العودة إلى طليطلة قبل أن يشفي غليله من ابن الأحمر الذي ناصبه العداء وقتل أخاه. والحقيقة أن فرناندو خشي أن يستغل ابن الأحمر نجاحه الصغير ويتبعه بغيره فيعقب ذلك تبدل في الأمور وتغير في الأحوال، فيعود للمسلمين حماسهم ويذهب عنهم رعبهم فيحاربوا قشتالة وينتصروا عليها. لذا فقد حرص فرناندو على السرعة في وأدٍ ذاك النصر الصغير.

الفصل الخامس

لا نريدها حربًا أهلية يا (شقاق)، وأنت تعلم من المستفيد منها إن حدثت، وأنت أحرص الناس على (إشبيلية) وسلامتها... نعم تستطيع العصيان ولكنك أعقل من هذا وأنت أدرى الناس بأنه ما من أحد يستطيع وقف الفتنة إن اندلعت... وأنا أعدك أنها مجرد أيام وتعود إلى مكانك الطبيعي، فاصدع بالأمر اليوم على أن يكون لك غدًا ما تريد، ولا تكن داعيًا للفتنة في هذا الوقت العصيب!

ابن الجد

(١)

برتقال قشتالة

في سوق إشبيلية، وقف أحد الباعة ينظر إلى الفواكه التي ملأت دكانه، ثم راح يرتب البرتقال ترتيبًا أنيقًا يلفت به نظر المارة، وما هو إلا وقت قليل حتى سأله أحدهم:

- بكم تبيع هذا؟

أمسك البائع بواحدة وقال:

- بخمسة دراهم.

عقد المشتري حاجبيه وقال في استهجان:

- خمسة دراهم؟

ثم نظر إلى كومة أخرى من البرتقال حباته أعظم حجمًا وقال:

- وبكم هذا؟

- أما هذا فبثلاثة فقط.

صرخ المشتري في استنكار:

- وما الذي جعل هذا بخمسة وذاك بثلاثة؟

- هذا برتقال (قشتالة) لهذا فهو غالي الثمن، أما ذاك فهو برتقال (إشبيلية) ولك أن تبتاع أيًا منهما أردت!

مط المشترى شفتيه في ازدراء وقال:

- صرنا نفتخر ببضائع (قشتالة)!!

ثم استطرد قائلًا:

- ألا تعلم أيها الرجل أنَّ (قشتالة) هذه لم تكن تعرف البرتقال، ولولا أن الداخل رحمه الله نقله إلى هنا ما عرفوه، فكيف بالله عليك تقول ما قلت؟

- أيها الرجل لا دخل لي بما تقول، فابتع أو امضِ راشدًا.

ضرب المشترى كفًّا على كف وقال:

- لا حِول ولا قوة إلا بالله!

ثم انصرف لا يلوي على شيء.

وعلى الجانب الآخر من السوق، كان العامة يتجادلون عن أمر المعاهدة، فقال أحدهم:

- لا ندرى والله إن كانت خيرًا لنا، أم هي الشر بعينه!

سأل آخر مستهجنًا:

- وأين الخير في معاهدة ذليلة كتلك؟ إنها محض استسلام (لقشتالة).

عاد الأول يحذره في رعب:

- اخفض صوتك يا رجل، لا يسمعنك رجال (ابن الجد)!

أخذت الثاني العزة فرد في ضيق وتبرم:

- والله لا أخافهم فليسمعوا إن شاءوا، فالجميع يعلم ما حدث، والأمر ليس بخافٍ على أحد!

أشار الأول بيديه علامة عدم الرضا، ثم همَّ بالابتعاد لولا أنه سمع صوت يوسف المرشاني، الذي ارتفع يقول:

- أبشروا يا أهل (إشبيلية)، فقد عقد مولانا (ابن الجد) تحالفًا مع مملكة (قشتالة)، أقوى ممالك شبه الجزيرة، ليثبت لنا مع الوقت حنكته وحسن تدبيره، فمن اليوم سيعم الأمن ويذهب الخوف، فالحرب قد وضعت أوزارها، لن يقتل بعد اليوم أبناؤكم، ولن ترمل نساؤكم في حروب لا طائل من ورائها، وستزيد أموالكم وتنمو تجارتكم....

قاطعه أحد التجار متهكمًا:

- تنمو تجارتنا! كيف بالله عليك؟

نظر يوسف إلى الرجل، وقال في دهاء:

- كانت أسواقكم لا تستقبل البضائع القشتالية، وكنتم لا تبيعون لهم، أما الآن وبحكمة من مولانا (ابن الجد)، يمكنكم فعل ذلك. وبهذا ستنمو تجارتكم وتربحون الأموال الكثيرة.

لهج معظم العامة بالثناء على ابن الجد، بعد أن أقنعهم يوسف المرشاني بكلامه، ومن الذي يكره أن تنمو تجارته وتزيد أمواله ويغرقه الخير؟!

لم يكد (عبدالرحمن) يسمع بما حدث في السوق، حتى ترك طعامه وأمر برفع صحافه، وقد امتقع لونه واكفهر وجهه وقال في نفسه :

- إلى متى نرى سوء أفعال (ابن الجد) ونسكت عليها؟ إلى متى يظل يوسف المرشاني يبث سمومه في العامة، مستغلاً جهلهم وقصر نظرهم؟ كيف لا يستطيع الناس التمييز بين الغثّ والسمين والحق والباطل؟

ثم نهض متحركًا إلى شرفة بيته، ووقف ينظر يمينًا ويسارًا، وهو يقول:

- والله لن يسكت (ابن الجد) حتى يُدخلنّ القشتاليين علينا مدينتنا!!

ثم ضرب بيده الجدار، وقال في أسف وتحسر:

- آه يا (شقاق)! لو تركتني أقتله؟ لربما تبدل الحال اليوم!

(٣)

حفل زواج
الأمير ألفونسو والأميرة فيولانتي

كانت رائحة المطر تملأ أجواء (سرقسطة)، والماء يجري في أزقتها المبلطة الجميلة، وقطرات الماء تتساقط على أوراق الشجر تداعبها وتغسلها، فتظهر الأوراق أكثر خضرة وجمالًا، وتتراقص قطرات المياه على وجه نهر الأيبرو فتعزف أنشودة جميلة على صفحته الخالدة.

من خلف نافذة غرفتها في قصر الجعفرية، راقبت الأميرة الصغيرة فيولانتي الأمطار، وهي تغسل زجاج النافذة، محاولة بإصبعها الصغيرة مداعبة تلك القطرات، التي تتراءى على زجاج النوافذ الجميلة، أخرجت الأميرة يديها لتستقبل بها المياه، ثم خرجت إلى باحة القصر وحديقته تنظر إلى السماء، فتُغرق المياه وجهها الفتان، بينما تخرج لسانها محاولة تذوق ماء المطر والشرب منه، وقد تبللت ثيابها واتسخت، وهي لا تعبأ بذلك، بل تابعت اللهو في سعادة غامرة، والملكة (فيولانتي) تراقبها من قريب وهي تبتسم، وتقول في نفسها:

- ها قد مرت الأيام، وأصبحت فيولانتي الصغيرة، عروسًا يخطبها الأمراء.

بعد أن أرهقها التعب، عادت الأميرة الصغيرة إلى القصر، لتجد أمها في انتظارها... خفضت (فيولانتي) وجهها خجلًا، فبادرت الملكة الأم وقالت مبتسمة:

- منذ نعومة أظافرك وأنت تحبين اللهو تحت السماء الممطرة واستنشاق رائحة الأرض المبتلة.

ابتسمت الأميرة الصغيرة وقالت:

- ربما ورثت ذلك عنك يا أمي.

- وتحسنين الحديث أيضًا، تعالي اجلسي بجانبي يا حبيبتي.

- ألا أبدل ثيابي أولًا؟

- بل اجلسي كما أنتِ.

تقدمت الأميرة بملابسها المبللة، وجلست بجوار أمها، التي قالت لها وهي تحتضنها:

- لقد كبرتِ يا فيولانتي، وعما قريب ستتركين أمك

- لا لن أتركك أبدًا يا أمي!

قالتها ثم وضعت رأسها على صدر أمها التي أخذت تمسح على شعر ابنتها الأملس وهي تقول:

- هكذا هي الدنيا يا صغيرتي، وقد تقدم لخطبتك الأمير (ألفونسو) بن (فرناندو) ملك (قشتالة) وليون، ولن نجد لك زوجًا أفضل منه، فهذا الأمير سيكون مع الوقت مكان أبيه على عرش (قشتالة) وليون، مما يعني أنك ستتوجين ملكة على عرش مملكة قوية مهابة.

استقبلت الأميرة فيولانتي خبر خطبتها بشيء كبير من الحياء، ولكن أمها الملكة أرادت أن تتيقن من موافقتها على هذا الزواج، خاصة وأن مندوبًا عن البابا سيحضر حفل الزفاف.

أما الملك (خايمي الأول)، فقد كان يرى أنّ هذه الزيجة هي فرصته، ليحوز عرش (قشتالة) مع الوقت، أو على الأقل يضمن (قشتالة) حليفًا قويًّا، ضد أي مخاطر قد تظهر مع الأيام، وتهدد مملكته الواسعة.

بعد أيام عاد الوفد القشتالي يحمل موافقة ملك (أراجون) على زواج ابنته من ولي عهد (قشتالة)، فأمر الملك (فرناندو) أن تقام الاحتفالات في كل أرجاء المملكة، احتفاء بهذا الخبر السار وهذه المناسبة السعيدة.

شعر (فرناندو) بحسن طالعه، فكل خططه كُتب لها النجاح، وكل نظراته المستقبلية تؤتى ثمارها مبكرًا...لهذا استنشق هواء شرفة قصره الرابض على نهر التاجة، ثم قال في رضا تام:

- سيكون حفل زواج (ألفونسو) فرصة جديدة لي، لاستنزاف المزيد من أموال هؤلاء الحمقى، ملوك المسلمين في شبه الجزيرة!!

ثم استدار عائدًا من الشرفة، حتى استوى على كرسي عرشه وقال:

- اكتب أيها الكاتب إلى أمراء المسلمين في شبه الجزيرة، أعلمهم بنبأ زواج الأمير (ألفونسو) من الأميرة فيولانتي، فليحضروا جميعًا بأنفسهم، وليقدم كل أمير منهم هديته...

ثم ضحك ضحكة ماكرة، لم يكد يتمها حتى دخل عليه من يخبره، بوجود الأب ماغنوس بباب قصره.

أشار الملك للحارس فخرج، ليدخل الكاردينال ماغنوس، وهو يرتدي زيًّا أبيضَ وعلى رأسه تاج كتاج المُلك، وهو يحمل بيده عصا مذهبة يتكئ عليها...

ألقى ماغنوس التحية على (فرناندو)، وجلس عن يمينه ثم قال:

- لقد علمت بنبأ خطبة الأمير ألفونسو لأميرة (أراجون) فيولانتي.

أجاب (فرناندو) في غبطة:

- أجل أيها الأب قد كان، ولو تأخرت قليلًا لأرسلت إليك من يخبرك بذلك لتبارك بنفسك هذه الزيجة.

- وإني أبارك هذه الزيجة، وسوف أقوم بتدريب الأمير، وإعداده نفسيًّا لهذا الزواج الذي هو سر الحياة.

ابتسم (فرناندو) وقال:

- بوركت أيها الأب.

- لكن أيها الملك منذ أن أمرت بهدم كنيسة (طليطلة) العظمى، والزيجات تتم في كنائس (طليطلة) الصغيرة، فهل ستتم حفلة زواج الأمير ولي العهد القشتالي في كنائس (طليطلة) الصغيرة؟ وإن كان، فكيف تستوعب تلك الكنائس الصغيرة مثل هذا الحفل الكبير؟

استرخى (فرناندو) على كرسيه، وصمت يفكر في أمر الكنيسة التي سيكون الحفل بها، ثم ابتسم وقال:

- لن نقيم حفل زواج الأمير، في أي من كنائس (طليطلة)!

نظر الكاردينال إلى الملك مستفهمًا، إذ إنه يعلم أن من شروط الزواج أن ينعقد داخل كنيسة، إذ لا يتم خارجها ولو كان في قصر الملك نفسه، ثم قال:

- فأين إذن؟

- في أكبر كنائس (قشتالة)... في كنيسة (قرطبة) الكبرى، تلك الكنيسة الحديثة التي كانت أكبر مساجد المسلمين في شبه الجزيرة...

سكت قليلًا ثم تابع في سعادة بالغة:

- ليكون هذا الزواج هو الأول من نوعه الذي يقام في تلك الكنيسة... وستكون أنت أيها الكاردينال الأعظم من يتولى إتمام الزيجة...!

ثم نهض واستطرد قائلًا:

- أريد أن يكون الحفل مشهودًا تتحدث به كل أوربا زمنًا طويلًا، وأن تدقّ الأجراس، احتفالًا بهذه الزيجة في كل (قشتالة)، ويدوم دقّ الأجراس في كنيسة (قرطبة)، طوال أيام الأسبوع، بل ومن الآن حتى يتم الزواج المبارك... فما رأي الكاردينال الأعظم فيما أقول؟

رسم الكاردينال علامة الصليب مُبديًا رضاه عنه، وسعادته البالغة به قائلًا:

- الشكر للرب الذي وفقك لهذا!

وهكذا تم ترتيب مراسم الزواج، وفي اليوم المتفق عليه، خرج موكب مهيب من (أراجون)، تتقدمه الملكة والملك والأميرة فيولانتي، والأمير (ألفونسو) الذي كان قد حضر لاصطحاب خطيبته من (سرقسطة) حتى (قرطبة)، وبعد أيام وصل الموكب إلى (قرطبة)، التي كانت قد تزينت لاستقبال العُرس المشهود، وسط دقات الأجراس في كل كنائسها.

وصل العروسان إلى باب الكنيسة الجامع، وبدأ الحاضرون بترتيل مارشال العُرس صلاة البراخ.

ثم تقدم العروسان ليقفا أمام الكاردينال ماغنوس، الذي توقف بدوره أمام المذبح محراب المسجد سابقًا، وبدأ الكاردينال بالكلام فقال:

- أيها العزيزان لقد جئتما إلى بيت الرب، كي يمنح زواجكما طابعًا مقدسًا أمام الكنيسة وأمام الكاهن، إنّ المسيح يبارك الحب الزوجي، ويقي المعمدين، ويقويهم بسر مقدس خاص، فيحافظون على الأمانة المتبادلة بينهم، ويقومون بما يمليه الزواج عليهم من واجبات، لذلك أطلب منكما أن تجيبا صراحة أمام جماعة المؤمنين وبحرية تامة.

نظر الكاردينال إلى الأمير وقال:

- أيها الابن المبارك (ألفونسو) لقد تقدمت وحضرت لتقترن (بالأميرة فيولانتي) بموجب السنة المسيحية، والقوانين الكنسية. فهل تريد أن تأخذها قرينة لك بزواج شرعي ثابت غير قابل للانفكاك، من دون جبر ولا إكراه وبرضاك التام؟

أجاب (ألفونسو) من غير تردد:

- نعم أيها الأب.

نظر ماغنوس إلى (فيولانتي) وقال:

- وأنت أيتها العروس، لقد تقدمت أيتها الابنة المباركة (فيولانتي) وحضرت لتقترَني (بالأمير ألفونسو) بموجب السنة المسيحية والقوانين الكنسية، فهل تريدين أن تأخذيه قرينًا لكِ بزواج شرعي ثابت، غير قابل للانفكاك، من دون جبر ولا إكراه وبرضاكِ التام؟

ردت فيولانتي (في حياء وبصوت خافت):

- نعم أيها الأب العطوف!

هتف الكاردينال ماغنوس، بصوت أسمع الحاضرين:

- يشهد الرب عليكما، الرب يبارككما، ويسكب عليكما غزير انعاماته الإلهية، ويكثر نسلكما، وينجح أموركما، ويجعل هذا الاقتران واسطة لخلاصكما، ويربطكما بوثائق المحبة مدة حياتكما، بشفاعة العذراء وجميع القديسين آمين، أيها المسيح الختن (العريس) السماوي بارك هذين الخاتمين، واجعلهما عربون رضا وعلامة حب بين العروسين، بصلاة قديسك وكنيستك، فيتمجد اسمك بأعمالهما الصالحة، يا رب الكل الأب، الابن، الروح القدس، إلى الأبد.

ثم رسم الكاريدنال علامة التثليث، وهكذا تم الزواج كما أراد الملك، وبعد الانتهاء من تلك المراسم، انتقل الحفل إلى قصر (قرطبة) القريب من الكنيسة، التي ما زالت تدقّ أجراسها، لتسمع الجميع صرخاتها، وكأنها تشتكي كيف وقد كانت بالأمس مسجدًا تقام فيه الصلوات، تغدو اليوم مكانًا للأجراس، يُشرب فيه الخمر، وتقام فيه الحفلات.

(٣)
فصبرٌ جميلٌ

تطايرت أوراق الشجر الجافة، مع رياح الخريف الهادئة، في أزقة إشبيلية وحواريها، وبزغت الشمس في الأفق لتلقي بأشعتها الذهبية تعانق تفافيح منارة مسجد (إشبيلية) الجامع، لم يكن (زيد) يعرف للنوم عنوانًا، وقد أمست حياته خواءً لا بهجة فيها، فارتدى ثيابه وخرج من بيته، تسوقه قدماه باتجاه برج الذهب، حتى إذا وصل إلى المكان ذاته، جلس يسترجع ذكرياته وأيامه الخوالي، ذكريات مرت كحلم جميل، وهو يتمنى أن تعود........ تنهد (زيد) بقوة، وراح يتراءى له وجه (مريم) في الماء، تارة تبتسم له وتارة وهي تبكي، وهو يحاكيها ويفعل نفس الأمر...

مر الوقت واستيقظ من لم يستيقظ من الخلق، وارتفعت حرارة الشمس، ولفحت وجه (زيد)، الذي استمر كما هو لم يتحرك، حتى أحسَّ يدًا تلمسه وتربت على كتفه، انتبه (زيد) ونظر لصاحب اليد، فوجده يوسف البياسي.

نهض (زيد) وبعينين مليئتين بالدموع، قال:

- هل علمت ما حدث أيها الشيخ؟

نظر يوسف إلى (زيد) نظرات حانية مشفقة، وقال:

- لا تحزن يا ولدى، فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

لم يتمالك (زيد) نفسه وأجهش بالبكاء، فما كان من البياسي إلا أن احتضنه، وقال:

- هوّن عليك يا ولدي!

جفف (زيد) دموعه وقال:

- أشعر أنَّ ما يحدث لي هو عقاب من الله لعدم خروجي (لبلنسية)، عندما نادى المنادي حي على الجهاد، فكان الجزاء من جنس العمل، وكما سقطت (بلنسية) وأخذها العدو، ضاعت (مريم) وذهبت لغيرى.

ابتسم البيّاسي بحزن وقال:

- لا تيأس من روح الله يا فتى....... والآن أخبرني لمَ أهملت تجارتك؟

شهق (زيد) وقال:

- لم يكن بإرادتي أيها الشيخ!

- بل بيدك، فاشحذ عزيمتك للتجارة والكسب، واذكر - يا بني - قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني، فلا ترض لنفسك مثل هذا.

وضع زيد وجهه بين كفيه، وغالب دموعًا متحجرة في عينيه، لكنها غلبته فانهمرت فتركها تجري وقال:

- لم أعد أصلح للعمل أيها الشيخ، ما عدت أقدر عليه بينما فؤادي يعتصر ألما على من فقدت.

- ما هكذا قلوب الرجال، تجلد يا فتى واصبر وعد لعملك، وليكن حبك الكبير هذا طريقا للنجاح لا سببًا للفشل والهوان، ثم أنت لا تدري ما سيكون غدًا، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

- أي أمر أيها الشيخ، وقريبًا سيتم زواجها على ابن عمها!

- يا ولدي لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا فلا تيأس من روح الله!

ثم ابتسم يوسف، وانطلق يتابع حديثه المتكرر مع أهل (إشبيلية)، الذين لم يعيروه أسماعهم، ولم يهتموا بحديثه، بل كانوا يستقبلونه بالسخرية والاستهزاء.

أرسلت (مريم) دموعها في صمت، وهي تقول في نفسها أنا لا أستطيع الحياة من دون (زيد)، بل لا أستطيع أن أفكر مجرد التفكير في فراقه، فكيف بالزواج من غيره، لقد ملك كل قلبي وجوارحي.

وبعد فتره من البكاء الصامت، قررت (مريم) أن تتحدث إلى والدتها، عسى أن ترقَّ لحالها وتساعدها، فجففت دموعها وتركت غرفتها وذهبت إلى بهو المنزل حيث تجلس والدتها، وقالت لها:

- أمّاه ألا من سبيل لإثناء أبي عن هذه الزيجة؟

نظرت الأم إلى ابنتها بحدة وقالت:

- وما الذي يعيب ابن عمك حتى نرفضه؟

- لا أحبه يا أمي، أنا لا أحبه!

بصوت هادئ قالت الأم:

- يا بنيتي ما دام الرجل لا يعيبه شيء، فتقبلي الأمر، والعشرة كفيلة بخلق الحب بينكما، فارضي بما كتبه الله لك.

- وكيف نعلم أن ابن عمي هذا هو من كتبه الله لي؟

- لا تجادلي كثيرًا يا (مريم)، ولا يسمعنك أبوك، وإن كنتِ لا تحبين ابن عمك فهو يحبك، وهذا يكفي.

بكت (مريم) وقالت:

- بل يحب أموال أبي!

- دعي عنك تلك الأوهام، فعنده من المال مثل ما عند أبيك.

أغمضت (مريم) عينيها، والدموع تنهمر منهما، بعد أن شعرت أن لا فائدة تُرجى من هذا الحديث، فقد أصمّ الجميع آذانهم عنها، ثم قالت بعد لحظات:

- إذن دعيني أخرج من هنا، فقد اشتقت إلى الجلوس على حافة نهر الوادي الكبير.

هزّت الأم رأسها رافضة وقالت:

- لن تخرجي من دون خطيبك، وإذن أبيك.

انكسر قلب (مريم)، ولم تجد أمامها غير دموعها، وقلب (قمر) يشفق عليها، ويكاد ينفطر من أجلها، فالتزمت غرفتها، وهي تصبر نفسها، وتقول:

- عسى الله أن يجعل لي مخرجًا!

(٤)

صمود (جيان)

في أحد حمامات جيان، وفد الوالي أبو عمر علي بن موسى، ليتحمم على عادته في هذا اليوم من الأسبوع، استرخى الوالي في مقعده وراح يستمتع بالبخار الساخن ويد صاحب الحمام تدلك جسده في عناية، لم يقطع هذا الاسترخاء سوى جلبة آتية من خارج الحمام..... أنصت الوالي فإذا بصاحب الصوت يقول:

- أين الوالي؟

رد عامل الحمام في قلق:

- إنه بالداخل يستحم يا سيدي، فلو انتظرت حتى يفرغ؟

ولم يكد العامل يكمل كلامه حتى كانت يد الفارس تبعده وهو يقول:

- لكن القشتاليين لن ينتظروا.

ثم اندفع إلى داخل الحمام بلا إذن أو استئذان!.

نظر أبو عمر إلى الفارس نظرة تفيض غضبًا وكأنه يتوعده، إذ كيف يجرؤ أن يقتحم عليه هكذا! ولكن الفارس تحاشى تلك النظرات، ولم يعطِ للوالي وقتًا ليوبخه وسارع قائلًا:

- نبأ من عيوننا يا سيدي، يخبر بأنَّ جيشًا قشتاليًّا في طريقه للمدينة!

فزع الوالي من الخبر، وتناسى ما فعله الفارس، وبسرعة كبيرة نهض وارتدى ملابسه وقال:

- من قائد الجيش؟

- (فرناندو) يا سيدي!

أكمل أبو عمر ارتداء ملابسه وهو يقول:

- أتقصد ملك (قشتالة) أم أحد قادته الذي يتسمى باسمه؟

- بل هو ملك (قشتالة) بنفسه يا مولاي!

كانت نظرات أبو عمر متوترة، وأنفاسه متسارعة، فأكمل ارتداء ملابسه، وخرج من الحمام على عجل من أمره، وبسرعة كبيرة وصل إلى قصر الإمارة، وأمر من فوره بسرعة حصد الزروع، والثمار وإدخال الماشية إلى المدينة، استعدادًا لما هو آت، حتى لا ينعم المغيرون بخيرات المدينة، فتحرك الجند، ونادى المنادي فهرول الجميع إلى تنفيذ الأوامر، وسارعوا في حصد زروعهم وثمارهم، وفضّ مراعيهم وجمع أغنامهم وأبقارهم.

ولم تغب الشمس حتى كانت الزروع قد حُصدت، والمواشي قد جُمعت، ثم أوصدت أَبواب المدينة، استعدادًا لحرب لا يعرف أحد متى تكون نهايتها، وتوزع الجند على الأسوار، وأمر الوالي رماة الأسهم أن يشدوا نبالهم، ويقتلوا من يقترب من أسوار مدينتهم، ثم وقف الوالي على أحد الأبراج يراقب جديد الأحداث، وفجأة وفي عتمة الليل سُمع صهيل الخيل...

نظر أبو عمر صوب الصوت، فإذا بالجيش القشتالي قد ظهر.

بإشارة من يده توقف الجيش القشتالي، ثم أمرهم (فرناندو) بنصب المعسكر، وتطويقِ المدينة، وتقدم جهة الأسوار، وصاح بصوت عالٍ سمعه أبو عمر على السور، قائلا:

- أقسم يا (جيان) أن أدخلك أو أهلك دونك، وأقسم أن فشلي من قبل لن يتكرر، ولن أعود إلى (قشتالة)، قبل أن أمسك بيدي هاتين مفاتيحك!

أخذ أبو عمر نفسًا عميقًا ثم نزل من فوق الأسوار، وقد عوّل على المقاومة، وعدم الاستسلام، وفي ذات الوقت، أمر بأن يخرج مِن المدينة، مَن يطلب من (محمد بن الأحمر) النجدات.

وفي صباح اليوم الثاني، جمع أبو عمرٍ الناس في ساحة المدينة الكبيرة، أمام مسجد عبدالرحمن الثاني وخطبهم قائلا:

- لم يبق في أرضِ غرب الأندلس غير (جيان)، فإن سقطت ذهب غرب الأندلس، وسوف نُسأل أمام الله عن التفريط في هذه الأرض، التي فتحها الأجداد، وفرط فيها الأحفاد، إلا أني لن أسلم هذه المدينة، ولن أستسلم ولن أفرط أبدًا فيها، فأعينوني على ذلك.

أثارت كلمات أبي عمرو علي بن موسى الحماسة في نفوس أهل (جيان)، فعزموا جميعا على مؤازرته، وارتدى كثير منهم لباس الحرب، وتقلدوا السيوف، وتفرقوا على أسوار (جيان)، يفدونها بأرواحهم.

أما (فرناندو) فقد أحكم حصار المدينة من كل الجهات، وصمم على أن يأخذها بالصبر والحصار، فقد كان يرى استحالة أخذها بالقوة، وكان يرى أن مجرد الاقتراب من تلك الأسوار فيه انتحار لجيشه.

تلقى (ابن الأحمر) نبأ حصار (جيان) بقلق شديد، خاصة وأنها عاصمته الأولى، فسقوطها بعد أرجونة يعني سقوط مملكته القديمة، ونصف مملكته الحالية ومصدر ثرواتها، لذا لم يتردد (ابن الأحمر) وقام من فوره وأمر وزيره (يحيى بن عياش) أن يخرج بنفسه على رأس قافلة من المؤن والأسلحة لإنقاذ المدينة المحاصرة.

استمر الحصار حتى دخل الشتاء ببرده القارس، والأمطار لا تتوقف عن الهطول بغزارة شديدة كأنها السيول، ضاعفت من متاعب الجند القشتاليين، وبينما ينعم أهل (جيان) بالراحة خلف أسوارهم، كابد جنود (فرناندو) المشاق، والبرد، والثلوج المتطايرة، وهنا أراد أبو عمرو أن يستغلّ هذا الوضع لصالحه، فقرر مباغتة القشتاليين.

وفي إحدى الليالي غير المقمرة خرج في رجاله، واقتحم معسكر (فرناندو)، وفتك وجنده بمجموعة من جيشه، ثم قفل عائدًا إلى المدينة التي أوصدت أبوابها فور ولوجهم، ولكن رغم ذلك فقد استمر الحصار، وجرت والأمور كما هي، فلا (جيان) استسلمت ولا جنود (فرناندو) اقتحموها، والبرد تتزايد وطأته حتى كره الجند الحرب، وتمنوا العودة إلى ديارهم، وقد كان أردونيو يشعر بما يعتمل في نفوس جنده، ويتواصل معهم، لذا أراد أن ينقل معاناتهم (لفرناندو الثالث)، فدخل عليه خيمته، وقال:

- مولاي الملك، تعلم حرصي على تأدية واجبي المقدس، تجاه المملكة وتجاه سيدي (فرناندو)، لكن يا سيدي ماذا لو طال الحصار، في ظل هذا الوضع وسوء أحوال الطقس في هذا الوقت من العام؟

بصوت حازم قال (فرناندو):

- لا تتعب نفسك يا أردونيو، فلن أفك الحصار، ولو أمطرت السماء لهبًا لا ماءً!

- لكن يا سيدي، سنكون بذلك نحارب المسلمين، وهم في مأمن منا، مختبئين خلف أسوارهم القوية، محصنين بها ومن برد الشتاء، بينما نحن هنا لا نأمن خروجهم، ولا نأمن برد الشتاء والأمطار.

وقف (فرناندو) وقال:

- كلامك دليل على قوتنا وضعفهم، فمن الأقوى؟ الذي يختبئ خلف الأسوار، أم من يختبئ خلف سيفه ورمحه!!؟

وأشار بيده، واستطرد قائلًا:

- اعلم يا أردونيو أن انسحابنا سيقويهم، ويجرؤهم علينا، لذا لن أبرح حتى آخذ هذه المدينة، أو أهلك دونها!

بعد أيام من خروجها من (غرناطة) وصلت قافلة الإمدادات إلى (جيان)، واستطاع الوزير (ابن عياش) أن يدخل المدينة من خلف الجبال، من طريق وعرة لم يفطن إليها (فرناندو)، فانتعشت المدينة بهذه المؤن وفرح بها البسطاء، وظنوا أنها بداية لقوافل لن تنتهي، أو طليعة لجيش قادم لا محالة، ينجدهم ويقوي عزيمتهم، والحقيقة أنَّ (جيان) لم تكن بحاجة إلى المؤن والسلاح، بقدر حاجتها إلى الرجال، وقد كان (ابن الأحمر) يعرف ذلك جيدًا، ولكنه كان يراهن على الشتاء والبرد القارس، في ذلك الوقت من العام، أن يحمل الجيش القشتالي على المغادرة والجلاء عن المدينة، كما حدث قبل أربعة عشر عامًا خلت.

(٥)
التابع!

كان (فرناندو) يعلم أن أمر المدينة كلها في يد (ابن الأحمر)، ويعلم باستحالة خضوعها حربًا، لذا فقد قرر أن ينقل الحرب إلى (غرناطة) مهدًا عرش (ابن الأحمر)، وقد أراد بذلك أن يدخل الرعب في قلب أمير (غرناطة)، الذي ستذهله المفاجأة، إذ لن يتوقع أن يُقدم القشتاليون على حربه في جبهتين في آن واحد، وبينما الحصار قائم، أمر (فرناندو) قائد جيشه أردونيو أن يأخذ نصف الجيش، ويباغت به (غرناطة)، ويعيث فيها سلبًا ونهبًا ويروعها...!

إذ قال له، وهما يتفقدان معسكر الجيش، الذي يغصُّ بالطين والماء:

- إن حالة الجيش تنتقل من سيئ إلى أسوأ، بينما أسوار هذه المدينة اللعينة تبدو كالجبل الأشمّ لا تهتز لحصار، والنبالة على أسوارها متيقظون وحذرون، فلا يستطيع أحد الجند الاقتراب منها، أو تسلق أسوارها.

رد أردونيو موافقًا:

- لهذا فقد أشرت عليك سيدي برفع الحصار، ثم معاودته مع قدوم الربيع، ونحن الآن في ديسمبر، مما يعني أن غيابنا لن يطول.

- لن أرضى بهزيمة ولو معنوية لجيشي، وأنا لم أتحدث إليك الآن لأستشيرك في رفع الحصار من عدمه، بل لتقديم الحلول لاقتحام تلك المدينة...

ثم توقف فرناندو ورفع ملابسه حتى لا يبلها الماء أو يلطخها الطين، ثم قال مشيرًا بيده إلى قائده:

- عندما يحل المساء انتخب مجموعة من أشجع فرسان (قشتالة)، من أولئك الذين لا يخافون الموت ويقتحمون الأهوال، وسر بهم إلى حيث مكمن قوة هذه المدينة. وأشار بيده تجاه (جيان).

برقت عينا أردونيو وسأل متعجبًا:

- هل نهاجم أسوارها اليوم سيدي؟

- لو فعلت ذلك لقُتلت أنت وأصحابك، فلا شيء يستطيع ركوب تلك الأسوار.

- فماذا تقصد سيدي بمكمن قوة تلك المدينة؟

- أقصد أن تسير إلى (غرناطة)، وتضرب رأس الأفعى هناك، فإن أنت ضربت الرأس سقط الذيل وهوى.

ثم تحرك متجهًا صوب خيمته، وخلفه أردونيو لا ينبس ببنت شفه.

وفي المساء، خرج أردونيو بنصف الجيش تقريبًا، وهاجم بهم (غرناطة) مثوى ومقر (ابن الأحمر)، فعاث فيها فسادًا وتخريبًا، فلم يجد (ابن الأحمر) بدًّا من التصدي لهذا العدوان المفاجئ، فخرج بقواته على الفور لمقاتلة أردونيو، غير أن الأخير انسحب بغتة بعدما نجح في إلقاء الرّوع في نفوس الغرناطيين.

كان ثمة صوت داخل أروقة الحمراء، ينادي بوجوب خروج الجيش الغرناطي لمهاجمة القشتاليين وفك الحصار عن (جيان)، ولكن عندما وقعت تلك الوقائع خشي (ابن الأحمر) إن هو خرج بجيشه تجاه (جيان) أن يستغل القشتاليون خروجه، فيحتلوا (غرناطة) نفسها، فيكون لا هو أنقذ (جيان)، ولا حفظ (غرناطة)، لهذا لم يستمع (ابن الأحمر) لهذا الصوت ولا لغيره، وقرر أن تظل الأمور على حالها، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، وينجلي الخطر الجاثم، وييأس (فرناندو) فيترك المدينة، ويجلو عنها.

طال الحصار الخانق، وبدأ الجوع يتسلل إلى أهل المدينة المحاصرة، خاصة وقد فطن القشتاليون إلى الطريق الوعرة التي دخل منها (ابن عياش) فأغلقوها، ولكن ذلك لم يفتّ في عضد أهل المدينة الباسلة، فلم يعرضوا التسليم، بل امتنعوا بأسوارهم، في انتظار أن يتحرك (ابن الأحمر) وينجدهم.

وقد كان (محمد بن الأحمر) لا ينفك يبحث أخبار (جيان) مع وزيره أبي جعفر التنزولي، فقال له في جزع، وهو جالس على عرشه:

- ماذا أفعل وقد حوصرت (جيان)، وهوجمت (غرناطة)، وعيث فيها غير مرة، وقد كنت أعوّل على الشتاء والأمطار لكسر القشتاليين، ولكن لم يحدث ذلك.

قال ذلك وهو مشتت الفكر، زائغ البصر، غير مستقر في مكان، فكان يجلس تارة ويقف أخرى، ثم صمت واتبع كلامه بقوله:

- لا بد من وسيلة لتأمين (غرناطة)، واجتناب عادية القشتاليين!

تنحنح أبو جعفر، وقال بعد تردد:

- يا سيدى! إن كان لا بد، فلنهادنهم، ونتفاهم معهم.

- لكن أتراهم يرضون بأن ندفع لهم الجزية، ويرجعون عنا؟

- أخشى أنهم لا يريدون غير المدينة، يا سيدي.

ردد (ابن الأحمر) وقال في ذهول:

- المدينة؟

- أجل يا سيدي، وقد بلغني أن ملكهم أقسم ألا يعود بغير مفاتيحها، فإن لم نكن نملك القدرة على إنقاذ المدينة يا سيدي، فلا أقل من إنقاذ أهلها!

أسقط في يد (ابن الأحمر)، وهوى على كرسيه وزفر بشدة قبل أن يقول:

- نعم يا أبا جعفر، فإن كان لا سبيل إلي إنجاد (جيان)، واجتناب مصيرها المحتوم، فلا أقل من أن نتدارك الموقف قبل أن تسقط المدينة، ويتقدم القشتاليون بعدها تجاه (غرناطة)، ناهيك عن تخريبهم (جيان) إن اقتحموها عنوة وقتلوا أهلها... نعم يجب أن نحفظ أهل (جيان) إن كان لا سبيل لإنقاذ مدينتهم.

ثم سكت ابن الأحمر وقد خيمت على محياه سحائب الحزن..

- فماذا ترى يا سيدي؟

- اخرج يا أبا جعفر إلى معسكرهم، وتفاوض مع (فرناندو)، وليكن تفاوضك معه، حفظًا لشعب (جيان)، ولتكن أولى شروطك، حفظ أهل (جيان) في أنفسهم ومتاعهم.

أومأ أبو جعفر، ثم استعد لتنفيذ الأمر، وخرج من (غرناطة)، لا لينقذ (جيان) أو يمد لها يد العون، أو حتى ليقف على حال أهلها، ومدى قبولهم للتسليم، ولكن خرج ليسلم المدينة لقمة سائغة (لفرناندو).

وبعد أقل من يوم، وصل أبو جعفر إلى معسكر (فرناندو)، وقد واكب وصوله برق، ورعد، وأمطار شديدة، وبرد يضرب أوصال المعسكر، وبمجرد وصوله تم اقتياده إلى خيمة الملك.

وفي الخيمة وقف أبو جعفر ذليلًا، مكتوف اليدين، ناظرًا إلى أسفل قدميه، بينما كان الملك جالسًا في مكانه، ينظر إليه كما ينظر إلى أقل خادم عنده!

ألقى الوزير التحية على ملك قشتالة في خضوع واضح، لكن فرناندو لم يردها، بل أشار إليه بيده أن هات ما عندك وهو ينظر إليه نظرات مهينة لو صوبت لجبل لهدته ذلا، غير أنها لم تفعل في أبي جعفر شيئًا فقد ضربت عليه الذلة وتعود المسكنة، ولعله كان يرى الوقوف بين يدي فرناندو الثالث شرفًا ما بعده شرف.

تحدث أبو جعفر فقال:

- أرسلني الأمير (محمد بن يوسف بن الأحمر النصري)، صاحب (غرناطة ومالقة وجيان)، لأتفاوض معكم سيدي الملك حول مصير (جيان).

نظر (فرناندو) إلى الوزير من علٍ، وبشيء من السخرية قال له:

- تتفاوض على ماذا؟!

- على مصير (جيان) يا سيدي، وعلى حلف بين مملكة (غرناطة) ومملكة (قشتالة).

قهقه (فرناندو) بصوت مرتفع، وبمزيد من السخرية نظر إلى أبي جعفر، وقال:

- مملكة (غرناطة)؟!

أما أردونيو فقد رمق أبا جعفر بنظرات تحمل استهانة كبيرة، جعلت الوزير ينكس رأسه، وينظر إلى الأرض وهو صامت.

التقط فرناندو أنفاسه التي أوشكت شدة الضحك أن تقطعها، ثم قال:

- اسمع يا هذا، أما (جيان) فسنأخذها رغمًا عنكم، وأمَّا التفاوض فلن أتفاوض معكم، وكيف أفعل وقد جعلتم من أنفسكم أندادًا لنا؟

تنحنح أردونيو مستجديًا إذن الملك في الحديث، فنظر إليه هذا الأخير أن نعم، فقال أردونيو متخابثًا:

- عفوًا يا مولاي، ولكن ماذا لو قبلتم (محمد بن الأحمر) تابعًا لكم؟

اختلس أبو جعفر النظر إلى أردونيو دون أن يجرؤ على الحديث، فقال فرناندو وهو ينظر إلى أبي جعفر:

- مممممم تابع لنا..!! لكن هل يستحق (ابنِ الأحمر) هذا أن يكون تابعًا لنا؟

تلقف أبو جعفر كلمات (فرناندو) كغريق أُلقى إليه طوق نجاة، وصدّق عليها فورًا، وكأنها الغيث ينزل على رأسه في صحراء قاحلة، وقال:

- نعم يا سيدي! ولن تجد تابعًا أكثر منه إخلاصًا لك.

سكت (فرناندو) برهة، كاد فيها قلب أبي جعفر أن يسقط في قدميه ثم قال فرناندو:

- إذن سنقبل التفاهم معكم أيها الوزير، شريطة أن يكون خضوع سيدك لسيادة (قشتالة) والاعتراف بها، هو أساس التفاوض بيننا. ولا سبيل إلى تغيير هذا الشرط، فإن وافق سيدك وإلا فلا تفاوض، بل هي الحرب حتى أخرجك أنت وسيدك من (غرناطة)، ومن شبه الجزيرة كلها...!!

قال ذلك ثم أشاح فرناندو بوجهه عن أبي جعفر وأشار إليه بيده أن انصرف. فنهض الوزير وخرج من الخيمة، وركب إلى غرناطة ليخبر سيده بما كان من أمر اللقاء..

(٦)

تسليم (جيان)

قضى محمد بن الأحمر فترة غياب أبي جعفر في قلق بالغ على مملكته الصغيرة غرناطة، وترقب دائم لعودة وزيره من جيان. وبينما هو جالس على عرشه واجما لا يحرك ساكنًا، صامتًا لا ينطق حرفًا، ممنيًا نفسه برجوع القشتاليين عنه، استأذن في الدخول عليه وزيره العائد من جيان، وما إن رآه محمد بن الأحمر حتى بادره السؤال في تلهف كبير..

- هل وافق القشتاليون على التحالف؟

خفض الوزير رأسه، وقال في استحياء:

- لا، لم يوافقوا سيدي!

نهض (ابن الأحمر) من مجلسه، وتحرك صوب الوزير مغضبًا، وهتف بصوت مرتفع:

- لم يوافقوا؟!! لماذا!!!!!؟ لماذا!!! يا أبا جعفر!؟ ما الذي يريده مني ملك (قشتالة)؟

- لم يوافقوا على التحالف والمعاهدة سيدى، ولكنهم وافقوا على...

قاطع (ابن الأحمر) وزيره وكأنه يستعجله، فقال بنظرات مستفهمة وأعين مفتوحة على اتساعها:

- وافقوا على ماذا!؟

رد أبو جعفر متلعثمًا متعتعًا..

- وافقوا بشرط أن.... أن... نعلن الولاء والخضوع لهم!

سكت (ابن الأحمر) مليًّا، وكأنّ صفعة قوية لطمت وجهه، بينما عيناه مفتوحتان وكأنّ على رأسه الطير... ثم تراجع حتى إذا وصل إلى كرسيه، استند عليه، ثم جلس ببطء شديد، وهو يردد كالمذهول:

- نعلن الولاء والخضوع لهم؟!

ردد (ابن الأحمر) الكلمة، وإذا بوزيره يطأطِئ رأسه وينظر إلى الأرض ساهمًا، ويستطرد قائلًا في وجل وتردد:

- ليس هذا فحسب يا سيدي!

- فماذا بعد ذل الخنوع لهم؟

- أن يحضر مولاي الأمير مجلس الكورتيس، كتابع لملك (قشتالة) حال انعقاده.

برقت عينا (ابن الأحمر) وساد الصمت المكان، وراح يفكر في صمت، وعيناه مفتوحتان لا تتحركان يمينًا أو يسارًا، بينما أبو جعفر يراقبه عن كثب، ويخشى شره...

طال الوقت و(محمد بن الأحمر) على حاله، لا يتغير أو يتبدل، وفجأة نهض واقفًا، ونظر من نافذة المجلس المطلة على حديقة القصر، وهو يقول بصوت خافت وقلب منفطر:

- سيحتلون (جيان) ويدمرونها، ويزحفون بعدها إلى (غرناطة) ويخربونها... سيقتلون أهل (جيان) ويسبون نساءها... يا الله ما كل هذا الذل والهوان؟

ثم ارتد ببصره تجاه أبي جعفر المذهول، وقال وهو يقبض على يده:

- لو أنَّ لي قوة لأدبت هذا الصفيق! كيف يقول ذلك؟ كيف يجرؤ...؟! هل نسي هذا الشيطان أن أجداده كانوا يقبّلون أقدام أجدادنا، ويخطبون ودهم؟

- لا، لم ينس يا سيدي، بل أراه يتذكر ذلك جيدًا، بل لو نسي ما طلب منّا هذا!

رمق ابن الأحمر وزيره مستنكرا، فبادر الوزير قائلًا:

- لأنه يتذكر جيدًا يا سيدي، فقد أراد بهذا أن يردّ لنا الصاع صاعين!

ظهرت أمارات الغضب على وجه (ابن الأحمر)، ولكنه لم يستطع ردًّا، فأخذ نفسًا عميقًا، وأغمض عينيه، وراح يفكر مليًّا، بعدها تحدث إلى وزيره، وقال بصوت حزين مكسور:

- لا مناص من الانصياع لما أراده، ويريده، ملك (قشتالة)!

- فمتى تسير إليه يا سيدي؟

انعقد حاجبا (ابن الأحمر)، وقال:

- ولمَ أذهب بنفسي؟!

طأطأ أبو جعفر رأسه في خجل، وقال:

- لأنّ ملك (قشتالة) يريدك أن تذهب إليه، وتقدم له الطاعة بنفسك!!

أغمض (ابن الأحمر) رأسه ثانية، ثم قال في صوت مهزوم، وأنفاس متقطعة:

- إن رضينا بذل التبعية، ومهانة دفع الجزية، فسنرضى بغيرها....

سأذهب إليه صونًا لحياة أهل (جيان)، وحرصًا على مملكة (غرناطة) ولمّا يشتد عودها بعد.

وبعد يومين، خرج محمد بن يوسف بن الأحمر من غرناطة متوجها صوب جيان، لا لينقذها أو يموت دونها، لكن ليدفعها ثمنًا لبقاء ملكه بعد أن فشل في الدفاع عنه، وأصبح استمراره رهن يد أعدائه وأعداء أمته. وكم كان الثمن الذي دفعه ابن الأحمر باهظًا، لكن جرت عادة الملوك الضعاف على تقديم شيء من أراضيهم فداء لبقائهم على عروشهم!

وهناك على بعد مرمى حجر من أسوار المدينة الخالدة، وضع (محمد بن يوسف بن الأحمر) نفسه تحت إمرة وطاعة (فرناندو)، وأحسن (فرناندو) استقبال تابعه الجديد، وأظهر الفرح والابتهاج بذلك، وقال له بوجه مبتسم:

- سيذكر التاريخ هذا التحالف وهذه الصداقة!

في خنوع رد (ابن الأحمر):

- أرجو ذلك يا مولاي!

نهض فرناندو وأمسك بكأس خمر، وقدمه لابن الأحمر الذي اعتذر عن شربه، ثم نظر فرناندو للكاتب، وقال:

- اكتب شروط المعاهدة بيننا:

أولًا: أن تسلم مدينة (جيان) وأعمالها في الحال إلى ملك (قشتالة)، دونما قيد أو شرط.

ثانيًا: أن يتعاون (ابن الأحمر) مع (قشتالة) في السلم والحرب.

ثالثًا: أن يحكم (ابن الأحمر) مملكة (غرناطة) وسائر أراضيها باعتباره تابعًا لملك (قشتالة)، بكل ما يستتبعه هذا الاعتراف من فروض، وأن يشهد اجتماع الكورتيس مجلس (قشتالة) النيابي بهذه الصفة.

رابعا: أن يؤدي (ابن الأحمر) إلى ملك (قشتالة) جزية، قدرها مائة وخمسون ألف مرافيدي تؤدى خلال عشرين عامًا، وهي المدة التي اتفق أن يعقد خلالها السلم والتهادن بين الفريقين أي من سنة ١٢٤٦ إلى سنة ١٢٦٦م.

خامسًا: أن يتنازل (ابن الأحمر) عن بركونة وبيغ والحجار، وعن أرض الفرنتيرة

كتبت المعاهدة وختمها (ابن الأحمر) بأختامه وكذلك (فرناندو)، ثم أخذ (ابن الأحمر) نسخته، وعاد إلى (غرناطة).

ولخوفه من ثورة عامة الشعب فقد أشاع أنّ تلك الاتفاقية مع ملك (قشتالة)، إنما هي لحفظ بلادهم ونسائهم وأولادهم، ولولا تلك الاتفاقية لخربت (جيان) واستعبد أهلها. وإنما فعل (محمد بن الأحمر) ذلك صونًا لأهل (جيان)، وخوفًا عليهم من بطش (فرناندو) وجنوده.

أما (فرناندو) فقد استعد لدخول (جيان)، فما إن أصبح الصباح حتى فتحت المدينة أبوابها، ودخلها (فرناندو) وجنوده في موكب عظيم مهيب، وفور دخوله وعملًا بالقاعدة التي أسسها أجداده وأرسوا قواعدها، فقد سار (فرناندو) إلى قلب المدينة وجامعها الكبير، وأمر من فوره بتحويله إلى كنيسة عظمى، بل ورفض أن ينزل عن صهوة جواده، قبل أن يتم طمس المحراب وآياته، ووضع المذبح. ومن ثم نزل (فرناندو) وترجّل، ودخل المسجد ليصلي فيه صلاة الشكر ابتهاجًا بالنصر، ثم انطلقت فرقة الرهبان الملكية ترتل صلاة الحمد لله Te Deum laudamus، على أنغام الموسيقى. وهكذا كان كل شيء يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب، التي شهرتها (قشتالة) بقيادة عقربها (فرناندو) على الأمة الأندلسية، وعلى الإسلام والمسلمين في الأندلس.

(٧)

السوس ينخر

كان النقاش محتدًّا، والأصوات عالية صاخبة، والحزن يسيطر على ديوان القائد (شقاق)، عندما صرخ (عبدالرحمن) وقال في غضب:

- الخبيث... لقد أوهم الشعب أنه تنازل عن (جيان) لمصلحة أهلها!

مطّ (شقاق) شفتيه وزفر ثم قال:

- والكارثة أنهم صدقوه!

بتهكم وسخرية قال (عبدالرحمن):

- لقد توقف هذا الشعب عن التفكير، فصار لا يفقه شيئًا مما يدور حوله... والله لو أراد (ابن الأحمر) أن يقنعهم ببيع زوجاتهم لرضوا وهم فرحون، متوهمون أنَّ في هذا صالحهم!

انفجر (شقاق) غضبًا وقال بصوت غليظ، كأنه هدير النهر في هيجانه:

- كفاك يا (عبدالرحمن)!

- دعني يا سيدي! فوالله لم تؤرقني جريمة (ابن الأحمر)، قدر ما آلمتني جريمة الشعب الجاهل، إذ كيف لشعب أن يتم خداعه هكذا، حتى يصدق أن تنازله عن جزء من أرضه إنما هو لمصلحته، كيف يتوهم شعب أن اقتطاع جزء من وطنه يعود بالفائدة عليه، ما كل هذا الحمق والغباء؟

زفر (شقاق) زفرة كأنها اللهب، وأغمض عينيه قليلًا، قبل أن يقول:

- لقد أوهمهم أنه بتنازله عن (جيان) قد حافظ عليها من التخريب والدمار، وعلى أهلها من القتل والسبي.

متهكمًا قال (عبدالرحمن):

- حافظ عليها من التخريب والدمار ليسلمها إلى (قشتالة) من غير نقصان!! والله إن بقاءها خربة بيد المسلمين لهو خير من تسليمها عامرة للقشتاليين، على أن المسلمين لم يكونوا يومًا دعاة خراب ودمار، فلو خربها القشتاليون لكنا أقدر عليهم بإعادة إعمارها، وضبط أمورها. ولو أخذوها بعد حرب، لكان لنا أشرف وأفخر!

- العامة يا (عبدالرحمن) لا يعرفون ذلك.

- هم لا يعرفون ولن يعرفوا!... قد ظنوا أن تسليمهم (جيانٍ) دون قتال، سيحفظ لهم (غرناطة)! وما علموا أن (جيان) كانت حائطًا وصخرة دفاع لهم، تمامًا مثلما لم يدرك ملوك الطوائف أهمية (طليطلة)، فتركوها تصارع الموت وحدها...!

لم يكد (عبدالرحمن) يكمل حديثه، حتى دخل أحد الحرس، وقال:

- قائد الشرطة يستأذن للدخول عليك يا سيدي.

- ها قد حضر ابن خلدون.

قالها (شقاق) في لهفة وارتياح، ثم أشار للحارس وقال:

- أدخله فورًا.

دخل يحيى بن خلدون، فقدم التحية للرجلين، ثم جلس.

فبادره (عبدالرحمن) متسائلًا:

- زيارة غير متوقعة منك يا رجل، فأين أنت؟

- اعذرني يا (عبدالرحمن)، فمتابعة أمور الناس وضبط المدينة، يستولي على كل وقتي.

ابتسم (شقاق) وقال:

- أنت لها يا ابن خلدون، على أني أعلم أن قدومك الآن لأمر جلل.

تنهد ابن خلدون وقال:

- أجل أيها الأمير، فقد لاحظ رجالي دعوات مبطنة تنتشر في (إشبيلية)، دعوات تنشر الرعب بينهم، وتحذر من قادم الأيام، هدفها الظاهر هو التحذير، والباطن هو تهيئة النفوس للتسليم.

انعقد حاجبا (شقاق) وهو ينظر إلى رئيس الشرطة، وكذلك فعل (عبدالرحمن) بينما يتابع هو ويقول:

- لقد ظهرت أصوات تحذر من الخطر القادم من الشمال، ووجوب وضع حل له، مستحسنين ما قام به (محمد بن الأحمر) من الانضواء تحت راية (قشتالة).

متهكمًا ومستنكرًا قال (شقاق):

- ها... عجيب أمرهم، ألا يعلم هؤلاء أن (ابن الجد) قد خضع وخنع لملك (قشتالة) وتعاهد معه؟ أم أنهم يقصدون مزيدًا من التنازلات؟

- أظنهم يقصدون المزيد من التنازلات...

كاد شقاق أن ينفجر غيظًا وهو يقول:

- تبًّا لهم، فلم يعد إلا أن نتركها للقشتاليين طوعًا.

بعد صمت، نطق (عبدالرحمن) وقال في يقين:

- أنا أعلم مَن وراء تلك الإشاعات!

التفت ابن خلدون إلى (عبدالرحمن) وقال:

- هي أصوات كثيرة، ولكن لا سبيل إليها يا (عبدالرحمن).

- نعم يا ابن خلدون هي أصوات كثيرة، ولكنها تنبع من مصدر واحد، وهي لن تخرج إلا من سعد ويوسف المرشانيين... ألا ترون كيف يُغدقان الأموال ليتألفا بها قلوب العامة، ومن ثم يبثان سمومهما في نعومة الثعابين، مذكرين بالخطر القشتالي مع الترويج لقوة (قشتالة) القاهرة، التي لا سبيل إلى هزيمتها؟

أمسك (شقاق) لحيته، وقال بلهجة جادة:

- اقبض عليهما يا ابن خلدون وحقق معهما

بسط ابن خلدون يديه وقال:

- سيدي تعلم أن أبا عمرو (ابن الجد)، قد قرّب يوسف وجعله مستشارًا له، بعدما أسبغ عليه يوسف الهدايا الثمينة والجواهر العظيمة، لذا سيدي الأمير لا سبيل إلى يوسف، ما دام تحت عباءة (ابن الجد)!

عضَّ (شقاق) على أسنانه غيظًا، ثم نهض وأمسك كوبًا من الماء، وقال قبل أن يرفعه إلى فيه:

- يجب أن يعلم (ابن الجد) أن لا أحد فوق أمن (إشبيلية)، يجب أن يعلم أن هذين الغريبين يمثلان مصدرًا كبيرًا للهزيمة.

ثم تابع ارتشاف الماء بصوت مسموع.

(٨)

حديث الطرشان

سرت أنباء ما حدث في (جيان) إلى عامة أهل (إشبيلية)، فاغتمّ الشعب لذلك، وأحّسوا أن سقوط (جيان) وتفاهم (ابن الأحمر) مع (فرناندو) سيجعلهم في مرمى نيران (قشتالة)، وكيف لا وقد صالحته (مرسية) و(غرناطة) وابن شعيب في لبلة وما حولها، لهذا فقد سرى فيهم رأي ينادي بوجوب التفاوض مع (قشتالة) بشكل أوسع، وبوجوب التنازل عن بعض الحصون كثمن لحياة (إشبيلية)، كما فعل (ابن الأحمر) عندما قدم (جيان) كفدية (لغرناطة)، وقد تزعم هذا الرأي يوسف وسعد المرشانيين.

أما (شقاق) فقد راعه إهمال (ابن الجد) لأمور (إشبيلية)، وتواكله واعتماده على حلفه مع (قشتالة)، وقرر أن يذهب إليه في قصره ويحدثه، فخرج من فوره وسار إلى قصر (ابن الجد)، حتى إذا وصل إليه وسلم عليه قال:

- أعلمت أيها الأمير بما حدث بين (ابن الأحمر) وملك (قشتالة)؟

أظهر (ابن الجد) الحزن والحسرة وقال:

- نعم علمت ذلك وحزنت له.

بلهجة قوية وابتسامة واثقة قال (شقاق):

- هذا يعني أننا متفقان.

رد عليه (ابن الجد) متعجبًا:

- متفقان في ماذا يا (شقاق)؟

- في وجوب التحضر لحرب قد تظهر قريبًا في الأفق.

مندهشًا قال (ابن الجد):

- ليس معنى أن نتألم لما حدث (لجيان) أن نعرض أنفسنا ومدينتنا للدمار والخراب، فانا لم أقل إني أنوي حرب (قشتالة)، ولكن قلت بحزني لسقوط (جيان).

ثم استطرد ببعض التهكم قائلًا:

- ثم كيف أفعل أنا ما لم يفعله (ابن الأحمر) نفسه، هل أكون أحرص على ملكه منه؟

ثم نهض واقترب من (شقاق) الذي وقف بدوره، وأردف:

- لقد عاهد (ابن الأحمر) (قشتالة) وتنازل عن عدة حصون وقلاع وقرى، ثم هل نسيت العداوة بيننا وبين (ابن الأحمر) يا (شقاق)؟

- لم أنس أيها الأمير، ولكن لكل مقام مقال، إذ لا يحسن بنا أن نتذكر اليوم ما فعله (ابن الأحمر) في (إشبيلية) منذ سنوات، ولا نتذكر أفعال (قشتالة) معنا منذ قرون!!

استدار (ابن الجد) متحركًا للعودة إلى كرسيه وهو يقول:

- (قشتالة) تريد بعض أموالنا، أما (ابن الأحمر) فيطمع فيما تحت قدمي هاتين. على أنّ (قشتالة) لن تغدر بنا ما دمنا ندفع لها، أما (ابن الأحمر) فالغدر مكتوب بين حاجبيه على كل حال.

ظهرت معالم الضيق على وجه (شقاق)، ولاحظ (ابن الجد) ذلك وتجاهله، ثم استطرد يقول:

- تذكر يا (شقاق) عندما التفت (إشبيلية) حول ابن مروان الباجي، بعدما ذهب أمر الموحدين، وذهبت دولتهم، وقتها خلعت (إشبيلية) طاعة الموحدين، ونادت بطاعته (ابن هود) الذي ولى عليها أخاه عماد الدولة، ولمّا لم يحسن عماد الدولة تسيير الأمور، قمنا وكنت معنا بالعمل على خلع طاعة (ابن هود)، وإخراج أخيه من (إشبيلية)، والالتفاف حول ابن مروان الباجي، الذي تحالف مع أمير (جيان) (محمد بن الأحمر) ضد (ابن هود) لقتاله، ونجح الاثنان في هزيمة (ابن هود)، ودخل (ابن الأحمر) (إشبيلية)، فما دخلها حتى غدر بحليفه الباجي، ودسَّ عليه من قتله، وكنت أنت أول من خرج على (ابن الأحمر) وقتها لغدره، ثم تأتي اليوم بعد كل هذا وتقول: عداوة (قشتالة) خير من عداوة (ابن الأحمر)؟ ثم هبْ أننا

صالحناه وتحالفنا معه، فمن يضمن لنا أنه لن يغدر بنا مرة أخرى، وهو المعروف بغدره؟

التزم (شقاق) الصمت مرغمًا، فقد استفزه حديث (ابن الجد) كثيرًا، فآثر الصمت في انتظار نهايته، وفي الوقت نفسه شعر (ابن الجد) بما قد يخالج عقل (شقاق)، فآثر أن يرضيه ويتلطف معه بعد كل ما قاله، لذا قال:

- هل يرضى القائد شقاق بالتهيؤ للحرب والإعداد للقتال دون أن نظهر ذاك لقشتالة.

بصوت قوي قال (شقاق):

- قطعًا أيها الأمير، فأنا لا أريد من حديثي معك، إلا أمن وأمان (إشبيلية).

- إذن اطمئن يا (شقاق)، فعما قريب يحدث ما يرضيك ويريحك!

- هلّا أخبرني الأمير بما يجول في خاطره؟ أعني كيف نستعد دون أن يعلم أحد بذلك؟

- تعلم يا (شقاق) ما آلت إليه أحوال بني عبد المؤمن في مراكش من صراعهم حول العرش مما أضعف دولتهم، ثم صراعهم مع (بني مرين) الأقوياء، ما يعني أن استمرار دعوتنا هنا لبني عبد المؤمن أصبح بلا فائدة ترتجي من خلفه، فلن يقدم لنا الموحدون إن غدر بنا (فرناندو) أي عون، بينما هم عاجزون عن عون أنفسهم... لذا فقد قررت بأن نُخرج السيد أبا عبد الله بن السيد أبي عمران من بيننا، وندعو للحفصيين، فهم أقدر على إغاثتنا إن غدرت بنا (قشتالة)، فهم في إقبال دولتهم، وقد حاولوا إغاثة (بلنسية)، في الوقت الذي خانها الموحدون ممثلين في (بجنت).

قال ذلك وسكت بعض الوقت، ثم استطرد قائلًا:

- لقد غدا الأمير أبو زكريا يحيى الأقدر على تلبية نداء (إشبيلية)، إن حل بها ما نكره، لذا يا (شقاق)، فقد حزمت أمرى وسأبايع الحفصيين، فماذا تقول؟

في غير اكتراث رد (شقاق)، وقال:

- فليفعل الأمير ما يجده في صالح إشبيلية، وليأذن لي في الانصراف لتفقد أحوال الجند.

أذن له ابن الجد، فخرج شقاق وهو يضرب كفًا على كف ويحدث نفسه كالمجنون: جئت أكلمه في أمر الجيش وتقوية دفاعات المدينة فإذا به يحدثني عن الخضوع لهذا أو ذاك! وكأن فرناندو حينما يغدر بنا ويغير علينا سيستأذن أمراء العدوة في ذلك ويستجدي موافقتهم!

(٩)

بعيدًا عن الأعين وبصوت خافت مسموع، اقترب سعد من يوسف، وهمس:

- ألم تنتهِ منه بعد؟

نظر يوسف إلى صديقه وتوقف عن الكتابة، وقال:

- أحتاج مزيدًا من الوقت، فالأحداث كثر، ويجب أن يعلم بلاط طليطلة بجديدها، فهل ساعدتني بصمتك؟

وضع سعد يده على فمه وقال:

- سأصمت ولن أقاطعك حتى تنتهي!

ساد الصمت في الغرفة المظلمة إلا من ضوء شمعة صغيرة خط يوسف على ضوئها الخافت كتابه، ثم قطع سعد هذا الصمت قائلًا:

- هل ستخبرهم بأمر (عبدالرحمن الإشبيلي)؟

نظر (برنارد) إلى (خوسيه) نظرة حادة وقال مقلدًا صوته:

- إذن سأصمت ولن أقاطعك حتى تنتهي ثم قهقه وقال:

- أين هذا الصمت يا (خوسيه)؟ أم أقول لك يا سعد؟

قهقه سعد وقال:

- بل قل (خوسيه)، فقد مللت هذا الاسم العربي.

- والآن هل تدعني أنهي ما أكتب أم ستضيع الوقت كعادتك؟

- بل أصمت، أصمت!

مضى الوقت وطوى (برنارد) الورقة ثم وضعها بين ملابسه، وهمس لصاحبه فتبعه، وخرج الاثنان من باب البيت، وكان الليل شديد الظلمة والأمطار لا تتوقف، ولا يوجد في شوارع (إشبيلية) الباردة إلا من أجبرته الظروف على الخروج في مثل هذا الوقت من الليل.

وسط كل هذا تحرك الرجلان بحرص شديد ليعبرا قنطرة طريانة، وهما ينظران هنا وهناك هل يراهما من أحد؟ ومن ثم اختفيا عن الأنظار، وساعدهما صوت المطر والبرد على ذلك، إذ غطت أصوات المطر على أصوات أقدامهما، وهناك وسط الأشجار وماء المطر، وبعيدًا عن الأعين، راح يوسف (برنارد) المرشاني وسعد (خوسيه) المرشاني يتحدثان.

همس (برنارد) وهو ينظر عن يمينه ويساره متنفسًا الصعداء:

- لولا المطر والبرد ما تجرأت على الخروج، وقد بدأ بعضهم يثير الشكوك من حولنا!

- أتقصد (شقاقا) و(عبدالرحمن)؟

- نعم يا (خوسيه).

راح بصوت أجش يردد اسمه ويقول:

- (خوسيه)! قد كدت أنسى هذا الاسم!

- عما قريب ستتذكره ولن تنساه.

ثم طفق ينظر حوله، وفجأة أشار إلى صاحبه أن أصمت، وأخذ الاثنان يرقبان الطريق، بعد أن لاحظ (برنارد) أن قادمًا يقصدهما.

ظلا يترقبان القادم من بعيد، وهما يتوجسان خيفة، ثم استل (برنارد) خنجره استعدادًا لذبح القادم إن أراد بهما سوءًا...

بدأت خطوات القادم تقترب أكثر وأكثر، وفجأة أغمد (برنارد) خنجره ونهض ليستقبل القادم وهو يقول:

- لقد تأخرت علينا هذه المرة يا سيدي!

- فعلت ذلك عن عمد، فكلما تأخر الوقت كان ذلك أحرص على حياتكما، والليل خباء وستر لنا.

ثم نظر إلى (خوسيه) وقال:

- كيف حالك يا (خوسيه)؟

- بخير ما دمت بخير يا سيدي!

ابتسم (ألبار بيرت) ابتسامة واسعة، ثم أخرج من جيبه صرة كبيرة من الذهب، وأعطاها (لبرنارد) وقال:

- استخدما تلك الأموال في استمالة الضعفاء من أهل إشبيلية، واشتريا بها ولاء من يبحث عن المال.

تلقف (برنارد) صرة الذهب وأخفاها بين ثيابه، وقال:

- نفعل يا مولاي!

استمر هطول الأمطار وهفيف الرياح، والثلاثة يتحدثون.

سأل (ألبار بيرت):

- والآن ما جديد الأخبار؟

أجاب (برنارد) فرحًا:

- لقد نجحنا يا سيدي في خلخلة ولاء أهل (إشبيلية)، حتى صار بعضهم يرون أن (قشتالة) هي محرك الكون وقوة يستحيل قهرها.

اقترب (ألبار بيرت) منهما أكثر، وقال بصوت خافت:

- غذيا فيهم هذا الشعور، وليكن شعار كل إشبيلي وهدفه، هو كسب صداقة (قشتالة) التي لا يمكن عداؤها ولا قهرها!

أخرج (برنارد) الورقة التي كان يخطها، وقال:

- سنفعل يا سيدي، وفي هذا الكتاب يا سيدي تفاصيل ما يحدث هنا من أخبار أرجو أن تأخذوها على محمل الجد.

أمسك (ألبار بيرت) بالكتاب ودسّه بين ملابسه، ثم قال لهما بنفس نبرة الصوت:

- احرصا على أمركما فلا يفتضح، والآن عودا أدراجكما قبل طلوع الفجر، أما أنا فسأعود إلى قرطبة ومنها إلى طليطلة.

(١٠)

المؤامرة

استقر (ابن الجد) على الدعوة للحفصيين، وقرر أن يخرج بنفسه حاملاً بيعة أهل (إشبيلية) للأمير أبي زكريا يحيى، واصطحب معه لذلك عددًا من وجوه (إشبيلية)، كان معهم يوسف المرشاني الذي كان قد بلغ من المكانة لدى (ابن الجد) مبلغًا.

ما إن وصل وفد (إشبيلية) إلى تونس، حتى استقبلهم الأمير أبو زكريا بمنتهى الارتياح، وندب لولاية (إشبيلية) ابن أخيه أبا فارس عبد العزيز بن الشيخ أبي حفص، لكي يستقر في قصبتها، ويشرف على شئونها إلى جانب (ابن الجد)، ووجه الأمير إلى أهل (إشبيلية) رسالة يعرب فيها عن اغتباطه ببيعتهم، ويعدهم بأن يمهد لهم سبل إصلاح شئونهم، وتوفير أمنهم وسلامتهم، والبدار إلى انجادهم عند النوائب والخطوب، وأن يثقوا بنصر الله وإمداده.

ومن ثم عاد وفد (إشبيلية) بعد إتمام مهمته في تقديم البيعة للأمير الحفصي، وصحبهم الوالي وبعض رجاله والقائم بالأعمال، ووصلوا في جملة من السفن إلى (إشبيلية)، وكان في استقبالهم الأمير (شقاق) قائد الجيش ومعه ابن خلدون قائد الشرطة.

جلس أبو فارس في قصر الإمارة (بإشبيلية)، يساعده في إدارة شئونها (ابن الجد)، وقد أعجب الوالي الحفصي بقصر (إشبيلية) أيما أعجاب، فأخذ عقله، كما أعجبته جواري (إشبيلية) فأخذن قلبه! ولم تمر أيام قليلة حتى انشغل بالجواري والقيان عن متابعة أمور الحكم، وتحول بفضله قصر إشبيلية إلى معهد كبير للغناء والمجون، وازدحم القصر بأصحاب الأصوات والألحان، وجلسات السمر والغناء..

وبعد مرور بضعة أشهر انتقلت المعازف من القصر إلى كل أرجاء (إشبيلية)، فلم يعد القصر كافيًا لمغامرات الحفصيين وأتباعهم ومواليهم، فخرجوا للمدينة

يعيثون فيها فسادًا وتخريبًا، وكان (ابن الجد) يتابع كل ما يحدث من شريكه في حكم (إشبيلية) بعين الرضا، فبينما كان أبو فارس في شهواته كان (ابن الجد) هو الحاكم الفعلي للمدينة، بينما يوسف المرشاني هو مستشاره المقرب في ذلك.

لم ترُق أفعال الوالي الجديد للقائد (شقاق)، فبث ذلك إلى عبدالرحمن (الإشبيلي) صديقه الوفي، فبينما كان الاثنان يسيران على ضفاف نهر الوادي الكبير يتفقدان المدينة وحالها، إذ قال (شقاق) بصوت حزين:

- بايعنا الأمير أبا زكريا يحيى، ليكون سندًا لنا وقت المحن، فإذا به يرسل إلينا من يزيد محنتنا وشقوتنا!

تابع الاثنان السير، حتى إذا بلغا موضعًا معينًا توقفا ليكملا حديثهما، فأمسك (عبدالرحمن) بحجر صغير وألقى به في قلب النهر ثم قال:

- أجل... لم يمر شهران على دخولهم (إشبيلية) حتى تحول القصر إلى سكن للجواري والغانيات، ناهيك عن فساد حاشية الأمير الحفصي، حتى خرج بعضهم إلى سوق (إشبيلية) منذ أيام وهم مخمورون!

حدق (شقاق) في وجه (عبدالرحمن) وقال:

- لقد بلغ السيل الزبى... (فإشبيلية) ليست بحاجة إلى من يُفقدها وعيها... بل هي في حاجة إلى من يزيد يقظتها ويعيدها إلى رشدها.

رفع (عبدالرحمن) حاجبيه وقال:

- هل (لابن الجد) يد فيما يحدث؟ وإن لم يكن فلم صمته عليهم؟

ضحك (شقاق) بسخرية، وتحرك خطوات للأمام قبل أن يعود ويقول:

- لو كان (لابن الجد) أن يتمنى، ما تمنى أكثر من ذلك!

- لقد كان يحكم (إشبيلية) قبلهم وحتى مع وجود الوالي الموحدي، فما الفائدة الواقعة عليه حتى يتمنى ذلك؟!

ابتسم (شقاق) وقال:

- ما زلت غرًّا يا (عبدالرحمن)!

- زدني إذن علمًا يا سيدي!

حدق (شقاق) في دوامات الماء أمامه وهو يقول:

- أجل لقد كان (ابن الجد) هو الحاكم الحقيقي منذ خروج (إشبيلية) على (ابن هود)، لكن كان يحكم وعليه تبعه ما يحدث، وعليه يقع سخط العامة أو رضاهم أليس صحيحًا؟

- بلى.

تابع (شقاق) نظراته للنهر وقال مستطردًا:

- أما الآن فهو يحكم وتقع تبعة أفعاله على الحفصي أبي فارس!

هز (عبدالرحمن) رأسه عجبًا من قول (شقاق)، فربت (شقاق) على كتفه وابتسم له ثم تابع الاثنان المسير، وما إن تحركا حتى ظهر من خلفهما يوسف المرشاني وهو يهز رأسه وينظر في خبث ويقول:

- ها قد حانت الفرصة للتخلص من هذين !

ثم تحرك مسرعًا وطار من فوره لإخبار (ابن الجد)، بما يدور حوله وما سمعه من القائد وصاحبه.

وفور دخوله قدم التحية كمخلص لسيده، وكأنّ الأقدار قد جاءت به من مرشانة لاجئًا لينقذ (ابن الجد) مما يُحاك له خلف ظهره، فقال محذرًا:

- سيدي الأمير، مؤامرة كبرى تحاك حولك وضدك!

برقت عينا (ابن الجد) فجأة، وقال في ذهول:

- مؤامرة...؟!

بخبث ودهاء قال يوسف:

- أجل يا سيدي مؤامرة يقودها قائد الجيش مع بعض أتباعه.

هبّ (ابن الجد) واقفًا وقال:

- أفصح لا أمّ لك!

- بينما كنت أتنزه عند النهر يا سيدي، إذ سمعت القائد (شقاق) يؤلب الناس عليك، إذ يتهمك بأنك المحرض على ما يحدث من فتن، بسبب الوالي الحفصي أبي فراس وأصحابه.

لم يستطع ابن الجد أن يثبت مكانه فطفق يغدو ويروح بينما أكمل يوسف وشايته قائلًا:

- إنه يا سيدي يريد مكانك هذا، إنه يدبر لأمر جلل!

نظر (ابن الجد) إلى يوسف نظرة ريبة، فبادره الأخير بقوله:

- أنا خادمك المطيع سيدي، ولولا حرصي عليك ما تكلمت بذلك.. لقد تزايد حديث العامة عن أفعال الأفارقة الحفصيين، و(شقاق) أقصد... القائد (شقاق) يستغل ذلك في تأليب الناس عليك.. ولو أنه أمرهم بعد ذلك أو نادى لنفسه بالولاية لقبلوه، ولو أمرهم بخلعك لأطاعوه.

فرك (ابن الجد) لحيته وخللها بيديه، ثم جلس مكانه وقد احمر وجهه وانتفخت أوداجه، وقال بصوت حاد:

- لن تفعلها يا (شقاق) لن أتركك تفعل!

ابتسم يوسف ابتسامة تفيض مكرًا، إذ شعر بأنه قد أحسن تأدية مهمته على أحسن وجه، فها هو ينجح في إفساد العلائق بين (ابن الجد) وقائد جيشه، وقد كان يوسف يرى في (شقاق) عقبة كؤودًا تحول دون تحقيق مهمته الكبرى، أما وقد فسدت علائقه مع (ابن الجد) فلن تقوم بعدها (لشقاق) قائمة.

وقبل أن تغرب الشمس، كان (ابن الجد) قد استصدر مرسومًا من الوالي أبي فارس الحفصي بعزل القائد (شقاق) من إمرة الجيش، وتولية أحد الحفصيين مكانه، وتم الأمر في سرعة كبيرة لم يتوقعها أحد، وفور صدور القرار أرسل (ابن الجد) من يأتيه بالقائد (شقاق)، فانتخب لذلك أحد فرسانه الذي خرج على عجل ليطرق باب القائد... ويخبر حرسه بأنه يريد القائد، في أمر مهم..!!

ارتدى القائد ملابسه وخرج من فوره، وهو يتساءل عن الأمر الجلل الذي جاء بأحدهم في هذا الوقت من الليل، وقد كان معروفًا عن (شقاق) تبكير نومه؟!

التقي الرسول بالقائد، وأخبره بأن أمرًا جللًا قد حدث، لهذا يجب أن يذهب إلى قصر (ابن الجد) على الفور.

جالت الخواطر برأس (شقاق) وراح يفكر في هذا الأمر الجلل الذي حدث، ولم يدر في خلده أنه عُزل من إمرة الجيش! وقال في نفسه:

- بعد قليل سيصير الخبر علمًا!

ثم تمنطق القائد بسيفه، وامتطى حصانه وتحرك متجهًا إلى قصر ابن الجد، وما إن دخل عليه حتى قال محتدًّا:

- ما الأمر الذي لن ينتظر للصباح أيها الأمير؟

في هدوء وحزن مصطنعين قال (ابن الجد):

- اجلس يا (شقاق).

قالها وعيناه تتحاشيان النظر في وجه (شقاق)!

جلس (شقاق) وعلى وجهه كل علامات الاستفهام والاستعجاب، فهو لم يأتِ في هذا الوقت من بيته وفراشه كي يسامر الأمير، لذا فما إن جلس حتى عاود السؤال عن هذا الأمر الجلل.

مهد (ابن الجد) للخير وهو ينتقي الكلمات:

- على رسلك يا شقاق، وهدئ من روعك فلن يحدث لك مكروه أبدًا وأنا حيّ.

تعجب (شقاق) من حديث (ابن الجد)، ورمقه بنظرات استنكار واستفهام، ولسان حاله يقول: ومن هذا الذي يجرؤ أن يمسّ قائد الجيش بمكروه؟ ثم كرر سؤاله مرددًا:

- ما الأمر يا (ابن الجد)؟

تنحنح (ابن الجد) وتصنع الحزن الشديد وقال بصوت خفيض:

- لقد أصدر أبو فارس أمرًا بعزلك عن إمارة الجيش!؟

- ماذا...؟ كيف يفعل...؟!!!

- لقد ولى أمر الجيش لأحد أصحابه الحفصيين.

ظهرت ملامح الغضب وعلاماته على وجه (شقاق)، فاستدرك (ابن الجد) ذلك، وتحرك باتجاه (شقاق) ووضع يده على كتفه وقال:

- اطمئن يا (شقاق)، إن هي إلا أيام وتعود إلى مكانك الطبيعي، فلن يكون للجيش قائد غيرك، فلا تجزع!

بصوت أجش قال (شقاق):

- وما الذي يجعلني أصدع لهذا الأمر وأنفذه بينما أستطيع وبأمر واحد فقط أن أعزله هو عن إمارة المدينة؟

تكلم (ابن الجد) وكأنه حكيم عصره فقال وهو يهز رأسه:

- لا نريدها حربًا أهلية يا (شقاق)، وأنت تعلم من المستفيد منها إن حدثت، وأنت أحرص الناس على (إشبيلية) وسلامتها... نعم تستطيع العصيان ولكنك أعقل من هذا وأنت أدرى الناس بأنه ما من أحد يستطيع وقف الفتنة إن اندلعت... وأنا أعدك إنها أيام وتعود إلى مكانك الطبيعي فاصدع بالأمر اليوم على أن يكون لك غدًا ما تريد، ولا تكن داعيًا للفتنة في هذا الوقت العصيب!

لم يقتنع (شقاق) بحديث (ابن الجد) ولم يأمن جانبه، ولكنه قدم أمر (إشبيلية) على أمره، ولم يرد أن يكون داعيًا للفتنة، فصدع بالأمر وتنازل عن إمارة الجيش على أمل أن يعود إليها في أقرب وقت.

(١١)

عتاب قاتل

انتشر خبر عزل (شقاق) من إمرة الجيش، فحزن لذلك الكثيرون خاصة أولئك الذين كانوا يعلمون حقيقة الأمور وبواطن الأحداث، بينما سعد أولئك الذين يفضلون السلام والتسليم (لقشتالة)، فقد كان (شقاق) يقف حجر عثرة في سبيل ذلك.

أما الحفصيون أصحاب أبي فارس، فقد زاد فسادهم بعزل (شقاق)، وقد كانوا يخشونه قبل ذلك، ثم لم يكتفوا بعزله، بل فعلوا فعلتهم وألبوا أبا فارس على ابن خلدون رئيس الشرطة، حتى عزله أيضًا، وعهد بالشرطة لواحد منهم. وهكذا أطلق العنان للحفصيين يعيثون في إشبيلية فسادا بلا رادع يردعهم بعد أن أصبحوا للجيش قادة وللشرطة رؤساء.

أما (عبدالرحمن) فقد اغتم لذلك أيمّا غم، ولم يرضَ بتنازل (شقاق) وراح يعاتبه ويشتد عليه وهو في قصره، فقال له:

- كيف فعلتها ولماذا...؟ كيف تتنازل لهم عن إمرة الجيش وأنت تعرف فسادهم؟

كان (عبدالرحمن) يتحدث وهو يكاد يتميز غيظًا، وهو يتحرك هنا وهناك، بينما (شقاق) جالس لا يتحرك من مكانه، وقد سيطر عليه حزن عارم.

- اسكت يا (عبدالرحمن)، اسكت!

واصل (عبدالرحمن) محتدًّا:

- لا أيها الأمير، لن أسكت ولن أهدأ حتى يعود الأمر إلى نصابه، لن قف مكتوف اليدين بينما (إشبيلية) على شفا حفرة من نار!

ثم أشار بيده:

- انظر أيها الأمير ماذا حدث ويحدث مذ خروجك من إمارة الجيش..؟

ابتلع (عبدالرحمن) ريقه الذي أوشك أن يجف لفرط التأثر، ثم قال:

- لقد طغى هؤلاء الأفارقة وسعوا في الأرض فسادًا حتى شربوا الخمر في الطرقات واعتدوا على النساء في الساحات وفرضوا المكوس وحملوا الناس ما لا يطيقون. وأنت بصمتك تحمل جزء من أوزارهم.

- اصمت يا (عبدالرحمن) اصمت!

- لن اصمت بينما (إشبيلية) تضيع!

هز (شقاق) رأسه وهو يقول:

- أنت لا تفهم شيئًا...لا تفهم شيئًا..

- زدني إذن، علمني لكن لا تتركني هكذا...

- إنما صمتي يا (عبدالرحمن) هو لحفظ تراب هذه البلاد، فلو خرجت عليهم وأنا قادر على ذلك، لطمع العدو في بلادنا، ومن يدري فلعلهم وقتها يستعينون (بفرناندو) علينا، وهم أقدر على ذلك، وإن فعلوا فلن يتركها (فرناندو)، وسيقتنص الفرصة وتضيع البلاد!

- بل إن سكوتك وصمتك هو ما سيؤدى بنا إلى أن نكون تحت طوع وراية (قشتالة)، ولكن من دون قتال... لتجلس هنا أيها الأمير، ولتعلم أنك بجلوسك وخنوعك ستكون من أسباب ضياع البلاد!

ثم خرج عبد الرحمن غاضبا، وترك شقاق غاصا في صمت رهيب! ينازعه حرصه على حفظ إشبيلية من جانب وصدق كلام عبد الرحمن من جانب آخر.

مر الوقت و(شقاق) لا يطرف له جفن أو تتحرك له عين... فقد أفزعته كلمات (عبدالرحمن) وآلمته.

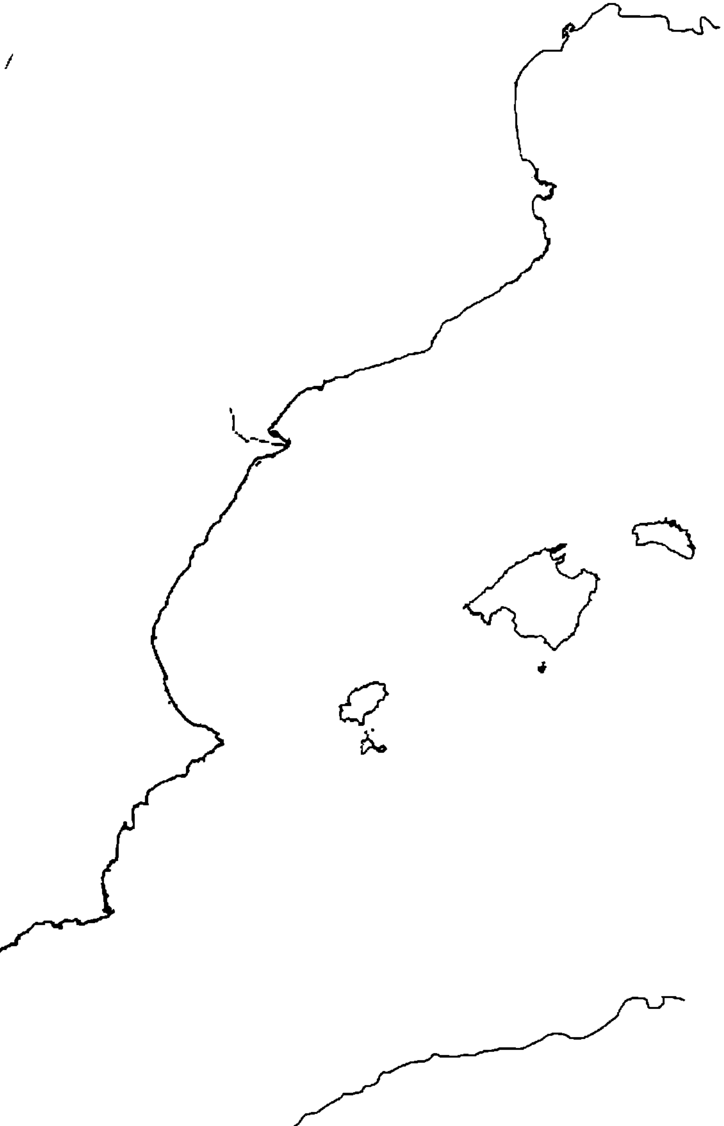

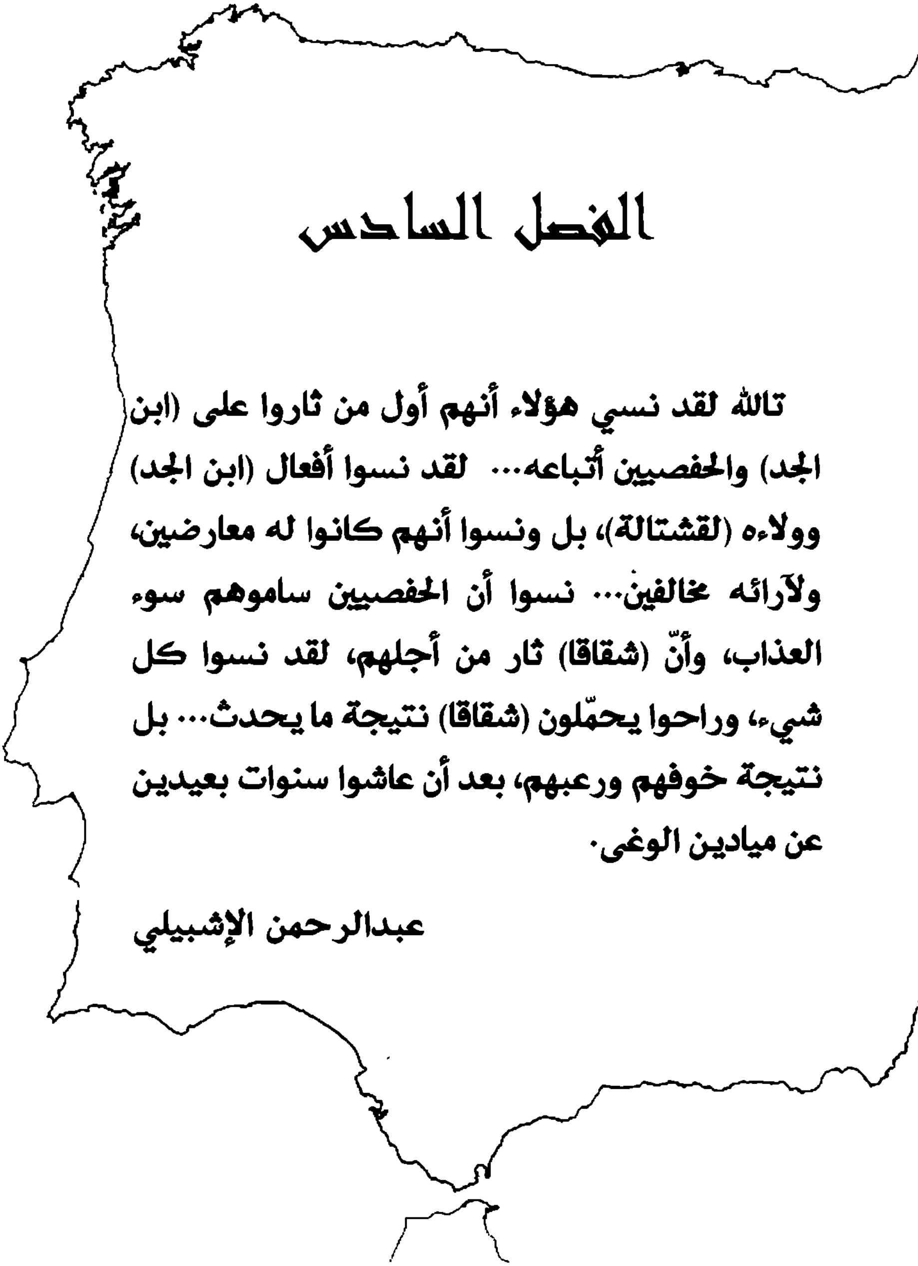

الفصل السادس

تالله لقد نسي هؤلاء أنهم أول من ثاروا على (ابن الجد) والحفصيين أتباعه... لقد نسوا أفعال (ابن الجد) وولاءه (لقشتالة)، بل ونسوا أنهم كانوا له معارضين، ولآرائه مخالفين... نسوا أن الحفصيين ساموهم سوء العذاب، وأنّ (شقاقا) ثار من أجلهم، لقد نسوا كل شيء، وراحوا يحمّلون (شقاقا) نتيجة ما يحدث... بل نتيجة خوفهم ورعبهم، بعد أن عاشوا سنوات بعيدين عن ميادين الوغى.

عبدالرحمن الإشبيلي

(أ)

ثورة شقاق

كانت الشمس تجرى لمستقر لها، راحلة عن سماء (إشبيلية) عندما كان الجنود الحفصيون يجوسون خلال شوارع (إشبيلية)، يرتكبون كل أصناف الشر، وضروب الفساد الرهيبة، إذ خرجت جماعة منهم يقودهم رئيس الشرطة الجديد ومروا على أسواق (إشبيلية)، وكعادتهم أثاروا الفزع في القلوب والنفوس، فاعتدوا على المارة وضربوا الكثيرين منهم بالسياط، كما اعتدوا على الدكاكين وأصحابها وسلبوا بعض أموالها كنوع من أنواع المكوس التي فرضها الوالي الحفصي بنصيحة من (ابن الجد) الذي كان بحاجة إلى الأموال ليرسلها إلى (فرناندو الثالث) حسب بنود المعاهدة بينهما.

وفي ساعات معدودة أغلق معظم أصحاب الحرف والسلع دكاكينهم، وفرغت الشوارع من المارة إما خوفًا أو تهربًا من دفع المكوس، أو خوفًا على دكاكينهم من أن يسلبها الحفصيون بعض متاعها، أما المارة فقد لاذوا بالفرار هربًا من لسعات السياط الحادة التي تقطع الجلد تقطيعًا.

مر رئيس الشرطة يثير الفزع لا الأمن، وينشر الرعب لا الأمان، حتى بلغ دكان زيد وكان قد عاد لفتحه بعد فترة من الإغلاق، وبنصيحة من البياسي.

لم يهتم زيد ولم يفزع لقدوم رئيس الشرطة عندما أبلغه أحد جيرانه التجّار بوجوب غلق الدكان، بل رد عليه زيد قائلًا:

- لماذا أغلقه؟ ما أتيت ذنبًا ولا منعت حقا وليس لصاحب الشرطة شيء عندي.

تابع (زيد) عمله في غير اكتراث، وما هي إلا ساعة حتى مر عليه رئيس الشرطة، الذي ما إن رأى (زيدًا) حتى اقترب منه ودون أن يلقى السلام أو يتحدث معه راح يتفحص دكانه، و(زيد) يراقبه صامتًا وكأن شيئًا لم يحدث، مما زاد رئيس الشرطة غضبًا فتمتم قائلًا باستخفاف:

- أنت... هل دفعت ما عليك من أموال لبيت المال؟

في ثبات أجاب (زيد):

- أجل فعلت.

بنظرة خبيثة قال رئيس الشرطة:

- هل عندك ما يثبت ذلك؟

- نعم عندي..

ثم راح يقلب في أوراق عنده، حتى أخرج ورقة بعينها، وأعطاها لرئيس الشرطة، الذي أمسك الورقة وتفحصها جيدًا، ثم مزقها وألقى بها في وجه (زيد) وقال بصوت جهوري ولهجة حادة:

- أتستهزئ بي وتعطيني ورقة لا قيمة لها؟ ولكن لا بأس لا بأس، هات مائة دينار ذهبي!

بتعجب واستهجان قال زيد:

- مائة دينار؟!! ومن أين لي بها؟

التفت رئيس الشرطة يمينا ويسارا ثم قال:

- مممم لن تدفع إذا؟

ثم أشار إلى جنوده، فانقضوا على (زيد) يوسعونه ضربًا، ثم خربوا الدكان وسلبوا محتوياته، ثم أمسك جنديان (بزيد) يجرانه معهم وهم يتابعون فسادهم وإفسادهم.

توافق ذلك مع خروج (مريم) رفقة خطيبها للتسوق، وشراء بعض حاجات زفافها، ترافقهم (قمر)، وقد شعر خطيبها بما يدور في السوق فانتابه الخوف وقال لها وهو يتأفف:

- قد سمعت بما يدور في السوق، ولم يكن من الصواب خروجنا إليه في هذا الوقت، أي شيطان أغراني بالنزول عند رغبتك في الخروج؟

نظرت (مريم) إليه وقالت باستفزاز:

- أخائف أنت؟ ما فعلنا ما يستوجب كل هذا الفزع.

- أجل لم نفعل، ولكننا لسنا بأفضل من اللائذين بدورهم تجنبًا للأذى.

بأنفة قالت (مريم):

- إن كنت تخشى على نفسك فلتتركنا هنا، فأنا أعرف جيدًا طريق العودة إلى المنزل.

زفر خطيبها بقوة ولم يتفوه بكلمة ثم أشار لها وتابعوا السير، وما إن ولجوا أحد الأزقة حتى ظهر أمامهم رئيس الشرطة الذي أعجب كثيرًا (بمريم) فراح يحاصرها بنظراته، غير أنها لم تعره اهتمامًا وغضت بصرها إلى الأرض، فغمز بعينه لها متجاهلاً وجود خطيبها معها، فلم تأبه له أيضا، مما جعله يتجرأ أكثر، ويغازلها بكلام مسموع.

نظرت مريم إلى ابن عمها في دهشة كبيرة باحثة فيه عن النخوة والحمية، ملتمسة عنده الحماية والصيانة، فما كان منه إلا أن التزم الصمت محني الرقبة كنعامة دفنت رأسها في الرمل.

ضحك رئيس الشرطة من نظرات (مريم) لخطيبها وقال:

- هل هو خطيبك أم حبيبك؟

- لا دخل لك بهذا أيها الحقير فهو جبان مثلك، على أنه لم يعد خطيبي بعد اليوم، فلن أكون زوجة لرجل لم تأخذه الحمية من أجلي!

- وتنعتينني بالجبن؟... لا بأس، فأنت غزالة برية شرسة، وأنا من سيروضك ويكبح جماحك!

قال ذلك ومد يده إلى وجهها، فصرخت بقوة وقالت:

- ابتعد عنى يا ابن الخبيثة!

تميز رئيس الشرطة غضبًا، خاصة وأنّ بعض المارة قد سمع قولها، فرفع السوط وضربها، فصرخت وقالت له:

- أتضرب امرأة يا أحط الرجال؟

وقبل أن يهوي بالسوط على جسدها كرة أخرى، امتدت يدٌ وأمسكت يده وشلتها فوقع السوط أرضًا، ثم دفعت صاحب الشرطة فطرحته أرضًا. كانت تلك اليد الجسورة يد زيد الذي ما إن سمع صرخات مريم حتى استجمع قوته وتخلص

من الجنديين المقيدين له، ثم شل يد رئيس الشرطة وصرعه وسط ذهول رئيس الشرطة وجنده وذهول قمر، ونظرات مريم الحانية التي توقعت ما سيلحق حبيبها عقابًا له على ما فعل.

وبسرعة تجمع الجنود حول (زيد) وأرادوا قتله، لكن رئيس الشرطة منعهم من ذلك، وقال وهو يحاول تنظيف ثوبه، من الأتربة العالقة به من أثر السقطة المريعة:

- لا... لا تقتلوه.... فقتله بالسيف سيريحه، وأنا لا أريد له راحة أبدًا، بل سأصليه نارًا حامية، وعذابًا أليمًا يتمنى معه لو لم تلده أمه... والله لأجعله يتمنى الموت فلا يظفر به!

ثم سحبه وغادر السوق.

أما (مريم) فقد عادت إلى بيتها، وهي تبكي بحرقة مما حدث، فهي تعلم عاقبة ما فعل (زيد) من أجلها، وتعلم حجم العذاب الذي سيلقاه نتيجة فعلته وشهامته، حتى إذا وصلت المنزل راحت تقص على أبيها ما حدث، وهي تستحلفه أن يجد الطريقة المناسبة لحفظ روح (زيد)، ذلك الشهم الذي أنقذها من براثن رئيس الشرطة، بينما ابن عمها وخطيبها وزوجها المستقبلي لم يتحرك ولم يفعل شيئًا لأجلها.

وصل نبأ ما حدث في السوق إلى أم زيد فجزعت جزًعا شديدًا وبكت بكاءً مريرًا، وأصبحت فارغة الفؤاد على وحيدها ومعيلها ولم تدر ما تفعل، ففكرت أن تذهب إلى رئيس الشرطة تترجاه أن يطلق سراحه ويأخذها مكانه فنفسها له الوقاء وعمرها له الفداء، غير أنها عدلت عن ذلك لما بلغها عن قلة مروءته وسوء أخلاقه، ولم تجد أمامها غير الذّهاب إلى صديقه (عبدالرحمن)، فقد كانت تعلم مكانته في (إشبيلية)، وأنه الوحيد الذي يستطيع إنقاذ (زيد) مما حل به، لذا فقد خرجت مسرعة لا تلوي على شيء، حتى وصلت إلى دار (عبدالرحمن) وطرقته، وما إن فتح لها الباب حتى ذرفت عيناها دمعًا سخينًا، وهي تقول متوسلة:

- أدرك صاحبك يا (عبدالرحمن)!

بصوت هادئ قال لها:

- قد علمت ما حدث، فهدئي من روعك يا خالة.

بكت الأم وقالت:

- كيف بالله عليك أهدأ؟ وكيف تقول لي ذلك، وأنت تعلم ما قد يحيق به؟!

- ادخلي يا أماه، وأنا سأهتم بالأمر.

- بل سأعود إلى داري، أنتظر ولدي.

ثم انطلقت ودموعها تجري على وجهها، أما (عبدالرحمن) فقد خرج من بيته، لا ليذهب إلى رئيس الشرطة الحفصي، ولكن ليذهب إلى رئيس الشرطة القديم يحيى بن خلدون، وكان وقتها في بيته، يتابع الأحداث عن كثب بصمت رهيب.

وصل (عبدالرحمن) إلى منزل ابن خلدون ودخل عليه، فوجده جالسًا ساكنًا، وكأن شيئًا لم يكن فقال له:

- تجلس هنا يا ابن خلدون، بينما طغى الأفارقة وتجبروا؟

استرخى ابن خلدون على كرسيه أكثر، وقال:

- وماذا يستطع أن يفعل قائد شرطة مُقال؟

- هل يعني ذلك أن نصمت عن تلك الجرائم بحجة عجزنا عن الفعل؟ لا يا ابن خلدون لن نجلس هنا مطمئنين، بينما يذوق الإشبيليون أسباب العذاب والهوان!

رد ابن خلدون في بعض الحدة، فقال:

- أسباب الهوان..؟ ومن الذي أورث الإشبيليين أسباب الهوان يا (عبدالرحمن)؟ أليست أفعالهم وخضوعهم (لابن الجد)، رغم معرفتهم بتحالفاته مع (قشتالة) وحكمه لإشبيلية خاضعًا (لفرناندو)؟ إن من رضي بالهوان يا صديقي ذاق الذلَّ ألوانًا!

- لا... ليس هكذا تحسب الأمور يا ابن خلدون.

- فكيف إذن يا عبدالرحمن؟

- يحتاج الشعب في أوقات المحن إلى من يدله على الصواب لا من يحاسبه على أخطائه... نعم نجح (ابن الجد) في خداعهم، ولكن نجاحه هذا نابع من فشلنا نحن في توعية الشعب... ثم هب أن الشعب قد أخطأ، فهل يعني ذلك أن نتركه بحجة خطئه؟ أليس من الصواب أن ننتشله، ونقوده نحن إلى ما

فيه خيره وخير البلاد؟ هل معنى أن الشعب قد أخطأ، أن نترك (إشبيلية) في مهب الريح، معرضة للضياع؟

- هب أن كلامك صحيحٌ فماذا في مقدورنا أن نفعل؟

تمتم عبدالرحمن وقال:

- ما زال رجالك في الشرطة ينتظرون إشارة منك، فإن دعوتهم فسيلبون أمرك.

مال ابن خلدون للأمام، وقال وهو ينظر إلى وجه (عبدالرحمن):

- ولكن رجال (ابن الجد) والحفصيين أكثر قوة وجمعًا، لهذا يجب علينا ضم (شقاق) إن أردت الثورة.

- لن نتحرك بدون (شقاق)!

وفي المساء وتحت جنح الظلام وصل (عبدالرحمن) وابن خلدون إلى منزل (شقاق)، حتى لا يلفت اجتماعهم الأنظار، وبدأ ابن خلدون الكلام فقال:

- لقد بلغ السيل الزبى يا (شقاق) وبلغت الروح الحلقوم، وإن لم تتحرك اليوم ستكون مذبحة كبرى، فالشعب غاضب هائج ولن يرضى إلا بأن يرى فيض الدماء.

أضاف (عبدالرحمن):

- إنّ جلوسك هنا لن يمنع القادم أيها الأمير، فهُبّ معنا نتخلص من أمر هؤلاء وتعود الأمور إلى نصابها، لقد طغى القوم وتجبروا، وإن جلست هنا والله لتندلعن حرب أهلية لا تُبقي ولا تذر.

تبدلت ملامح (شقاق) بعدما علم أنه لن يحافظ علي (إشبيلية) بصمته، وهو الذي تنازل عن إمرة الجيش لحفظها، لهذا تساءل قائلًا:

- وماذا عن (ابن الجد)؟

أجاب ابن خلدون في حماسة:

- لنجعل الفتح فتحين أيها الأمير، وليكن الأمير (شقاق) هو قائد الجيش ووالي المدينة... إنّ (ابن الجد) هو السبب في كل ما حلَّ بنا و(بإشبيلية) من سوء... فهو من أتى بهؤلاء إلى هنا، وهو من تفاوض مع القشتاليين

وأعطاهم أموالنا وحصوننا... وهو من عزلك عن إمارة الجيش، وهو الثعلب الماكر المتشح بثوب الفقيه.

لاحظ (عبدالرحمن) أمارات تأثر القائد بالكلام، فطرق الحديد وهو ساخن وقال:

- أيها الأمير لقد رُتب كل شيء، فالعامة غاضبون وسيكونون معنا وقت خروجنا وسيلتفون حولنا، ورجال ابن خلدون في الشرطة ينتظرون الإشارة، فلو خرجت أيها الأمير تم لنا الأمر، فرجالك في الجيش يتمنون عودتك، بعدما رأوا ما رأوا من أفعال الأفارقة، فهلمّ بنا قبل أن يحاط بنا، فمن تجرأ اليوم على العامة بهذا الشكل سيستدير علينا غدًا، والله وقتها سيكون باطن الأرض خير من ظاهرها.

فكر (شقاق) في الأمر، ثم نهض وأمسك سيفه وقرر التحرك فورًا، قبل أن يفتضح أمرهم، ثم ارتدى ملابسه وتمنطق بسيفه، وأرسل إلى رجاله المخلصين في الجيش وكذلك فعل ابن خلدون، وخرج الجميع إلى ساحات المدينة، فما إن شاهدهم العامة حتى بادروا بالالتفاف حولهم، وما هي إلا ساعات قليلة حتى اجتمع الآلاف من الإشبيليين حول (شقاق) ورجاله، فما كان منه إلا أن توجه بهم إلى قصر (ابن الجد) ليضع حدًّا لما يحدث من أمور وقلاقل.

أما (ابن الجد) فقد هاله ما رأى، وأحسّ بالشر القادم نحوه فأمر حراس قصره وجنوده بمنع القادمين من الوصول إليه، أما أبو فارس الحفصي فكان في عالم آخر، تحت وطأة الخمر وصرعتها، لهذا لم يشعر بشيء البتة، بل ظل على شربه ومجونه، بعد أن عزلته الخمر والموسيقى عن الحياة.

ما إن وصل (شقاق) إلى قصر (ابن الجد)، حتى رأى حراس القصر شاهري السيوف، فتقدم منهم وأمرهم بأن يغمدوها، قائلًا لهم:

- لا أريد دماءكم فخلوا بيني وبين صاحبكم!

لكن بعض الجنود رفضوا إغماد سيوفهم، فما كان منه إلا أن أمر بقتلهم، فاستسلم الباقون منهم، وأصبح الطريق مفتوحًا لقطف رأس (ابن الجد)، الذي حاول الهروب من أحد أبواب القصر لكن لسوء طالعه، كان الباب السري معطلًا حيث لم يستخدم منذ زمن لهذا لم يقدر على فتحه، فارتدّ ليجد الجنود خلفه وقد أُحيط به، حتى إذا حاول الحديث بادره أحد الجنود فقتله.

دخل (شقاق) إلى قصر (ابن الجد)، وحوله (عبدالرحمن) وابن خلدون، وتمت السيطرة على القصر وما فيه، وجلس (شقاق) على كرسي الحكم، وحوله (عبدالرحمن) وابن خلدون فقال الأخير:

- لقد انتهى الأمر وعاد الأمير (شقاق) إلى حيث يجب أن يكون.

نظر (شقاق) إلى ابن خلدون وقال:

- لا، لا يا ابن خلدون لم ينتهِ الأمر بعد بل ربما بدأ الآن، فما زال أمامنا الكثير من الوقت والعمل.

اقترح (عبدالرحمن):

- لو أذن لي سيدي الأمير، أريد أن آخذ فرقة من الجيش وأحرر من في السجون فهم كثر يا مولاي، وكل دقيقة تمر عليهم لا نأمن حياتهم.

وافق (شقاق) وصاح:

- اخرج إليهم من الآن واحرص على الدماء، أما أنت يا ابن خلدون فخذ قطعة أخرى من الجيش، ولتذهب من فورك إلى قصر الأمير أبي فارس، وتمنعه من الخروج من القصر ومن الاتصال بالعامة، واحرص على الدماء، لا نريد المزيد منها.

تحرك (عبدالرحمن) من فوره، مصطحبًا فرقة من الجند لم تتعد خمسين فارسًا، وانطلق بهم جهة السجن، وما إن اقترب حتى شهر الحراس السلاح، فهددهم (عبدالرحمن)، وقال لهم وعيناه تقذفان شررًا:

- لا نريد قتلكم، فمن أغمد سيفه فهو آمن.

ولرهبتهم وتصاعد أصوات العامة من حولهم، فقد سارع الجند إلى إغماد سيوفهم، ثم أمر (عبدالرحمن) جنوده بفتح الأبواب وأخرج السجناء، بينما تحرك هو يبحث عن (زيد)، فلم يجده فصرخ في الحرس:

- أين صاحب الدكان؟ أين (زيد الإشبيلي)؟

فلم يجبه أحد، عندها شهر سيفه ووضعه على رأس قائد حرس السجن، ونهره بصوت مرتفع وقال:

- أين زيد؟

اهتز قائد الحرس وارتعدت فرائصه، فقال:

- هنا يا سيدي.

وأشار إلى غرفة مظلمة في آخر السجن.

نهره (عبدالرحمن) وقال في غلظة مهددًا:

- تحرك وافتحها، وويل لكم جميعًا إن كنتم أزهقتموه!

تحرك الحارس وفتح الباب، فإذا (زيد) موثق بالحديد، تسيل منه الدماء... اقترب منه عبدالرحمن وفك قيوده، وعانقه بشده وحمد الله على سلامته

توجه ابن خلدون بفرقته إلى قصر أبي فارس، فلم يكد يصله حتى سارع حراسه بتسليم أسلحتهم ليصبح الطريق إلى رأس أبي فارس مفتوحًا.

دخل ابن خلدون القصر وحوله جنوده شاهري السيوف، فوجد أبا فارس غائبًا عن الدنيا بعد أن صرعته الخمرة، وأراد بعض الجند أن يفتكوا به، فمنعهم من ذلك، ثم حمله إلي حيث الأمير (شقاق)، وفي تلك الأثناء تكاثرت جموع الشعب الإشبيلي حول قصر (شقاق)، وامتلأت الشوارع بهم، وانقلب ليل (إشبيلية) نهارًا، وكانت تلك الجموع قد علمت بما يحدث، ونما إلى الجميع خبر مقتل (ابن الجد)، فأرادوا الانتقام من الأفارقة بل وأرادوا قتل أبي فارس والتمثيل به ولكن (شقاق) حال دون ذلك.

استفاق أبو فارس من صرعته، فوجد نفسه أمام (شقاق)، فأخبره بمقتل (ابن الجد) فارتاع الرجل فقال له (شقاق):

- لا بأس عليك أيها الأمير، فلن يمسك أحد بأذىً.

نظر أبو فارس حوله ولم يتفوه ولو بكلمة، فأكمل (شقاق) وقال:

- لقد بايعنا الأمير أبا يحيى في تونس، ورضينا أن نكون تبعًا له، وذلك إيمانًا منا أننا أمة واحدة؛ لذلك سعينا إلى تلك الوحدة معكم نستقوي بكم، وتستقوون بنا، ونكون يدًا واحدة في مواجهة أعداء الأمة والدين، فإذا بكم تفسدون في (إشبيلية) ولا تصلحون، فلم تراعوا الله في هذا الشعب المكلوم، بل تركتم العنان لشهواتكم وغرائزكم، فأضعتم الأمانة التي حملناكم،

وأضعتم بيديكم وحدة رجوناها كثيرًا وقدمناها لكم بدون مقابل، ولو أننا يا أبا فارس أنزلنا فيكم الحكم العادل لقتلناكم جميعًا، ولكننا سنكتفي بإخراجكم منها، كما دخلتموها أول مرة، معززين مكرمين لا تمتد إليكم يد بسوء أو ينالكم أحد بشر.

ثم أشار (شقاق) بيده، فتم تقييد أبي فارس وأعوانه، ومن ثم اقتيدوا إلى خارج القصر.

اقترب ابن خلدون من (شقاق) وقال:

- لماذا لا نقتله جزاءً وفاقًا أيها الأمير؟

- لا يا ابن خلدون، لا أريد إثارة الحفصيين بقتل هؤلاء.

- لكنهم قد فعلوا ما يوجب قتلهم!

- بل نعفو عنهم، فيصبحون عبيد إحساننا.

(٢)
الفرار

- هيا يا خوسيه، ماهي إلا سويعات ونبلغ أحواز قرطبة، فلا تتباطأ فيُلحَق بنا،

راح (خوسيه) يلهث وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة كبيرة، ويقول:

- لقد كادوا أن يفتكوا بنا.

هتف (برنارد) ممتنًا من أعماقه:

- الشكر للرب على النجاة.

لكز برنارد حصانه فانطلق به كالسهم، يلحقه خوسيه الذي ظهرت عليه علامات التعب والإرهاق. وتابع الرجلان رحلتهما في اتجاه أحواز قرطبة. وكان برنارد بين الفينة والأخرى ينظر خلفه ليطمئن أن لا أحد يتبعهما.

ظلت حوافر الحصانين تنهب الأرض حتى وصلا إلى أحواز قرطبة، وما إن دخلاها حتى نزل برنارد عن صهوة جواده وهو لا يكاد يصدق أنه ما يزال يحمل رأسه فوق عنقه، وارتمى على الأرض من شدة التعب مستلقيًا على ظهره، واضعًا رأسه فوق حجر صغير، محدقًا إلى السماء. وحذا خوسيه حذوه، إذ ترجل عن حصانه واستلقى على الأرض يلتقط أنفاسه وهو يفكر كصاحبه فيما حدث. كان الحصانان يحمحمان بالقرب منهما حين نظر برنارد إلى السماء المظلمة إلا من نجوم لامعة وقال:

- لحظات قليلة فرقت بيننا وبين الموت.

ثم مال برأسه لينظر إلى صديقه الذي قال:

- مشهد الدماء لا يريد أن يفارق عيني، كيف نجونا وكيف قتلوا.!!

- نجونا بفضل السيدة العذراء.

- نشكر الرب على ذلك.

غمغم (برنارد) وهو يتثاءب مستسلمًا للنوم:

- الآن لنغفو قليلًا، فأمامنا سفر طويل.

نام الاثنان ومر الوقت وانتهى الليل، وأتي الصباح بشمس مشرقة تسللت عبر أفرع الأشجار المتعانقة بأشعتها لتسقط بإلحاح على وجه (برنارد)، تداعبه حتى استيقظ وقد وضع يده أمام وجهٍه كي لا تدركها أشعة الشمس، لحظات مرت نهض بعدها الرجل، وتحرك متكاسلًا تجاه البركة القريبة، وجلس ليغسل وجهه ثم عاد لإيقاظ رفيقه الذي أنهكه التعب، فلم يستيقظ إلا بعد إلحاح شديد من صاحبه.

نهض الرجلان وامتطيا صهوة جواديهما، وانطلقا باتجاه (طليطلة) التي وصلاها بعد يومين من المسير، وبمجرد وصولهما ذهبا إلى حيث الوزير (ألبار بيرت)، الذي ما إن رآهما حتى اصحبهما إلى الملك (فرناندو)، وكان كعادته جالسًا بين أشجار حديقة قصره الوارفة، وبجواره ولي عهده الأمير (ألفونسو).

قدم (ألبار بيرت) التحية الملكية للملك، ثم أخبره بأنَّ حدثًا مهمًّا قد حدث في (إشبيلية)، وأنَّ رجليه هناك قد عادا منذ قليل، يحملان جديد الأخبار، فطلب الملك رؤيتهما كي يستمع لهما ويسألهما بنفسه.

دخل (خوسيه) و(برنارد) وقبلا الأرض من تحت أقدام (فرناندو) الذي أشار لهما أن تحدثا.

في نبرة أشبه بالنحيب ابتدره (برنارد):

- لقد قتلوا (ابن الجد) يا سيدي، ولولا عناية الرب للحقنا به!

ردد (فرناندو) مندهشًا وقال:

- قتلوووه؟ من الذي قتله؟

ازدرد (برنارد) ريقه وقال:

- قتله القائد (شقاق) يا سيدي، وجلس مكانه في قصر (إشبيلية) وهو يتوعد ويهدد!

قهقه (فرناندو) وقال:

- يتوعد ويهدد؟ لا بأس لا بأس فكثير الكلام قليل الأفعال...

ثم أردف:

- وكيف تلقى أهل (إشبيلية) نبأ مقتل ابن الجد؟

(برنارد):

- بفرحة عارمة يا سيدي، حتى خرجوا يحتفلون بذلك في الشوارع والأسواق.

رفع (فرناندو) حاجبيه، ونظر إلى (ألبار بيرت) وقال:

- إن كان الشعب قد تلقى نبأ مقتل (ابن الجد) بهذه الكيفية، فماذا صنع رجالك يا (ألبار)؟

تنحنح (ألبار بيرت) وقال:

- لقد فعلا ما نِيط بهما فعله يا سيدي، فبفضلهما صار العربي اليوم يتمنى رضا قشتالة ويحلم بدوام السلام معها ويراها سيدة الممالك التي لا تقهر...

تمتم (فرناندو) وهو يسترخي على كرسيه مشيرًا إلى (برنارد):

- أكمل يا رجل حديثك، فإن كان ما فعلتم عديم الجدوى قليل المنفعة، فلترونّ مني عقابًا أليمًا!

ارتعش جسد (خوسيه) من الرعب، بينما تحدث (برنارد) بكل ثقة وقال:

- لقد تركنا خلفنا أمة مهزومة قبل أن تحارب، نائمة لن تستيقظ، لقد تركناهم مختلفين حولنا، هل يحاربون (قشتالة) أم يسالمونها؟ تركناهم وقد ائتمنوا الخائن وخونوا الأمين وهذا يا سيدي إنجاز عظيم، إذ إن المسلم كان قبل ذلك يرى ضرورة قتال القشتالي، أما الآن فهناك خيار لم يكن مطروحًا من قبل وهو التسليم... لقد أصبحوا يا سيدي مهزومين، رغم تفوقهم العلمي، فقد صاروا عددًا بلا عدة، وهذا كله يا سيدي فعلناه بتوجيهكم ورعايتكم.

هز (فرناندو) رأسه ثم أذن لهما بالانصراف، فخرجا يتصببان عرقًا.

ما إن خرج الرجلان حتى هبَّ (فرناندو) واقفًا، وقد بدت عليه ملامح الغضب، وتحرك قليلًا قبل أن يقول:

- اللعين قتل صاحبنا ثم راح يتوعدنا!

تدخل (ألفونسو) ليهدئ ثورته:

- سيدي! من هذا الذي يجرؤ على ذلك؟ لقد انتهى أمر هؤلاء فلمَ نخشاهم؟

نظر (فرناندو) إلى ابنه وقال بلغة جادة:

- لا نخشاهم عندما يحكمهم (ابن الأحمر) وأمثاله، من رجالنا المخلصين التابعين لنا، لا نخشاهم عندما تقسمهم الحدود التي صنعناها لهم وحرصنا عليها، لا نخشاهم اليوم وهم ممالك متفرقة متخاصمة تسعى لنيل رضانا، ولكن عندما يحكمهم قائد مثل (شقاق) يجب علينا أن نخشاهم ونعيد حساباتنا، فهؤلاء أمة تضعف ولا تموت، ألم تراهم بعد أن هُزموا زمن الطوائف كيف بعثوا بالمرابطين، وزمن المنصور كيف فعلوا في الأرك، هؤلاء يا بني ينقصهم القائد لا الجند، فإن حصلوا عليه عادوا سيرتهم الأولى، وعندها لن يكون لنا مكان بالجزيرة!

بنظرات استفهام تساءل (ألفونسو):

- وما الذي يجعل (شقاق) يختلف عن (ابن الجد) وابن محفوظ صاحب لبلة و(ابن الأحمر) صاحب (غرناطة) و(ابن هود) صاحب (مرسية)؟

أجاب (فرناندو) في تؤدة، وهو يضغط على مخارج الحروف:

- الإخلاص وعدم الخوف... (فشقاق) هذا مخلص لأمته لن يخونها، قوي لا يهابنا، ومثل هذا القائد إن تُرك له وقت للعمل، سيقضي على الخونة من قومة ثم يتبعنا بهم، بعد أن يبث في الشعب روحًا جديدة لمقاومتنا!

وهكذا أدرك (فرناندو) أنّ (شقاقًا) يستطيع إعادة الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، وخشي إن أخذ الفرصة والوقت الكافي أن تتبدل الأمور وتتغير الأحوال، و(إشبيلية) عامرة بأهلها قوية بمواردها التي لا تنضب، لذا فوجود (شقاق) على رأس الأمر فيها شيء مخيف، لا يجوز تجاهله أو الاستهانة بخطره، فقد يغير من موازين القوى في شبه الجزيرة، وكيف لا و(إشبيلية) بها خمسمائة ألف نفس، ناهيك عن القرى التابعة لها، مما يعني إمكانية تجنيد مائة ألف جندي لو أحسن واليها التصرف!!

(٣)
الرسول الفارس

استوى (شقاق) على عرش (إشبيلية) يعاونه في حكمها (عبدالرحمن الإشبيلي) كوزير له، ويحيى بن خلدون كرئيس للشرطة، أما الشعب الإشبيلي فقد تنفس الصعداء وشعر بالكثير من الراحة بعدما أرهقته سياط الحفصيين الأفارقة.

جلس (شقاق) في قصره الجديد يفكر في (إشبيلية) ومستقبلها، و(قشتالة) وأطماعها وكيفية التغلب على تلك الأطماع ووأدها، سلسلة من الأسئلة لم تتوقف عن مهاجمة رأس (شقاق) ليل نهار، كيف سيستقبل (فرناندو) خبر مقتل (ابن الجد) خادمه ومطيته؟

آه يا (شقاق)، لقد ذهب (ابن الجد) بعدما أغرق (إشبيلية) في بحور الظلام، بعدما فقدت استقلالها وحسبها ملك (قشتالة) تابعة له ولمملكته...

فكر (شقاق) في تلك الأمور ولم يستقر له قرار، وبعد تفكير طويل ومرور عدة أسابيع مذ مقتل (ابن الجد)، قرر أن يستخدم الحيلة في تعامله مع (فرناندو)، فكان لا بد من السعي في طلب تجديد المعاهدة القديمة القائمة بين (قشتالة) و(إشبيلية)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن محاولة كهذه ستوضح بما لا يدع مجالًا للشك، نيات ملك (قشتالة) المضمرة حيال (إشبيلية)!

نظر (شقاق) حوله، فلم يجد من يرسله إلى (طليطلة) غير صديقه ووزيره (عبدالرحمن)، ليؤكد (لفرناندو) أن مقتل (ابن الجد) لا يعني انتهاء المعاهدة وليجمع الأخبار من هنا وهناك، (فعبدالرحمن) لن يكون مجرد رسول، بل سيحاول أن يتعرف على نيات (طليطلة) واستعداداتها.

وعلى جناح السرعة حمل (عبدالرحمن) الرسالة الثقيلة على نفسه، فقد كان يرى وجوب دخوله (طليطلة) بحد السيف لا برسالة كهذه، حتى وإن كانت تحمل بين طياتها خدعة المحارب... خرج عبد الرحمن من إشبيلية مارًا بأراض كانت

منذ عهد قريب مأهولة بالمسلمين، يتردد الآذان في أرجائها خمس مرات، وتقام الصلوات في مساجدها بالأصيل والغدوات، فكان كلما وطأت قدماه أرضًا ترجل عن حصانه وصلى ركعات ساجدًا على ترابها العبق برائحة الجدود، وظل هذا دأبه حتى بلغ طليطلة بعد بضعة أيام..

كانت الحسرات تصاحب (عبدالرحمن) في زيارته تلك، إذ كان يناجي نفسه كثيرًا طوال الطريق، فتراه تارة يقول:

- كانوا قديمًا يحملون الجزية إلينا ويخطبون الود والصداقة، أما اليوم فأخرج أنا إليهم راجيًا ودهم وصداقتهم، ماذا لو كان (طارق بن زياد) هنا؟ ماذا سيقول وقد صارت (طليطلة) كأن لم يفتحها؟

استمرت ذكريات التاريخ تتداعى إلى رأس (عبدالرحمن)، حتى وصل بوابة الشمس، ليعبر قنطرة القنطرة التي يعرفها جيدًا رغم رؤيته الأولى لها، تمامًا كما كان يعرف قنطرة الدهر (بقرطبة)! فقد قرأ عنها وعن تاريخ بنائها جيدًا.

دخل عبد الرحمن طليطلة يحمل راية الرسل وجال ببصره في أزقتها، وهو يكاد يموت كمدًا على مساجدها التي صارت كنائسًا، فهذه كنيسة نور المسيح التي كانت في الأصل مسجد باب المردوم، وهذا مسجدها الجامع قد هدم كي تقام على أرضه كاتدرائية طليطلة العظمى.

اغرورقت عينا عبد الرحمن بالدمع لقسوة المشاهد، لكنه جاهد دمعه ليمنعه من الانحدار، وآثر أن يظهر قويا أمام أعدائه.

وصل الرسول إلى حيث قصر الملك، ليبلغه حراسه أنّ رسولًا من (إشبيلية) قد حضر يحمل رسالة من صاحبها.

لم يسمح (فرناندو) للرسول أن يلقاه فور وصوله، بل عمد أولًا إلى إذلاله، فجعله ينتظر الكثير من الوقت في إهمال متعمد... وبعد عدة ساعات من الانتظار قضاها (عبدالرحمن) في مشاهدة الآيات والزخارف المنقوشة على جدران القصر وهو يردد: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

إذا بالحارس يناديه في تعالٍ وتكبرٍ واضحين:

- أيها العربي، لقد أذن لك سيدي الملك المعظم (فرناندو) ملك (قشتالة) وليون بالمثول بين يديه!

سمع (عبدالرحمن) ما قاله الحارس فنهض، ولسان حاله يقول:

- لولا هواننا لكان مليكك هذا فارًّا في أعالي الجبال، لائذًا بها يخطب ودنا وصداقتنا!

دخل (عبدالرحمن) إلى حيث (فرناندو) مظهرًا الثبات والقوة، وما إن أدى التحية للملك حتى قال:

- أتيتك أيها الملك في أمر المعاهدة المعقودة بين (قشتالة) و(إشبيلية)، إذ إن القائد (شقاق) أراد إعلام جلالتكم بأنه يحترم تلك المعاهدة ويقرّها، ويتمنى أن تقبلوه صديقًا لكم كما كان (ابن الجد).

هزَّ (فرناندو) رأسه وهمهم قائلًا:

- عجيب أمركم أيها العرب، كيف يحترم المعاهدة، ويقتل من أبرمها؟

بادر(عبدالرحمن) شارحًا:

- سيدي الملك، دعني أوضح لك أمرًا مهمًا، عندما أبرم (ابن الجد) المعاهدة، أبرمها باسم (إشبيلية) وشعبها، ولم يبرمها باسمه ورسمه، فلو لم يكن (ابن الجد) حاكمًا علي (إشبيلية) ما استحق فضل مراسلتكم سيدي، والآن ذهب (ابن الجد) وبقيت (إشبيلية)، وها هو سيد (إشبيلية) يجددها باسم (إشبيلية) أيضًا!

نظر فرناندو إلى عبد الرحمن نظرة إعجاب، فقد وجده قوي الحجة، حاضر البديهة، كامل الرجولة، فقال في نفسه:

- إن كان رسوله بهذه الحنكة والدهاء، فكيف حال (شقاق) نفسه؟

ثم خاطب عبدالرحمن قائلًا:

- سننظر في الأمر أيها العربي ونتروى!

عاد (عبدالرحمن) يسأل:

- هل أنتظر ردكم؟

راوغ (فرناندو)، مجيبًا:

- سنتروى في الأمر، ولن يحمل رسالتنا إلى (شقاق) غير رجل منا، فامض راشدًا أيها العربي، فقد كفيت ووفيت.

استأذن (عبدالرحمن) في أدب ولباقة:

- إذن أيها الملك، اسمح لي أن ازور مدينة سالم، فبعض أجدادي مدفون تحت ترابها.

نظر (فرناندو) إلى (عبدالرحمن) في دهشة ثم سأله:

- من هو جدك يا فتى؟

أجاب (عبدالرحمن) في اعتزاز وفخر:

- محمد بن أبي عامر المعافري يا سيدي!

بهت (فرناندو) وألجمته المفاجأة للحظات، ثم عقد حاجبيه قبل أن يستجمع قواه ويقول كاظمًا غيظه:

- لا بأس اذهب أيها الفتى، فإنَّ الموتى لا يعودون....

ثم أذن (لعبدالرحمن) بالانصراف دون أن يشفي أحدهما غليله من الآخر!

تحرك (عبدالرحمن) منزعجًا، وهو غاضب بشدة من كلمة (فرناندو) الأخيرة، فخرج وهو يقول في نفسه:

- ماذا قصد بقوله إن الموتى لا يعودون؟

أما (فرناندو) فلم يملك بعد خروجه أن يقول لولي عهده:

- أرأيت يا (ألفونسو) كيف تحدث العربي؟

ردَّ (ألفونسو) غير آبه:

- لم أرَ في كلامه ما أثار انتباهي يا سيدي!

رفع (فرناندو) كفه معترضًا:

- بلى يا (ألفونسو)، فهذا الرجل يمثل قائده وأميره، وهو سفيره إلينا.. لقد كان يتحدث إلينا من مكمن قوة، فلم يرهب مكانه بين يديَّ، ولم يبدِ أي خوف أو رهبة... وقد أراد بزيارته لمدينة سالم أن يبعث لنا برسالة تذكير مفادها:

- إنّ الأيام دول، وأن وقفته بين أيدينا طلبًا للصلح والمعاهدة لن تدوم وهو رغم عدم انتسابه للعامري، إلا أنَّ المسلمين جميعًا اتفقوا، على أنَّ أجدادهم هم أبطالهم!

بنظرات تقذف شررًا قال (ألفونسو) :

- إذن فلأرسلنَّ خلفه من يقتله!

لفت (فرناندو) نظره مصححًا:

- لا.... لا تقتله يا ولي العهد، فالرسل لا يقتلون، ولكن نفعل ما هو أشد من قتله!

فتح (ألفونسو) عينيه على اتساعهما، وتساءل في لهفة:

- وما ذلك يا سيدي؟

لمعت عينا (فرناندو) وهو يقول بخبث:

- إن نسفّه هذا وأمثاله في قومه، فلا يصل أحدهم إلى الحكم أبدًا!

عاد (ألفونسو) يسأل:

- هل يقصد مولاي أنه لن يقبل بتجديد المعاهدة معهم؟

انتفض (فرناندو) غضبًا، وهبَّ واقفًا وهو يصيح:

- لن اترك لهؤلاء الفرصة ليرفعوا رؤوسهم مجددًا، بعدما دفنها غيرهم في التراب... لن أعطي (شقاقا) ووزيره هذا الفرصة ليلتقطوا أنفاسهم، ويصلحوا ما أفسدناه عبر قرون!

كانت رياح حانية تداعب (عبدالرحمن) وهو في طريقه لزيارته مدينة سالم، وراح يتذكر كيف بناها (عبدالرحمن الناصر) وكيف جعلها رباطًا لجيوشه، تخرج منها لتدكّ قلاع النصارى في بنبلونة وجليقية وبرشلونة، وكيف غدت مدينة سالم رأس حربة في كل حروب الخلافة الأموية، حتى إذا كان زمن الدولة العامرية حصّنها (محمد بن أبي عامر)، وجعلها مثوي لجيوش الثغر الأوسط والأعلى، فلما دنت وفاته مات فيها رحمه الله ودفن، مر الوقت جميلًا . فالذكريات والتاريخ العظيم جعل جسد (عبدالرحمن) يقشعر فخرًا.

حتى إذا ذهبت الذكريات واجهه الحاضر المؤلم، فتنهد الفتى وزفر بقوة، وتابع سيره حتى صار بين يدي قبر الحاجب المنصور رحمه الله، نزل (عبدالرحمن) من فوق جواده ثم جلس أمام القبر، يترحم على المنصور وأيامه ويتذكر معاركه وأقواله، ثم نظر فوجد أبياتًا مكتوبة تكاد أن يمحوها الزمن وهي تقول:

آثاره تنبيك عن أخباره
حتى كأنك بالعيان تراهُ
تالله لا يأتي الزمان بمثله
أبدًا ولا يحمي الثغور سواهُ

(٤)

جارة الوادي الكبير

هبّ النسيم عليلًا على وجه (مريم) وداعب وجهها الجميل في نعومة قبل أن تلتقط أنفاسها العطرة وتملأ به صدرها ثم تطلقه في تنهيدة حارة وعيناها تسبحان في الأفق تنظر إلى النهر الذي فارقته منذ شهور وهي لا تكد تصدق أنها عادت إليه مرة أخرى ثم قالت:

- آه يا (قمر)، هل أنا في حلم أم هو الواقع الذي تحول بين ليلة وضحاها وأصبح هكذا جميلًا؟

اتسعت عينا (قمر) حنانًا وهي تقول:

- بل هي الحقيقة يا حبيبتي وربيع عمرك وأيام سعدك.

- لقد كدت أن أفقد الأمل وأحسست كثيرًا أن السعادة ليست لي، بل وشعرت أنها قد ولت بلا عودة، لقد كانت لحظات مريرة تلك التي عشتها يا (قمر).

- كانت وانتهت يا حبيبتي وحانت أيام سعدك، فدعي الماضي بكل ما فيه.

- إذن سارعي الخطى، فقد أوحشني النهر والبرج ورائحة الشجر هناك.

نظرت (قمر) إلى سيدتها مبتسمة وقالت:

- أوحشك النهر والبرج ورائحة الشجر... فقط؟

ابتسمت (مريم) واحمر وجهها خجلًا ولم تنطق.

- إن كان النهر فها هو فلمَ نذهب إلى حيث برج الذهب؟

- (وزيد) أيضًا... هل استرحتِ الآن؟

ضحكت (قمر) وقالت:

- نعم استرحت فلا تكتمي عني مرة أخرى!

سارعت (مريم) وجاريتها الخطى وكانت كل خطوة تقربها من مكان التقائها (بزيد) تزيد من دقات قلبها، وكيف لا و(زيد) حبيبها ينتظرها هناك منذ زمن!

اقتربت (مريم) من الوادي حتى إذا ظهر أمامها برج الذهب تهللت أساريرها أكثر فأكثر، وبعد وقت صارت أمام البرج على الضفة ضفة الوادي الكبير وهناك فتحت ذراعيها بقوة وكأنها تريد احتضان ضفة الوادي الكبير، وكأنها تريد أن تقول أن شيئًا لم يتغير فما زلت أنا (مريم) ابنة الأمس، وكأنها أرادت أن تمحو من ذاكرتها تلك الأيام البائسة غير السعيدة، عندما أجبرها أهلها على الزواج بمن لا تحب وتهوى وحرموها من حبيبيها: النهر و(زيد)

كانت سعادة مريم غامرة ودقات قلبها متزايدة، وهي تجوس هنا وهناك بلهفة شديدة تبحث عن نصفها وتوأم روحها. ومع مضي الوقت، تحولت اللهفة إلى حيرة، والسعادة إلى حزن. وتساءلت مريم في نفسها:

- لقد تأخر (زيد) كثيرًا على غير عادته، فاليوم هو الجمعة وهو يوم اللقاء المنتظر والموعود، فلماذا لم يأتِ إلى هنا ولماذا نسي الموعد، أم تراه نسي المكان والزمان معًا؟

لاحظت (قمر) الحيرة التي ارتسمت على وجه سيدتها وصديقتها، فقالت مواسية:

- لو علم أنك هنا ما تأخر أبدًا، فلربما لم يبلغه الخبر بعد.

- لكننا متواعدان منذ زمن يا (قمر)، و لم يختلف المكان ولا الزمان فلما لم يأتِ وكيف لم يبلغه الخبر والمحبُّ متتبع لأخبار حبيبه؟!

قالت ذلك وهي تغالب الدموع في عينيها.

- لا تظلميه يا سيدتي، ولا تنسي أنك منذ شهور لم تأتِ إلى هنا، أما تتبع أخبارك فلا أظن (زيدًا) إلا محبًا لك عاشقًا، لذا لن يمنعه عنك إلا مانع قوي.

- هل تظنين ذلك يا (قمر)؟ أم هو اليأس الذي حال بيني وبينه؟

- ليس يأسًا ولكن ربما ما مررتِ به من ظروف وهو قطعًا لم يعلم بما فعله والدك من فسخ الخطبة وإن تتبع أخبارك، إذ يظل فسخ الخطبة حديث الوقوع لا يعلمه إلا أقل القليل من المحيطين بك، ولكي لا تظلميه يا حبيبتي،

لك أن تعلمي أنني خلال الشهور الماضية كنت أرقب (زيدًا) هنا دائمًا، ليس فقط يوم الجمعة حيث موعد لقائكما القديم ولكن في معظم الوقت والحين، فقد كان يأتي هنا ليتنسم هواءً تنفستِه من قبل، ومكانًا لمستِه أو مررتِ به!

- فلماذا إذا لم يأتِ اليوم؟

- ربما استحى أن يظهر ولمّا يشفَ من أثر التعذيب بعد، وربما لم يعلم بما حدث بينك وبين ابن عمك وفسخ ما كان بينكما فهوني عليكِ.

- يا ويل قلبي من يطمئنني عليه ويخبره أني هنا؟

- إن كان من الغد فسأمر على دكانه وأطلعه بجديد الأخبار فاطمئني يا حبيبتي!

(٥)
خطة العقرب

مذ خرج (عبدالرحمن) من (طليطلة)، و(فرناندو) لا يفكر إلا في أمر الرسالة والرد عليها، وبأمر هؤلاء الذين يحكمون (إشبيلية) في غفلة من الزمن، شغله الأمر كثيرًا وأرّق مضجعه، فاختلى بنفسه يقلب الأمور محاولاً حسمها! وراح يفكر في صمت بعد أن أمر بأن لا يدخل عليه أحد، كائنًا من كان، ومهما كان يحمل من أسباب، مر الوقت و(فرناندو) لا يبدل صمته، بينما تراوده أفكار وأفكار، وفجأة ضرب بيده على يمين كرسيّه، وقال:

- اللعنة عليك يا (شقاق)، اللعنة عليك يا (ابن الجد)!

ثم صمت مرة أخرى والتفت برأسه يمينًا، وشرد بذهنه بعيدًا، وراح يفكر في المعضلة التي أقضت مضجعه، ويقلب الأمور، وهو يقول في نفسه:

- (إشبيلية) ليست كأي مملكة في شبه الجزيرة، فهي غنيّة بمواردها، يقطنها أكثر من خمسمائة ألف مسلم، يحكمها رجل قوي، وحوله ثلة مختارة من أفضل رجالات المدينة، مما يعني صعوبة أخذها...

تنهد (فرناندو) في حزن وألم، وبدل وضعية رأسه من اليمين لليسار، وأكمل حديثه الصامت:

- اللعنة! لقد استعجلوا قتل (ابن الجد)، قبل أن يسلمني (إشبيلية) لقمة سائغة، بدون قتال أو حرب، ليناصبوني العداء، فهؤلاء لن يستسلموا، قبل أن يشنوا عليّ الحرب تلو الأخرى...

ثم تحرك واقفًا فجأة، وقال:

- يجب حسم الأمر بالقوة، فوجود هؤلاء على رأس الأمر في (إشبيلية)، سيؤخر حلمي في طرد المسلمين من شبه الجزيرة، لذا يجب عليّ التحرك فورًا قبل تمكنهم من مقاليد الأمور.

ثم وضع يده على أحد الأعمدة في البهو، وقال:

- هذا (ابن الأحمر) صاحب (غرناطة)، قد أدّى الجزية عن يد وهو صاغر ذليل، وهذا ابن محفوظ صاحب لبلة قد سار في نفس طريق صاحبه (ابن الأحمر)، وقدّم فروض الطاعة والولاء مذعنًا، ونزل عن بعض الحصون والقلاع، ناهيك عن دفعه الجزية نظير خطب الود والصداقة، وهذا صاحب (مرسية) حفيد (ابن هود)، قد قدم بدوره، الجزية والطاعة وبعض الحصون والقرى، ولم يبقَ غير (إشبيلية)، وهذه قدمت الطاعة أيضًا على يد صاحبها (ابن الجد)، لكن قبل أن يتم قتله، ثم ها هم أصحابها الجدد يجددون الأمر، ويلحّون في طلب السلم والمهادنة، ولكنهم يفعلون ذلك اليوم مكرهين، ليحاربوني غدًا، بعد أن يشتد عودهم...

ثم عاد يقهقه عاليًا:

- لن تخدعني يا (شقاق)، لن أنخدع برسالتك أبدًا، بل سأهاجمك، ولن أدعك تحكم (إشبيلية)، وأنا حيٌّ على ظهر هذه الجزيرة، وليكن السبب المعلن لهذا الهجوم، هو قتلك لصاحبي ابن الجد، وارتباط السلم بين (قشتالة) و(إشبيلية)، بحياة (ابن الجد).

تغيرت ملامح وجه (فرناندو)، وبدأت ثنايا فمه في الظهور، وهو يبتسم وكأنه يرى بعينيه جيوشه الفاتحة، وهي تدخل (إشبيلية)، فقد استقر أخيرًا على الأمر، وعزم على غزوها.

وفور وصوله لهذا القرار، قام (فرناندو) إلى طبق كبير أمامه، والتقط منه ثمرة تفاح كبيرة، وجلس يأكلها بنهم غريب، حتى أكل بذورها من دون أن ينتبه!

في صباح اليوم التالي، وقف (فرناندو) يطالع خريطة كبيرة مفصلة (لإشبيلية)، وحوله حاشيته وكبار رجال دولته، ومنهم ابنه (ألفونسو)، وقائد بحريته رامون دي بونيفاس، والكاردينال الأعظم ماغنوس، وأردونيو ألباريث قائد جيشه، و(ألبار بيرت) كاتم أسراره وسفيره إلى مجاوريه، وجميعهم لا يعرفون سبب استدعاء (فرناندو) لهم، ناهيك عن هذه الخريطة التي يرفع رأسه عنها، بينما لم يتحدث إلى أحدهم بكلمة منذ وصولهم...

هو فقط يتفحص الخريطة وهم يفعلون مثله، غير أنهم لا يعرفون لماذا يفعلون هذا، وبعد فترة وجيزة قرر (فرناندو) أن يقطع شكوكهم وحيرتهم، فترك الخريطة وكان منكبًا عليها ووقف، ليهبّ الجميع واقفين مثله، فيطالع وجوههم وجهًا وجهًا، ثم يقول أخيرًا:

- لقد قررت افتتاح (إشبيلية) يا سادة!!

سمع الحضور كلمات فرناندو لكنهم لم يتكلموا، بل ظلوا على صمتهم كأنها خدرتهم، ولم يقطع ذلك الصمت إلا صوت الكاردينال الأعظم ماغنوس الذي قال مبتهجا:

- إشبيييلية... مركز المطرانية قبل دخول المسلمين، وقاعدتها في شبه الجزيرة تعود لأحضان المسيح، هل أنا في حلم؟ أم هي الحقيقة الجميلة اخيرًا؟!

أجاب (فرناندو) في حبور:

- أجل أيها الكاردينال الأعظم، سنعيدها كما كانت، مركزا للكنيسة الكاثوليكية في (قشتالة) كلها...

متعجبًا قال (ألفونسو):

- سيدي! وماذا عن المعاهدة المعقودة مع المسلمين؟

ابتسم (فرناندو) في سخرية واضحة، قبل أن يقول:

- إنما تُحفظ المعاهدات بالقوة، لا بالحبر المكتوبة به فقط!!

ثم قبض على يده، واستطرد:

- على أن تلك المعاهدة قد سقطت بمقتل ابن الجد! إلا إنْ كان للكاردينال الأعظم رأي آخر!

أيد ماغنوس الملك، وقال من فوره:

- الرأي يا مولاي أن لا عهد لهؤلاء، إلا عهد يخدم مصالحنا، فان انقضت مصالحنا ذهبت معاهداتهم!

(فرناندو):

- بوركت أيها الأب العطوف.

ثم نظر إلى (ألبار بيرت) وقال:

- وما رأي سفيرنا في الأمر، وهو المكلف بدراسة أحوال أعدائنا؟

تنحنح (ألبار بيرت) قبل أن يتكلم، ويقول:

- ربما قد حان الوقت يا سيدي، لكي ننهض إلي افتتاح (إشبيلية)، خصوصًا وقد أصبحت الحاضرة الأندلسية العظيمة معزولة تمامًا، لا تستطيع أن تعتمد على أية معونة، عاجلة أو حتى آجلة، لا من ملك (غرناطة)، وقد خضع لنا، ولا من الموحدين وقد نكثت (إشبيلية) ببيعتهم غير مرة، ولا من أمير إفريقية بعد الذي حدث منهم نحو عماله.

ابتهج (فرناندو)، وأثنى عليه بقوله:

- أثلجت صدري يا (ألبار)، فهكذا يجب أن تكون... يقظًا وفاهمًا لكل ما يدور من حولك، عارفًا بنقاط القوة والضعف لدى عدوك...

ثم نظر (فرناندو) إلى قائد جيشه وقال:

- وأنت يا أردونيو؟

أنا طوع أمرك سيدي، فنحن سيفك الذي تضرب به، ويدك التي تبطش بها.

- إنما أردت أن أسمع رأيك.

- إن افتتاح (إشبيلية) يا سيدي، وهي كبرى حواضر الأندلس حاليًا لأمر عظيم، يحتاج إلى استعدادات كبيرة، (فإشبيلية) هي أزخر مدن الأندلس وممالكها سكانًا، وأمنعها جانبًا، وأكثرها حصونًا وقلاعًا، ومن جهة أخرى، فإن أخذها بالحصار، لن يكون أمرًا ميسورًا، فهي تقع في منطقة كثيرة الخصب والنماء، كما أنَّ اتصالها بالبحر عن طريق نهر الوادي الكبير، يمكّنها من تلقى الأمداد والمؤن من عدوة المغرب. ومن ثم فإنه من الواجب إذا استقر الأمر على أخذها بالحصار، أن تخضع أولا سائر حصونها الأمامية من سائر النواحي، وثانيًا أن تخرب سائر بسائطها الخضراء التي تمدها بالمحاصيل والمؤن، وأن تحكم محاصرتها من ناحية البحر بالسفن، حتى لا يتسرب إليها شيئًا من الأمداد، من وراء البحر.

أبدي (فرناندو) إعجابه بحدة رأي أردونيو، وابتسم له ثم قال:

- سنخضعها بالحصار البحري والبري، فيتحرك الجيش ليرابط على أسوارها، بينما تسير السفن من الثغور الشمالية إلى مصبّ الوادي الكبير لتحول دون تلقي المسلمين لأية أمداد أو مؤن تأتى من عدوة المغرب... فهل أمير البحار مستعدٌّ لذلك؟

تحدث رامون دي بونيفاس بصوت جهوري:

- إن الأسطول القشتالي يا سيدي، سيجعل من نهر الوادي الكبير مقبرة كبرى، لكل سفينة مسلمة تطمح في العبور نحو (إشبيلية) أو الخروج منها، سنجعلهم طعامًا للأسماك يا مولاي، فاعتمد علينا فلن تؤتى (قشتالة) من جانبنا.

أخذ (فرناندو) نفسًا عميقًا، وبرقت عيناه ابتهاجًا، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة قال بعدها:

- لن يكون للعرب المسلمين بعد (إشبيلية) في الأندلس دولة تذكر!!

(٦)

غرناطة صيف (١٣٤٦)

وقف (ابن الأحمر) صامتًا ساكنًا، وهو يشاهد النافورة العجيبة بعينيه، ويسمع خريرها بأذنيه، بينما يحمل كوبًا من الماء المثلج، وقد انعقد حاجباه بشدّة، توحي بغرقه في بحر تفكير عميق، وهو يقول في نفسه:

- مات (ابن الجد)، وأخشى ما أخشاه من (شقاق) وتطلعاته، ناهيك عن كونه قائدًا لا يُشقّ له غبار.

مرّ الوقت، ورفع (ابن الأحمر) كوب الماء، وما إن وضعه على شفتيه حتى رده بسرعة، فقد ذاب الثلج وفتر الماء، التفت (ابن الأحمر) لأحد الحراس فجاء على عجل، وأخذ الكوب ليأتي بماء غيره، ثم جلس (ابن الأحمر) على حافة النافورة بنفس هيئته، يفكر في صمت مطبق، لا يُسمع فيه غير خرير الماء، وزقزقة الطيور من حوله..

مدَّ (ابن الأحمر) يده يغرف من الماء، ثم رفع يده ليجد أن الماء قد تسرب من بين أصابعه، عاود الفعل وكرره، فتكرر تسرب الماء من بين يديه، فتح (ابن الأحمر) عينيه بشكل أكبر، وكأنه يتعجب كيف تسرب الماء من بين يديه، ودخل في تفكيره العميق مرة أخرى وهو يقول في نفسه:

- أين الماء الذي كان بين يدي؟ لقد ذهب كما ذهبت (جيان) وأرجونة، لكن عزائي في ذلك أني استطعت تشييد مملكة في (غرناطة)، لي ولأحفادي من بعدي، لكن ترى يا ابن يوسف كم الثمن الباهظ الذي دفعته لبناء تلك المملكة؟ وهل ستصمد أمام الزحف القشتالي؟ أم ستذهب كما ذهبت (جيان) وأرجونة؟

زادت ملامح وجهه حزنًا وانعقاد حاجبيه شدةً، وزاد الصمت صمتًا، لم يقطعه سوى صوت الحارس وهو يقول:

- الماء الماء يا سيدي!

التفت (ابن الأحمر) إلى الحارس، وقال:

- ارجع به، لا أريده الآن!

وقبل أن يلتف الحارس ليخرج من حيث أتى، قال له (ابن الأحمر):

- هل من خبر عن الوزير (ابن عياش)؟

قال الحارس في وجل:

- لا يا سيدي!

هز (ابن الأحمر) رأسه، ثم ترك المكان متبرمًا ودخل إلى بهو السفراء في قصره، وجلس على كرسي عرشه، والوجوم يكسو وجهه، وما هو إلا وقت قصير حتى دخل الوزير (ابن عياش)، وهو يقول:

- أما زلت حزينًا على (جيان) يا سيدي؟

(ابن الأحمر) متأوهًا:

- ليست (جيان) وحدها يا (ابن عياش)، فقد بلغ حزني على أرجونة مبلغه، فهي مسقط رأسي وبها عاش أجدادي منذ الفتح، منذ تركوا الجزيرة العربية مجاهدين في سبيل الله.

حاول الوزير أن يسري عنه:

- هون عليك يا مولاي، إذ لم يك من سبيل لإنقاذها.

واصل (ابن الأحمر) متحسرًا:

- وماذا عن المعاهدة اللعينة مع ملك (قشتالة)؟ لم أر في حياتي مصيبة مثلها، فبها اقتطع (جيان) وغيرها من المدن، وبها ينهب أموالنا وثروات بلادنا.

وقبل أن يتحدث (ابن عياش)، قطع عليه الحاجب حديثه، عندما دخل وقال:

- مولاي الأمير، رسول من ملك (قشتالة) يستأذن للدخول عليك!

بهت (ابن الأحمر) وقال في غضب مكتوم:

- وماذا يريد منا ملك (قشتالة) بعدما حصل على كل ما يريد؟

رفع (ابن عياش) كتفيه، ومط شفتيه دون أن يتحدث، في حين أشار (ابن الأحمر) للحاجب أن يُدخل الرسول.

خرج الحارس، وما هي إلا لحظات قليلة وعاد وبجانبه (ألبار بيرت)، وهو يرتدي ثيابًا عربية أثارت دهشة (ابن الأحمر) ووزيره، فتطلعا إليه في استغراب، ورمقاه بنظرات مستفهمة أشعرته بما يدور في رأسيهما، فبادرهما الحديث وقال وهو ينظر إلى ثيابه ويبتسم:

- لباس أعجبني أيها الأمير، فابتعته من بعض أسواق (غرناطة)، وأحببت أن تراني به، لتعلم كم يحب سفير (قشتالة) العرب وطبائعهم!

تمتم (ابن الأحمر) وهزّ رأسه محاولاً تصّنع الابتسام والتظاهر بالاقتناع بكلام (ألبار بيرت)، وقال:

- ونحن نحب من يحبنا يا (ألبار)... فما هو الخبر السعيد الذي أسعدنا بلقاك؟

تنحنح ((ألبار بيرت) وابتسم وهمّ بالحديث، ثم تردد بعض الشيء محاولاً أن ينتقي كلماته، فقد كان يعلم صعوبة سفارته، وقسوتها على نفس (محمد بن يوسف بن الأحمر) ثم قال:

- يخبرك سيدي الملك (فرناندو) بأن تتجهز، وتوافيه بقواتك عند أحواز (قرطبة)، عملاً بالتحالف السابق بينكما يا سيدي، وهذا كتاب الملك إلى جلالتكم.

التقط (ابن الأحمر) الرسالة وقرأها، ثم ابتلع ريقه وصمت لحظة، قال بعدها:

- ألا تعلم سبب ذلك أيها السفير؟

بمكر ودهاء، قال (ألبار بيرت):

- لا أعلم سيدي، ولو علمت لأبلغتك.

شعر (ابن الأحمر) بالمهانة، إذ كيف يأمره بالخروج بقواته هكذا، وكأنه تابعٌ له، دون أن يوضح مقاصده من هذا الخروج، ولكنه لم يرد أن يظهر ذلك أمام السفير، بل اكتفي بأن قال وهو يكظم ما بداخله:

- حسنًا سنفعل، فلتخبر الملك (فرناندو) بأننا لا ننقض عهدًا قطعناه أبدًا، وأننا سنوافيه بقواتنا كما طلب.

ابتسم (ألبار بيرت) ابتسامة تفيض شماتة، ثم انحنى أمام (ابن الأحمر) وانصرف، ودخل (ابن الأحمر) في صمت عميق، وهو يفكر ويقول:

- ماذا يريد ملك (قشتالة)؟ وماذا لو كان ينوي الهجوم على بلد مسلم؟ ماذا لو كان هدفه (إشبيلية) أو (مرسية) أو لبلة؟ هل أظل على تحالفي معه وأخذل بلاد المسلمين؟ أم أخذله هو نفسه؟ وماذا لو خذلته ونكصت عن حلفه؟ هل سيعود من حيث أتى؟ أم يتحول لحربي بدلًا منهم؟!

هاجمت الهواجس والأسئلة المخيفة رأس (محمد بن الأحمر)، لكنه لم يستطع إلا أن يمتثل لأوامر سيده الجديد، وهو يجهل كل الجهل ما تخفيه الأيام القادمة، وما ينويه (فرناندو)..

(٧)
(قرطبة)

قرر(فرناندو) أن تكون (قرطبة) قاعدة لجيوشه الجرارة المتجهة لغزو بلاد المسلمين، وذلك لحصانتها وقربها منهم ولكونها كانت عاصمة قديمة لهم، مريدًا بذلك هزيمة المسلمين النفسية قبل كل شيء، إذ من (قرطبة) التي كانت قبل عشر سنين فقط بلدًا مسلمًا، سيخرج جيش قشتالي لغزو المسلمين في عقر دارهم!

خرج (فرناندو) من (طليطلة) بجيوشه متجهًا صوب (قرطبة)، فبلغها بعد يومين، وما إن وصلها حتى دخل كنيستها الكبرى ليصلي فيها صلاة الشكر، ويستمتع بزخرفة تلك الكنيسة البديعة ونقوشها الرائعة، وليحصل منها على التبريكات قبل أن يشن أعظم حروبه وأكبرها... كانت تلك هي الزيارة الثانية التي يقوم بها (فرناندو الثالث) للمسجد المحوّل إلى كنيسة، وقد أراد في هذه الزيارة أن يتمتع بجمال (قرطبة)، وبقية ما ترك المسلمون فيها، فما إن دخل المسجد القديم حتى سرح بصره في أرجائه، وأدرك أنه يشاهد تحفة فنية عظيمة، تم تشويه معالمها بطريقة منظمة ساذجة فجّة، عشر سنوات مرت منذ تم تحويل المسجد إلى كنيسة، وما زال (فرناندو) يتذكر ذلك اليوم، ويقارن بين حال المسجد وقتها وحاله اليوم، بعدما أغلقت نوافذه الملونة، التي كان يتسرب الضوء منها بألوانه الجميلة، المكتسبة من ألوان زجاج تلك النوافذ، وحلّ محلها الظلام القاتم، فالضوء قليل ينفذ إلى بضعة أركان ونواح متفرقة، لا تكفى لتضيء كل هذا المبنى العظيم!

حزن (فرناندو) لتلك التحفة التي تم تشويهها بهذا الشكل الفج، ولكنه لم يكن يملك أن يمنع ذلك، فإقامة الكنيسة تستوجب هذا، إذ إنّ الظلام يساعد على الخشوع... أنهى (فرناندو) صلاته، وخرج من المسجد الكنيسة وتوجه من فوره إلى قصر إمارة (قرطبة)، ومن القصر أرسل وفوده إلى أرجاء (قشتالة) وليون وجليقية، يخبرهم بنياته، فوافته قوات من فرسان شنت ياقب، وفرسان قلعة رباح، إضافة إلى جيش (قرطبة).

وبعد أن اكتمل حشده خرج من (قرطبة) ونصب معسكره على بعد أميال منها، ومكث ينتظر وفود (ابن الأحمر) عليه، وهو لا يشكّ أبدًا في ذلك، لكن مرت الأيام ولم يحضر (ابن الأحمر)، فبدأ الشكّ يساور (فرناندو) الذي جلس في خيمته، والأسئلة تدور في رأسه:

- هل سيحنث (ابن الأحمر) في عهده؟ كيف يجرؤ على مجرد التفكير في ذلك؟

ثم تحرك جهة باب خيمته، وأمسك بيديه جوانبها، وهو ينظر في الأفق البعيد، ولسان حاله يصب اللعنات على (ابن الأحمر)، الذي تسبب في تأخر خروج الجيش إلى وجهته، ومن ثم عاد وجلس على كرسيه وهو يقسم، لئن لم يأتِ (ابن الأحمر) ليغيرنّ وجهته، ولتكونن (غرناطة) غايته، وبينما هو كذلك إذاً بقائد جيشه أردونيو ألباريث، يدخل عليه خيمته مرتديًا لباس الحرب، وقد لاحظ وجوم سيده وصمته، فقطع هذا الصمت، وقال:

- سيدي! ربما يفقدنا الانتظار ميزة المفاجأة، فيتنبه العدو لنا ويستعد لمواجهتنا، فيطول أمد الحرب بيننا وبينه!!

رفع (فرناندو) وجهه بلا مبالاة وقال:

- أعلم ذلك جيدًا يا أردونيو، غير أني لا أعبأ به كثيرًا

رفع أردونيو حاجبيه، وقال مندهشًا:

- لمَ يا سيدي، فالحرب خدعة، وفي الخدعة ما يُغني عن آلاف السيوف؟

نهض (فرناندو) وقال في دهاء:

- وكما هي خدعة يا أردونيو فكذلك هي حرب نفسية، فمن أيقن بالهزيمة نالها، ومن خانه صديقه هانت عليه نفسه، ولم يعد يأمن لأحد، فيخوّن بعدها المخلص، ويساوى بينه وبين الخائن، فتنفض الناس من حوله، على أني أتنازل عن المفاجأة في سبيل كسب الحرب النفسية، وأن يرى المسلمون واحدًا منهم يحاربهم، ويكون سيفه مشهورًا في وجوههم، لا معهم.

تعجب أردونيو من كلام (فرناندو)، وقال:

- سيدي! وما قيمة هذا الذليل وقواته بعدما اجتمعت لنا كل هذه القوات الضخمة من كل مناطق (قشتالة)؟ وما قيمة الحرب النفسية بينما نملك

القوة الكافية لهزيمتهم ودحرهم؟ و (ابن الأحمر) هذا لم يستطع من قبل مجابهتنا، وتنازل لنا رغمًا عن أنفه عن مسقط رأسه وبلاده، فهل قائد كهذا تقيم له (قشتالة) وزنًا؟!

حرك (فرناندو) رأسه وتبدلت ملامح وجهه، فقد شعر بأن قائده لا يعي كل أمور الحرب، فقال له:

- لا أريد من ابن الأحمر أن يقاتل عني، ولا تزيد قواته في عدد قواتي إلا كما تزيد الخردلة في ماء البحر، لكني أريد أن أهزم به نفوس الإشبيليين.

ثم احتد قائلًا:

- يجب أن تفهم ذلك جيدًا، يا أردونيو.

نظر أردونيو إلى سيده في ذهول، بينما تابع (فرناندو) حديثه فقال:

- هل تعلم معنى أن يهاجمك من تظنّ أنه سينصرك؟ لك أن تعرف وقتها قدر الحسرة والخيبة التي ستكون عند أهل (إشبيلية)، وهم يرون جيش (ابن الأحمر) الذي هو منهم يقاتلهم معنا!!!.

أمسك (فرناندو) كأسًا بها خمر، وتجرعها دفعة واحدة، وتابع قائلًا:

- وقتها فقط سيستسلمون لنا من دون قتال؛ لأن وجود (ابن الأحمر) معنا يقضي على كل أمل لهم في الحياة والنجدات، إنني أريد أن أهزم هؤلاء من داخلهم، وأضرب بيد من حديد عقيدتهم، وأجعل الخيانة هي أملهم وسندهم، فيصير بذلك الخائن سيدهم، والمخلص قتيلهم، وكيف لا، وقد منحهم الخائن الحياة، بينما منحهم المخلص الموت والدمار، بينما الحقيقة أنّ الدمار هذا سببه الخيانة لا الإخلاص!

فتح أردونيو فمه، ولم يستطع أن يخفي إعجابه بسيده، الذي استطرد قائلًا:

- لو حدث ما أريده، فسوف يقاتل (محمد بن الأحمر) معنا، يخون أهله في (إشبيلية) ودينه، وبهذه الخيانة سوف تعيش (غرناطة)، ويكون سر حياتها هو (محمد بن الأحمر) وتحالفه معي، بينما ستموت (إشبيلية) التي رفضت التعاون معي، وقتلت رجلي فيها ابن الجد، ويكون إخلاصها سر وفاتها! وبذلك سيخرج الأندلسيون من هذه المعركة الروحية والدينية والنفسية مهزومين في كل شيء... مهزومين في معركة عسكرية خسروها،

وأرض لم يحافظوا عليها، وروحيًّا إذ إن رجلًا منهم أعان عليهم، ودينيًّا إذ إنهم سيحفظون ويعرفون ويؤمنون أنّ الخيانة نجاتهم، وعكسها دمارهم، هل فهمت الآن؟

- أجل يا سيدي فهمت ووعيت.

- إذن اخرج الآن وتابع أمور جندك.

- أمرك سيدي!

ثم خرج من الخيمة يتفقد أحوال جنده، تاركًا خلفه (فرناندو) الذي ما برح يفكر في الحرب، وسبيل النصر فيها.

كان (فرناندو) على ثقة بقدوم (محمد بن الأحمر)، ولكن ومع انقضاء اليوم الثاني قرر السير تجاه (إشبيلية)، وهو ينوي الإطاحة (بابن الأحمر) إن نكث بعهده.

وفي فجر اليوم الثالث امتطى (فرناندو) جواده، ثم نظر إلى يمينه وقال لأردونيو:

- خذ قطعة من الجيش، وتحرك بها، ومهّد لنا الطريق وأمّنه!

أومأ أردونيو برأسه، وجذب رسن حصانه وتحرك من فوره، ثم أعطى (فرناندو) أوامره لقائد فرسان شنت ياقب بلاي كوريا بأن يتأخر قليلًا ليحمي مؤخرة الجيش، ومن ثم انطلق (فرناندو) بباقي الجيش بعد أن أعطى أوامره لقواته بأن تُتلف الزروع، وتخرب الضّياع، وتقتل الحيوانات والماشية، وتأسر كل من تلقاه من المسلمين، فلم يكد أردونيو يمر بقرية إلا وتركها قاعًا صفصفًا لا ترى فيها زرعًا ولا ماشية، فقد كان مرور الجيش القشتالي في مكان يعني دماره وحرقه.

عبر الجيش القشتالي نهر الوادي الكبير، وهو يبثّ الرعب في القلوب والنفوس. حتى إذا وصل قرمونة، قرر (فرناندو) أن يقيم معسكره أمامها ويطوقها، وذلك حتى لا تكون شوكة في ظهره.

(٨)

الشعب الغافل

على مقربة من جمع من أهل (إشبيلية)، وقف (عبدالرحمن) وهو يمسح رأس حصانه وعنقه، ثم راح يمرر أصابعه في معرفته الناعمة، وهو ينصت لما يدور بينهم، إذ قال الأول في اهتمام:

- هل علمتم ما حدث بقرمونة؟

رد الثاني مستفهمًا:

- ماذا حدث بها، فمنذ يومين لم أبرح داري؟

تساءل الثالث:

- هل تقصد جيش (قشتالة) الذي يحاصرها؟

عاد الأول يجيب:

- أجل وقد بلغني أنَّ اللعين إنما يريد (إشبيلية).

رفع الثاني حاجبه وبرقت عيناه، وهو يردد:

- (إشبيلية)؟!!

أجاب الأول في ثقة:

- نعم (إشبيلية)، وإنما حاصر قرمونة، حتى يؤمن ظهره إن تقدم تجاهنا.

تحسر الثالث متأوهًا:

- والله لقد أخطأنا يوم أن عاضدنا (شقاقا) في مسعاه، إذ كان لنا في (ابن الجد) ما يغنينا، عما تنبئ عنه الأخبار والأيام.

اعترض الثاني:

- وهل نسيت يا رجل معاهداته، وخنوعه (لقشتالة) والحفصيين وما فعلوا؟

تمسك الثالث برأيه معللاً:

- رغم ما تقول ولكنه كان سدًّا منيعًا، حال ولزمن طويل دون وصول القشتاليين إلينا.

ضرب (عبدالرحمن) كفا على كف، وهو يبتسم بسخرية كبيرة من هذا الشعب قصير النظر، ويقول في نفسه:

- تالله لقد نسي هؤلاء أنهم أول من ثاروا على (ابن الجد) والحفصيين أتباعه... لقد نسوا أفعال (ابن الجد) وولاءه (لقشتالة)، بل ونسوا أنهم كانوا له معارضين، ولآرائه مخالفين... نسوا أن الحفصيين ساموهم سوء العذاب، وأنّ (شقاقا) ثار من أجلهم، لقد نسوا كل شيء، وراحوا يحمّلون (شقاقا) نتيجة ما يحدث... بل نتيجة خوفهم ورعبهم، بعد أن عاشوا سنوات بعيدين عن ميادين الوغى.

ظل (عبدالرحمن) يطالع القوم وهو شارد الذهن، لم يخرجه عن شروده سوى صيحة عالية مرعبة تقول:

- القشتاليون في الطريق، إياكم وعقاب أخرى...، لا تستسلموا لجبنكم فيقتلكم ولا تركضوا وراء خوفكم فيهلككم، فالنفوس الجريئة تموت مرة والخائفة تموت ألف مرة، أحدوا سيوفكم، واسرجوا خيولكم، واجمعوا كلمتكم، وقاتلوهم صفا واحدا، فإن ذلك أفزع لقلوبهم وأنهك لقواهم وأهتك لكيدهم...

نظر (عبدالرحمن) إلى صاحب الصوت، وهز رأسه وقال:

- يوسف البياسي...!!

استمر يوسف في حديثه، وهو يجول شوارع (إشبيلية)، يردد هذا الكلام العجيب! ثم تابع حديثه حتى اختفى عن الأنظار، فإذا (بعبدالرحمن) يقول:

- لأول مرة يتحدث يوسف بحديث كهذا، حتى إنه حوّل مجرى حديث أهل (إشبيلية)، وبدلاً من حديثهم عن الجيش القشتالي الرهيب، راحوا يتحدثون عن هذا الشيخ، الذي تبدلت أحواله وكلماته، فلم يعد يقول (العقاب قادم)، بل راح يهددهم بالعقاب وكأنه يغذي نفوسهم، كي لا تتكرر مأساة العقاب، لله درك يا يوسف!!

أما أهل (إشبيلية) فقد انشغلوا بحديث البياسي، وبعضهم أخذه خياله فقال: إنّ هذا إلا مَلك كريم جاء ليطمئنهم، وبعضهم قال: إنه جاء ليشجعهم، ويشد أزرهم، ويقوي شوكتهم، ووسط هذا وذاك وأصوات مرتفعة وقلوب مضطربة، إذا (بعبدالرحمن) يشقّ السوق وخلفه حصانه، ومن ثم ربط الحصان في جذع شجرة، ووقف على مرتفع منه وبصوت جهوري قال:

- يا أهل (إشبيلية)، إن (فرناندو) قادم بجيشه إليكم، ليس بسبب مقتل (ابن الجد)، أو انتقامًا له كما تخيلتم، فإن (ابن الجد) ليس بابنه أو أخيه! إنما أراد طاغية (قشتالة) أن يتذرع بذلك لتخور نفوسكم، وتختلف قلوبكم، وتتنازعوا فيما بينكم، فتذهب ريحكم...

أراد أن تتذكروا أنَّ (ابن الجد) كان سبب سلامكم معه، بينما الحري أن تتذكروا أن (ابن الجد) هو سبب هوانكم وضعفكم وتجرؤ الصليبيين عليكم...

أراد بذلك أن تشقوا الطاعة على الأمير (شقاق)، الذي ما فتئ يعمل من أجل (إشبيلية)، ومن أجلكم، ومن أجل الإسلام في تلك الأرض العامرة!

ثم استدار واستطرد قائلًا:

- نحن اليوم بحاجة إلى أيد تحمل السلاح، وألسنة تبث في الأرواح حبّ الجهاد، وقلوب لا تخشى الموت، إنّ (فرناندو) لا يريد أن يثأر (لابن الجد)! بل أراد أن يتخذ مقتله ذريعة لاحتلال دياركم، وسلب أموالكم، وتحويل مساجدكم إلى كنائس، ألا إني مبايع للأمير سائر خلفه مدافع عن (إشبيلية)، فمن أراد منكم أن يكون مع الحق فليتبعني، ومن أراد عكس ذلك فإنّ مردّه إلى الله.

ثم أمسك (عبدالرحمن) سرج حصانه وسحبه حتى ابتعد عن الناس، ثم وبوثبة واحدة امتطى صهوة جواده وجذب لجام الحصان الذي رفع قائمتيه الأمامتين، وأطلق صهيلًا حماسيًّا قويًّا قبل أن يضرب الأرض بقوائمه، وينطلق براكبه نحو الغاية المنشودة.

لكن الحقيقة أن (عبدالرحمن) نفسه لم يكن يعرف إلى أن ينطلق به حصانه، فقد أراد فقط أن يخرج من بين هؤلاء الذين يتغيرون بين يوم وليلة، وبعد تفكير قصير قرر أن يجمع الناس من حول الأمير، ويقود بهم جيش المتطوعة، فكان أول ما فكر فيه هو أن يعتمد على أصحابه الذين يثق بهم وبإخلاصهم، وقرر البدء بصديقه ابن شعيب.

إذ إنه يحتاجه معه في تلك الأيام العصيبة، حتى إذا وصل إلى داره ترجّل من فوق صهوة جواده، ليطرق باب صاحبه الذي فتح له الباب بنفسه، إذ كان ابن شعيب يعيش وحيدًا فلا أب له ولا أم، بعد أن ماتا وتركاه، بينما أخته الوحيدة المتزوجة تقيم في آخر المدينة، وهي وحدها التي تهتم بشأنه، وتزوره بين الفينة والأخرى تقوم على حاجته.

دخل (عبدالرحمن) وتبادل مع صديقه السلام والتحية، وجلس الاثنان فلفت نظر (عبدالرحمن) وجود أوراق كثيرة مبعثرة هنا وهناك، ورموز مكتوبة وأكياس من الفحم، وكيس من مادة صفراء غريبة الشكل كريهة الرائحة، وكيس من مادة أخرى مجهولة رمادية اللون...

اقترب (عبدالرحمن) من تلك المادة الرمادية، وقال لصاحبه مستفهمًا:

- ما هذا يا ابن شعيب؟

- إنها مادة القلية يا صديقي!

رفع (عبدالرحمن) حاجبيه وقال:

- وما هذا الأصفر؟

- إنه الكبريت!

- ومن أين حصلت عليه؟

ابتسم ابن شعيب وهو يقول باعتزاز:

- لقد استخلصته من التربة يا صديقي!

هز (عبدالرحمن) رأسه وقال:

- كيف ذلك؟

- خرجت إلى الجبال ونقّبت فيها لعدة شهور، حتى حصلت على بعض الخام، وقمت بتنقيته بطريقة معينة، حتى حصلت علي الكبريت في النهاية، خالصًا بهذا الشكل كما ترى، وقد استغرقت في تنقيته ثلاثة شهور، حتى صار هكذا.

- مممممم عظيم يا ابن شعيب، ولكن ماذا ستفعل بتلك المواد؟

- سأفعل بها ما يحير العقول، ويغيظ الأعداء.

تنهد (عبدالرحمن) وقال:

- جئنا إلى الأعداء يا ابن شعيب، وهذا ما أتيتك من أجله.

في اهتمام قال ابن شعيب:

- خيرًا يا صديقي ما الأمر؟

اقترب (عبدالرحمن) من ابن شعيب، وقال:

- إن اللعين (فرناندو) يريد (إشبيلية)، ولا أظنه يرضى بغير خروجنا منها، وقد أتيتك يا ابن شعيب لأنك من خيرة أصحابي والمقدّم عندي، وأنا بحاجة إليك، بل إن (إشبيلية) بحاجة إلى كل مخلص لها، غيور على دينه.

تردد ابن شعيب وتلعثم، قبل أن يقول:

- إنني رجل واحد يا (عبدالرحمن)، فلو تركتموني أكمل ما بدأته!

صاح (عبدالرحمن) بلهجة حادة وجادة:

- نعم أنت رجل واحد، ولكن (إشبيلية) اليوم بحاجة لكل واحد، بحاجة إلى حملة السلاح يا ابن شعيب، فلن ينفعها ما تصنع إن هي ضاعت، واحتلها ملك (قشتالة)!!

- أنا أخدمها من مكاني هذا، فثق بكلامي!

ظهر الحزن في وجه (عبدالرحمن) وهز رأسه أسفًا، وقال:

- لا يا ابن شعيب، أنت هنا من أجل نفسك، لا من أجل (إشبيلية).

ثم نهض من مجلسه، ونظر إلى صديقه نظرة عتاب قوية، وقال:

- أنا حزين لك، وحزين ليوم حسبتك فيه شجاعًا وفيًّا مخلصًا لبلدك ودينك، اجلس يا ابن شعيب كالنساء، حتى يأتي إليك ملك (قشتالة) ليخرجك وأهلك منها.

ثم خرج لا ينظر خلفه، بينما جلس ابن شعيب مكانه حزينًا واجمًا.

(٩)

خريف عام ١٢٤٦

قرمونة

حلّ خريف سنة ١٢٤٦ م (أوائل سنة ٦٤٤ هـ)، ووصلت معه حشود القشتاليين إلى قرمونة، الواقعة شرق (إشبيلية)، بينها وبين إستجة خمسة وأربعون ميلا..

وقف (فرناندو) أمام هذه المدينة الأندلسية، ممتطيًا صهوة جواده، وهو فاتح فاه من روعة ما يرى، فأسوار المدينة ليست كغيرها من المدن، فهي قوية التحصين يستحيل اختراقها وثلمها.

نظر (فرناندو) إلى أردونيو في حسرة يخالطها دهشة كبيرة، وقال:

- ما هذا؟ لم أرَ في حياتي مدينة كتلك! كيف شيدوا تلك الأسوار والأبراج؟

ثم نزل من فوق صهوة جواده، وتبعه أردونيو الذي أخرج من جعبته خريطة لقرمونة.... فتح أردونيو الخريطة، وراح يشرح لسيده موقع المدينة، قائلًا:

- المدينة يا سيدي تقع في سفح جبل عالٍ، عليها أسور ضخمة من الحجارة كما ترى، وجنباتها حصينة ممتنعةً علىً المحاربين إلا من جهة المغرب، وارتفاع سورها أربعون حجرًا، وفي هذا السور الغربي برج يعرف بالبرج الأجم، عليه نصبت العرادات استعدادًا للقتال؛ وفي ركنه مما يلي الجوف، بنيان مرتفع على السور يسمى سمرملة، عليه برج للمحاربين، ويتصل بهذا السور خندق عميق جدًا، وترابه مستند إلى السور، وفي السور القبلي موضع فيه صخرة عظيمة منيعة منتصبة كالحائط، يحسر عنها الطرف من علوها، والسور مبني فوقها، وفي هذا السور القبلي باب يعرف بباب يرنى، نسب إلى قرية بإزائه تسمى يرنى، وباب (قرطبة) شرقيه عليه قصبة وأبراج، وباب قلشانة بين الشرق والجوف؛ وأما باب (قرطبة) فطريقه وعر ممتنع، وباب (إشبيلية) غربي، دونه إلى داخل المدينة باب ثانٍ بينهما خمسون ذراعًا.

وضع (فرناندو) يده في خاصرته، ثم استدار جهة أسوار المدينة، وقال:

- هذا يعني استحالة اقتحام المدينة أو ثلم أسوارها، أليس كذلك يا أردونيو؟

- أجل يا سيدي، فمدينة كهذه لا تؤخذ إلا بالحصار والتجويع، المؤدي إلى استسلام من فيها.

تمتم (فرناندو) ثم قال بمكر ودهاء:

- أو بحيلة تدفع أهلها للاستسلام!

مطّ أردونيو شفتيه، ورفع كتفيه إيماء لجهله بتلك الحيلة العجيبة، التي ستجبر أهل المدينة على الاستسلام، ثم قال في نفسه: ما الحيلة التي تدعو أهل مدينة حصينة كتلك إلى الاستسلام؟!!

بعدها أصدر (فرناندو) أوامره بنصب المعسكر تجاه باب المدينة الرئيسي بمسافة تبعد عن مرمى سهام الأعداء المتربصين فوق الأسوار.

أما أردونيو فقد كان يرى عبث محاولات أخذ المدينة إلا بعد حصار طويل، وكان يرى في ذلك تضييعًا للوقت والجهد، ولكنه لم يجرؤ في بادئ الأمر على التحدث في ذلك.

مرت بضعة أيام والأمور كما هي، وأردونيو يمني نفسه بتلك الحيلة، التي ستسقط المدينة بأيديهم، ولكن دون جدوى، عندها قرر أن يتحدث إلى الملك، فدخل عليه خيمته، وكان (فرناندو) منشغلًا بدراسة تلك الخريطة، التي أخذها من أردونيو.

رفع (فرناندو) رأسه ونظر إلى أردونيو، وقال:

- هاتِ ما عندك يا أردونيو، فوجهك يدل عليك

- سيدي لن تسقط هذه المدينة بالقوة، ولكن بالحصار كما قلت.

- ها، وما المشكلة ؟

- أن يمنعنا حصارها عن (إشبيلية) يا مولاي، ناهيك عن احتمالية خروج (شقاق) بجيش (إشبيلية) لحربنا، فنكون وقتها قد وقعنا بين قرمونة وجيش (إشبيلية).

تحرك (فرناندو) في الخيمة، ثم رمق أردونيو بنظرة ماكرة وقال:

- لن يخرج (شقاق) أو غيره، وإن خرج فسيكون لحتفه، فلا تشغلن نفسك بقرار اتخذته يا أردونيو، واعمل على تنفيذ ما أمرتك به، وليكن الحصار قويًّا، فلا يدخل المدينة أو يخرج منها كائن من كان، ولو استطعت منع الهواء عنها فافعل.

امتثل أردونيو لأوامر الملك، وخرج يتابع أمور الحصار، وكان قد مر على إحكامه أربعة أيام بلياليها، ولم يعد للمدينة متنفسًا أو مصدرًا للغذاء غير ما بها من أقوات مخزونة.

مرت الأيام بطيئة ولا جديد داخل قرمونة أو خارجها، والجميع متربص مترقب، وفجأة سمعت جلبة وضجيج، وشوهد غبار خيل قادمة تجاه الجيش القشتالي... سارع أردونيو وأصدر أوامره للجيش، بالاستعداد والتأهب للقتال، ثم ولج إلى خيمة (فرناندو)، وقال له وهو يلهث:

- سيدي جيش يرتدي ملابس عربية يغلب عليها اللون الأحمر قادم نحونا، وقد أمرت الجيش بالتأهب والاستعداد

ابتسم (فرناندو) ابتسامة هادئة وقال:

- إذن لقد وصل؟ أغمدوا سيوفكم فلا خوف من القادم إليكم.

تعجب أردونيو أيّما عجب، وهمّ بسؤال (فرناندو) عن ماهية القادم، ولكن الأخير أشار بيده له أن ينفذ الأمر ولا يطيل النقاش، فخرج أردونيو والحيرة تملأ قلبه ونفسه، وأصدر الأوامر للجيش بإغماد السيوف رضوخا لأوامر الملك، ثم راح يترقب القادم من بعيد وهو حائر النفس مضطرب...

تقدم الجيش واقترب أكثر وأكثر، وازدادت مع اقترابه أصوات حوافر الخيل وصهيلها، وعلت الأتربة والجلبة...

دقق أردونيو النظر، فإذا بالقادم هو صاحب (غرناطة)، (محمد بن الأحمر النصري)، ضرب أردونيو جبهته بعد أن تنفس الصعداء وقال ضاحكًا، وهو ينظر إلى خيمة الملك:

- الآن فهمت، ما أعظمك يا عقرب (قشتالة) وكل أوربا!!

ما إن وصل (محمد بن الأحمر) وجيشه البالغ خمسمائة رجل، حتى بادره أردونيو وقدم له التحية، ثم أخذه إلى حيث الخيمة الملكية الكبرى التي ما إن دخلها (ابن الأحمر) حتى ركع، وقدم التحية لملك (قشتالة) وقبّل يده...

ربت (فرناندو) على كتف (ابن الأحمر)، ثم أعطاه يده ورفعه لأعلى، وقال له:

- لقد تأخرت علينا كثيرًا يا ملك (غرناطة)، حتى كدنا نظنُّ بك الظنون

بسرعة قال (ابن الأحمر):

- لا أتأخر عنك أبدًا يا سيدي، ولكنها الطريق ووعورتها، وإلا لكنت هنا في استقبالك ورجالك حتى قبل أن تصلوا.

هز (فرناندو) رأسه وقال:

- لقد أصبحت يا ملك (غرناطة) حليفنا الأول في شبه الجزيرة، فاحرص على هذا الحلف ولا تنقضه.

وضع (ابن الأحمر) يده على صدره، وقال:

- هذا شرف لي يا سيدي.

تحرك (فرناندو) وملأ كأسين بالخمر، ثم عرض إحداهما على (ابن الأحمر)، فاعتذر الأخير بأنَّ دينه يمنعه عنها! فرفع (فرناندو) الكأس الثانية وتجرعها مرة واحدة، وهو يقول:

- إنّ هذه الحرب القادمة لهي فرصة لك، كي تثبت ولاءك (لقشتالة) ولحليفك الجديد!

مبتسمًا قال (ابن الأحمر):

- سيجد مولاي مني ما يحب ويرضى.

ثم تبادل (ابن الأحمر) الابتسامات مع سيده الجديد، ثم أمر (فرناندو):

- لتكن خيمة ملك (غرناطة) بجوار خيمتي.

فنُصبت له خيمة بجوار خيمة ملك (قشتالة)، تم تزيينها بصلبان على أقمشتها، بعدها سمُح (لابن الأحمر) بالولوج إليها للراحة، أما فرسانه الخمسمائة فتم وضعهم في أطراف المعسكر، وراحوا يتدربون مع فرسان (قشتالة) استعدادًا لما هو آت.

أما أردونيو فقد خرج من الخيمة مذهولاً، وهو يقول في نفسه:

- عجيب أمر هؤلاء المسلمين، يحرّمون الخمر، ولكنهم لا يحرّمون الخيانة وقتال بعضهم البعض!

(١٠)

أمام قلعة جابر

في خيمته انفرد (محمد بن الأحمر) بنفسه، فخلع نعليه ونام على سرير خيمته، ثم نظر إلى أعلى، وراح يفكر في أمر أمته، وهو يقول في نفسه:

- كيف وضعت نفسي في هذا الموضع المشين؟ ما الذي يحدث؟ كيف لسليل الأنصار أن يفعل هذا؟ ماذا ستقول يا محمد لأحفادك وأولادك؟ هل ستقول لهم إنك شاركت بجيشك في القضاء على بلد مسلم؟ إنّ هذا لم يحدث مذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً!

زفر بحسرة ثم استطرد وقال:

- أجل، خان من خان، ونكث من نكث، لكن لم يحدث أن شارك جيش مسلم بجوار جيش نصراني في الحرب على المسلمين، لم يحدث، لم يحدث.

ثم نهض بعد أن أقض تأنيب الضمير مضجعه، واتكأ على ذراعه، وقد تصبب عرقه، ثم أمسك بكوب ماء عساه يطفأ نارًا شبت في أضلعه. لم يُجّد الماء في إخماد النيران المتقدة في خاطر ابن الأحمر، فراح يبحث عن سيول من المبررات يفتحها على تلك النيران لعلها تخمدها، فقال لنفسه:

- أنا أوالي النصارى اليوم لأحاربهم غدًا ثم استدار للجهة الأخرى وتابع قائلًا: وفرضًا أني لم أحارب إلى جانب ملك قشتالة، هل ستنجو هذه الحاضرة من قبضته؟ ، وأسرع بجواب نفسه: قطعا لا، إشبيلية ساقطة لا محالة، فإن كانت كذلك فلا غرو أن أستفيد من هذا السقوط وأجني من ورائه بعض المكاسب.

وهكذا أقنع (ابن الأحمر) نفسه، بأنه لم يُسقط الساقط، بل حافظ على بعضه!

ثم عاد الرجل إلى سريره، ومدد جسده وأسلم نفسه للنوم، وفي الصباح استيقظ ليصلي الفجر كما تعود في وقته، فتوضأ وأقام وصلى، وبعدها جلس في مكان سجوده يرتب أفكاره ويقنع نفسه أن ما يفعله الآن هو الحفاظ على (غرناطة) من الضياع، كما أنّ أهل (إشبيلية) خانوه من قبل، يوم أن أخرجوه من بينهم وحاربوه وقدموا عليه (ابن الجد)، لذا فقد أعذر إليهم، ولأنّ قرمونة تابعة (لإشبيلية)، فقد حقّ عليها القول، وسيعذر (ابن الأحمر) أن عاون عليها!

تسربت أشعة الشمس إلى داخل خيمة ملك (غرناطة)، فقد مرّ الوقت وهو يتدبر ويفكر، ومع دخول أول شعاع من أشعة الشمس، وقف حارس أمام خيمته وراح يقول:

- سيدي ملك (غرناطة)... سيدي ملك (غرناطة)

التفت (ابن الأحمر) إلى يمينه، ثم نهض ورفع باب الخيمة، ليجد حارسًا من حراس الملك (فرناندو) فقال له:

- ما بك؟

- يخبرك مولاي الملك أنه ينتظرك للمثول أمامه في التوّ واللحظة.

انصرف الحارس، وارتدى (ابن الأحمر) زيّه العسكري، وخرج من خيمته إلى حيث خيمة ملك (قشتالة) الذي رحب به، ثم دعاه إلى أن يشاركه طعام الإفطار، فتقدم (ابن الأحمر) وتناول طعامه مع الملك، وفور انتهاء الطعام، تحدث (فرناندو) فقال:

- هيا يا ملك (غرناطة)، فالقادة ينتظروننا...

- هيا.

ثم تحرك خارجًا من خيمته، ليتبعه (ابن الأحمر)، وسار الاثنان حتى دخلا خيمة، وضع في وسطها منضدة كبيرة، حولها كراسي عديدة... جلس (فرناندو) في طرف المائدة، وعن يمينه أردونيو، وعن يساره بلاي كوريا قائد جنود شنت ياقب، بينما جلس (ابن الأحمر) في المنتصف، و جلس الكاردينال ماغنوس مقابل الملك...

بدأ الملك وقادته في دراسة ما يجب عليهم فعله، إزاء قرمونة الحصينة، وكان (فرناندو) أول المتحدثين إذ قال:

- لقد أحكمت قرمونة إيصاد أبوابها، ولا فائدة من محاولة اقتحامها عنوة، فما الرأي عندكم؟

أبدى أردونيو رأيه الرامي إلى عزل قرمونة فقال:

- أرى يا سيدي أن نبعث بقواتنا، تغير على القرى المجاورة، وتضمها إلى (قشتالة)، وتبث الرعب في قلوب المسلمين بها، فنكون بذلك قد قطعنا أوصال قرمونة، وعزلناها عن سائر ما حولها.

حبذ الملك (فرناندو) خطة قائد جيوشه قائلًا:

- هذا ما أفكر فيه يا أردونيو، إذ يجب علينا استغلال الوقت وتوزيع الجهد، حتى نشغل المسلمين عن التفكير في الهجوم علينا من جهة، ومن جهة أخرى حتى ندمر حصون (إشبيلية) الأمامية، ونسري عن جنودنا بنسائهم وأموالهم.

برقت عينا (ابن الأحمر) وردد في نفسه:

- (إشبيلية)!!

ولكنه عاد بسرعة مخافة أن ينتبه لوجومه أحد!

بارك الكاردينال ماغنوس الخطة، واستحسن رأي الملك وقائد الجيوش فقال:

- نعم الرأي، إذ يجب علينا أن نعاقب هؤلاء، ونشتتهم بما فعلوا، ولا ندع لهم مجالًا للراحة.

رمق (فرناندو) (ابن الأحمر) بنظره ماكرة، وقال بدهاء:

- وماذا يقول ملك (غرناطة) في هذا؟

اضطرب (ابن الأحمر) ثم تنحنح وقال:

- إنما أنا جزء منكم يا سيدي، تبع لكم فيما تقررونه.

ابتسم (فرناندو) ابتسامة غامضة، ثم قال وهو يشير بيده:

- هذا ما أظنه بك...

ثم نظر إلى أردونيو وقال:

- ستخرج يا أردونيو بفرقة كبيرة من الجيش ومعك ملك (غرناطة) وتتجهان إلى قلعة جابر وهي كما تعلمون حصن (إشبيلية) الشرقي، فأخضعوها (لقشتالة)، ولا تعودوا قبل أن تضعوا بها حامية قشتالية، أما أنت يا كوريا فقُد جنودك وتحرك بهم واعبر نهر الوادي الكبير، واعبث في فحص الشرف الممتد أمام (إشبيلية).

أومأ القادة بموافقتهم على هذه الخطة، واستحسنها الكاردينال ماغنوس، ثم اتبع (فرناندو) فقال:

- وعلى من ينتهي منكم من عمله أولًا، أن يتجه إلى فحص شريش فيخضعه لنا.

وفور انتهائه، أشار (فرناندو) بكلتا يديه لقادته ومنهم (ابن الأحمر)، فانطلقوا كل إلى فرقته ورجاله، وخرجوا جميعًا ابتغاء إنجاز مهامهم.

انطلق (ابن الأحمر) وفرسانه الخمسمائة، ومعه أردونيو تجاه قلعة جابر الحصينة، بينما اتجه بلاي كوريا بجنوده إلى فحص الشرف، وجلس (فرناندو) ببقية جيشه يتابع حصار قرمونة، ويتغزل في أسوارها العظيمة، وهو يرمق بنظراته الحادة تلك العمائم التي تقبع فوق الأسوار، مستعدة للذود عنها، ويتوق للانتقام منهم، لتعطيلهم حركته بصمودهم العجيب.

كان (ابن الأحمر) يعلم حجم المهمة الثقيلة الملقاة على عاتقه، بتحالفه مع القشتاليين، ورغم تبريره لنفسه، فقد عاودته الأسئلة مرة أخرى، ولم يستطع إخمادها فوجم، بينما يتحرك بجيشه تجاه قلعة جابر وبجانبه أردونيو، الذي لاحظ وجومه فقال له بعد أن رمقه بنظرة ماكرة:

- ما الأمر يا ملك (غرناطة)؟ ما لي أراك واجمًا؟

التفت (ابن الأحمر) تجاه أردونيو، محاولًا أن يتكلف الابتسامة ثم قال:

- لا شيء أيها الأمير، سوى التفكير في كيفية النجاح، فيما نحن مقبلين عليه من حروب.

تكلف أردونيو الابتسامة أيضًا وقال:

- أرجو ذلك أيها الملك.

تابع الجيش تقدمه حتى وصل إلى قلعة جابر، التي سارعت بإغلاق أبوابها، أما أردونيو فقد هاله ضخامة أسوار القلعة، فلم يستطع إلا أن يصيح وهو ينظر إلى الأسوار:

- اللعنة... أنترك قرمونة في الخلف عاجزين عنها، لنجد (قلعة جابر) التي تشبهها؟!

بتشفٍّ مخفي قال (ابن الأحمر):

- هوّن عليك أيها الأمير، فقرمونة لا تقارن بغيرها!

قال أردونيو في حنق ظاهر:

- ولكن كلاهما صعب المنال يا صديقي!

تحدث (ابن الأحمر) وكأنه يكمل حديث أردونيو، فقال:

- غير أنَّ (قلعة جابر) صغيرة، سهلة التطويق لن تصبر على حصار! أليس كذلك؟

تمتم أردونيو وسأل:

- حقًّا يا ملك (غرناطة)؟

- أجل أيها الأمير.

- إذن لنطوقها فورًا.

نزل ابن الأحمر عن صهوة جواده، وتبعه أردونيو وأخذ ابن الأحمر يتلكأ في مشيته ويرمع برأسه، فقال له أردونيو:

- هل بدا لك شيء آخر أيها الملك؟

- اسمع أيها الأمير، قبل أن تضرب الحصار على القلعة يجب أن نتفق على أمر مهم.

أغلق أردونيو نصف عينيه مركزًا بصره على (ابن الأحمر) وقال:

- ما هو؟

- بينما تقوم أنت وقواتك بمحاصرة القلعة، أتأخر أنا وقواتي، وبعد يومين من الحصار أظهر وأتقدم وأدخل المدينة مدّعيًا محاولتي إنقاذها... وستسارع القلعة قطعًا بفتح أبوابها.

رمق أردونيو (ابن الأحمر) بنظرة ريب، ففهمها الأخير واستطرد قائلًا:

- بعد أن أدخل القلعة، سأعمل على إقناع أهلها بوجوب الاستسلام.

تمتم أردونيو وقال:

- لماذا لا تقنعهم بالتسليم الآن، بدون أن تفعل ما أشرت به؟

ابتسم (ابن الأحمر) وقال في هدوء وحكمة:

- إن فعلت الآن فحتما سأفشل.

- لماذا؟

- لأنهم سيتعاملون معي كخائن لهم عميل لكم، أما في حالة تقدمي كمغيث لهم سيختلف الأمر، وسيتعاملون معي من منطلق خوفي عليهم.

تمتم أردونيو وهزّ رأسه ثم صمت لحظة، قال بعدها:

- لكن لماذا تفعل هذا وقد دخلت القلعة بقواتك؟ أقصد إن دخلتها فلماذا لا تجبرهم على فتح الأبواب لنا؟

تحرك (محمد بن الأحمر) يمينًا ويسارًا، ثم نظر إلى الجبل القريب المطل علي القلعة وقال:

- لو فلعت ذلك سينتشر الخبر، ويعدني المسلمون في كل الجزيرة خائنًا لهم، فلا يكون لكلامي ثمة تأثير عليهم بعد ذلك، وأفقد ميزة مهمة ربما نحتاجها في القريب العاجل.

- أصبت في هذه، ولكن لماذا تنتظر يومين بينما يمكن تنفيذ دخولك الآن؟

- أهل القلعة يعلمون أن المسافة بينهم وبين (غرناطة) مسيرة يومين، فكيف أصل لهم منقذًا قبل هذين اليومين؟

أومأ أردونيو بالرضا بعد أن فكر في الأمر جيدًا، وقال في نفسه:

- ليس أمامي سوى أن أوافق على رأيه، فإن صدق سيضمن لي ذلك الانتهاء السريع من أمر هذه القلعة، ومن ثم أتبعها بفحص شريش، وبهذا أتفوق على بلاي كوريا قائد فرسان شنت ياقب، الذي يظنّ أنه أفضل فرسان

وقادة (قشتالة)! وأيضًا فإنّ (محمد بن الأحمر) لا يملك إلا الوفاء بوعده، فإن حنث به فما أسهل أن أحاصره مع المحاصرين، ثم أرسل إلى الملك (فرناندو)، أخبره بما حدث ليرسل لي المزيد من القوات.

(١١)

وتنفيذًا للخطة الموضوعة فقد تقدم أردونيو بقواته، وحاصر قلعة جابر من كل الجهات، ماعدا الجهة الغربية منها، فقد تركها (لابن الأحمر) حتى يجوز بقواته منها إلى داخل القلعة!! وبالفعل تم الأمر كما هو مرتب له، ودخل (ابن الأحمر) قلعة جابر التي أغلقت دونه أبوابها، بينما اصطنع أردونيو التفاجأ بالأمر، فأكمل تطويق القلعة من جهتها الغربية، بعد ولوج (ابن الأحمر).

وفي داخل القلعة راح (محمد بن الأحمر) يتفقد أبواب القلعة وأسوارها، مظهرًا حرصه علي القلعة وسلامتها، يرافقه في تفقدها صاحب القلعة وبعض الفرسان، وتم توزيع جنود (ابن الأحمر) على كل الأسوار ليساهموا في حفظها، ثم أصدر أوامره باقتناص كل من يقترب من أسوار القلعة.

ابتهج أهل الحصن بما حدث ورأوه بشير خير لهم، وهبة من الله لإنقاذهم، بل ورأوا أن (ابن الأحمر) هو أمير الأندلس على حق، وهو خير أمراء تلك البلاد، فهو الوحيد الذي هبّ لنجدتهم، بينما (شقاق) صاحب (إشبيلية) والمسؤول عنهم، لم يُسمع له صوتٌ.

راح (ابن الأحمر) يبث في أهل القلعة روح المقاومة، مذكرًا إياهم بحصانة قلعتهم وقوتها واستحالة اقتحامها، فاستبشر أهلها خيرًا وكأنهم تمكنوا من طرد جيش (قشتالة)!

التفّ الناس في الحصن حول (ابن الأحمر)، فراح يوزعهم على أسوار القلعة وأبراجها، وبعد أيّام من تواجده معهم، راح يتفقد مخازن الحبوب والغذاء، وهناك تصّنع الحيرة والاهتمام الشديد، فأثار بذلك إعجاب صاحب القلعة الذي قال:

- ما الأمر يا سيدي؟

زفر (محمد بن الأحمر) زفرة حارة، ورفع وجهه للأعلى قبل أن يقول:

- هل هذه كل الحبوب والغلال؟

- أجل يا سيدي

يُظهر (محمد بن الأحمر) حالة من عدم الرضا، ويقول بعدها:

- لا غالب إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

- ما الأمر يا سيدي؟ لقد أثرت اهتمامي وخوفي!

أظهر (ابن الأحمر) الضجر لما شاهد، وخرج من مخازن الحبوب لا يلوي على أحد، وتبعه صاحب القلعة وهو في حيرة شديدة من أمره، لا يعلم ماذا أصاب (ابن الأحمر)، حتى إذا دخل الاثنان قصر القلعة، قال (محمد بن الأحمر) في اهتمام شديد:

- إنّ هذه الأقوات لن تكفي أهل الحصن، إلا أيامًا معدودة فقط.

وجم صاحب القلعة وصمت قبل أن يقول:

- فما العمل يا سيدي؟

سكت (محمد بن الأحمر) لبرهة، ثم تحرك في صمت، واتجه ناحية أحد السواري وضربه بيده، ثم نظر خلفه وقال لصاحب القلعة:

- اتبعني!

وصعد الاثنان إلى أحد الأبراج المطلة على جيش أردونيو، وهناك تحدث (محمد بن الأحمر) فقال:

- انظر إليهم!!

وأشار بيده، ثم استطرد قائلًا:

- إنّ أعدادهم غفيرة!

نظر صاحب القلعة صوب الجيش المرابط خارج الأسوار، وهو حائرٌ لا يدرى ماذا يحدث. وتابع (ابن الأحمر) حديثه:

- نستطيع الخروج إليهم وقتالهم، ولكن لن نستطيع هزيمتهم فهم أكثر منا عددًا وعُدة.

ثم تنهد قائلًا:

- إنني لا أهاب الموت، ولكن إن نحن خرجنا لقتال هؤلاء ولم ننل منهم، فسوف يقتحمون علينا القلعة بعد أن تنفد أقواتها، وحينها سيمثلون بنا ويقتلوننا شرّ قتلة.

وجم صاحب القلعة أكثر من ذي قبل، وأظهر فرط حزنه، والتزم الصمت إذ لم يجد ما يقوله، فأكمل (ابن الأحمر) حديثه، وقال:

- حتى وإن اقتحموا القلعة فمرحبًا بالشهادة، غير أنهم سيفتكون بالأطفال، ويسبون النساء وهذا ما يزعجني ويؤرقني!!

بهت صاحب القلعة وبدأ يفكر في حل لما يحدث وما يجري، وكأنّ القشتاليين بالفعل قد اقتحموا المدينة، وراح يقول في اهتمام:

- فما الحلّ يا سيدي؟

هز (ابن الأحمر) رأسه يمينًا ويسارًا، قبل أن يقول في خبث ودهاء:

- أخشى أن لا حل سوى التسليم حفظًا للنساء والأطفال، والأمر إليكم فانظروا ماذا تريدون وأنا معكم، فإن أردتم القتال كنت معكم، أدافع عنكم أو أموت دونكم، وإن أردتم التسليم سعيت لكم في أفضل الشروط وأحسنها.

هبط (ابن الأحمر) من أعلى البرج، ودخل صاحب القلعة في صمت رهيب، وراح بصره يتردد بين جنبات القلعة وقلبه زائغ ونفسه مضطربة، حتى إذا وقعت عيناه الممتلئتان بالدموع على أطفال يلهون في وسط القلعة، ذرفت منه الدموع ثم قال:

- افعل ما تراه يا سيدي فنحن لك تبع، وقد علمنا حرصك علينا فلن نخرج عما أردته لنا.

أظهر (ابن الأحمر) الحزن في وجهه، حتى كادت الدموع أن تذرف من عينيه وقال:

- لولا نساء القلعة وأطفالها، لفضلت الموت تحت أسوارها على أن أسلمها هكذا، ولكن لا رادّ لقضاء الله!

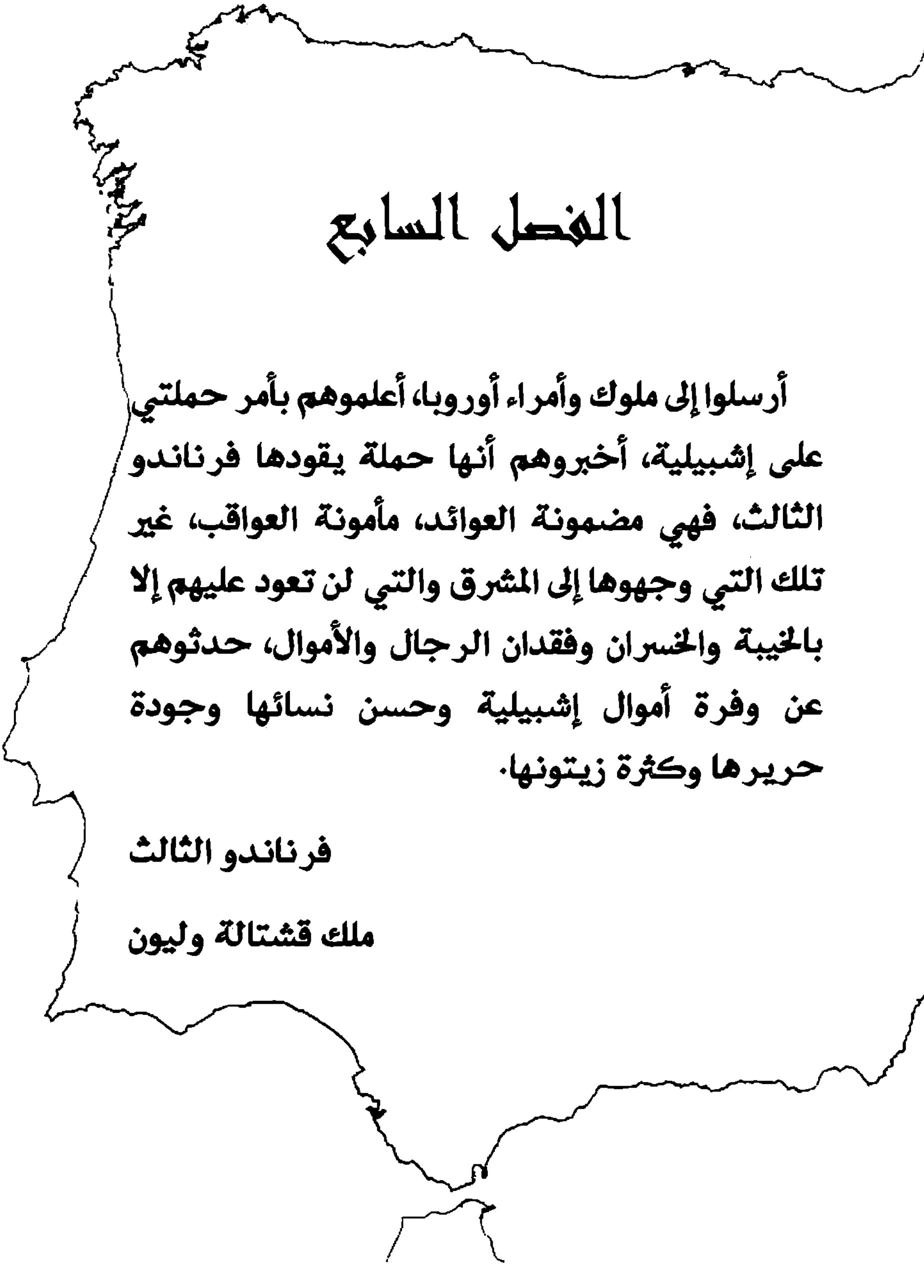

الفصل السابع

أرسلوا إلى ملوك وأمراء أوروبا، أعلموهم بأمر حملتي على إشبيلية، أخبروهم أنها حملة يقودها فرناندو الثالث، فهي مضمونة العوائد، مأمونة العواقب، غير تلك التي وجهوها إلى المشرق والتي لن تعود عليهم إلا بالخيبة والخسران وفقدان الرجال والأموال، حدثوهم عن وفرة أموال إشبيلية وحسن نسائها وجودة حريرها وكثرة زيتونها.

فرناندو الثالث

ملك قشتالة وليون

(١)

داخل (إشبيلية)

كانت سحب السماء تخفي وراءها شمسًا لم تظهر منذ أيام، ولونًا أسود ينبئ عن مطر شديد قادم، في ظل شتاء منخفض الحرارة، ما أجبر الكثيرين من أهل (إشبيلية) على ارتداء الثياب الثقيلة التي أخفت معالمهم...

فجأة أرعدت وأبرقت، وتبع ذلك هطول أمطار غزيرة غير معهودة، لترتطم قطرات الماء مع تراب (إشبيلية) فتسكنه، ومع مياه الوادي الكبير فيفيض بها... اهتزت أوراق الشجر، وتراقصت تحت قطرات المطر، ومع الوقت انفض أهل (إشبيلية)، وخلت الشوارع منهم، إلا من بعض الصبيان يلعبون هنا وهناك، ويستمتعون بهذا المشهد الجميل، ولا يبالون باتساخ ثيابهم وأجسادهم.

وفي هذا الجو وقف (شقاق) لا ليستمتع به، أو يلهو كما كان يفعل عندما كان طفلًا صغيرًا، بل ليراقب الطريق الواصل بين قرمونة و(إشبيلية)، وهو يدعو الله بالسلامة للمدينة وأهلها، ولا يعبأ ببلل ملابسه، أو البرد الشديد الذي يضرب أوصاله، وإذا بأحد الحراس يقترب منه، والماء يقطر من وجهه ولحيته، ويقول له:

- قد أطلت الوقوف يا سيدي، فهلم لتستريح قليلًا وسأتولى الوقوف مكانك.

نظر (شقاق) إلى الحارس بوجه حزين، وقال:

- ليت الراحة في الجلوس هنا وهناك، إنما هي راحة النفس والفؤاد، فاذهب أنت، وإن احتجتك أرسلت إليك.

أومأ الحارس منفذًا أوامر (شقاق)... ومع مرور الوقت اشتد المطر أكثر من ذي قبل، وكلما مر الوقت زادت حيرة (شقاق) وراح يقول في نفسه:

- ما الذي أخره كل هذا الوقت؟ هل سقطت قرمونة واستسلمت؟ ما الذي حدث لقلعة جابر؟

ثم ضرب بيده على السور وقال:

- تبًا لأخبار لم تأتِ بعد...

بدا الضجر واضحًا على (شقاق)، ومع مرور الوقت أصابه اليأس، ونزل من البرج ليتابع أخبار (إشبيلية)، بعد أن يئس من أخبار حصونها الأمامية... ابتعد (شقاق) عن السور، وبينما هو كذلك إذا بصوت مرتفع ينادي ويقول:

- سيدي سيدي...

التفت (شقاق) خلفه، فوجد الحارس يقول في سعادة كبيرة:

- لقد وصل يا سيدي... لقد وصل يا سيدي.

ثم أشار بيده واستطرد قائلًا:

- ها هو يقترب بفرسه من أسوار (إشبيلية).

تبدلت ملامح (شقاق)، وتسمرت قدماه، وقال في نفسه:

- أخيرًا يا عبدالرحمن!

ثم ارتد متجهًا مرة أخرى جهة الأسوار، وبخطوات سريعة وصل إلى حيث الحارس وهو يقول:

- أمتأكد أنت يا رجل؟

- أجل يا سيدي.

نظر (شقاق) وتيقن من الأمر، فبرقت عيناه وابتهج، وانفرجت شفتاه أخيرًا عن ابتسامة كانت قد فارقته منذ أيام، و نادى بصوت مرتفع وهو يتجه ببصره ناحية باب المدينة:

- افتحوا الباب... افتحوا الباب.

هبّ الحرس تجاه الباب، وبصعوبة بالغة رفعوا أقفاله، ليفتحوا الباب الذي أحدث فتحه صوتًا عاليًا.

وإذا بصوت حوافر الفرس القادم تقترب وتقترب، حتى ولجت من باب (إشبيلية)، وفور دخوله توقف الفارس ونزل عن متن حصانه، واتجه صوب (شقاق) ليحتضنه بقوه، بعدها وضع (شقاق) يديه على كتف (عبدالرحمن) وهو يقول:

- لقد خشيت أن لا تعود يا (عبدالرحمن)!

ابتسم (عبدالرحمن) وقال:

- لم يكن ليمنعني من العودة سوى الموت يا سيدي.

بصوت متلهف قال (شقاق):

- الحمد لله على سلامتك يا رجل....

ثم ربت على كتف صاحبه، ويمم الاثنان شطر قصر شقاق القريب من المسجد الجامع. وما إن ولج الرجلان البيت حتى صاح شقاق أن أعدوا الطعام للعائد، فوُضعَت المائدة، وجلسا يتناولان طعامهما، وهما يتحدثان عما كان في أطراف إشبيلية من حوادث، وسأل شقاق في تلهف:

- أخبرني يا (عبدالرحمن) ما الأخبار هل سقطت قرمونة؟

قالها وهو يتمنى في قرارة نفسه أن ينفي (عبدالرحمن) الخبر لا أن يثبته.

تناول (عبدالرحمن) كوبًا من الماء، وشربه قبل أن يحمد الله وينهض، ليقول:

- اطمئن يا سيدي، فقد رفع اللعين حصاره، وارتدّ من حيث أتى.

نهض (شقاق) أيضًا وتحرك الخدم لرفع الصحائف، بينما تقدم أحدهم بدورق مياه، ليغسل (عبدالرحمن) و(شقاق) أيديهما، وإذا (بشقاق) يقول:

- أحقًا يا عبدالرحمن؟!

- أجل يا سيدي.

عاد (شقاق) إلى مخدعه وبجواره (عبدالرحمن)، فقال (شقاق) مندهشًا:

- رفع الحصار...! ما الذي حمله على ذلك؟

رنا (عبدالرحمن) ببصره وكأنه يتذكر الأحداث ثم قال:

- بعدما نجحت قواته في احتلال حصن قلعة جابر وبينما يتأهب لتخريب بسائط (إشبيلية)، إذ وافته الأخبار بهلاك أمه، وكان قد تركها مريضة طريحة الفراش، فأمر باختتام الغزو من فوره، وقفل عائدًا إلى (طليطلة).

أخذ (شقاق) نفسًا عميقًا حمد الله بعده، ثم قال:

- وماذا فعل الخائن صاحب (غرناطة)؟

- بعد نجاحه في خداع صاحب حصن قلعة جابر، عاد مزهّوا إلى (فرناندو)، لكن واكبت عودته خبر هلاك أم (فرناندو)، فلم يحظ بما أراده من التكريم من ملك (قشتالة)، الذي أنساه حزنه على أمه كل شيء، فصرف ملك (غرناطة) في قواته وقفل عائدًا إلى (طليطلة).

نهض (شقاق) من مكانه، وصبّ قليلًا من عصير التوت، وأعطى (عبدالرحمن) كوبًا منه وأخذ كوبًا لنفسه، ثم قال:

- إن كان قد نجح في خداع صاحب حصن قلعة جابر، فأين سيذهب من الله؟

ارتشف (عبدالرحمن) قليلًا من عصير التوت، قبل أن يقول :

- هؤلاء لا يفكرون بهذه الطريقة سيدي، وإلا ما تجرأ أحدهم على أن يفعل ما فعل.

- صدقت والله يا (عبدالرحمن)

(٢)

دفن برنغيلا

ابتهجت (إشبيلية) كلها، وتنفست الصعداء، فقد زال الخطر وراح، أما (فرناندو) فقد سيطر الحزن على قلبه، فالتزم الصمت واجمًا طوال عودته قافلاً تجاه (طليطلة)، تلك المدينة التي خلت من أمه الملكة برنغيلا، التي كانت له سندًا في هذه الدنيا، فهي من علمته كيف يكون ملكًا حازمًا قويًّا لا يهاب الموت، وهي من زرعت في قلبه كراهية العرب والمسلمين في تلك الجزيرة.

سار (فرناندو) بحصانه، وخلفه جيشه العائد من (إشبيلية)، وهو يضطرب بأفكاره وذكرياته عن أمه الملكة، تذكر تلك الأيام التي تولت أمه فيها أمر (قشتالة)، قبل أن تتنازل له عن العرش، ويصير ملكًا تحت وصايتها، بينما حاول والده (ألفونسو التاسع) ملك ليون وقتها أن ينتزع أمر (قشتالة) منه، فوقفت له برنغيلا بالمرصاد، تذكر كيف كانت أمه تبث فيه روح الكراهية للمسلمين، وهي لا تفتأ تذكره بجده العظيم (ألفونسو الثامن)، صاحب (لاس نافاس دي تولوسا) التي يسميها العرب العقاب، وكيف انتقم لهزيمة (الأرك) بذبح المسلمين في تلك المعركة الرهيبة.

أغمض (فرناندو) عينيه للحظات قبل أن يتأوه، ويقول:

- آه يا أماه...!!

ثم انثالت دموعه رغمًا عنه، وتقاطرت حزنًا على فقدان أمه.

حثّ (فرناندو) خطاه متجهًا صوب (طليطلة)، فوصلها قبل أن يُسجّى جسد أمه ويوارى في الثرى، وبمجرد وصوله ذهب إلى الكنيسة لينخرط في بكاء شديد، بينما الشموع تضئ المكان من حوله.

مر بعض الوقت قبل أن يقترب الأب ماغنوس منه، ويضع يده على كتفه ويقول له بصوت حزين، ووجه عبوس:

- إن الأبرار سينعمون بالحياة الأبدية، حيث ينعمون بما لم ترَ عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على بال إنسان. هذا ما أعده الرب للذين يحبونه فلا تحزن يا بني.

بعيون دامعة نظر (فرناندو) إلى الأب ماغنوس، فربت الثاني على كتفه وأومأ بعينه، ثم قال له:

- والآن يجب أن ندفن الملكة.

مسح (فرناندو) دموعه وقال:

- لن تدفن أمي هنا أيها الأب!

- فأين إذن؟

- ستدفن في دير (سانتا ماريا لا ريال دي لاس هولغاس) حسب وصيتها.

تمتم ماغنوس قائلًا:

- إذن يجب تنفيذ الوصية وبسرعة.

وبأمر من (فرناندو) تم نقل جثمان الملكة إلى حيث الدير، وهناك تم حفر القبر، وغسل جسد الملكة كاملًا، وتم إلباسها قَبل الدفن أفضل الملابس، وعطر جثمانها بالروائح الطيِّبة، ثم تمت الصلاة عليها وطلب الغفران لروحها، ثم قام الكاهن بعد ذلك برش الماء المقدس على التابوت، ودفنت الملكة الأم حيث أرادت وأوصت.

(٣)

أحزان (مريم)

لازمت (مريم) الفراش بعد أن شحب وجهها وذبل جسدها ووهنت قواها، فلم تعد تقوى على النهوض وقد أنهكها المرض، ولم تدر أمها أي علة طالتها أو نزلت بها، فطلبت لها الدواء والأطبّاء فلم يجدوا لها علاجًا مما أصابها، ولم تُفصح (مريم) عن ألم بها، بل التزمت الصمت في حضرة كل من زارها، فما فائدة الحديث باللسانٍ، وقد غاب القلب بالكلية مع من يملك القلب، وما لذة سماع الحديث وقد فُقد من يقول أجمله! ولم تعد تنطق ولو بكلمة، بل امتنعت حتى عن الطعام والشراب، بعد أن فقدت لذته. فلم تعد تأكل إلا بقدر محدود، وكأنها تستعجل نهايتها ووفاتها.

وبأمر من سيدة البيت لازمت (قمر) سيدتها، وأصبحت شغلها الشاغل، فلم تعد (قمر) تشارك في عمل البيت كباقي الجواري، أو تفعل شيئًا إلا ملازمة سيدتها. انقضى اليوم كغيره من الأيام وأغلقت (قمر) الباب وانفردت (بمريم)، تحاول إخراجها مما هي فيه والتسرية عنها، و(مريم) تقول بصوت ضعيف مسموع:

- أبعد كل هذا الحب يا (زيد) تتركني وحيدة؟ كيف هانت عليك (مريم) فتركتها هكذا طريحة الفراش؟ لا فرق عندها بين الموت والحياة وبين الليل والنهار؟

قاطعت (قمر) سيدتها وقالت:

- ليس (زيد) بالذي يفعل يا (مريم)، ليس من كاد يموت من أجلك أن يسلوك.

رفعت (مريم) وجهها ودموعها تملأ عينيها، وقالت:

- فلماذا فعل؟ وأين هو مني وقد أصبحت حرة؟

- أكاد أجزم يا سيدتي أنه لا يعرف، وإلا لتقدم فورًا لخطبتك.

ارتسم البشر على وجه (مريم) بتلك الكلمة، وبرقت عيناها ونظرت إلى (قمر) وكأنّ شيئًا من الحياة لامس محياها، وقالت:

- أحقًّا..؟ أحقًّا يا (مريم) لن يسلوني أو ينساني؟

- مَن أحب حبًّا كهذا لا ينساه ولا يسلوه أبدًا.

عاد الحزن إلى وجه (مريم)، وقالت:

- فلماذا لم يأت يا (قمر)؟ لماذا لا يأتي ويرد إليّ قلبي الذي سلبه مني؟ وروحي التائهةَ التي تبحث عنه؟

ثم بكت مرة أخرى.

- يا حبيبتي! غدًا سأحاول مرة أخرى فلعلي أصل إلى خبره.

مسحت (مريم) دموعها وقالت:

- هل ستذهبين إلى دكانه مرة أخرى؟

- لا يا حبيبتي فالدكان مغلق منذ وقت ليس بقصير، وما أظنّ (زيدًا) سيعيد فتحه مرة أخرى، وإلا لوصل خبر ذلك إلى جيرانه في السوق، ولعلمت وقتها أين هو.

- إذن لماذا لا تسألين جيرانه عن مكان بيته وتذهبين إليه...؟ أرجوكِ يا (قمر) افعلي ذلك من أجلي!!

ثم غرقت مريم في البكاء، فاحتضنتها قمر وقبلت رأسها وهي تقول:

- لقد فعلت يا حبيبتي وذهبت فعلًا إلى داره فوجدته قد باعها، وانتقل وأمه إلى مكان لا أحد من جيرانه يعلمه.

- يا حسرة قلبي، ليتني مت قبل هذا.. فكيف ستصلين إليه وكيف يعلم بخبري؟

- لا تبكي أرجوكِ...

- لقد ذهب (زيد) بلا رجعة يا (قمر)!!

ثم عادت تبكي

- لم يفعل، لم يفعل فاطمئني، وغدًا سألتقي أحد أصحابه ليدلني عليه، فقد علمت أنّ (عبدالرحمن) مستشار الأمير (شقاق) على صحبة معه، وما أظنّ أنّ رجلًا (كعبدالرحمن) سيخفي عليه أمر صديقه.

- أتمنى أن تفعلي، بل وأرجوك!

ثم قعدت وبنظرات عين تائهة، تردد وكأنها تخاطب أحدًا غير موجود، وتقول:

يقول لي الطبيب بغير علم
تداو فأنت يا هذا عليل
ودائي ليس يدريه سوائي
ورب قادر ملك جليل
أأكتمه ويكشفه شهيق
يلازمني وإطراق طويل
ووجه شاهدات الحزن فيه
وجسم كالخيال ضن نحيل
وأثبت ما يكون الأمر يومًا
بلا شك إذا صح الدليل
فقلت له: أبنْ عني قليلا
فلا والله تعرف ما تقول
فقال: أرى نحولا زاد جدًا
وعلتك التي تشكو ذبول
فقلت له: الذبول تعل منه الـ
جوارح وهي حمى تستحيل
وما أشكو لعمر الله حمى
وإن الحر في جسمي قليل

(٤)
عزلة العقرب

مر شهر ديسمبر من سنة ١٢٤٦ ودخل العام الجديد، و(فرناندو) غارق في أحزانه على وفاة أمه، لم يغادر غرفتها لأكثر من شهر ونصف من الزمان، عاشها في حداد دائم، تاركًا أمور الدولة لولى عهده، وقد بدا الشحوب والضعف يسرى في أوصاله، وزوجته الملكة (خوانا) لا تنفك تواسيه، راجية أن تزيح أحزانه وهمومه، إذ دخلت عليه هذه المرة، وجلست بين يديه، وقد قررت أن تبذل ما في وسعها، ولا تترك الملك لحزنه كما حدث من قبل، فإما أن يخرج ويعود لحياته، أو تدخل هي معه في عزلته!

لم يلتفت (فرناندو) إلى زوجته، وهي تقول:

- سيدي الملك، لقد مر شهر ونصف ولم تغادر هذا المكان ولم تلتقِ أحدًا، فإلى متى تظل سجين حزنك وألمك، بينما روح الملكة (برنغيلا) لنَ تسعد وأنت بهذه الكيفية وهذا الحزن.

سمع (فرناندو) كلام زوجته ولم يهتم له، فعاودت الحديث مرة أخرى، وقالت:

- إنّ الملكة الأم يا حبيبي لن يرضيها بقاؤك هكذا، بينما المسلمون ينعمون بالحياة في هذه الجزيرة، وهي من أوصتك بأن تخرجهم منها... هل نسيت وصيتها؟!! ألا تتذكر يا حبيبي تلك الأيام عندما قالت لك: (لا يشغلنك الماضي عن الحاضر، ولا شيء عن مطاردة المسلمين وقتلهم...) تراها يا حبيبي كانت تقصد ذلك اليوم، يوم وفاتها، لتعلم إذن أن مِن برك بها أن تنفذ وصيتها، وها أنا هنا لأذكرك بها.

استمر (فرناندو) في تجاهله كلام زوجته، بينما اقتربت هي منه أكثر وأكثر، وجلست أسفل قدميه، ووضعت يديها على فخذيه، وقالت وهي تنظر إلى عينيه:

- سيدي ومولاي وزوجي وحبيبي... إن كنت تحب الملكة الأم حقًّا فعليك أن تنفذ وصيتها، وأن تتابع حربك التي بدأتها، وأن لا تستسلم للحزن... سيدي لقد كانت الملكة الأم مريضة وقت خروجك لغزو (إشبيلية)... هل تتذكر ذلك؟ هل تتذكر يوم أن أردت أن تجلس معها، ولا تتركها تصارع المرض وحدها، فرفضت ذلك وقالت: (إن شفاءها في قتل المسلمين وطردهم؟) ألا تتذكر ذلك يا حبيبي؟..

بصوت خافت رد (فرناندو):

- نعم يا (خوانا)، أتذكر ذلك جيدًا.

ابتسمت (خوانا) فها هو زوجها قد تحدث إليها أخيرًا، فاستطردت وقالت:

- إذن يا حبيبي أنت تعلم أن حروبك قد أسعدت مولاتي في حياتها، فعليك أن تعلم أنّ حروبك سوف تسعدها أيضًا بعد مماتها.

هزّ (فرناندو) رأسه، بينما تتابع (خوانا) قائلة:

- إذن ستعاود حروبك من أجل الملكة والمملكة!

مدّ (فرناندو) يديه لزوجته، وأمسك يديها ورفعها لتجلس بجواره، ثم نظر إليها وهز رأسه، وكأنه يعدها بأن يفعل هذه المرة.

(٥)

مسبة الدهر

عاد (ابن الأحمر) إلى (غرناطة)، وخلفه خمسمائة فارس، هم قوات جيشه الذين خرج بهم لمساعدة (قشتالة) في حروبها ضد إخوانه المسلمين، ولأنه قد أخفى وجهته عن شعبه حين خروجه فقد أخفى عودته للمدينة، فقد كان الرجل يخشى غضب أهل (غرناطة)، خشية أن تعمهم الثورة إن هم علموا بفعلته الشنيعة.

مكث (ابن الأحمر) في (غرناطة) حتى انتهى فصل الشتاء (عام ١٢٤٧)، الذي غادر بأمطاره وقسوته وثلوجه، وذابت الثلوج، ولم تبق إلا في قمم الجبال القريبة من (غرناطة) كجبل السيرانيفادا، وفاض نهر شنيل بمياهه، وامتلأ نهر حدرة حتى فاضت جوانبه، واخضرت الأشجار وتفتحت الأزهار، فقد حلّ ربيع (غرناطة)، أما شوارع (غرناطة) فقد ازدحمت بالمارة، والباعة المتجولين المنتشرين في هذا الوقت في كل ضواحي المدينة.

منذ عودته من قرمونة، لم ينفك (ابن الأحمر) يفكر في قادم الأيام، و يتمنى لو أنّ (فرناندو) قد نسي أمر (إشبيلية) أو تناساها، وكان لا يفتأ يذكر ذلك أمام وزيره (ابن عياش)، ففي أحد الأيام وبينما (ابن الأحمر) ووزيره جالسان سويًّا يتحدثان حول بعض الأمور، و(ابن الأحمر) ممسك بكوب مملوء بعصير الرمان، رفع (ابن الأحمر) الكوب وارتشف منه رشفه خفيفة، ثم مال بظهره مستندًا على كرسي عرشه، ليقول والحزن يملأ محياه:

- ليته ما فعل، اللعنة عليه!

ارتاع (ابن عياش) وسأل:

- من هو يا سيدي؟

- اللعين (فرناندو)... فقد أجبرني على أن أفعل مسبة الدهر.

- أتقصد يا سيدي ما حدث في قرمونة؟

تنهد (ابن الأحمر) وقال بحسرة كبيرة:

- وهل بعد ذلك فاجعة يا (ابن عياش)؟

حاول (ابن عياش) التخفيف عن سيده فقال:

- لم يكن من سبيل لحفظ (غرناطة) غير ما فعلت يا سيدي!

صبّ (ابن الأحمر) العصير في كوبه مرة أخرى، ورفعه بيده التي يشير بها إلى (ابن عياش) وقال:

- نعم نعم وهذا ما يجب أن نؤمن به...

ثم تجرع العصير وأكمل:

- وما تؤمن به (غرناطة) كلها، إننا لسنا من القوة بحيث نتحدى (قشتالة) بقوتها الرهيبة أو ننقض عهدها وتحالفنا معها!

قال ذلك بصوته بينما كان يقول في نفسه بعد أن صمت تحالف... هه أي تحالف هذا؟ بل هو الخضوع والخنوع والتبعية (لقشتالة) باسم التحالف، بل هو التبعية المطلقة باسم يليق بنا!!

وبعد سكوته، وحديث نفسه، نظر إلى (ابن عياش) وقال له:

- أليس كذلك يا (ابن عياش)؟

رد (ابن عياش) بسرعة مؤيدًا:

- هو كذلك يا سيدي.

- أتدرى يا (ابن عياش)؟ أتمنى لو تجمدت أطراف (فرناندو) أو لحق بأمه فينسى أمر (إشبيلية) ويتركها تعيش في سلام!

- أخشى انه لن يفعل يا سيدي!!

برقت عينا (ابن الأحمر) وهو يقول:

- لماذا؟

- لقد وصلت الأخبار بما يدور في كنتبرية مما يدل على عزم (فرناندو) وتجدد نيته تجاه (إشبيلية)!

- كنتبرية... (قالها في لهجة ونبرة حادة.) إنها في أقصى الشمال، فما الذي يدور فيها وينبئ عن جديد في (إشبيلية)؟ وكيف تحجب الأخبار عني؟

- العفو يا سيدي، فأنا لم أحجب شيئًا عنك، بل كل ما في الأمر أن الأخبار وصلت للتو واللحظة، وإنما أنا هنا لأنقلها لك، غير أنك سيدي حال وصولي لم تك في حالة تجعلني أبدل حديثك أو أغير مساره.

هدأ (ابن الأحمر) وتدبر الأمر فوجد وزيره على حق، فهدأت أنفاسه وعاد يتحدث بصوت خفيض كما كان، فقال:

- هاتِ ما عندك من أخبار.

- لقد حشد أمير البحر رامون بونيفاس أسطولًا قويًا في ثغور كنتبرية، وشحنه بالبحارة والجند والمؤن؛ استعدادًا لفرض الحصار على (إشبيلية).

رفع (ابن الأحمر) حاجبيه وقال:

- كيف فعل ذلك بينما (فرناندو) في عزلة عن أمور دولته.

- لقد خرج من عزلته يا سيدي، وعاد لمباشرة حروبه ضدنا!؟ بل إنه قد حصل من البابا على قرار بأن تخصص كل من الكنيسة القشتالية والليونية ثلث مواردها للمساهمة في نفقات الحرب.

هزّ (ابن الأحمر) رأسه في أسى كبير، وتنهد دون أن يتكلم، ثم وضع كفيه على وجهه مغمضًا بهما عينيه من شدة الكرب.

(٦)

صيف ١٢٤٧ م

بحماسة شديدة وافتخار كبير، وقف (فرناندو) وسط قصره وهو يقول:

- أرسلوا إلى ملوك وأمراء أوروبا، أعلموهم بأمر حملتي على إشبيلية، أخبروهم أنها حملة يقودها فرناندو الثالث، فهي مضمونة العوائد، مأمونة العواقب، غير تلك التي وجهوها إلى المشرق والتي لن تعود عليهم إلا بالخيبة والخسران وفقدان الرجال والأموال، حدثوهم عن وفرة أموال إشبيلية وحسن نسائها وجودة حريرها وكثرة زيتونها.

رفع الكاتب قلمه وقال:

- هل من شيء آخر يا سيدي؟

خلع (فرناندو) خاتمه وقال له:

- لا.

ثم أعطاه الخاتم ليختم به الرسائل.

لم يمر شهر على تلك الرسائل، حتى تدفقت عليه قوات المتطوعة من كل حدب وصوب، (من الأراضي المنخفضة، بلاد الغال، جرمانيا، إنجلترا بل وصلته قوات متطوعة من النمسا وبلغاريا، وتضخمت حشوده وضاقت (طليطلة) عن استيعابها)! ولما تمت هذه الأهبة سار (فرناندو) إلى (قرطبة)، وهي التي اتخذها مركزًا لتجهيز الحملة (صيف سنة ١٢٤٧ م)، وهنالك احتشدت قوات جماعات الفرسان الدينية، وقوات ليون وبطليوس وغيرها، ومن (قرطبة) أرسل إلى (ابن الأحمر) يستدعيه للحضور بقواته.

أما صيف (إشبيلية) فقد كان صيفًا ساخنًا، فقد اختلفت أحوال المدينة وذهبت بهجتها، فالكل يترقب والكل يتوهم، ولا أحد يعرف ماذا سيحدث غدًا! وتحولت المدينة فجأة إلى خلية نحل كبيرة، تعمل في جد واجتهاد، وكأن قيامتها

قد قامت، وتحولت شوارعها وأزقتها إلى ثكنات لجيش (إشبيلية)، و(شقاق) ورجاله يتابعون عملهم في جد كبير، وقد توزعت بينهم المهام، فهذا ابن خلدون يسهر ورجاله لضبط المدينة، ومنع عيث الفاسدين فيها ورقابة السوق. وهذا عبدالرحمن قد بدأ يدرب المتطوعين لحمل السلاح، وفقهاء المدينة لا حديث لهم إلا عن الجهاد.

رفع (شقاق) يده ووضعها على جبهته محاولاً التخفيف عن نفسه من حرارة الشمس المتعامدة، وهو ينتقل من مكان لآخر، لمتابعة أعمال البناء في السور الشرقي للمدينة، مرت لحظات و(شقاق) يمسح عرقه بيده، ولما أعياه القيظ استظل بظل شجرة وحوله ثلة من حرسه، مر بعض الوقت قبل أن يلتفت ليرى (عبدالرحمن) و(ابن خلدون) وهما في طريقهما إليه ممتطيان صهوة جواديهما، حتى إذا وصلا نزل الاثنان وقد بدا عليهما التعب كصاحبهما وجلسا بجوار (شقاق)، نظر (عبدالرحمن) إلى (شقاق) فوجد أن التعب قد بلغ منه مبلغه فقال له:

- ألا تريح نفسك قليلًا أيها الأمير؟

نظر (شقاق) إلى (عبدالرحمن) وقال:

- أنّى لي أن أستريح، فالوقت قصير والعمل طويل و(فرناندو) لن يصبر علينا، ولن يترك لنا الوقت الكافي للاستعداد لمجابهته.

تنهد ابن خلدون وقال:

- صدقت يا سيدي، فقد ولى عهد النوم والراحة.

عاد (شقاق) يقول:

- ها قد اقترب العمال من تجديد الأسوار، وبقى أن نحصد الزروع والثمار في أقرب وقت قبل أن يدهمنا العدو بقواته ويحصرنا خلف تلك الأسوار، فتكون زروعنا عونًا علينا.

سأل (عبدالرحمن) :

- هل تتوقع يا سيدي أن يعود (فرناندو) قريبًا، ولمّا يمر على ذهابه وقت طويل؟

- إنما ذهب لدفن أمه ولا أظنه إلا عائدًا عما قريب، لذا وجب علينا التعجيل في كل شيء، حتى إذا جاء الوقت وحانت الساعة، كانت (إشبيلية) مستعدة برجالها وأقواتها لصد المهاجمين.

هز (عبدالرحمن) رأسه وقال مؤكدًا:

- حسنًا يا سيدي، سنبدأ في حصدها فجر الغد إن شاء الله.

- افعل وحافظ على ما تحصد، فما ستجمعه غدًا من طعام، إنما هو في الحقيقة سلاحنا الذي سنحاربهم به، فلا تسرف واحرص عليه.

طمأنه (عبدالرحمن) واعدًا:

- طب خاطرًا يا سيدي، فسوف ترى ما يُثلج صدرك.

تمتم (شقاق) بدعاء غير مسموع، ثم نهض ليتابع تفقد الأسوار وإصلاح ما خرب منها، فقد كان يعلم علم اليقين صعوبة المهمة التي كلف بها، بينما انصرف (عبدالرحمن) وابن خلدون كل ليتابع عمله... بعدها امتطى (شقاق) صهوة جواده، وأطلق له العنان، ليثير بسرعته الأتربة وبحوافره الأصوات المرتفعة، وكأنه أراد أن يتخلص من همومه بهذه الانطلاقة المباغتة والجريئة.

وهناك بعيدًا عن (إشبيلية)، نزل (شقاق) من فوق حصانه الذي ظل يحمحم ويصهل، ويدور حول صاحبه... ثم راح يمسح بيده على رأس الحصان وعنقه، ويمرر أصابعه بين شعر رقبته، وبصره يحوّم في الفضاء وهو يفكر فيما حدث ويحدث وسيحدث، ثم سأل الحصان قائلًا:

- هل أخطأت وخانني حسن التدبير يوم قتلت (ابن الجد)...؟! لقد كان الرجل في حلف مع القشتاليين وبمعاهدته معهم قد منعهم من دخول (إشبيلية) والحرب عليها!...

صمت (شقاق) بعد أن سقط في بئر من الحيرة قال بعدها:

- نعم أخطأت يا (شقاق)، لو لم تقتله لكانت (إشبيلية) اليوم في أمن وأمان...

ثم سحب رسن حصانه، وسار به وهو ينظر هنا وهناك، ثم وضع يده وفرك رقبة حصانه، وراح يسأله وكأنه إنسان:

- ترى يا صديقي هل أخطأ صاحبك؟

نفر الحصان بأنفه وتحرك برأسه، فربت عليه (شقاق) ثم قال:

- أتعرف لو لم أقتل (ابن الجد) لبحث (فرناندو) عن سبب آخر ليغزو بلدنا!! نعم قالها في حماسة ثم استطرد:

- إن قتل (ابن الجد) ليس السبب في تلك الحرب التي يشنها (فرناندو)، ولم تكن سببًا، ولن تكون إلا في عقول البلهاء...! (ففرناندو) احتل (قرطبة) ولم يكن (ابن الجد) قتيلها و(خايمي) احتل (بلنسية) ولم يكن (ابن الجد) أو مثله قتيلها... لا يا صديقي إنّ (فرناندو) يريد (إشبيلية) سواء (بابن الجد) أو من دونه، لهذا يجب علينا أن نجاهد ونحارب، ونرفع عن أنفسنا الحرج في قتاله، يجب أن نصمت ويصمت كل صوت يبحث عن السبب... عن سبب هجوم (فرناندو) علينا، بينما يترك جهاد (فرناندو)، ليكون حديثه هذا تفتيتًا لقوة (إشبيلية) وتضييعًا لوقتها... ومنذ الغد سنعمل ولكن بشكل مختلف.. سنستعد جيدًا (لفرناندو)، سنجند الجنود ونبني الأسوار، ونصنع الزرود والسهام،،، من الغد ستشرق شمس مختلفة على (إشبيلية).

(٧)

الباحث عن النجاة

استولى التعب والإرهاق على وجه (عبدالرحمن)، عندما دخل على (شقاق)، يخبره بانتهاء موسم حصد الزروع والثمار، فقال له (شقاق) بجدية:

- ستكون أنت المسئول أمامي، عن حفظ تلك الأقوات يا (عبدالرحمن).

شعر (عبدالرحمن) بعدم الارتياح وقال:

- لكني يا سيدي لا أحسن عملًا كهذا، ولا أريد عملًا يمنعني من قتال الأعداء والجهاد في سبيل الله.

رد (شقاق) بحزم:

- سنتدبر هذا الأمر لاحقًا.

وفجأة دخل أحد الحراس وقال:

- سيدي الأمير، بالباب فقيه يريد أن يلتقيك، ويلح على ذلك، وقد حاولنا منعه فلم يرجع!

نظر (شقاق) إلى الحارس، وقال له بلهجة حازمة:

- أدخله فورًا، ولا تمنع مسنًّا عني أو عالمًا أو فقيهًا، فأنا بحاجة إليهم أكثر من حاجتهم إليّ.

خرج الحارس، وبعد لحظات عاد وبجواره رجل طاعن في السن، ممسك بعصا غليظة، تظهر عليه علامات الوقار وقد ابيضّ شعر لحيته وقال:

- السلام عليكم ورحمة الله.

حدّق (شقاق) النظر في الشيخ ثم قال:

- وعليكم السلام ورحمة الله، كأني لم أعرفك أيها الشيخ، فهل أنت من (إشبيلية)؟

نظر الشيخ إلى (شقاق) ثم قال:

- اسمح لي يا ولدي بالجلوس، فقد أتيتك من مسافة طويلة، فأنا من مدينة (جيان).

سارع (شقاق) وقال:

- اجلس أيها الشيخ.

فيما ردد (عبدالرحمن) متعجبًا وقال:

- (جيان)؟!

جلس الشيخ وهو يسعل ويقول:

- أجل يا بني.

بنظرة تعجب قال (شقاق):

- لكن (جيان) احتلت منذ عام أو يزيد أيها الشيخ!!

- أجل يا ولدي، وقد كنت تركتها يوم دخلها اللعين (فرناندو)، إذ لم أطق أن أرى مساجدها قد تحولت إلى كنائس ودق فيها الجرس مكان الأذان، فالمكان الحزين يا ولدي هو ذاك المكان الذي يحُرم من الأذان والصلاة والنداء... تركتها وذهبت إلى (غرناطة) أعيش فيها...

تمتم (شقاق) وقد تبدلت ملامحه:

- (غرناطة)؟

رد الشيخ بقوة وقال:

- أجل (غرناطة).

عاد (شقاق) يقول:

- لم نر منها أيّ خير.

- ولهذا فقد خرجت منها يا ولدي وأتيت إليكم!

بلهجة تحمل اللوم، قال (عبدالرحمن):

- أما كان أحرى بك أيها الشيخ أن تقف في وجه الخائن؟

بصوت هادئ قال الشيخ:

- ومن قال لك أني لم أفعل يا بني؟ لقد فعلت وجهرت برفضي لما كان من (ابن الأحمر)، فكان مصيري التهديد والوعيد الشديد، والسجن نهاية المطاف.

سأل (عبدالرحمن) في قلق:

- وماذا عن أهل (غرناطة)؟ ألم يأتهم نبأ ما قام به (ابن الأحمر)؟

- أهل (غرناطة) يا ولدي لا تشغلهم أمور الحرب والسياسة... يظنون أنهم يحيون وحدهم في هذه الدنيا، لا يرون منها إلا ما يرى (ابن الأحمر)، ولا يسمعون لغيره، لا يهتمون بغيرهم ما داموا في أمان...

أخذت الشيخ سعلة شديدة مفاجئة، ثم استطرد:

- يظنون يا ولدي أنّ سيوف القشتاليين بعيدة عنهم، صديقة لهم بعهودهم معهم، بل وصل الجهل بهم إلى أنهم يحمّلون غيرهم نتيجة أفعالهم، فلما تحدثت معهم حول قرمونة وما كان من (ابن الأحمر)، اتهموني بالعمالة والخيانة وقالوا إن نقض العهود ليس من الإسلام، فكيف تريد بملكينا أن يفعل؟!!

أبدى (عبدالرحمن) حسرته متسائلًا في استنكار:

- أو قد وصل بهم الجهل إلى هذه الدرجة؟

- لو لم يصل بهم ما خرجوا مع (ابن الأحمر)، مؤيدين له في حروبه وتحالفه!!

استفسر (شقاق) في دهاء:

- ولماذا اخترت (إشبيلية) تحديدًا للخروج إليها؟

- لأنجو بنفسي يا ولدي!

تساءل (شقاق) متعجبًا:

- تنجو بنفسك هنا!؟ في (إشبيلية) التي تهددها الأخطار، بينما تعيش (غرناطة) في أمن وأمان؟

- النجاة يا ولدي لا تكون في ظل عرش خائن، بل تكون تحت ظلال السيوف، وقد تركت (غرناطة) مهاجرًا إليكم، بعد أن أعيتني الحيل في إصلاح أمر (ابن الأحمر) الذي سجنني عندما رفعت صوتي ضده، بينما لم يتحرك أحد من الغرناطيين من أجلي...

زفر (شقاق) وقال:

- على الرحب والسعة يا شيخنا الجليل.

(٨)

الحبيب الغائب

بدأت الشمس رحلتها اليومية نحو المجهول، عندما خرج (عبدالرحمن) من لقاء (شقاق)، وأمسك برسن حصانه الرابض خارج القصر، وسحبه خلفه ولم يمتطِه وهو يفكر في أمر هذا الشيخ وأمر (غرناطة)، ويقول في نفسه:

- ماذا لو أنّ كل أهل (غرناطة) مثل هذا الرجل؟ لا بل لو نصفهم فقط لأعدنا جيوش الإسلام إلى جبال البرتات، فما أصدقه من شيخ جاوز الستين من عمره... كان الجواد يصهل وكأنه يصدّق على كلام (عبدالرحمن) الذي ظل يتحرك وبخطوات غير محسوبة وجد نفسه بجوار منارة المسجد الكبير (بإشبيلية)، فإذا به يطالعها كمن يراها لأول مرة، وهو يقول:

- ما أروعها!...

ثم ربت على عنق الفرس، وقال:

- لم أفكر في صعود تلك المنارة يومًا، فلماذا لا أفعل اليوم، فنفسي تتوق لرؤية جارة الوادي (إشبيلية) من أعلى!

ثم صمت ليقول محدثًا الحصان:

- ولكن بعد هذا اليوم الشاق والعمل المتواصل، لن تستطيع قدما صاحبك أن تصعدا به إلى أعلى المنارة البالغ ارتفاعها ست وتسعين ومائة ذراع... ربما يجدر بي أن أحاول في قادم الأيام.

رفع الحصان رأسه وخفضه وتحمحم، فتابع (عبدالرحمن) مخاطبًا إياه:

- أتعلم يا غارب! رغم تعبي إلا أنّ شغفًا كبيرًا يدفعني إلى إعادة التفكير في صعود المنارة العظيمة...

ثم ابتسم واستأنف:

- ربما عليك أن تحملني لأعلى... أنت لها يا رفيقي!

ثم بوثبة واحدة ركب ظهر الجواد، وبضربة على بطنه انطلق الفرس ليصعد الدرج، ويصل إلى قمة المنارة.

ترجل (عبدالرحمن) ووقف على شرفة المنارة يطالع (إشبيلية) من أعلى، فبدت كجارية جميلة حسناء، فهذا نهر الوادي الكبير يجاورها ويحيط بها وكأنه يحرسها ويمدها بالحياة، كما يحمل النهر في ذاكرته الكثير والكثير من التاريخ المجيد، فهنا على ضفتيه وقعت قصة حب المعتمد واعتماد، وعلى بُعد عدة فراسخ وقعت موقعة المصارة بين الداخل والقيسيين، ثم استطرد قائلًا:

- هنا نسجت حكايات وحكايات وقصص وروايات، أتذكر بعضها ولا أتذكر جميعها، هنا حيث برج الذهب الذي بناه الموحدون، وهنا حيث الأسواق والأرزاق...

جالت عينا (عبدالرحمن) في كل أماكن (إشبيلية) وكأنه يعاينها للمرة الأولي، ومن ثم ترقب الغروب وشاهد الشمس وهي تختفي خلف الجبال، حتى إذا غطست أذن للصلاة، وهبط بعد ذلك بفرسه ليكون إمام الناس في الصلاة، ثم امتطى صهوة جواده واتجه إلى المنزل، وما إن وصله حتى وجد فتاة تنتظره، فما إن ترك الجواد حتى قدمت مسرعة إليه، وهي تقول في اضطراب وقلق:

- سيدي (عبدالرحمن) أنا أترقبك منذ شهور، فالحمد لله أن لقيتك أخيرًا.

نظر (عبدالرحمن) إلى الفتاة لعله يعرفها، ولكن دون جدوى فقال لها مندهشًا:

- أجل كنت في مهمة خارج (إشبيلية) ولكن مَن أنتِ، ولماذا تترقبين عودتي؟

- أنا (قمر) يا سيدي، جارية (محمد بن عبدالله الإشبيلي) ووصيفة ابنته (مريم).

- أجل أجل فأنا أعرف سيدك، فماذا تريدين يا (قمر)؟

بدأ الهدوء والراحة على وجه (قمر) وقالت:

- أريد أن تدلني على (زيد بن عمر)، صاحب دكّان الزيت في سوق (إشبيلية)، فقد سألت عنه كثيرًا يا سيدي فلم أستدل عليه، ودكانه مغلق فكيف السبيل إليه؟ وقد دلني أهل الخير عليك وقالوا إنك صاحبه.

نظر (عبدالرحمن) إلى (قمر) نظرات ذات معنى، ففهمت مراده وبسرعة قالت:

- أريده يا سيدي على عجل، من أجل حياة شابة تصارع الموت، بعد أن يئست من الحياة.

مستهجنًا قال (عبدالرحمن):

- هل غرر بها (زيد)؟

- معاذ الله يا سيدي أن تكون أخلاق (زيد) بهذا السوء!

- فما الأمر إذن؟

خفضت (قمر) رأسها حياءً، وقالت:

- اعذرني يا سيدي، فلن أستطيع أن أخبرك بأكثر من هذا!

- وأنا لن أدلك قبل أن أعرف السبب، قبل أن أعرف ماهية الفتاة ولماذا تبحث عن (زيد)!

صمتت (قمر) وكأنها توازن الأمور، ثم بعد تردد قالت:

- إنه... إنه حبيبها يا سيدي، وقد باعدت أسباب الحياة بينهما، وخُطبت (مريم) رغما عنها لابن عمها، غير أن خطبتها فُسخت، ولكن حب (مريم) (لزيد) مشتعل لا فاسخ له ولا مناص منه، وقد هامت به الفتاة حبًّا يا سيدي، فلما انقطع عن رؤيتها ضاقت بها الحياة وزهدت فيها، ولا أمل لنجاتها إلا بقربه يا سيدي!

تأوه عبدالرحمن، ثم راح يضحك بينما تنظر إليه (قمر) وقد اضطرب حالها، وقالت:

- هل وجد سيدي في كلامي ما استوجب الضحك؟

أمسك (عبدالرحمن) عن ضحكه، وقال:

- لا يا (قمر)، فانا لا أضحك لكلامك، ولكن لزيد الذي ما فتئ ينكر أمره ويكابر، لكن لا بأس لا بأس!

انفرجت أسارير (قمر) وقالت:

- إذن هلا أخذتني إليه يا سيدي؟

- لقد تأخر الوقت يا (قمر) وأنا متعب، فإن كان من الغد فتعاليْ إلى هنا صباحًا.

بابتسامة كبيرة شكرت (قمر) (عبدالرحمن) وانصرفت بعدما أيقنت أخيرًا أنها وصلت لمبتغاها وغايتها.

أما (عبدالرحمن)، فلم يدخل بيته، بل لوى رسن جواده، وانطلق تجاه سور المدينة الغربي، حتى إذا وصل ترك جواده، وأمر أحد الحرس المتواجدين بالقرب من الباب الغربي، وقال له:

- اذهب وجئني (بزيد بن عمر).

وفي تلك الأثناء انتهز (عبدالرحمن) فرصة تواجده عند السور، وتفحّص ما تم تجديده منه، وبينما هو يتابع إذا (بزيد) يقترب منه ويسلم عليه.

ربت (عبدالرحمن) على كتف (زيد)، وقال له:

- لقد أصبحت جنديًا مغوارًا يا (زيد)!

تنهد (زيد) وقال:

- بفضل توجيهك يا صديقي

- تعالَ يا زيد، أريد أن أجلس إليك، فمذ التحاقك بالجيش وأنا لا أراك إلا قليلًا، وقد تحدثت إليك من قبل أن تكون بالقرب مني، فأبيت إلا أن تحرس في غرب المدينة، لتكون بمنأى عمن بداخلها، وكأنك يا صديقي تفرّ من شيء لا أعرفه.

- ربما قريبًا أكون بين يديك يا (عبدالرحمن).

ابتسم (عبدالرحمن) وقال:

- ألن تخبرني عن السبب؟

- سبب ماذا؟!

- الذي جعلك تغلق دكانك وتلتحق بالجيش ثم إصرارك على أن تبتعد عن المدينة ومن بها!

جلس (زيد) على إحدى الصخور، فجلس (عبدالرحمن) بجواره ثم قال (زيد):

- تعلم أني لم أعد أطيق فتح الدكان، مذ حدث ما حدث من اعتداء الحفصيين علينا.

نظر (عبدالرحمن) إلى (زيد) نظرة ماكرة فضاحة، أثارت حفيظة (زيد) فقال:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

استمر ضحك (عبدالرحمن) وقال:

- لأنك لم تخبرني بالحقيقة الكاملة... تتذكر يا (زيد) عندما التقيتك منذ زمن وأنت تجلس بجوار برج الذهب، وقتها وجدت في عينيك نظرات عاشق ولهان... سألتك وقتها أن تفصح لي عما بداخلك لعلي أساعدك ولكنك أبيت، حتى إذا حدث ما حدث مع الحفصيين، ودخلت السجن بسبب فتاة دافعت عنها، فلما سألتك عن سبب ما فعلت، قلت لي: الغيرة على محارم الله، ولم تذكر غير ذلك!

- هل أتيت إلى هنا يا (عبدالرحمن)، لتذكرني بما كان بيننا؟

قهقه (عبدالرحمن) وقال:

- لا بل جئت إليك بما يتمناه قلبك، وترضى به نفسك!

تطلع (زيد) إلى وجه (عبدالرحمن)، واضطرب حاله وقال:

- هلّا أفصحت أكثر؟

- أتعرف جارية اسمها (قمر)؟

اضطرب (زيد) أكثر، وتصبب عرقًا وقال:

- (قمر)؟

- نعم (قمر) يا (زيد)، لقد كانت تبحث عنك، حتى أعياها البحث، فدكانك مغلق وبيتك قد بدلته، وقد علمت يا (زيد) أن الفتاة تحبك وأنت تحبها، فلماذا يا صديقي كل هذا؟

صمت (زيد) ولم يتحدث لتعود به ذاكرته لتلك الأيام المؤلمة الحزينة، عندما كان ينتظر (مريم) عند شاطئ الوادي الكبير، فإذا بمن يخبره أنها خُطبت لابن عمها، كم كانت لحظات قاسية أليمة تلك يا (زيد)، لا، لا أريدها أن تتكرر، لا، لا يا (عبدالرحمن)، لا أريد لتلك الأيام أن تتكرر، لا أريدها أن تتكرر!

(٩)
لهيب الثأر

اكتملت الحشود القشتالية، وتضخمت بمن انضم إليها من سائر أنحاء أوربا، ووضع (فرناندو) الخطة، وقرر هذه المرة أن لا عودة إلى (طليطلة) من دون مفاتيح (إشبيلية)، ودون أن يحوّل مسجدها الكبير - الذي صار بعد سقوط (قرطبة) أكبر مساجد الأندلس - إلى كنيسة.

نظر (فرناندو) في زهو إلى جيشه الكبير غير المتناسق، إذ ضمّ الجيش بين جنباته ألسنة عدة وأشكالاً وعادات مختلفة، بل حتى اختلفوا في الأسلحة ونوعياتها والملابس وأشكالها، ولم يكن شيءٌ مشترك بين تلك الحشود سوى حملهم لصليب واحد فقط، وكرههم للمسلمين بوجه عام.

تحرك الجيش يقوده (فرناندو) حتى وصل إلى قرمونة، ليعسكر بجيشه مرة أخرى، فأمر بضرب المخيمات للمبيت، وانتظر قدوم (محمد بن الأحمر) عليه.

أما (برنارد) و(خوسيه) فقد تركا خيمتهما، وخرجا يتذكران كيف كانا هنا منذ عام أو يزيد.

نظر (برنارد) تجاه (إشبيلية)، وقد اقترب منها، وقال:

- آه يا (إشبيلية)، لقد كانت أيامًا رغم ما فيها جميلة.

تمتم (خوسيه) وقال:

- هل أحببت (إشبيلية) يا رجل؟

- مثلك تمامًا يا صديقي، وإلا فمن ينسى نهر الوادي الكبير وقت الغروب، وأزقة وشوارع (إشبيلية)، وأسواقها ونساءها، وأموالها ومعازفها... آهٍ، لقد كانت أيامًا رائعة أتمنى أن تعود.

ثم رقد على الحشائش الموجودة في المعسكر، ونظر إلى السّماء واستطرد قائلًا:

- أتعلم يا صديقي، لقد حدثت زوجتي عن (إشبيلية) وجمالها، واتفقنا سويًّا على الحياة فيها، متى افتتحها مولاي (فرناندو)!

- اصبر وستنال كل ما تطلب!

- أتعلم يا (خوسيه)، أريد أن أعيش في (إشبيلية)، وتحديدًا في بيت (عبدالرحمن الإشبيلي)!

- ولماذا (عبدالرحمن) بالذات؟

نهض (برنارد) من رقدته، وقال بعينين تشعان كرهًا:

- لأنني أتوق شوقًا للانتقام منه... ألا تتذكر الأحداث...؟

قالها ثم عاد بذاكرته للخلف، يتذكر يوم مقتل (ابن الجد)، عندما اجتهد (عبدالرحمن) في القبض عليه وقتله، كانت أنفاس (برنارد) متسارعة متقاربة، عندما زاغ بصره، وخشي أن يصلوا إليه، فصعد إلى أعلى منزله، وقفز منه إلى سطح المنزل المجاور، كانت أصوات الجند تقترب، وصوت سنابك الخيل يدكّ الأرض بحثًا عنه... مكث (برنارد) على سقف منزل الجيران، حتى انتصف الليل، وعندها نزل إلى داره، وتنكر في ملابس النساء، بينما غيّر (خوسيه) من هيئته، وخرج الاثنان إلى خارج (إشبيلية)، ثم نظر إلى صاحبه وقال:

- كان (عبدالرحمن الإشبيلي) وقتها يريد رقبتي!

قالها وهو يتحسس بيديه رقبته. ثم استطرد وعيناه ينبعث منهما الشرر:

- وها أنا أعود إلى (إشبيلية)، التي خرجت منها مذعورًا، وأملي أن أحظى برأس من حاول قطف رأسي، والاستيلاء على داره!

(١٠)

الشك القاتل

في خيمته الملكية وسط المعسكر أمام قرمونة، وقف (فرناندو) متشحًا بسيفه وهو يقول متوعدًا، وبصوت جهوري:

- هذه المرة لا عودة إلى (طليطلة)، قبل أن أطأ بخيلي رؤوس الإشبيليين، وقبل أن أحوّل مسجدهم الذي يتفاخرون به إلى كنيسة ستكون الأكبر في كل أوربا.

سمع (ابن الأحمر) هذا الكلام، فصمت مطأطئًا رأسه، ولاحظ ذلك أردونيو، فرمقه بنظرة ماكرة، تحمل كل معاني التشفي، وسأل بدهاء:

- ما لي أرى ملك (غرناطة) ساهمًا، لا يشاركنا الحديث؟!

استجمع (ابن الأحمر) شجاعته، وقال بوجه عابس ولهجة جادة:

- إن كنت لا أشارككم الحديث أيها الكونت، فأنا أشارككم العمل والتنفيذ، ولو كان لي رأي مختلف لأخبرتكم به!

ابتسم أردونيو ابتسامة ماكرة وقال:

- خشينا أن تكون كلمات الملك قد أزعجتك!؟

ابتسم (ابن الأحمر) ابتسامة باهتة، وقال:

- أنا لا يزعجني غير التشكيك، في ولائي للملك (قشتالة)!

لاحظ (فرناندو) ما يحدث، فقال في لهجة جاده موجهًا حديثه إلى قائد جيشه:

- لا أحد يشكك في ملك (غرناطة) بعد الذي فعله في قلعة جابر.

ثم التفت إلى (محمد بن الأحمر) وقال:

- لا عليك أيها الملك، فنحن نعرف لك حقك.

تبادل (فرناندو) و(ابن الأحمر) النظرات، ثم فتح (فرناندو) خريطة موضوعة أمامه وقال:

- سنترك ملك (غرناطة) برفقة أردونيو لمحاصرة قرمونة، والتضييق عليها حتى تستسلم، إذ لا يصح أن نتقدم تجاه (إشبيلية)، وظهرنا مكشوف لقرمونة، لا ندرى ماذا يخرج لنا منها!

بصوت أجش تحدث بلاي كوريا:

- سيدي هذا يعني مزيدًا من تضييع الوقت، فقرمونة شديدة التحصين ما يعني أنها لن تسقط قبل شهور، وهذا سيعطي الفرصة (لإشبيلية) أن تستعد جيدًا، وتضاعف أهبتها، بل ربما يخرج إلينا (شقاق) في قواته ويهاجمنا.

تحرك (فرناندو) بخطى وئيدة، وقال موجهًا حديثه إلى قائد فرسان شنت ياقب، وهو يشير بيده:

- هذه المرة لن نتوقف عند قرمونة، بل سنترك ملك (غرناطة) وأردونيو لمحاصرتها، وبعد التأكد من إحكام الحصار، سنتجه نحن نحو (إشبيلية)، وبهذا نشتت المسلمين، فلا يدرون هل يدافعون عن قرمونة، أم عن (إشبيلية)، وفي أثناء هذا سيكون أسطول رامون دي بونيفاس، قد وصل إلى (إشبيلية)، فيحاصرها بحرًا بينما نفعل نحن برًّا.

نظر أردونيو إلى (ابنِ الأحمر)، وكان لا يثق به أبدًا، بل كان يشعر أنّ وجود (ابن الأحمر) بينهم، إضعافٌ لهم، وكان دائمًا ما يبث شكوكه إلى صاحبه (ألبار بيرت)، فكان الأخير يطمئنه، ورغم ذلك لم يملك أردونيو إلا أن يسمع ويطيع للملك!

اقترب أردونيو من (ابن الأحمر) وقال:

- أخبرني يا ملك (غرناطة)، كيف ترى غزونا لبلادكم...؟ (ثم تنحنح).. أقصد (إشبيلية)؟

نظر (ابن الأحمر) إلى أردونيو، مبديًا دهشة كبيرة أتبعها بقوله:

- غريب أمرك أيها الأمير، فقد خرجنا من قبل لغزو (قلعة جابر)، وما نظرت إليّ مثل تلك النظرات، أو تحدثت معي بمثل هذا الحديث، وقد كان الأحرى أن تفعل في المرة الأولى وليس الآن، مما يعني أن السؤال الحق هو: لماذا يا أردونيو؟ لماذا تظنّ بي الظنون الآن وليس من ذي قبل؟

- في المرة الأولى لم تكن تعلم وجهتك وقت أن استدعاك الملك، لهذا ما كان أمامك من فرصة غير اتباع أوامره، وإلا صرت وجيشك أسرى لنا، ونحن أكثر منكم عددًا وعدة، أما اليوم فالوضع مختلف، فقد خرجت من (غرناطة) وأنت تعلم وجهتنا ونيتنا، وقد ترامى إلى مسامعي أنّ بعضًا من أهل (غرناطة) خرجوا عليك، وبعضهم حكم بكفرك وردّتك، فما الذي يجعلك تقف في صفوف (قشتالة) بينما الأحرى بك أن تكون مع قومك؟

- ما يجعلني أقف معكم هو الحلف المعقود بيني وبين الملك، وديني يمنعني من خيانة العهد!

هز أردونيو رأسه وهمّ بالكلام، فبادره (ابن الأحمر):

- ستعلم غدًا أيها الأمير أنك أخطأت كثيرًا في حقي، وأنّ وجودي معكم برغم قلة عدد جيشي مفيد لكم لأبعد حد، فالعبرة ليست بقوة الجيش!

نظر أردونيو إلى (ابن الأحمر)، وأومأ وكأنه يوافق، ولم يتحدث هذه المرة، ولكن قال في نفسه:

- قطعًا..! فخائن واحدٌ يُغنى عن كثرة الجيوش!

أغلقت قرمونة أبوابها، فأعطى أردونيو أوامره لجيشه بتخريب كل ما يحيط بقرمونة، فهام الجنود على وجوههم، يقتلون الحيوانات، ويحرقون الزروع، ويحصدون الثمار، ويشعلون النيران والدمار في كل مكان!

أما أهل قرمونة فقد استعدوا للحصار والحرب، فظهر رماة السهام فوق الأبراج والأسوار، ومنعوا القشتاليين من الاقتراب من مدينتهم، فعسكر هؤلاء على مسافة من الأسوار، تجنبًا لأسهم الرماة.

(١١)
الثعبان الأحمر

منذ أن شاهد الجيش القشتالي يحاصر قرمونة، لم يخلع الأمير (أبو الحسن بن أبي علي) زيّه العسكري، ولم يترك يومًا سيفه، بل داوم على التمنطق به، كما لم يهدأ أو يكل من متابعة الأحداث، وراح يتابع عن كثب ما يحدث خارج الأسوار، وأصدر أوامره لرجاله بقتل كل من يحاول الاقتراب من المدينة، كائنًا من كان، بعد أن عوّل على المقاومة وعدم الاستسلام.

مر يومان على الحصار الخانق، ثم جمع (أبو الحسن) أهل المدينة، وراح يخطب فيهم ويقول:

- اصبروا واحتسبوا، فعما قريب تأتينا الإمدادات من كل فج وصوب، ومدينتنا محصنة، ولن ينفذوا إليها، ومن اقترب من أسوارنا دفناه تحتها، فاستعدوا وأعدوا، فالشجاعة صبر ساعة، ولئن نموت أسفل ترابها، خير من أن نستعبد فوقها، ولئن نرويها بدمائنا، خير من أن تتحول مساجدنا كنائس.

وما إن أنهى كلمته القصيرة، حتى علت الأصوات تهتف:

- نحن معك أيها الأمير! فسر بنا إلى حيث تريد، ولو أمرتنا أن نخرج إليهم الآن ونحاربهم لفعلنا!

نظر أبو الحسن إلى الناس حوله، وكبر بأعلى صوت:

- الله اكبر الله اكبر...

فردد الجميع خلفه النداء، وارتفعت الأصوات بالتكبير، ونظر أهل قرمونة إلى أميرهم نظرة إعجاب وتقدير، بينما انطلق أبو الحسن شاهرًا سيفه، وكأنه سينقض على القشتاليين وحده!

كان (محمد بن الأحمر) وأردونيو يتابعان الأمور عن كثب، لكن أحدًا منهما لم يحاول الاقتراب من أسوار المدينة، فقد كان الاثنان يعلمان أن من يتقدم سيكون فريسة للقناصة أعلى الأسوار، كما كانا يعلمان بعبث محاولة ثلم الأسوار أو هدمها.

استمر الحصار أيّامًا، بعدها قرر (محمد بن الأحمر) أن يتدخل كي يثبت لأردونيو خطأه، فقام بعلم أردونيو بإرسال أحد جنده، فألقى بسهم داخل الأسوار، وكان هذا السهم يحمل رسالة من ملك (غرناطة)، إلى أهل قرمونة وأميرها، تقول إن الأمير (محمد بن الأحمر) صاحب الحمراء و(غرناطة)، يريد أن يلتقي إخوانه من أهل قرمونة حرصًا عليهم!

وقعت الرسالة خلف الأسوار، فالتقطها أحد الجند، وذهب بها إلى حيث الأمير أبي الحسن، كان الجندي يلهث من التعب عندما دخل على الأمير، وقال له:

- سيدي الأمير، رسالة من جيش (قشتالة)، أرسلوها بسهم سقط خلف الأسوار.

هبَّ الأمير من مجلسه، وتقدم ناحية الجندي، وقال له:

- هاتِها.

ثم أمسك بالرسالة وفتحها، وبعد أن قرأ ما بها أشار للجندي بالانصراف، بينما جلس يفكر في الأمر قليلًا، قبل أن يتحرك خارجًا من القصر، ويتجه ناحية الأسوار، ويصعد أحد الأبراج، ويأمر أحد رماة الأسهم بإلقاء رسالة عبر سهم، تحمل شروط قدوم الأمير إلى داخل قرمونة.

كانت الشروط هي أن يتقدم الأمير وحده، وإن حدث وقدم معه أحد الجند، فسيتم قتله.

في الوقت ذاته الذي كان ملك (غرناطة) وأردونيو يحاصران قرمونة، كان (فرناندو) يتابع الموقف من كثب، ويمني نفسه سرعة الخلاص من قرمونة.

أما أهل (إشبيلية) و(شقاق) فقد تابعوا حشد دفاعاتهم، استعدادًا لما هو آت. ولم يحاول (شقاق) إرسال الجيش لقرمونة لعلمه بنيات (فرناندو)، فخشي

إن خرج بجيش (إشبيلية) أن ينتهز (فرناندو) الفرصة، ويعمل على احتلال (إشبيلية) وقد خلت من أهلها والمدافعين عنها.

وصل (محمد بن الأحمر) إلى قرمونة، واستقبله الأمير أبو الحسن، ووقف أهل قرمونة يشاهدون ما يحدث، ويترقبون ما سيسفر عنه هذا الاجتماع.

وفي قصبة قرمونة اجتمع (محمد بن الأحمر) مع أبي الحسن وقادةٍ ووجوه قرمونة، فقام إليهم (ابن الأحمر) ينفث سمومه بنعومة ثعبان أرقط، قائلاً:

- تعلمون جميعًا حرصي عليكم وعلى بلاد المسلمين، لهذا أنصحكم بالتسليم، فحشود القشتاليين كبيرة، ولو علمتُ خيرًا في المقاومة والدفاع لكنت معكم، ولكن ليس من الحكمة تحدي جيش لا يُقهر. ولئن نستسلم اليوم لنحيا ونقاتل غدًا، خير من أن نُقتل اليوم ويُيتم أطفالنا وتُرمل نساؤنا

نظر أبو الحسن إلى (ابن الأحمر)، نظرات ريبة واستنكار، أتبعها بقوله:

- أجل أيها الأمير حشودهم ضخمة، لكن ألا ترى أنك ساهمت في ذلك؟!

بعدها قال (ابن الأحمر):

- إنما أنا معهم لأجلكم!

تهكم أبو الحسن وقال:

- من أجلنا نحن؟!

تجاهل (ابن الأحمر) سخرية أبي الحسن منه، وقال:

- اسمعوا لي جيدًا، إن ملك (قشتالة) ليس بحاجة إليّ وإلى خمسمائة فارس غرناطي، هم كل من خرجت بهم من (غرناطة)، فأنتم ترون قواته المنتشرة حول قرمونة، ناهيكم عن القوات الرديفة التي يقودها (فرناندو) بنفسه، وقد وافقتُ أن أكون معهم، كي أتمكن من موقعي منه من حقن دماء المسلمين إخوتي قدر إمكاني، ولكم أن تتخيلوا وتتساءلوا:

- ماذا لو لم يكن صاحب (غرناطة) بين الجيش القشتالي؟

قال ذلك ثم نظر في وجوه الموجودين فوجدهم حيارى، فتابع بعد أن شعر بنجاح سؤاله الذي ألجمهم فقال:

- أجيبكم أنا، كان سيحاصركم حتى تستسلموا بشروطه، والتي ستكون قطعًا مجحفة بكم، وربما استسلمتم فاستحل بلادكم ونساءكم، وأنتم تعرفون أن القشتاليين ليسوا أصحاب عهود ومواثيق، ولكن مع وجودي معهم يختلف الأمر، إذ لن ينقض (فرناندو) عهودًا قطعها لي، مخافة انفضاضي عنه.

ألجمت كلمات (ابن الأحمر) الجميع، فانقلب بعضهم يثني عليه، بينما كانوا قبل ذلك يلعنونه، وينعتونه بالخائن. ولكنّ أبا الحسن كان له رأي مختلف، إذ تكلم فقال:

- أيها الأمير نشكر لك حرصك، غير أن لي رأيًا مختلفًا، فحصون وأسوار قرمونة تختلف عن باقي مدن الأندلس، فلن تكون مدينتنا سهلة المنال، ومن يدري فلعل الأمير (شقاقا) يأتينا بالنجدات، فينقلب الحال، وينفك الحصار رغم أنف ملك (قشتالة) وحلفائه.

ابتسم (ابن الأحمر) بخبث، وقال في هدوء شديد، وهو يتصنع الابتسام:

- إن (شقاق) لفي شغل عنكم، فملك (قشتالة) لن يترك له فرصة للنجاة، فضلًا عن انجادكم، وعما قريب يصل الأسطول القشتالي إلى الوادي الكبير، قادمًا من كنتبرية، ووقتها لن يكون حال (شقاق) بأفضل منكم!

قال ذلك ثم سكت، ومكث يبحث في وجوه من حوله من رجال قرمونة، فوجدهم حيارى، غير أنّ أبا الحسن تحدث ثانية فقال:

- أيها الأمير نحتاج إلى مزيد من الوقت للتشاور.

وقف (محمد بن الأحمر)، ونظر إلى الحضور وقال:

- أرجو أن لا يطول الأمر، ويأخذ أكثر مما يستحق، فأنا لن أضمن ماذا يفعل ملك (قشتالة)، إن تأخرتم عليه!

ثم انصرف عنهم خارجًا من قرمونة بعد أن خذّلهم عن المقاومة ومنّاهم السلامة.

ما إن خرج (ابن الأحمر)، حتى راح الأمير يتفقد الخزائن والمؤن والأسلحة، فوجد أنّ لديه ما يكفيه وشعبه لشهور طويلة، فلماذا يستسلم؟! هكذا فكر أبو الحسن، الذي كان يمشي في صمت يتفقد شوارع مدينته وحوله حرسه، حتى وصل إلى قلب المدينة، وهناك أعلن نيته عدم الاستسلام، ورفض اقتراح (محمد بن الأحمر)، وكان مما قال بعد أن جمع الناس:

- قد بلغكم أن ابن الأحمر جاء يعرض علي الاستسلام والتسليم ظنًا منه أني أخشى القشتاليين، لا والله لا أخشاهم أبدًا وأن أقضي شهيدًا هنا (يشير إلى أسفل قدميه) هو غاية ما أتمنى.

ثم انصرف ليتابع أمور الحصار، وشئون المدينة الصغيرة، وقد أثارت كلماته الهرج والمرج في صفوف العامة، فانطلقوا واختلفوا فيما بينهم، بين مؤيد للأمير ومخالف له، إذ قال واحد منهم:

- لقد صدق الأمير في حديثه.

مستنكرًا قال كبير التجار:

- صدق؟! تقولها لأنك لا تملك مالًا أو ما تخشى عليه، لكننا نملك ما نخشى عليه، إن تمكن القشتاليون من أخذ المدينة حربًا، وقتها لن يُبقوا منا أحدًا فوقها!

عاد الرجل يسأل متهكمًا:

- وهل لو دخلوها سلمًا، سيتركونك تحيا كما تشاء وتجارتك؟ انظر إليهم في (قرطبة) ماذا فعلوا؟ بل انظر إلى (جيان) وماذا فعلوا فيها... لقد حولوا مساجدها كنائسًا، فلم يبق في كل (قرطبة) مسجد واحد يُذكر فيه اسم الله، ولحقت (جيان) (بقرطبة)، وتحول المسلمون فيها إلى مدجّنين خانعين خاضعين، فلا مساجد لهم ولا حقوق، ولا ذكر لله إلا في القلوب، ولا صلاة في جماعة، فهل هذه هي الحياة التي ترنو إليها يا كبير التجار؟!

بلهجة جادة، وصوت مرتفع، وتهديد واضح، قال كبير التجار:

- اصمت يا هذا، أنت لا تفقه شيئًا مما تقول، ثم هل موتنا هنا هو ما سيمنع من تحويل مساجدنا كنائس؟

لم يلتفت الرجل إلى تهديد كبير التجار له، وأردف قائلًا:

- نمنعهم برقابنا وصدورنا، فلا يفعلون وفينا عرق ينبض أو دم يجري.

لم يملك كبير التجار نفسه، فقال يحقّر الرجل، ويخوّف الباقين:

- شاب غر لا يرى غير ما في رأسه... يا أهل قرمونة لن يكون الأمر مجرد تحويل المساجد إلى كنائس، فسيعتدي القشتاليون على نسائكم وأموالكم، فإن كان لا بد من الخسارة فلتكن كما نريد، ولنخرج منها بأقل الخسائر،

أنا ذاهب للأمير فمن وافق رأيه رأيي فليتبعني، ومن أراد أن تُسبى نساؤه فليفعلن ما يريد!

انطلق كبير التجار جهة قصبة المدينة، وخلفه جمع كبير من وجوه قرمونة ورجالها، ودخلوا على الأمير واتفقوا على وجوب حماية نساء المدينة وأموالها، فقال لهم الأمير:

- إنّ حصون وأسوار قرمونة تحميكم، وإن ثملت الأسوار، بقيت السيوف والرماح، ندافع بها عن أنفسنا ونسائنا، فلا يصل القشتاليون إلى مآربهم، وفينا يد تتحرك، أو رأس على عنق.

عاد كبير التجار ينفث سمومه:

- أيها الأمير إن ظلت الأسوار ستنفد المؤن، ووقتها لن يكون أمامنا غير التسليم، فلم لا نفعل الآن، ما سنُجبر غدًا على فعله، ونكون في سعة من أمرنا؟

اغتاظ أبو الحسن لكنه تمالك نفسه وقال:

- وقتها سننظر في الأمر، فلا تتعجلوا الشر، ولا تتوقعوه فيكون. ومن يدري فلعل صاحب (قشتالة) ييأس من مدينتنا، عندما يرى امتناعنا بها، فلم لا نكون أصبر منه على حفظ المدينة؟

- وقتها لن يرضى ملك (قشتالة) بالتفاوض معنا، ونحن نفاوض عن ضعف وهزيمة واقعة لا محالة، ولمَ يفاوضنا والموت يتبعنا؟! أما اليأس أيها الأمير فلا أظنه يفعل.

- لقد أرسلت في طلب النجدات من (إشبيلية)، فلماذا لا ننتظر؟ لماذا نسلم في أول محاولة منهم فرض التسليم علينا، لماذا نترك فرصة للدفاع قد نغنمها!؟

- أيها الأمير لا يخفى عليك تلك الحشود خلف ملك (قشتالة)، ولو أنه أراد فقط قرمونة، لكان على رأس المحاصرين لها، ولكنه أراد (إشبيلية)، فأرسل لنا فرقة من جيشه، بينما يتجه هو جهة (إشبيلية)، مما يعني استحالة خروج نجدات من إشبيلية إلينا!

تكاثرت الأصوات على الأمير، وجلهم يرى ما يراه كبير التجار، فلم يجد الأمير مفرًّا من تنفيذ إرادتهم، لأنه في النهاية لن يجاهد وحده، فماذا لو أنَّ أحدهم

خان وفتح للقشتاليين الأبواب، وماذا لو أنّ تلك الأصوات فعلت فعلها في الجند؟! إنّ الجند من الشعب، فإن خان الشعب سيخون الجند!

لذا وبعد صمت يسير، تكلم الأمير وقال:

- اسمعوني جيدًا، سنتفاوض مع القشتاليين كما أردتم، ولكن لن نسلم لهم المدينة إلا بعد ستة أشهر، فإن وصلت النجدات حاربناهم، وإذا لم تصل استسلمنا كما طلبتم!

- وهل يرضى ملك (قشتالة) بهذا الرأي؟

- لا رأي عندي غير هذا!

لم يجد الأمير أبو الحسن مفرًّا من التفاوض مع القشتاليين، بعدما أجبره أهل المدينة بخنوعهم على ذلك، فأرسل إليهم من يتفاوض معهم، وكان (لمحمد بن الأحمر) اليد العليا في إتمام هذا الأمر، إذ أقنع ملك (قشتالة) باستحالة وصول الإمدادات من (إشبيلية) أو غيرها، مما يعني أن شرطهم واقع لا محالة، وبهذا يستفيد ملك (قشتالة) من هذا الشرط، فيصرف جنده لمهاجمة المناطق الأخرى، ويترك على الحصار ألف جندي فقط! فرضي ملك (قشتالة) بهذا، وتم له الأمر كما لم يحلم به من قبل.

بعد أن أمّن ظهره من جهة قرمونة، تحرك (فرناندو) في قواته صوب (إشبيلية)، من طريق شمالية بحذاء الوادي الكبير، واستولى في طريقه على لورة بالأمان، واعترف أهلها بطاعته، ثم سار بعد ذلك إلى قنطلانة الواقعة شمالي (إشبيلية) على الوادي الكبير وهاجمها، واقتحمها عنوة، وأسر منها سبعمائة مسلم، وقصد بعد ذلك إلى غليانة، فسلم أهلها اعتبارًا بما حدث لقنطلانة، وكذلك سلمت جرينة القريبة منها.

وقد كان لملك (غرناطة) الدور الأعظم في معاونة ملك (قشتالة)، على إخضاع هذه المجموعة الكبيرة من البلاد، والحصون المهمة من قرمونة حتى القلعة، وذلك بإقناع أهلها والمدافعين عنها بالتسليم بالأمان، وإقناع ملك (قشتالة) من جهة أخرى بالتساهل في شروط التسليم.

(١٣)

حكاية (قمر)

تبدّلت أحوال (مريم) وتغيرت، وعادت تعانق الحياة بعد أن فتحت لها ذراعيها مرة أخرى، ووقفت أمام المرآة تنظر إلى وجهها، وتتحسسه بيديها، فبدا غريبًا عنها، فليس هذا وجه (مريم) الذي تعرفه... وضعت يديها على خديها، ثم راحت تتلمس كل وجهها بيديها... واعتراها الحزن، لأنها لم تعد بهذا الجمال الذي كان من ذي قبل، ثم ارتدت إلى سريرها، وأخرجت من أسفل وسادتها رسالة، وجلست تقرأها وعيناها تفيضان بالدمع، ولكنه لم يكن هذا الدمع الحار المؤلم، بل دموع فرح تتناثر كحبات اللؤلؤ، وقلب مبتهج سعيد.

قبلت (مريم) الرسالة واحتضنتها بقوة، وصمتت ولم تتحدث، ومر الوقت ودق باب غرفتها، الذي لم تخرج منه (مريم) منذ زمن... نظرت (مريم) جهة الباب، فإذا (بقمر) جاريتها وصديقتها... دخلت (قمر) وشاهدت (مريم) وهي تحتضن الرسالة، فابتسمت، فبادرتها (مريم) قائلة:

- أخبريني بما كان بينكما يا (قمر).

في حنان قالت (قمر):

- يا حبيبتي لقد أخبرتك غير مرة، ألم تملي من تكرار الحديث؟

شهقت (مريم) من أعماق صدرها، وقالت:

- لا أمله أبدًا، بل يزيدني شوقًا يا (قمر)... فاعيديه على مسامعي... أرجوك.

نظرت (قمر) إلى (مريم) وصمتت لحظة، قالت بعدها:

- بعد أن التقيت (عبدالرحمن)، قال لي إنّ الوقت قد تأخر. فإن كان في الغد فتعالَي والتقي بمن تريدين، وفي صباح اليوم التالي كنت أقف أمام منزل (عبدالرحمن) الذي ابتسم لي حين رآني وقال:

- لم تخلفي موعدك يا (قمر)!

فقلتُ له:

- كيف أخلف موعدًا تتوقف عليه حياة إنسانة، تمثل لي الكثير في هذه الدنيا؟

ما إن قلت هذا حتى ابتسم متعجبًا، وقال لي:

- اتبعيني.

فسار وسرت خلفه، ولما كانت خطواته سريعة متباعدة، توقفت وصحت به، فعاد إليّ وقال:

- ما بك؟

- تراك نسيت يا سيدي أني أتبعك.

- لا لم أنسَ.

- فلم تحث الخطي وتباعدها؟

ضحك (عبدالرحمن) واعتذر، ثم تابع سيره ولكن بخطوات محسوبة، حتى وصل إلى منزل صغير بالقرب من مسجد (محمد بن عمر بن عديّس).

طرق (عبدالرحمن) الباب، وبعد لحظات فتُح الباب وخرج (زيد) منه، في البداية لم ينتبه لي، غير أنّ (عبدالرحمن) قال له:

- أنا لست بمفردي يا (زيد)، (فقمر) معي؟

لم يدر (زيد) ماذا يفعل وقتها، فقد اضطرب وتصبب عرقه، عندها شعرت بالحيرة والتوتر في ردوده، فقال له (عبدالرحمن): سأعود أنا لمتابعة ما يجري من أمور، وأتركك مع (قمر) على أن لا يأخذك الوقت، وتنسى أنّ موعد حراستك قد أزف.

انطلق (عبدالرحمن)، واقترب (زيد) مني، وهو يقول بصوت كما الحلم:

- (قمر)؟!!

- نعم يا سيدي (قمر).

- كيف حالك وكيف حال...؟

- هل ستتركنا نتحدث هنا؟

- تفضلي يا (قمر) تفضلي!

دخلت فسلمت على أم (زيد)، التي كانت تجلس في بهو المنزل، ثم أمر (زيد) جاريته بإعداد الشراب لي، وجلست أنا و(زيد) الذي نظر إليّ، فقلت له:

- لمَ لمْ تكمل السؤال يا سيدي؟ هل نسيت اسمها أم كرهت ذكرها؟

تنهد (زيد) وقال:

- لا تظلميني يا (قمر)!

- فلمَ لم تذكر الاسم؟

- أخشى ذكره فتهيج مشاعري، وأنت لا تعلمين كم أقاسي لبعدها، بعدما يئست من أن أسلوها وقد عزّ علي وصالها... (مريم)... إنّ اسمها بل حروف اسمها يا (قمر)، تجعل قلبي يحترق شوقًا لها... فما أجمل اسمها، وما أجمل صاحبته!

- هل ما زلت تحبها يا (سيدي)؟

تنهد (زيد) وقال:

- في حزن وألم، وما الفائدة يا (قمر) وقد ذهبت لغيري، وما فائدة الحب إن انتهت أيامه بالفراق والألم؟ وقتها يتحول الحب إلى نار، تأكل القلوب التي حرمت حبيبها وقربه، وهذا هو حال قلبي... نعم يا (قمر) أحبها، أحبها وما زلت أحبها، وسأظل أحبها، ولا أملك غير ذلك، فلا سلطان لي على قلبي!

ابتهجت (قمر)، وانفرجت أساريرها، وقالت:

- وهي أيضًا تحبك وتذوب شوقًا إليك يا (سيدي).

لم يفرح (زيد) بكلمات (قمر)، بل نظر إليها وقال:

- وما الفائدة يا (قمر)، وقد حُكم على هذا كله بالحرمان؟

- لو كان الحكم كذلك، ما كنت أنا هنا الآن!

نظر (زيد) إلى (قمر) نظرة مستفهم، وضاقت عيناه بنظرات مستفهمة، وبصوت مرتفع بعض الشيء قال لها:

- ماذا تقصدين؟

بابتسامة هادئة، قالت (قمر):

- أقصد أنّ (مريم) لم تعد مخطوبة لغيرك!

فتح (زيد) عينيه على اتساعهما، وقال مندهشًا:

- ماذا!!!!!!!؟

- نعم يا (سيدي)، فبعد ما كان من أمر الحفصيين، وما فعلته من أجلها، وما فعله ابن عمها من جبن ونذالة، فسخ والدها الخطبة، وطرد ابن أخيه.

- ماذا؟ لا أكاد أصدق... هل هذه حقيقة أم حلم؟

- بل حقيقة يا (سيدي).

- فإن كانت كذلك، فلماذا لم تخبريني من قبل؟ لماذا؟

- لقد حاولت يا (سيدي) ولكن لم أستدل على مكانك، فدكانك مغلق، ودارك القديمة قد بعتها، ولم تعد تذهب إلى الوادي الكبير، فكيف أخبرك وأنا لا أعلم عنك شيئًا؟

وقف (زيد) وهو لا يكاد يصدق نفسه، ولم يعد يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول، وبعد لحظات جلس، وفي اهتمام شديد قال:

- إذن أخبريني كيف حال (مريم)؟

- مسكينة! فما زالت طريحة الفراش منذ وقت بعيد، وقد احتار في أمرها الأطباء، ولم يعرفوا لشفائها سبيلًا.

هز (زيد) رأسه يمينًا ويسارًا، وراح يضرب كفًّا بكف ويقول:

- منذ وقت طويل وأنا لا أعلم!

- لقد حدث ذلك مذ ذهبت إلى شاطئ الوادي، ولم تجدك تنتظرها، ثم علمت بعدها ببيعك دارك، وإغلاقك لدكانك، فشعرت أنها لن تراك ثانية، فدبّ اليأس في أوصالها، وأحست أنَّ شيئًا قد أصابك، وبخاصة بعد الذي فعلته مع الحفصيين، فكيف تكون أنت سبب حياتها وإنقاذها من براثنهم، وتكون هي سببًا في هلاكك؟

زفر (زيد) نفسًا كأنه اللهب، ثم أغمض عينيه، ووضع كفيه عليهما، وقال:

- تبًّا لي، تبًّا لي وما فعلت!

- هدأ من روعك يا (سيدي)، فما كان قد كان!

- أريد أن أراها يا (قمر)... أرجوكِ.

- أبشر!! فما أنا هنا إلا لأكون سفيرة، تجمع بينكما مرة أخرى.

في اهتمام قال (زيد):

- فمتى يكون اللقاء؟

- عندما تتحسن صحّتها، ولا أظنّ أن يكون بعيدًا.

- سأنتظر ذلك على أحرٍّ من الجمر.

- إذن أقوم أنا، لا أتأخر أكثر من ذلك.

- انتظري حتى تشربي ما نعده لك، ولا تخرجي حتى أعود.

تنهدت (قمر)، ونظرت إلى (مريم)، الهائمة في بحر من الأشواق، وقالت:

- دخل (زيد) غرفته، وجاءت جاريته، وهي تحمل كوبًا من العصير، قدمته إليّ، فأمسكته، وارتشفت منه... لحظات مرت وعاد (زيد)، وهو يحمل تلك الرسالة التي بيدك الآن.

سرحت (مريم) ببصرها، وقالت:

- أكملي وماذا بعد أن أعطاك الرسالة؟

- قبّلها قبل أن يعطيني إياها ثم قال لي: أخبري مَن أحبُّ أني على العهد باق، وأنَّ حبها راسخ متجذر في قلبي، لا شفاء منه إلا بقربها مني... وأبلغيها أنهًا يومي وغدي، وأبلغيها أنّ حياتي لا قيمة لها بدونها، والأيام رتيبة لا لون لها ولا طعم.

وبعدها نهضتُ لأنصرف، فلما وصلتُ إلى الباب صاح، وقال:

- برج الذهب... يوم الجمعة.. كل جمعة.

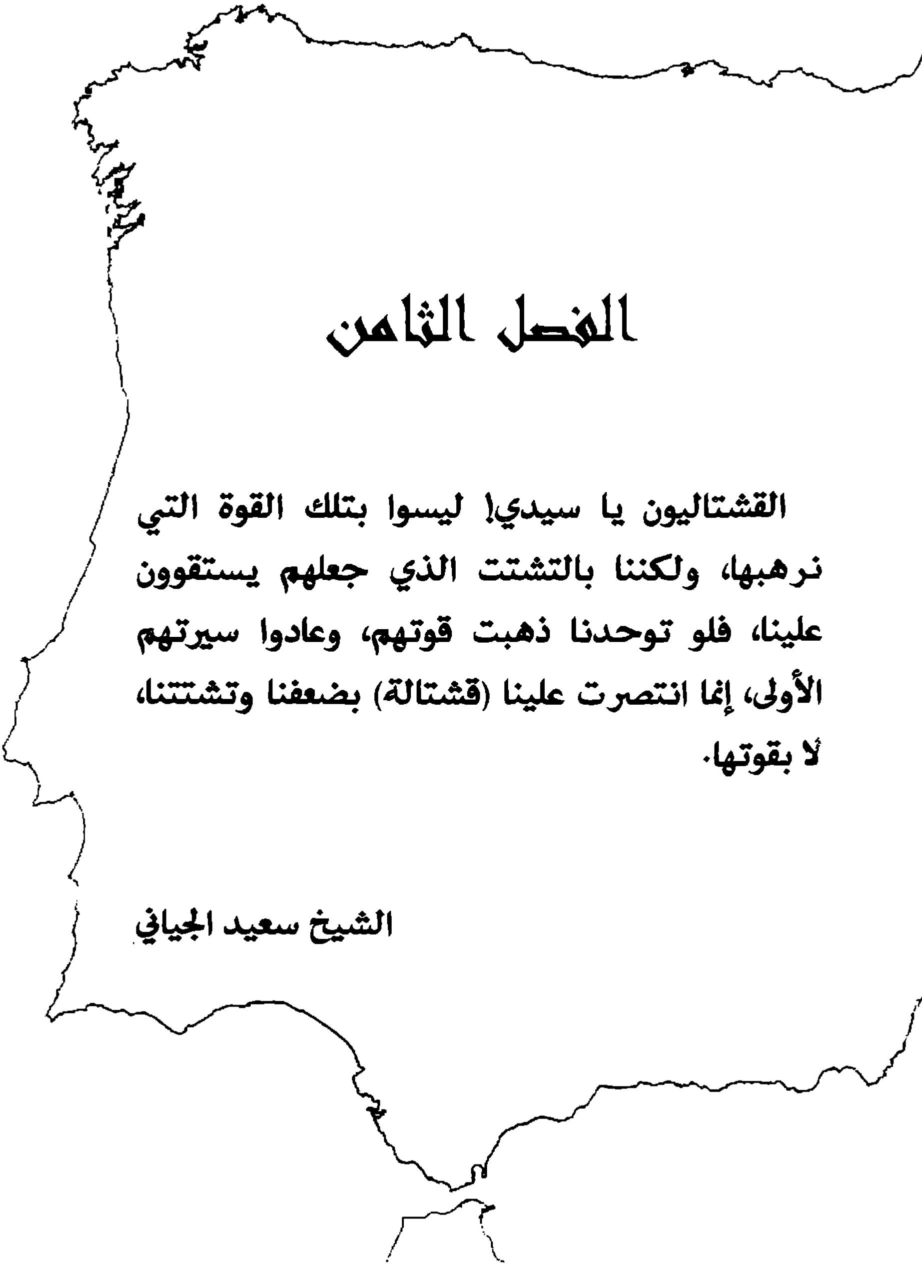

الفصل الثامن

القشتاليون يا سيدي! ليسوا بتلك القوة التي نرهبها، ولكننا بالتشتت الذي جعلهم يستقوون علينا، فلو توحدنا ذهبت قوتهم، وعادوا سيرتهم الأولى، إنما انتصرت علينا (قشتالة) بضعفنا وتشتتنا، لا بقوتها.

الشيخ سعيد الجياني

(أ)

طبخة ابن شعيب

كان ابن شعيب منهمكًا في تجاربه التي أرهقته ماديًا فخسر كثيرًا من ماله، ولكن رغم ذلك فقد قرر أن يجرب مرة أخرى، فهو لا يعرف معنى اليأس. وقرر هذه المرة أن ينجز صناعة كميات كبيرة من ملح البارود، فأحضر سبعة ونصف رطل من ثلج الصيننترات البوتاسيوم، مع اثنين ونصف رطل من الفحم، وأضاف إليها رطل من مسحوق الكبريت الأصفر، وقام بطحنها جيدًا وبهدوء، حتى خرج منها مسحوق متناسق أسود اللون، بعدها قام بأخذ عينة صغيرة من هذا الخليط بيده، وأشعل فيها النار، فاشتعلت بسرعة كبيرة، أبهجت ابن شعيب، الذي راح يحمد الله على ما تم.

وكانت هذه خطوته الأولى فيما أراد صنعه، ثم خرج من بيته ليبتاع قطع الحديد القديمة، فدار هنا وهناك، حتى جمع منه الوزن الثقيل، وحمله إلى بيته... بعدها جلس ينقي الحديد من شوائبه، حتى إذا تم له ما أراد، قام بصهره حتى ذاب، وتحول إلى سائل أحمر اللون، بعدها قام بصبه ليصنع منه أنبوبًا طويلًا ذا مخرجين، ولكن أحد مخارجه أضيق من الآخر.

ما إن صبّ السائل حتى جلس يستريح، وقد تصبب منه العرق الشديد، وقد طالت ملابسه الأوساخ، كما تلطخ وجهه بالفحم، وفجأة إذا بمن يطرق عليه الباب، وبقوة غير معتادة.

ترك ابن شعيب ما في يده، ونهض من فوره ليفتح الباب، فاذا هي أخته، التي كانت مفزوعة، فالأدخنة المتصاعدة من الدار، كانت تنبئ بوقوع حريق ضخم فيه، ولكن ابن شعيب طمأن أخته، وقال لها:

- هدئي من روعك يا زينب، فما هي إلا نار الفرن، الذي كنت أقمته لبعض حاجتي!

جلست زينب تتنفس الصعداء، وهي تقول:

- سامحك الله يا أخي، فقد راعتني رائحة الأدخنة المتطايرة.

ضحك ابن شعيب، وقال لها:

- لو كان حريقًا كما تظنين، لسارع الجيران إلى إطفائه! ولكن لأنهم يعلمون أنه بيدي لم يتحركوا، أو يُحدثوا جلبة.

- ومن لي بتلك الأفكار الآن؟ فقد هالني ما رأيت فلم أفكر في غيره.

قالت ذلك ثم أخرجت طعامًا كانت تحمله، وقدمته لأخيها الذي راح يأكل في نهم شديد، وهو يقول:

- لم لا تشاركينني طعامي؟

- لقد سبقتك منذ وقت فكل هنيئًا مريئًا.

نهضت زينب لتشاهد ما يصنع أخوها، وتابع هو طعامه ثم إذا بها تقول:

- إلى متى تنشغل عن أمور الناس هكذا؟

- أنا لست منشغلًا عنهم، بل أنا منشغلٌ بهم!

- تقول ذلك، بينما لا تنفك تخرج من بيتك وما تصنع!

نظر ابن شعيب يمينًا ويسارًا ثم قال:

- لن أخرج من هنا قبل أن أصل إلى ما أصبو إليه، فهنا يشير بيده وعن طريق تلك الأدوات، وهذا التراب، سأصنع (لإشبيلية) المستحيل، فاطمئني، فأخوكِ لا يتأخر أبدًا عن بلده ودينه.

- لكنهم وصلوا إلى قرمونة وقتطلانة وغليانة وجرينة والقلعة، واحتلوها جميعًا.

ترك ابن شعيب طعامه، وحمد الله، ثم وقف وقال بثقة كبيرة:

- سيجدون في (إشبيلية)، ما يمنعهم من دخولها.

(٣)
وصول فرسان القلعة

كان (شقاق) وقادته يتابعون ما يجري بقلق رهيب، خاصة بعدما علموا من تواجد (محمد بن الأحمر) وجيشه مع ملك (قشتالة)، مما يعني انقطاع النصير في شبه الجزيرة الأيبيرية، وانفراد (إشبيلية) كالشاة الشاردة، غير أنّ الشاة الشاردة تختار الشرود لنفسها، أما (إشبيلية) فقد فُرض عليها فرضًا.

كان كل من شقاق وابن خلدون وعبد الرحمن عند أسوار المدينة يوزعون الجند ويرتبون نوبات المرابطة على الأسوار. ولما وصلوا إلى برج الذهب، صعد شقاق البرج ومن خلفه عبد الرحمن وابن خلدون، فقد أراد شقاق أن يدرس الميدان الذي قد يشهد النزال خلال الحصار ويستلهم الخطط. دقق شقاق ورجاله الأوفياء في الموقع وتضاريسه حتى استوعبوها وحفظتها قلوبهم. وبينما هم كذلك إذ بفرسان مقبلين وخيولهم مطلقة الأعنة قد أثارت سنابكها غبارا وجلبة، فظن الجميع أنها طليعة الجيش الغازي.

نظر الثلاثة إلى حيث الخيول، ثم نزل (شقاق) على عجل، وخلفه (عبدالرحمن)، بينما ظل ابن خلدون مكانه يراقب ما سوف يحدث.

امتطى (شقاق) و(عبدالرحمن) فرسيهما، وأسرعا تجاه باب (إشبيلية) ليطمئنا على إحكام غلقه، وفي نفس الوقت، نادى (شقاق) بالرماة أن يستعدوا، ويقتلوا كل من يحاول من الجيش المغير الاقتراب من الأسوار.

أحدث ذلك التطور السريع رعبًا في أهل (إشبيلية)، الذين تناقلوا الخبر فوجموا، وتجمهروا عند باب المدينة، يترقبون جديد الأخبار، وفجأة سمعوا صوتًا يصرخ ويقول:

- القشتاليون قادمون... القشتاليون قادمون.

نظروا لمصدر الصوت فوجدوه يوسف البياسي، الذي تابع ترديد كلماته حتى أفزع الجميع، وبكى الأطفال، ووجم الرجال، بينما أكمل كلامه، فقال:

- القشتاليون قادمون يشير بيده نحو الأسوار، ولن يرحموا طفلًا أو شيخًا، سيقتلون الرجال، ويستعبدون الأطفال، ويسبون النساء... ألا فاستعدوا وأعدوا، فالموت قريب، وهو آت آت، غير أنّ الشجاع يموت مرة واحدة، ويموت الجبان ألف مرة، استعدًوا وأعدوا،،، استعدوا وأعدو.

ثم تحرك يجوب شوارع (إشبيلية)، يكرر كلامه وحديثه، حتى اختفى عن الأنظار.

ظل ابن خلدون يراقب القادمين من بعيد، بينما استعد (عبدالرحمن) و(شقاق) للقتال، وبينما هم في حالة ترقب، وقد بلغت القلوب الحناجر، إذا بابن خلدون يصيح:

- إنهم أهل القلعة، إنهم أهل القلعة يا رماة السهام أمسكوا سهامكم.

صرخ (شقاق) وقال لرماة السهام:

- أمسكوا سهامكم، لا تطلقوا عليهم سهمًا واحدًا

ثم أعطى (شقاق) أوامره لسدنة الأبواب أن افتحوا الأبواب، فتدفق منه ثلاثمائة فارس ودخلوا (إشبيلية)، وفور دخولهم أغلقت (إشبيلية) أبوابها مرة أخرى.

نزل قائد الفرقة عن صهوة جواده، واقترب من الأمير (شقاق)، الذي عانقه وقال له:

- مرحبًا بك في (إشبيلية) يا ابن أبي علي.

حاول أبو الحسن أن يبتسم فلم يستطع. وصمت، فنظر إليه (شقاق) وقال:

- ما بك يا رجل؟

نكس أبو الحسن رأسه، وقال:

- خرجت من قرمونة، بعد أن كتبت بيني وبين ملك (قشتالة)، كتابًا ينص على تسليم المدينة، إن لم تصل الإمدادات والنجدات، خلال فترة ستة أشهر، وتركت قرمونة خلفي لأحضر النجدات بنفسي، فما إن وصلت إلى القلعة القريبة من (إشبيلية)، حتى دخلتها أتزود منها ما يبلغني (إشبيلية)، فتقدم العدو قاتله الله وحاصرها وأنا فيها، فما كان من أهل القلعة، إلا أن ولوني أمرهم، بعدما عرفتهم بنفسي، فحاولت أن أتفق مع ملك (قشتالة)، نفس اتفاقي معه في قرمونة، فرفض العرض...

ثم أمسك أبو الحسن بكوب ماء، وارتشف منه رشفة، ثم أكمل:

- ولما رفض (فرناندو) ذلك متعللاً بقرب القلعة من (إشبيلية)، لم أجد أمامي غير الحرب التي قررت أن أخوضها.

قاطعه (عبدالرحمن):

- ألم يكن من الأولى أيها الأمير، أن تخوض تلك الحرب في قرمونة، وهي أحصن من القلعة وأوفر أموالاً ورجالاً؟

- إنما تُخاض الحروب بالرجال الذين لا يهابون الموت، ولا تُخاض بالغثاء الجبناء، وقد وجدت في القلعة ما لم أجده في قرمونة... وجدت رجالاً أشداء، يفضلون الموت عن الاستسلام.

تدخّل (شقاق) وقال

- دعك من (عبدالرحمن) وأكمل..

- خرجنا غير مرة لقتال القشتاليين، وأوقعنا بهم خسائر فادحة، وقتلنا منهم أضعاف أضعاف أعدادنا، لكنّ ذلك لم يفتّ في عضد (فرناندو)، بل قرر ضرب القلعة بالمجانيق واللهب، فخشيت أن تثلم الأسوار، ويقتحم اللعين القلعة، ويفعل بأهلها ما فعله من قبل في قنطلانة، إذ قتل كل أهلها، فقررت أنا ورجالى أن نستسلم له، لننحاز إليكم، وبذلك سمح لنا (فرناندو) بمغادرة القلعة، حاملين أسلحتنا، فجئنا إليكم نقاتل معكم، وننتقم لخسارتنا في القلعة.

في اهتمام وقلق قال (شقاق):

- وماذا عن قرمونة؟

- إن سقطت (إشبيلية) يا سيدي، فلن يكون ثمة أمل، في إنقاذ قرمونة... لكن إن نجت (إشبيلية) ستنجو قرمونة، كما أن (فرناندو) لن يسمح لقوات (إشبيلية) أن تنجد قرمونة، وسيحول بين ذلك بكثافة قواته.

(٣)

الملك الذليل!

دخل (فرناندو) وقادته القلعة، بعد أن خلت من المدافعين عنها، وفور دخوله أمر أن تُحوّل مساجد القلعة إلى كنائس، جريًا على العادة القشتالية القديمة.

وفي القلعة احتفل (فرناندو) بما حققه من نجاحات متتالية، فقد نجحت قواته في أشهر قليلة في التضييق على (إشبيلية)، واقتطاع أجزاء كبيرة من القرى التابعة لها، ودارت الكؤوس المترعة بالخمر، وارتشفتها الشفاه الظمأى حتى الثمالة، كل يتجرع الكأس تلو الكأس، بينما تتعالى الضحكات هنا وهناك.

اقترب أردونيو من محمد بن الأحمر، وقد ظهرت عليه علامات السكر، ومد له يده بكأس خمر قائلًا:

- ألن يشاركنا الأمير شرابنا، واحتفالنا؟

- أنت سكران يا أردونيو، وإلا فأنت تعلم تمامًا أني لا أشرب الخمر.

ضحك أردونيو ضحكات مجلجلة، وقال:

- الخمر حرام، والقتال بجانبنا ليس بحرام، لحم الخنزير حرام، والتحالف معنا ليس بحرام!

لاحظ (فرناندو) ما يحدث، ولكنه لم يستطع كبح جماح قائد جيشه، وقد أدرك أن الخمر لعبت بعقله، وحفاظًا على وجود أمير (غرناطة) بينهم، فقد أمر (فرناندو) بعض حراسه بحمل أردونيو إلى خيمته، قائلًا لهم:

- احملوه فقد صرعته الخمر، فما عاد يدري ماذا يفعل أو يقول.

تقدم حارسان وحملا أردونيو، وهو يقهقه بشدة ويقول:

- الخمر حرام، ولحم الخنزير حرام...!

بينما التزم (ابن الأحمر) الصمت، وقد أسقط في يده، فلم ينبس بكلمة... ولتبديل مجرى الحوار انبرى (فرناندو) متسائلًا:

- ما هي أخبار الأسطول يا (ألبار بيرت)؟

تنبه (ألبار بيرت) للسؤال، وقال:

- وصلت الأخبار يا سيدي بدخول الأسطول مياه الوادي الكبير، قادمًا من كنتبرية، وهو في طريقة (لإشبيلية).

ارتشف (فرناندو) من كأسه جرعة كبيرة، وقال:

- رائع!! رائع... كم عدد سفن الأسطول يا (ألبار)؟

- ثلاث عشرة سفينة كبرى يا سيدي، وعدد من القطع الصغيرة، وجميعها مشحونة بالرجال والمؤن.

وقف (فرناندو) ودار وسط الجلوس، وقال:

- حتمًا سيحتاج رامون بونيفاس إلى قوة برية تؤازره وتحميه.

صدق بلاي كوريا على كلام الملك، وقال:

- لقد جردت (إشبيلية) من سائر حصونها الأمامية، وخطوطها الدفاعية الأولى يا مولاي، وها هو الأسطول يقترب، مما يعني وجوب بدء ضرب الحصار على المدينة، حتى نجبرهم على الاستسلام.

استدرك الأب ماغنوس، متسائلًا في قلق:

- لكن ماذا لو خرج الجيش (الإشبيلي)، وهاجم معسكرنا؟

تنحنح (ألبار بيرت) وقال:

- العفو يا سيدي، ولكن هناك حقيقة مهمة، يجب علينا أن نتعامل بها في الوقت الحالي... تلك الحقيقة تقول إن المسلمين قد فقدوا جرأتهم منذ زمن، فلم يعودوا يخرجون لحربنا كما كانوا من قبل، بل تراهم يموتون خوفًا خلف الأسوار، لذا فمهما بلغت قوتهم لن يتجرؤوا على الاقتراب منا بكامل قواتهم، وجل ما يمكنهم فعله، هو أن يخرجوا ويحاربونا حرب عصابات خاطفة.

سمع (محمد بنٍ الأحمر) هذا الحديث، فوضع يده على جبهته، ولم ينطق، بينما كاد يتميز غيظًا وكمدًا، ولكنه لم يحاول أن يظهر ما يعانيه.

أيد (فرناندو) كلام وزيره وقال:

- أصبت يا (ألبار)، فقد جعلتني أتذكر يوم فتحي (لقرطبة)، ولم يكن معي وقتها سوى مائتي جندي فقط، استطعت بهم أخذ المدينة، بينما (محمد بن يوسف بن هود) كان معه جيش كبير، ربما يصل عدده إلى عشرون ألف مقاتل، ورغم ذلك لم يجرؤ على مهاجمتي، وسقطت (قرطبة) بيدي!

ثم قهقه فرناندو ورجاله وتمايلوا في نشوة، كل هذا ومحمد بن الأحمر صامت لا يتحدث، فالتفت إليه فرناندو، وقال:

- ما لي أراك عابس الوجه يا ملك (غرناطة)؟ أحزين أنت على (إشبيلية)؟

اضطرب (ابن الأحمر) وقال بسرعة، وكأنه ينفي التهمة عن نفسه:

- قطعًا لا يا مولاي، فقد غدروا بي منذ سنوات وأخرجوني من بينهم، لهذا لست أعبأ بما قد يحدث لهم.

هزّ (فرناندو) رأسه مبتسمًا، وراح يحدث نفسه:

- ربما أثقلت على ملك غرناطة بحديثي عن الحوادث القديمة، ينبغي أن أبدل مسار الحديث إلى أمور الحصار والحرب القادمة.

ثم أمسك بكأس خمر في يده، ورفعها عاليا، وقال:

- مهما كانت قوة احتمال (إشبيلية) وصبرها، فلن أعود منها، وبها مسجد واحد يؤذّن فيه بندائهم!!

ثم شرب الكأس دفعة واحدة.

(٤)

أغسطس ١٢٤٧

في صباح يوم الخامس عشر من أغسطس سنة ١٢٤٧ م غادر (فرناندو) بلدة القلعة في قواته متجهًا جنوبًا إلى (إشبيلية)، حتى إذا وقف أمام أسوارها، زاغت أبصاره وهو يشاهد فخامتها وروعتها وحسن تنظيمها وجمال بنائها، حتى بدت لأول وهلة كأنها قطعة من الجنة، بكثافة أشجارها وروعة مبانيها...

فتح (فرناندو) فمه ووقف مشدوها أمامها، يراقب جمالها الأخاذ في صمت رهيب، لم يخرجه عنه سوى صوت المؤذن لصلاة الظهر، مما راعه وجعل بصره يتوجه صوب المنارة الشاهقة، التي تكاد تصل بارتفاعها إلى السحاب وهو يقول في نفسه: عما قريب ستدق مكانك الأجراس، ثم رنا ببصره فشاهد برج الذهب بارتفاعه الكبير.

بعد جولة قصيرة قضاها (فرناندو)، وهو يجول ببصره ذات اليمين وذات الشمال، أمر بإقامة المعسكر بالقرب من أسوار المدينة... ثم نزل عن صهوة جواده وراح يسير ذات اليمين وذات الشمال، وبينما هو كذلك إذ تقدم منه (ألبار بيرت) وقال:

- سيدي الملك، لي رأيٌ لو أذنت لي؟

- هاتِ ما عندك يا (ألبار).

- ليس من الصواب إقامة المعسكر ها هنا، بالقرب من أسوار المدينة.

تعجب (فرناندو) وقال مندهشًا:

- لماذا بينما نقيمه بعيدًا عن النبالة وحاملي السهام؟

- تحسبًا من حرب خاطفة قد يقوم بها هؤلاء يا سيدي، (فشقاق) هذا لا أمان له!

تحرك (فرناندو) ممسكًا بسيفه، وراح ينخر به الأرض مع كل خطوة، ثم قال بعناد:

- لن أغيّر مكان معسكري يا (ألبار بيرت).

- لكن سيدي..!

- لا تراجعني في هذا الأمر مرة أخرى يا ألبار.

ما إن ظهر الجيش القشتالي أمام أسوار المدينة، حتى أغلقت دونهم أبوابها، وتبدلت أحوال أهلها، وملأتهم الحماسة، وحمل الكثيرون منهم السلاح، وذهب عنهم الخوف وسرت فيهم روح جديدة، فالتفوا حول (شقاق) يؤازرونه في سعيه، بعدما شاهدوا حملة الصليب، يريدون ديارهم ومساجدهم، وقد سعد بهم (شقاق)، ورأى في ذلك بادرة خير للمدينة، ولدولة الإسلام في (إشبيلية).

وفي قصبة المدينة اجتمع (شقاق) وكبار رجاله، يدرسون الخطة لمناجزة العدو وإرهاقه لإجباره على الانسحاب والتراجع، وحول منضدة مستديرة راح القادة يناقشون قادم أيامهم، وخططهم، ومعلوماتهم عن الجيش المحاصِر، فتحدث ابن خلدون وقال:

- يجب أن لا نعطيهم فرصة واحدة يستريحون فيها، يجب أن نزلزل أركانهم، ونبدل ليلهم نهارًا، حتى يعلموا ويتعلموا أنّ (إشبيلية) مختلفة عن غيرها، وأنّ بها رجالًا لا يهابون الموت.

في حماسة قال (شقاق) موافقًا:

- أجل يا ابن خلدون، لن نترك لهم فرصة ليلتقطوا أنفاسهم، ولن يهنأ (فرناندو) والخائن (ابن الأحمر) في معسكرهما هذا.

هتف (عبدالرحمن):

- سيدي! يجب علينا أن نبادر، بطلب النجدات من العدوة؟

- سنفعل يا (عبدالرحمن)، غير أنى لا أنتظر من وراء العدوة خيرًا الآن، فقد ذهب الصالحون منهم، ودرست دولة الموحدين، وها هي تصارع الموت في مراكش.

تحدث ابن خلدون، وكأنه يكمل حديث (شقاق) فقال:

- ناهيك عن تونس وما فعلناه في ولاتهم هنا، مما يعني أنّ الحفصيين لن يمدوا لنا يد العون أبدًا.

ظهر الغضب على وجه (عبدالرحمن) وقال:

- لقد استحق هؤلاء ما فعلنا بهم، بل والله لقد فعلنا معهم ما يجب عليهم أن يشكروه لنا، ويكفي أنهم خرجوا من بيننا أحياء، فكيف تقولون ما تقولون؟

قال (شقاق) يهدئه :

- اهدأ يا (عبدالرحمن) فليس هكذا توزن الأمور، أم هل تظنّ أنّ الأمير أبا زكريا يحيى سيفكر بنفس طريقتك تلك؟! هل تظنه يحكم بالعدل، ويقدم مصلحة المسلمين والإسلام في (إشبيلية)، على غيرته وعصبيته على قومه، أم سينتقم منا بما فعلناه تجاه قومه بعدم إنجادنا، هل يقدم عروة الإسلام على عصبية القبيلة؟ هذا ما ستجيب عنه الأيام.

معترضًا قال (عبدالرحمن):

- لو كان أميرًا للمسلمين كما يدّعي، فقطعًا سيقدم المصلحة العامة على ما دونها، أما لو كان أمير قومه فسيقدم قومه على غيرهم، وحينها لن ينجدنا، ولن يكون في دولته خير يؤمل، على أنى يا سيدي، أرجو منك أن تقيم عليه الحجة إلى يوم الدين، وتراسله تطلب منه النجدات، وليفعل الله ما يريد.

قال (شقاق) مطمئنًا:

- سأفعل يا (عبدالرحمن).

(٥)
لقاء العاشقين

وقفت (مريم) أمام المرآة، وبجوارها جاريتها (قمر)، وهي فرحة مبتهجة تقول:

- انظري! هل أبدو جميلة يا (قمر)؟ أم أبدّل ثيابي، وأرتدي ثيابًا أخرى؟

وضعت (قمر) يديها على كتف (مريم)، وقالت لها وهي تبتسم ابتسامة حانية:

- أنت جميلة في كل الأوقات يا حبيبتي!

ارتسمت علامات الحيرة والقلق على وجه (مريم)، وهي تقول:

- هل سيكون هذا رأي (زيد) عندما يراني اليوم؟

وكأنها تزيد من ثقتها في نفسها المضطربة، قالت (قمر):

- رأيه اليوم والأمس وكل يوم يا حبيبتي، فاطمئني!

في حزن قالت (مريم):

- لكن (مريم) اليوم، ليست هي (مريم) الأمس!!

- بل هي هي، فأنت لم تختلفي أو تتغيري، ومن يعشق الروح لن يهتم للجسد، ثم ها أنت يوما بعد يوم تعودين أجمل وأنضر مما كنت عليه، فاطرحي عنك هذه الوساوس الآن، ولا تشغلي رأسك إلا بالأيام السعيدة التي تنتظرك.

- أحقًا يا (قمر) لم يتغير (زيد)، رغم ما حدث؟

نظرت (قمر) إلى (مريم) نظرات عتاب، وقالت:

- أحسبك تريدين التأخر عن الرجل بثرثرتك هذه. اقتربت شمس الغروب! وإن غربت فأمك ستمنعنا من الخروج بعد أن حصلنا على إذنها بشق الأنفس.

انتبهت (مريم) لذلك، وتملكها الخوف من فوات الموعد المرتقب، فنهضت، وتحرك الاثنان تجاه ضفة الوادي الكبير، وهما يسرعان الخطى للوصول إليه على عجل.

ما إن وصلت (مريم) إلى ضفة النهر، حتى بدأت أنفاسها تتسارع، ودقات قلبها تتزايد، وهي تتمنى أن يكون لها جناحان، ينقلانها على وجه السرعة للمكان المنتظر، حتى إذا ظهر لها برج الذهب من بعيد، راحت تستنشق الهواء، وتشم نسيمًا طالما أحبته، ولما وطِئت قدماها جوار البرج التفتت، و نظرت هنا وهناك، تبحث عن حبيب طال غيابَه، وقلب يتألم من الفراق، لكنها لم تجد من ينتظرها، وتبحث عنه.

خشيت أن يتكرر ما حدث من قبل ولا يأتي (زيد)... فتبدلت سعادتها خوفًا وحيرة. وبقلب مضطرب، وعيون هائمة، أرسلت دموعها في صمت، فنزلت على خديها. حاولت (قمر) التي احتضنتها أن تطمئنها، لكن دون فائدة، فقد انثالت دموع الفتاة تبكي على حالها، وحسرة قلبها، بل وأجهشت بالبكاء...

وفجأة ومن أسفل النهر، إذا (بزيد) يخرج، ومعه وردة جميلة قطفها لأجلها، وبخطوات حثيثة تقدم من (مريم)، التي لم تنتبه له، فناداها بصوت حانٍ، وقال:

- (مريم) لماذا البكاء وقد التقينا؟

التفتت (مريم) لمصدر الصوت، ورفعت وجهها وهي لا تكاد تصدق، وفجأة تبدلت دموعها فرحًا، ولم تدر ماذا تفعل، ثم قالت ودقات قلبها تتسارع:

- لماذا تأخرت كل هذا؟

ابتسم (زيد) في سعادة، وقال:

- ما كنت أتأخر عنك وأنت روحي، والهواء الذي أتنفسه، فإن غبت عنك أو حرمت منك، حرمت من الحياة، إذ لا معنى لحياتي من دونك، أنا هنا منذ وقت طويل، ولكن ما إن رأيتك حتى ذهبت، لأحضر لك تلك الوردة من هناك.

وأشار بيده إلى حافة النهر.

أغمضت (مريم) عينيها لحظات، وكأنها تحاول الاستمتاع بكل كلمة يقولها (زيد)، وجففت دموعها لترى بهما حبيبها، ثم فتحت عينيها وقالت:

- أخيرًا رأيتك يا (زيد)، أم تراني أحلم؟

- لا يا حبيبتي إنه الواقع، الواقع الذي جمعنا بعد كل ما كان وما حدث، والحقيقة التي لا تعنى غيرك، فأنت الحقيقة الأهم في حياتي يا كل حياتي.

تحركت (مريم) وجلست على ضفة النهر، وقالت في دلال:

- كم افتقدت صوتك، وكلماتك يا (زيد)!

جلس (زيد) بالقرب من (مريم) وقال:

- أما أنا فقد عشت هذه الفترة المؤلمة، وأنا لا أفكر إلا فيك، ولا أسمع سوى صوتك، فلم أفتقدك إلا بقدر افتقادي لروحي.

- هل علمت أنني لم أعد مخطوبة لابن عمي؟.

- علمت من (قمر) وأنا أسعد الناس بهذا، وقريبًا سأزور أباك لأطلبك منه، آه يا (مريم)، أريد أن يطمئن قلبي لوجودك معي، وهذه المرة لن أترك الفرصةً لأحدهم فيتقدم لكِ ويعيد الكرة، على أن يكون زفافنا يوم زوال خطر اللعين (فرناندو)، وحينهاَ سيكون زفافنا حديث (إشبيلية) كلها!

ظهرت علامات الحزن على وجه (مريم)، فقال لها (زيد):

- لمَ الحزنُ يا حبيبة القلب؟

- كنت أنتظر أن تقول سنعقد زفافنا فورًا، فوجدتك تربطه بزوال الحصار عن (إشبيلية).

تنهد (زيد) تنهيدة طويلة، مفعمة بمشاعر العشق والانكسار، ثم صمت برهة تسمرت عيناه بعدها على صفحة ماء النهر الجاري، وقال:

- قبل بضعة أشهر، كنت هنا في نفس هذا المكان، أرقب قدومك على أحر من الجمر، لكنك تأخرت يومها، وقد سبقك إليّ صديقي (عبد الرحمن)، الذي جاء يدعوني للخروج معه لإنقاذ (بلنسية)، وقتها اعتذرت عن الخروج معه، وتعللت بعدم قدرتي على مغادرة (إشبيلية)، لأسباب خاصة بي، بينما كان السبب الحقيقي، هو عدم مقدرتي على فراقك، أو البعد عنك، تناسيت واجبي، تجاه ربي وديني وبلدي، واتبعت هواي فأرداني، وبعدها نزل العقاب الإلهي بي، وحدث ما حدث من خطبتك لابن عمك، فتساءلت

في نفسي حينها، كيف رضخت لرغبة والديك؟ كيف لم تدافعي عن حبنا؟ وكيف تم الأمر بهذه السرعة وتلك الكيفية؟ بحيث لم يترك أبوك الفرصة لكِ لترفضي، أو لي لأتقدم وأتزوجك.

تنهد (زيد) مرة أخرى وتابع بحسرة فقال:

- لقد قتلتني خطبتك، أجل لقد قتلتني، وهل أشد من قتل أرواحنا، على يد أعز من سكن فيها، كما الشمعة يحرقها الخيط الذي يسكن فيها... ولكن لمّا تدبرت الأمر وجدت أن ما حدث كان عقابًا لي من الله، عندما قدمت هواي على طاعته، وحبك يا حبيبتي على الجهاد في سبيله، وكأنّ الله أراد أن يقول لي: افعل يا ابن آدم ما تشاء، ولن يكون لك نصيب من شيء إلا ما أشاء، لقد كانت خسارتك أشد عقاب نزل بي في حياتي، وقد استحققت هذا العقاب، على تفريطي في واجبي تجاه بلاد المسلمين.

ثم رفع بصره إلى السماء، وتابع قائلًا:

- لقدْ عاهدت الله يا (مريم) إن أعادك إليّ، ألا أكرر فعلتي هذه، وألا أتقاعس عن الجهاد في سبيله، ونصرة إخواني المسلمين أينما كانوا.

(٦)
تخاذل لبلة وتونس

كان الشيخ الجياني يركب فرسه، متحركًا صوب المدينة الحمراء، ذات النهر الأحمر والتربة الحمراء، وهو يأمل أن يدخلها قبل الغروب، ثم نظر للشمس بعين مفتوحة وأخرى مغلقة، وقال يخاطب نفسه، ولكن بصوت حزين مقهور:

- هل سأقضي عمري في التنقل بين المدن الأندلسية، هل كُتب على أن أشاهد مصارع تلك المدن؟...

ثم تأوه وأكمل قائلًا:

- عشت عمرى كله في (جيان)، حتى إذا تقدم إليها القشتالي، لم تجد من ينصرها فضاعت، وتحولت مساجدها كنائسًا، وها أنا أخرج من (إشبيلية) لطلب النجدات حتى لا تلحق (بجيان)، فهل سيكون ابن محفوظ (كابن الأحمر)؟ أم سيهّب ويقدم النجدات (لإشبيلية)؟ آه يا سعيد... لكم أتمنى أن تكون يا ابن محفوظ قد اتعظت بما يحدث من حولك، وعلمت أن لا أحد في شبه الجزيرة آمنٌ على نفسه، وأن بقاء أحدكم من بقاء جميعكم، وأنّ الحكمة في الوحدة، والعاقل من أتعظ بغيره.

تابع سعيد الجياني سيره صوب لبلة، ولما بلغ به العطش مبلغه، فتح قربة الماء الموجودة معه فوجدها فارغة، فراح يترقب أول عين ماء تصادفه، وبعد مسير ساعة وجد نبع ماء يجرى، فنزل عن متن حصانه، وبكفٍّ يده غرف من الماء وشرب، وكانت الشمس قد مالت قليلًا عن كبد السماء، وخفّت حرارتها، ثم سحب رسن جواده فشرب الحصان وصهل، وكأنه يشكو الحر والعطش، أو كأنه يشكر صاحبه أن شعر به فسقاه...

ثم شمّر سعيد عن ذراعيه، وتوضأ، وصلّى ما عليه من فروض، بعدها أخرج بعض لقيمات كنّ معه فأكلهن، وبعد راحة لم تطل قام، وربت على رقبة حصانه، وقال له:

- هيا يا رفيقي! نكمل رحلتنا في بلاد الإسلام، نحاول إبقاءها بلاد إسلام!

صهل الفرس وتحرك ثابت الخطى، وبعد ساعات ظهر نهر غريب الشكل، فالماء لم يكن ماءً عاديًّا، بل ذا لون أحمر، كلون تربته الحمراء وضفته الحمراء، تعجب الشيخ من هذا الذي لم ير مثله في حياته، وظل يراقب النهر حتى دخل إلى سوق المدينة فتزود منه، ثم سأل عن قصر الوالي فأخبروه بمكانه، بعد أن تعجبوا كيف له أن يجهله!

لوى الشيخ رسن جواده، قاصدًا قصر ابن محفوظ، الذي كان محاطًا بكل أنواع الحراسة والجنود، وما إن نزل حتى أوثق رباط الفرس، وتقدم جهة القصر، فما كان من الحراس إلا أن أوقفوه، وسأله كبيرهم: من أين قدمت؟ وأين تقصد؟ فقال:

- أنا يا ولدي سعيد الجياني، وإنما أنا هنا للقاء المعتصم بن محفوظ، صاحب المدينة.

قهقه الحارس وقال متهكمًا:

- تقابل صاحب المدينة!! أهكذا، بهذا اليسر؟ لو أن صاحب المدينة التقى كل من طلبه لقضى يومه ولم ينتهِ منكم!

- وهل صاحبكم خيرٌ من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي لم يرد سائلًا؟!

- ما لنا وعمر بن الخطاب الآن؟ أيها الشيخ إن كنت تريد العطاء، أو حتى الشكوى، فهذا لا يستدعى مقابلة الأمير. فاعرض عليّ ما تريد وأنا أجيبك!

- يا ولدي أنا رجل قاربت السبعين من عمري، فأيّ عطاء أريد؟ وأي شكوى أحمل؟ إنما حاجتي لقاء الأمير، فافعل بارك الله فيك، فلن أنصرف من هنا إلا بعد أن ألقاه، فإن أردت فخذني إليه.

مط الحارس شفتيه ثم أمسك بلحيته، وقال:

- انتظر هنا ولا تتحرك!

جلس الشيخ على حجر بالقرب من سور القصر، ينتظر، ويرجو أن يُسمح له بلقاء الأمير، بينما دخل الحارس إلى المعتصم بن محفوظ، فقال له:

- سيدي المعتصم، بالباب شيخ كبير يريد لقاءك، وقد حاولت صرفه فأبى إلا أن يلقاك.

بغضب قال المعتصم:

- أكلما قدم إليّ من يريد لقائي، دخلتم على وشغلتموني؟

ثم بصوت مرتفع قال:

- ألا يحسن أحدكم التصرف؟

ارتعد الحارس وقال:

- إن أردت سأصرفه فورًا يا سيدي!

صمت المعتصم قليلًا ثم قال:

- لا بأس أدخله عليّ، ولكن لا تعد إليها، ولا يدخل عليّ إلا صاحب أمر كبير.

خرج الحارس وهو يحمد الله أن أفلت من غضب المعتصم، وقال في نفسه:

- والله لولا أن الأمير قال: أدخله علي، لقتلته بما نالني بسببه.

ثم وبوجه عبوس تقدم من الشيخ وقال بغلظة:

- تعال معي!

نهض الشيخ، وتحركٍ خلف الحارس بخطى بطيئة، حتى دخل إلى بهو ابن محفوظ، وسلم عليه قائلا:

- السلام علي مولاي المعتصم

نظر المعتصم إلى الشيخ بتمعن شديد، وقال له:

- وعليك السلام أيها الشيخ، كأنك لست من لبلة؟

- أجل يا سيدي أنا لست منها، بل أتيتك من (إشبيلية).

- مممم (إشبيلية)، فما حاجتك يا شيخ (إشبيلية)؟

- ليست حاجتي أيها الأمير، إنما حاجة المسلمين في هذه البلاد.

تمتم المعتصم وقال:

- هلّا أفصحت أكثر يا شيخ، فلا وقت لدي.

- تعلم أيها الأمير ما حلّ بمدن الأندلس وما يحلّ بها منذ قرون... منذ انفراط عقد الخلافة الأموية، تلك الدولة التي كانت تجمع المسلمين في شبه الجزيرة، تحت راية واحدة، حتى إذا ذهبت تلك الدولة، حلت محلها دويلات متنافرة متصارعة، فسقطت (طليطلة) وبعدها (سرقسطة)، واستأسد القشتاليون والأراجونيون علينا، وتبعهم البرتغاليون، كل ذلك ليس لقوتهم، وإنما لتشتتنا وضعفنا.

بتهكم قال المعتصم:

- هل أتيت إليّ أيها الشيخ، لتعطيني درسًا في التاريخ البائد؟

- العفو أيها الأمير، وإنما جئت إليك كي لا نكرر أخطاء الماضي العظيم.

- أي أخطاء يا شيخ؟

- أخطاء كتلك التي حدثت عند سقوط (طليطلة)، عندما حاصر (ألفونسو السادس) المدينة وكان بها ابن ذي النون، وتركها ملوك الطوائف وحيدة في وجه (ألفونسو)، ظنًّا منهم أن سقوطها لن يضيرهم، لم يكونوا يعلمون أنّ سقوط (طليطلة) هو فقط البداية، وأن جبنهم عن انجادها بداية سقوطهم جميعًا... أيها الأمير لقد أتيتك من (إشبيلية) المحاصَرة طالبًا منك أن لا تكرر أخطاء الماضي، فلو سقطت (إشبيلية) فلن تبقى لبلة، ولن يبقى للإسلام دولة في الأندلس.

نظر المعتصم إلى الجياني متمعنًا وقال:

- - ليست لبلة اليوم، (كإشبيلية) ابن المعتمد وقت سقوط طليطلة يا شيخ، فماذا لو استدار (فرناندو) عليّ وانتقم مني؟

اقترب الجياني أكثر من كرسيّ المعتصم وقال:

- يا سيدي لو سقطت (إشبيلية)، سيستدير عليك (فرناندو) شئت أم أبيت، ولو كان بينك وبينه أغلظ العهود والمواثيق، فهؤلاء قوم لا عهد لهم ولا ذمة.

استرخى المعتصم على كرسيه، وفكر في الأمر، فأكمل الجياني وقال:

- يا سيدي! لقد أحكم اللعين الحصار على المدينة، فهل ترضى أن يهلك المسلمون فيها؟ هل ترضى أن يتحول مسجد جدك المنصور الموحدى إلى كنيسة، يا سليل الموحدين؟

زفر المعتصم وقال:

- لا يا شيخ لا أرضى ذلك أبدًا، ولا يرضاه أحد من المسلمين، ولكن كيف لي أن أساعدكم، وأنت تقول إن الحصار قد اكتمل؟

- تستطيع يا سيدي أن تفعل، كما تفعل حامية حصن الفرج، غير أنك أقوى وأشد بأسًا.

بنظرات عين ضيقة قال المعتصم:

- وماذا تفعل حامية حصن الفرج؟

- تخرج يا سيدي بين الفينة والأخرى، وتُفاجئ القشتاليين بحرب خاطفة، وكذلك تفعل قوات (إشبيلية) بقيادة (عبدالرحمن) وابن يحيى و(شقاق)، مما استدعى اللعين أن يركز جهوده لتلك المفاجآت، بينما لا يتوقع غيرها! هنا سيكون دورك وقواتك، فطريق فحص الشرف ما زال مفتوحًا، وملك (قشتالة) لا يتوقع المفاجآت منه، لهذا تركه دون حراسة كافية، وكل ما عليك أن تأتي بقواتك، وتضرب بقوة مفاجئة، بينما يكون (شقاق) وقائد حصن الفرج مستنفرين لقواتهم، حتى اذا هاجمت أنت من طريق الشرف، خرجوا بقواتهم معك، فتشتت حال القشتاليين، ونزل الرعب بهم، فتخيب خطتهم، وينهزم جمعهم، ومن يدرى يا سيدي، فلربما نجحت خطتنا تلك وستنجح، ووقتها ربما نعيد مسجدنا في (قرطبة) لسابق عصره، فالقشتاليون يا سيدي ليسوا بتلك القوة التي نرهبها، ولكننا بالتشتت الذي جعلهم يستقوون علينا، فلو توحدنا ذهبت قوتهم، وعادوا سيرتهم الأولى، إنما انتصرت علينا (قشتالة) بضعفنا وتشتتنا، لا بقوتها.

راح المعتصم يمسح على لحيته، ثم هز رأسه وقال للشيخ:

- سندرس الأمر ونتدارسه أيها الشيخ الجليل، فعد راشدًا إلى (إشبيلية).

- أرجو أن لا يطول تفكيرك أيها الأمير، فملك (قشتالة) قد حسم أمره.

خرج الجياني من قصر ابن محفوظ، يحدوه أمله في أن يتحرك الرجل، أما الأخير فقد مكث يفكر في الأمر مرات ومرات، وجل همه أن يحفظ مملكته الصغيرة بعيدًا عن (فرناندو)، فقد كان يرى أن تدخله في أمر (إشبيلية)، سيكون مغامرة كبرى، قد تعجل بنهاية مملكته...

لكن قرار التخلي عن إشبيلية لم يكن سهلًا، خاصة وأن بها مسجد جده المنصور ومعالم موحديه كثيرة، كما أنها كانت حاضرة الأندلس زمن الموحدين، ولكن في النهاية وبعد تفكير طويل، ولكي يغلق الأبواب على نفسه، ويعطيها السبب في عدم إنقاذ (إشبيلية)، قال:

- أليست هذه (إشبيلية) التي خرجت على أجدادي من بني عبد المؤمن وطردتهم؟ إن كانت طردت الموحدين سالفًا، فلماذا تلجأ إليهم لاحقًا؟... لا... لن أغامر بمملكتي لإنقاذ مملكة غيري!

ومثلما عادت سفارة (إشبيلية) إلى لبلة بخفي حنين، فقد عادت أيضًا من تونس بخيبة أمل كبيرة، فقد تنكر الأمير أبو زكريا يحيى الحفصي لهم، ونكص عن انجادهم انتقامًا لحنثهم في بيعته من قبل، وكذلك فعل أبو خالد صاحب شريش، بينما كان صاحب مملكة (غرناطة) يهاجم (إشبيلية) مع المهاجمين!!

تنافس الجميع على التخلي عن (إشبيلية)، وسبّب كل واحد منهم الأسباب، وانقطعت (بإشبيلية) السبل ولم يبقَ أمامها غير مواردها، وسواعد رجالها تعتمد عليهم، على أنّ الأمر لم يتوقف عند ذلك، فقد أتت بعض النجدات من مدينة سبتة المغربية.

(٧)

قلب قوسين

تقاسمت الكتائب القشتالية والليونية والجليقية، وغيرها من القوات النصرانية، مناطق الحصار، وضرب (فرناندو) محلته جنوب المدينة على ضفة نهر الوادي الكبير قريبًا من سفن الأسطول النصراني بقيادة أمير البحار رامون بونيفاس، ثم قرر (فرناندو) أن يرابط ملك (غرناطة) بجيشه على ضفة الوادي الكبير لحماية الأسطول، يعاضده ويساعده في ذلك أردونيو ألباريث قائد الجيش القشتالي، ولأنه كان يعلم ما بينهما فقد استدعى (فرناندو) قائد جيشه إلى خيمته، ليحدثه في هذا الأمر، فقال له:

- سيكون (محمد بن الأحمر) معك، لتحمي قوات رامون بونيفاس، لا أريد أن يتضرر الأسطول.

امتعض وجه أردونيو، وقال:

- لماذا (محمد بن الأحمر) بالتحديد يا سيدي؟ وأنت تعلم ما بيني وبينه؟

- لأن الإشبيليين سوف يهاجمون الأسطول بكل ما أوتوا من قوة، وأنا لا أريد أن أضحي بجيشي، بل أريد للأشبيليين حال خروجهم أن يصطدموا بالغرناطيين، وتكون بينهم المقتلة عظيمة! أما لماذا أنت تحديدًا لهذه المهمة، فلأني لا أثق كثيرًا بغيرك، كما أن (ابن الأحمر) يخشاك، ولهذا سيكون حريصًا في أفعاله، وهو يعلم يقينًا أنك تراقبه عن كثب.

- لكن يا سيدي (محمد بن الأحمر) هذا لا أمان له، فكيف نضعه في هذا المكان الحرج؟ فماذا يا سيدي لو نقض ما بيننا، وتعاون مع قومه ضدنا...؟ وقتها سيهلك الأسطول ومن به، ولو حدث ذلك، فلن يكون لحصارنا فائدة، وقد هلك الأسطول!

- أتعنى أن ملك (غرناطة) قد يخوننا؟

- يا سيدي! هل من خان قومه سيحفظ عهدنا نحن؟

وضع (فرناندو) يده على فمه ثم مسح على لحيته و صبّ لنفسه كأس خمر، وارتشف منها قبل أن يقول:

- أتعلم ربما تكون محقًّا في تخوفك هذا... لذا ستكون وحدك المسؤول عن تأمين الأسطول!

ظهر البشر على وجه أردونيو وقال:

- (ومحمد بن الأحمر)؟

رفع (فرناندو) الكأس وأفرغ ما فيها في فمه قبل أن يقول:

- سأضعه بجانب قوات شانت ياقب جنوبي حصن الفرج، وبذلك نضمن عدم تلاعبه، إذ لا سبيل للخيانة هناك، ولو فعل لقُتل من فوره، وسأوصي كوريا بذلك.

- الرأي لمولاي، وأظنّ أن بلاي كوريا سيراقبه أكثر من مراقبته لقوات حصن الفرج، فهو يحقد علي كل مسلم، حتى لو كان خائنًا!

ضحك (فرناندو) وأردونيو، وتعالت ضحكاتهما أكثر وأكثر، ولم يسكتهما سوى أصوات جلبة، وصياح وأصوات عالية مفزوعة، تصرخ وتقول:

- المسلمون... المسلمون!

على عجل خرج أردونيو من خيمة (فرناندو)، ليتابع ما يحدث فوجد فرسانًا مسلمين مقبلين يطيحون بكل ما في وجوههم.

كانت الأتربة تتعالى، وأصوات حوافر الخيول تدكّ المكان، وتزلزله، والتكبيرات تهدر من حناجر المهاجمين: الله أكبر، ومعها ضربات سيوف تعرف طريقها تمامًا، فقطعت الأوصال، وتطايرت الرقاب والأيدي، وسالت الدماء وتناثرت هنا وهناك، وارتفعت حمم النيران في المعسكر.

فقد حمل المسلمون المهاجمون النفط معهم، وأحرقوا به كثيرًا من الخيام، وبقفزة واحدة امتطى أردونيو صهوة جواده، وراح يقود المعركة الرهيبة بين المهاجمين والمدافعين، بعد أن كادت القوات المهاجمة أن تصل إلى خيمة (فرناندو)، لولا أن تكاثرت جنوده من حوله، وراحوا يفتدونه بأجسادهم، التي قطعتها ضربات سيوف المسلمين، ووسط تكاثر المدافعين، اضطر ابن خلدون للتراجع نحو

أسوار (إشبيلية)، عائدًا إليها بعد أن حصد بسيفه وجنوده، العشرات من أبناء (قشتالة)، وتركهم في ذهول من أمرهم.

ملأت الدماء المكان، وتعالت الصرخات ممزوجة بالألم، وسيطر الفزع على قلب (فرناندو)، فراح يلتمس الاطمئنان من جنده، وهو يدور هنا وهناك، ويقول بصوت مفزوع غاضب:

- كيف وصلوا إلى هنا؟ أين حراس المعسكر؟ لقد كان بيني وبين سيوفهم ضربات قليلة.

عاد أردونيو وقد تلطخ وجهه بالدماء، وهو حامل سيفه الذي يقطر دمًا، وقال بعد أن أخذ نفسًا عميقًا:

- اطمئن يا سيدي، فلن يصلوا إليك.

بغضب قال (فرناندو):

- لقد كادوا يا أردونيو، لقد كادوا أن يفعلوا... ضاعِفوا الحراسة على المعسكر، واقتلوا كل من يقترب منه.

- أمرك سيدي.

وفي تلك اللحظات تقدم (ألبار بيرت)، وهو يلهث حتى لا يكاد يلتقط أنفاسه، وقال:

- الشكر للرب على سلامتك يا سيدي.

- أنا بخير يا (ألبار) فطب خاطرًا.

- يا سيدي ما زلت عند رأيي، بوجوب نقل المعسكر من هنا، وبخاصة بعد الذي حدث، فالخطر يا سيدي لا يكمن فقط في حملة السهام والنبالة، ولكن في قرب معسكرنا من باب (إشبيلية)، مما يعني أنّ هناك وقتا قصيرًا جدًّا، بين فتح أبواب (إشبيلية) وهجومهم علينا، وهم يا سيدي يراقبوننا من خلف الأسوار، بينما لا نراهم نحن، مما يعني أنّ هجومهم علينا، سيكون دائمًا محسوبًا مسبقًا ومفاجئًا لنا.

تمتم (فرناندو):

- ربما أصبت يا (ألبار)، فأي مكان ترونه أنسب لنصب المعسكر؟

- تلاطة يا سيدي، فهي بعيدة عن هنا بمسافة، تسمح لنا بالاستعداد للمسلمين، إن هم خرجوا لمباغتتنا.

(فرناندو):

- إذن لا بأس فلينقل المعسكر صوب تلاطة.

(٨)
نصرٌ خاطفٌ
خريف ١٢٤٧م

ابتهج ابن شعيب المعزول عما يحدث خارج منزله، وراح يصيح بصوت مرتفع لم يسمعه غيره، فلم يكن في البيت أحد سواه، فحتى أخته لم تكن موجودة لتسمعه، وهو ينظر إلى أنبوبة مستطيلة الشكل صنعها من الحديد، ويقول وهو يقبض على يده:

- أخيرًا اقترب حلمي من أن يصير حقيقة.... أخيرًا وقريبًا ستعرف (إشبيلية) أن ابن شعيب لم يتأخر عن نصرتها يومًا... قريبًا سيعتذر إليّ كل من سخر مني... كل من اتهمني في ديني وحبي لإشبيلية، قريبًا سيفهم (فرناندو) أن لا فائدة من مجانيقه وفي المسلمين ابن شعيب، الذي يعلم أنّ القوة في العلم لا في السيف.

كان قد مر على الحصار المؤلم شهران من الزمان، وبدأ فصل الخريف يلملم أوراقه، والصقيع يقترب رويدًا رويدًا، والسماء قد ارتدت ثوبًا أبيض مرقعًا، وطوال الشهرين السابقين (أغسطس وسبتمبر) لم تفلح أية محاولات للقشتاليين في الاقتراب من المدينة، كما لم يفلح أسطول رامون بونيفاس، في منع الموارد الغذائية من الدخول عبر نهر الوادي الكبير إلى (إشبيلية)، وكانت الأسواق عامرة بكل البضائع، فلم تشعر المدينة رغم الحصار بأي تغيير أو ضيق، فالناس يتابعون حياتهم وكأن شيئًا لم يحدث، وأصوات الباعة صاخبة، والأطفال تلهو في الشوارع والضحكات لا تتوقف هنا وهناك، وفجأة ظهر يوسف البياسي وصرخ في الناس:

- العقاب يا أهل (إشبيلية)، استعدوا وأعدوا، ولا تنشغلوا بأسواقكم عن سيوفكم، إياكم والعقاب، فالعقاب لا يرحم، إياكم والعقاب فالقشتاليون لا عهد لهم ولا ذمة، فالدماء سبيلهم والأرض غايتهم.

رددها حتى غاب عن الأنظار.

فزع الناس لحديث البياسي رغم قدمه، فشكوه هذه المرة إلى (شقاق)، الذي أراد أن يسجنه فقال:

- كنا قديمًا نتركه لأنه ليس على المجنون حرج، أما الآن فسجنه واجب وقد أضحي يخيف الناس، ويبعث في نفوسهم الرعب والقلق، ونحن فيما نحن فيه، لقد أصبح تركه بين الناس من العبث، وأنا لا أريد أن يشغلني عما أنا فيه شاغل، فلترَ فيه رأيك يا ابن خلدون، فأنت رئيس الشرطة.

تدخل (عبدالرحمن) وقد كان حاضرًا فقال:

- سيدي الأمير، لم يؤذِ الرجل أحدًا ليستحق السجن!

بلهجة حادة قال (شقاق):

- لا يا (عبدالرحمن)، لقد أحدث كلامه هرجًا ومرجًا بين الناس، ولن أسكت عليه مرة أخري فقد وجب عقابه، أنا لا أريد من يُرهب الناس، بل أريد من يحمسهم لحمل السلاح ويبشرهم بالنصر لا الهزيمة.

تشفع (عبدالرحمن) قائلًا:

- لو أذنت لي فأنا كفيل به وسأكفيك شره، ووزر سجنه في هذه السنّ، فمن يدرى يا سيدي لو سجنته فلربما يموت، ويقع في رقبتك.

تمتم (شقاق) وقال:

- ستكون مسئولًا أمامي عن أي ضرر يوقعه هذا الرجل، أو شكوى تصل منه.

- كما تأمر سيدي.

- نعود الآن لأمر السفارات، فقد خذلنا المسلمون في كل مكان، بينما يستصرخ الغازي ملته من كل أوربا فيلبون نداءه، وننادي نحن فلا يسمع نداءنا أحد، فهذا (ابن خالد) صاحب شريش وابن محفوظ صاحب لبلة والأمير أبو زكريا يحيى قد رفضوا إنجادنا، ناهيكم عن ما يقوم به (ابن الأحمر) من مساعدة القشتاليين علينا.

قال ابن خلدون مقترحًا:

- لا حل أمامنا سيدي سوي الاعتماد على ما بأيدينا من قوة، وها هو صاحب طنجة وسبتة يرسل إلينا قواته لتكون بجانبنا، فلنستعن بالله عليهم.

أيد (عبدالرحمن) كلام صاحبه:

- نعم يا سيدي، كما يجب علينا أن نكرر الهجوم علي معسكراتهم خارج (إشبيلية)، ولا ندعهم يلتقطون أنفاسهم.

وافق (شقاق) متسائلًا:

- أصبت يا (عبدالرحمن)، فلا يجدر بنا أن نترك اللعين ورجاله، وكأنهم في رحلة لا حرب ودماء، فما هي خطتك.

بسط (عبدالرحمن) خطته:

- لو أذن لي الأمير، سأخرج إليهم في ألف فارس، فأهاجم بهم فرسان القنطرة وقلعة رباح، الذين يدافعون عن الأسطول، وفي نفس الوقت يخرج صاحب حصن الفرج، يشتت القشتاليين من ناحيته، فيقعون بيننا وبين صاحب حصن الفرج.

هزّ (شقاق) رأسه يمينًا ويسارًا، فظنّ (عبدالرحمن) أنه سيرفض، فقال:

- سيدي! لماذا...؟

بصوت يقطر ألمًا عقب (شقاق):

- حسرة يا (عبدالرحمن) على ما نحن فيه، فخطتك هذه كانت ستكون قاضية عليهم، لو أنّ صاحب لبلة هاجم بقواته جيش القشتاليين عبر طريق حصن الشرف، فلو أنه تشجع وفعل وما جبن، لكان لنا مع القشتاليين اليوم شأنٌ آخر.

قال (عبدالرحمن) يخفف عن أميره:

- سيدي! سيشهد عليهم التاريخ، ويوم القيامة تشهد عليهم أنفسهم، فدعك منهم.

أمّن (ابن خلدون) على كلام صاحبه:

- أجل أيها الأمير، ولنعملنّ بما تحت أيدينا من قوة.

أقر الأمير (شقاق) رأيهما مفتخرًا:

- لعلكما علي حق أيها البطلان.

تساءل (عبدالرحمن) متلهفًا:

- فماذا تأمر يا سيدي.

ربت (شقاق) على كتف (عبدالرحمن) وقال:

- اخرج إليهم يا (عبدالرحمن) وعد سالمًا.

قدم (عبدالرحمن) التحية للأمير، وخرج ليعد عدته ويختار قوام فرقته، وقد كانت ليالي أكتوبر تمتاز بشدة البرد في (إشبيلية)، والليلة ظلماء غير مقمرة، والناس يلتمسون الدفء خلف الستائر داخل الخيام...

في هذا الوقت بالذات فتحت أبواب (إشبيلية)، وخرج منها (عبدالرحمن) ومعه رفيقه (زيد) وجنده المنتخبون، وبسرعة البرق خرجوا كقطع الليل المظلم، مرتدين ملابس سودًا كالفحم، بينما لطخوا وجوههم بالفحم، وركبوا خيولهم التي لم يكن فيها فرسٌ أبيض واحدٌ، وانطلقوا صوب القشتاليين، الذين حبسهم البرد خلف الخيام...وقد أمنوا خروج المسلمين في هذا البرد القاتل، ولكن يؤتى الحذِرُ من مأمنه!

فلقد سُمعت الصرخات فجأة، وتدفق شلال الدّماء، وراحت ضربات (عبدالرحمن) وجنده العاتية تقطف الرؤوس، وتزيغ الأبصار، وترهب القلوب، والتكبيرات تزلزل المكان، والنيران المشتعلة في الخيام قد أنست أهلها برد أكتوبر القارس، فجرى المحروقون بحثًا عن الماء، يطفئ نارهم ويهدئ حريقهم،، كل هذا و(شقاق) يراقب من فوق الأسوار...

استمر القتال ساعة، سقط فيها من القشتاليين الكثيرون، ومع ارتفاع الصرخات، أقبل بلاي كوريا ومعه النجدات، فصدّهم (عبدالرحمن) ورفاقه، ولكن ومع فقدان ميزة المفاجأة، قرر (عبدالرحمن) الانسحاب بجيشه، فسحب رسن جواده، وأمر جنده بالتراجع، بينما وقف هو يحمي ظهورهم... ولما أتمّ آخر جندي انسحابه، قفل (عبدالرحمن) راجعًا، وبجواره (زيد)، بينما الدماء تسيل من وجهه ويده، حتى إذا اقترب من أبواب (إشبيلية)، والفرسان القشتاليون في أثره، إذا بحملة السهام يُردون العشرات من جند القشتاليين قتلى، فانسحب من لم يُصب منهم خشية الموت المتربص فوق الأسوار.

(٩)
مرض (مريم)

ضجّت (إشبيلية) كلها بنبأ النصر الذي حققه (عبدالرحمن) ورفاقه، وخرجت النساء والأطفال للشوارع تحتفل بما تم من نصر عظيم، وابتهج قصر (إشبيلية) وعمّه الفرح، وشعر الإشبيليون ولأول مرة منذ شهور الحصار، ببصيص من الأمل يحدوهم، ورفرفت السعادة على أزقة (إشبيلية) وبيوتها، حتى طرقت باب بيت (مريم)، التي كانت ورغم سعادتها وعودتها لحبيبها ما تزال مريضة، لم تسترد بعد كل عافيتها، فقد شُفيت روحها، ولكن جسدها لم يستعد عافيته كاملة، وبخطوات متسارعة، راحت (قمر) تزف إليها نبأ النصر، الذي حققه (زيد) و(عبدالرحمن)، بل وزفت الخبر لكل أهل البيت، وكيف لا تفعل، و(زيد) الآن زوج (مريم)، برضاء أمها وأبيها ومعرفة الجميع.

فقد تقدم (زيد) لخطبة (مريم)، ووافق الأب، وباركت الأم، وتم عقد النكاح بحضور الشهود، غير أن زيد طلب أن يكون الزفاف يوم أن يفك اللعين (فرناندو) حصاره، ويعود أدراجه إلى (طليطلة)، إذ لا يجدر أن تقام حفلات الزواج في تلك الأوقات الصعبة، كما لا يجدر (بزيد) أن يدخل بزوجته ويمكث معها، بينما (إشبيلية) كلها عرضة للسقوط والدمار، وقد أكبر والد (مريم) هذا التفكيرٍ من زيد، وراح يقارنه بما فعله ابن أخيه الجبان من قبل، وهو يشكر الله أنّ رجلاً في شهامة (زيد) هو زوجٌ لابنته.

أما (مريم) فقد كانت كالثوب، طريحة الفراش بلا حراك، وقد حاولت أن تنهض منه، عندما سمعت بخبر انتصار حبيبها وعودته سالمًا، ولكنها لم تستطع، فحاولت مرة أخرى، وساعدتها أمها الجالسة بجوارها فلم تفلح، فبكت الأم الرؤوم، وهي ترى ابنتها الوحيدة في هذه الدنيا، يهدها المرض هكذا، وهي في ريعان الشباب!

أما (زيد) فبمجرد وصوله وعودته، جاء ليزور زوجته المريضة المسجّاة في الفراش، وما إن وصل إلى الدار، حتى ألبسوها ملابسها، وحملوها إلى بهو المنزل لتجلس مع حبيبها، وهي لا تكاد تصدق أنّ زوجها قد صار بين يديها ووسط أهلها.

حزن (زيد) لرؤيته (مريم)، وقد أوهنها المرض، بينما لا يستطيع أن يفعل شيئًا لأجلها، وقد أعيا مرضها الأطباء، فاكتفى بنظرات حانية، وابتسامة مصطنعة تملأ وجهه، بينما الحزن على (مريم) يكاد أن يقتله، وهو يحكي لها ما حدث، ويحثها على الشفاء العاجل، فقد بدت بوادر النصر، وقريبًا يتم الزفاف السعيد.

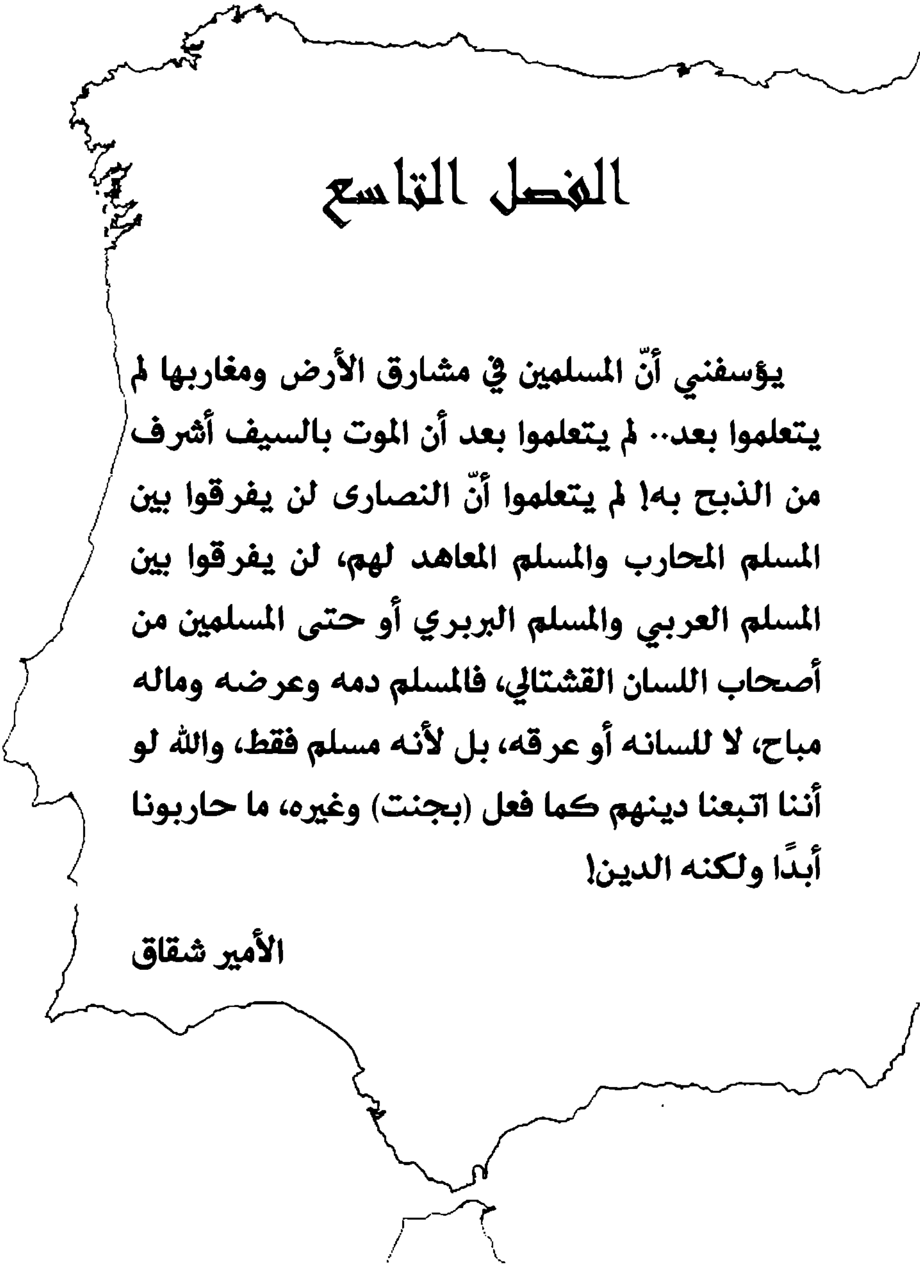

الفصل التاسع

يؤسفني أنّ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لم يتعلموا بعد.. لم يتعلموا بعد أن الموت بالسيف أشرف من الذبح به! لم يتعلموا أنّ النصارى لن يفرقوا بين المسلم المحارب والمسلم المعاهد لهم، لن يفرقوا بين المسلم العربي والمسلم البربري أو حتى المسلمين من أصحاب اللسان القشتالي، فالمسلم دمه وعرضه وماله مباح، لا للسانه أو عرقه، بل لأنه مسلم فقط، والله لو أننا اتبعنا دينهم كما فعل (بجنت) وغيره، ما حاربونا أبدًا ولكنه الدين!

الأمير شقاق

(١)

الهمجي

انطلقت حوافر الجياد القوية، تنهب الأرض نهبًا، وهي تنحدر إلى الجنوب، في نفس الوقت الذي بدأت فيه الشمس رحلتها للمغيب، وعلى متنها رجال يرتدون ملابس قذرة ويحملون أنواعًا من الأسلحة، غير تلك المستخدمة في شبه الجزيرة، وشعورهم مسترسلة غير مهذبة، هيئتهم توحي بأنهم لا يعرفون معنى للتمدن.

بعد وقت غير قليل، وصلوا إلى مشارف المعسكر القشتالي، فقام أردونيو بالترحيب بهم، ومن ثم توزيعهم، ودمجهم في قطاعات الجيش القشتالي.

غربت الشمس ودخل الليل وهو يحمل في طياته البرد القارس، وتقدم أردونيو من الملك وبعد أن قدم له التحية قال:

- سيدي! لقد وصلت أفواج جديدة من المتطوعة، عددهم يفوق الحصى!

انفرجت شفاه (فرناندو) عن ابتسامة ثقة كبيرة، قال بعدها:

- هل قمت بتوزيعهم على معسكرات الجيش؟

- أجل يا سيدي، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- أخشى يا سيدى أننا لا نملك الخيام الكافية، لاستيعاب هذا العدد الكبير، ولا يمكن تركهم في الفضاء فيهلكوا.

ظهرت على (فرناندو) بعض ملامح الغضب، وقال:

- كنت تعلم بقدومهم، فلماذا لم تهيئ لهم أسباب الحياة؟

ارتبك أردونيو وقال:

- أجل يا مولاي كنتم أعلم، ولكنى لم أكن أتخيل أن يأتي كل هذا العدد دفعة واحدة.

أخذ (فرناندو) نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- على كل حال، ليقضوا ليلتهم في خيام الجند القشتالي، فالضيق أفضل من الهلاك.

أومأ أردونيو برأسه ثم خرج ليعيد توزيع الجند للمبيت، ولكن ما إن خرج من الخيمة الملكية حتى أرعدت السماء وأبرقت، وأمطرت بكثافة غير معهودة، وكأن السماء تعلم كم يحمل هؤلاء الخبثاء من أمراض فأرادت أن تطهرهم!

طال زمن هطول الأمطار، وضرب الصقيع أوصال الجيش القشتالي، فأصيب أكثرهم بأمراض الشتاء، ولم يستطيعوا رغم الإمدادات مواصلة دكّ الأسوار بالمجانيق، مما دعا (فرناندو) لإصدار أوامره، بأن يستريح الجيش ليلًا ويحارب نهارًا، خاصة مع تشابه أيام الشتاء، فالسحب تملأ السماء، ولا تعطي فرصة للقمر أن ينير، ولو أجزاء صغيرة منها.

وفي خيمة (برنارد) و(خوسيه) نزل الهولندي سيمون، ذو الشعر المجعد المسترسل الزاخر بالحشرات، والدال مظهره على أن الماء لم يلامسه منذ زمن، والملابس غير المهندمة، ويدل سلوكه على أنه همجي لا يعرف معنى التحضر، مما جعل (خوسيه) يتأفف من وجوده، ويرمقه بنظرات تفيض كرهًا له.

لاحظ سيمون تلك النظرات البغيضة، فلم يعد يطيق البقاء في الخيمة فخرج منها، ولاحظ (برنارد) أيضًا تلك النظرات التي تنطلق من عيني صاحبه كالسهام، فقال له بشيء من الغضب:

- لماذا ترمقه هكذا؟ أتخاله مسلمًا؟

بوجه ممتعض قال (خوسيه):

- بالطبع لا، ولكن ألا تشم رائحته؟ ناهيك عن تلك الحشرات اللعينة، التي تفيض من جسده فتغزونا، وتنغص علينا نومنا؟

بشيء من الضيق والحنق، صرخ (برنارد):

- حتى وإن كان كما تقول، فلا يجدر بك أن تنظر إليه هكذا!!

ثم ارتدى ثيابه وخرج في إثر سيمون، وجلس جانبه وقد توقف المطر، وأشعل سيمون بعض الحطب يصطلي به من صقيع الشتاء، وراح يمرر يديه أعلى اللهب.

نظر (برنارد) إلى سيمون وقال:

- تهرب من الخباء لتشعل تلك النيران؟

التفت إليه سيمون وقال:

- بل هربت من نظرات صاحبك، ولولا أن تكون فتنة ما تركته حيًّا!

ضحك (برنارد) محاولاً امتصاص غضب سيمون، وقال:

- لا تغضب منه، فهو طيب القلب، وما رمقك هكذا عن كره لك، ولكنها الخيمة الضيقة!

- لا بأس غدًا أقيم لنفسي أخرى.

صمت (برنارد) بعدما شعر بفشله في إزالة ما خلفته نظرات صاحبه في نفس سيمون، فاختار أن يبدل الحديث عساه يجد لصاحبه مخرجًا فقال:

- قل لي يا سيمون، ما الذي حمل رجلًا مثلك على الخروج، في هذا الوقت من العام والسير كل هذه المسافة؟ أهو المال والنساء؟

بحدة قال سيمون، ولهيب النار يلفح وجهه:

- بل كراهية كبرى أكنها للمسلمين هنا، بل وفي كل الدنيا، فلست طامحًا في مال أو نساء، سوى أموال المسلمين ونسائهم ودمائهم.

رفع (برنارد) حاجبية وقال متاوهًا:

- آه نساء المسلمين وأموالهم، فكيف تقول إنك لا تطمح في المال والنساء؟

ابتسم سيمون بخبث وقال:

- ليست غايتي المال، ولكن أهلًا به عندما يكون مال المسلمين، وكذا نساؤهم بعد قتلهم.

- أراك تكنُّ لهم البغض الشديد!

- بل قلبي لا يعرف غير الكراهية لهم، فقد قتلوا أخي، عندما خرج مع حملة ملك جرمانيا يريد القدس، وأنا هنا للانتقام منهم فحسب، إذ لا فرق عندي بين مسلمي المشرق والمغرب، فجميعهم مسلمون.

هزّ (برنارد) رأسه معجبًا، حتى إذا أراد مواصلة التحدث، لاحظ (خوسيه) يقترب منهما، فانتظر حتى يبدي ما عنده.

جلس (خوسيه) وقال:

- العذر يا سيمون، فقد ضاقت الخيمة ولم أقصد أن أغضبك، على أني غدًا سأعمل على تعديلها، لتسعنا جميعًا، ونكون بها سويًّا فلا تغضب مني.

رد سيمون بهدوء:

- لا عليك يا (خوسيه) فقد راقت نفسي، ولم أعد أحمل ضغينة لك.

ابتسم (خوسيه) وشعر بالرضا مما قاله، بينما رمقه (برنارد) بنظرات ماكرة.

غذى (برنارد) النار ببعض أعواد الحطب، ومد الثلاثة أيديهم بعد أن كادت أطرافهم تتجمد من البرد، مر الوقت وانبلج الفجر، فإذا بسيمون يرتاع ويُنصت جيدًا، فيقول له (برنارد):

- ما بك يا رجل؟

رد سيمون في فزع:

- ما هذا الصوت؟

ضحك (خوسيه) وقال:

- إنه المؤذن أعلى برج المنارة يؤذن لصلاة الفجر!

هز سيمون رأسه وأخذ نفسًا عميقًا، لم يخرجه إلا وهو يحمل الكثير من بخار الماء المتطاير من فمه، ثم قال:

- وحقّ الربّ لنمنعنّه، ولنحولنه كنيسة تدق بها الأجراس، فيسمعها القاصي والداني.

ابتسم (برنارد) ونظر إلى سيمون الذي أضاف:

- أتعلم يا (برنارد)، أريد أن أكون أول من يصعد تلك المنارة، أريد أن يكون لي السبق لنصب صليبها وتركيب أجراسها.

تمتم (برنارد) وقال:

- حقًّا؟

- أجل أتوق جدًّا إلى ذلك، غير أني أسألكما: هل سيسمح ملك (قشتالة) لرجل من غير جنده أن يفعل هذا، وأن ينال هذا الشرف؟

ربت (برنارد) على كتف سيمون وقال:

- الملك (فرناندو) لا يفرق بين جنده من (قشتالة) وغيرهم، فجميعهم لديه سواء، ما داموا مخلصين للمسيح، وأنت قد صرت من جنده... فقط أثبتْ جدارتك وقوتك وحماستك لهذا، ولن يتردد الملك في منحك هذا الشرف الغالي!

اغتبط سيمون بهذا الحديث، وراح يغذي النار بمزيد من الحطب، فتستعر وتزيد حرارتها ولهيبها ودخانها.

(٢)

المعركة البحرية الرهيبة

كاد (فرناندو) يستشيط غضبًا وهو يفكر فيما يحدث، وبركلة قدم أطاح بطبق فواكه كبير موضوع أمامه، ثم صاح وقال:

- أيها الحارس... أيها الحارس!

انتفض الحارس وبسرعة وقف أمام (فرناندو) كالصنم، ثم قال وهو يرتعد فرقًا، ويتصبب عرقًا:

- أمرك سيدي!

- اجمع لي قادة الجيش فورًا!

خرج الحارس ليجمع قادة الجيش، أما (فرناندو) فراح يتحرك جيئة وذهابًا في قلب الخيمة، وهو لا يستطع الجلوس في مكان، ثم ذهب إلى زجاجة الخمر الماثلة أمامه، وصبّ في كأسه ثم تجرعها مرة واحدة، وقذف بالكأس الفارغة على المنضدة، وهو يردد: الويل لهم الويل لهم...!

بعد قليل حتى دخل أردونيو بزيه العسكري، ولاحظ الغضب على وجه (فرناندو)، فخشي أن يناله عقابه، فتردد في الحديث لأول وهلة، ثم استجمع قوته وقال:

- ما الأمر يا سيدي؟

رمق (فرناندو) أردونيو بنظرة حادة، وقال له:

- اجلس يا أردونيو....

جلس أردونيو واجمًا يتوجس خيفة، وبدأ (فرناندو) يلتقط أنفاسه وتهدأ نفسه، بعدما أفرغ جزءًا من غضبه في كأسه، ثم جلس على منضدة كبيرة، وصرخ بلهجة حادة جادة:

- أخبرني يا قائد الجيش، كيف لهم أن يخرجوا، ويقتلوا منا كل هذا العدد، ثم يعودوا بعدها سالمين، دون أن يقتل منهم أحد... كيف؟

بدا التوتر على وجه أردونيو، قبل أن يجيب:

- إنهم يتبعون معنا أسلوب حرب العصابات يا سيدي، فيأخذوننا على غرة في كل مرة!

بوجه غاضب، ردد (فرناندو) وهو مكظوم:

- حرب العصابات، حرب العصابات!!

ثم زاد ارتفاع صوته وقال:

- تلك خطط تفلح فقط مع جيش غافل، كجيشك الذي تقوده، لقد مرت ستة أشهر يا أردونيو، لم تستطع أنت وقواتك خلالها التقدم خطوة واحدة، تجاه المدينة المحاصرة، فماذا تنتظر؟ هل تنتظر أن يدخل المسلمون خيمتي تلك؟ أم يقتلونني أنا؟

في ذهول وبعينين زائغتين، وبعد أن ابتلع ريقه، قال أردونيو:

- سيدي! ما زالت المدينة تحوي الكثير من المؤن والذخائر، لهذا لم تتأثر بالحصار، وقد كنا نعلم هذا قبل بداية الحرب، ونعلم أن (إشبيلية) لن تكون لنا لقمة سائغة!

وفي تلك الأثناء دخل (ألبار بيرت)، وكان قد سمع جزءًا من الحديث، فقال بعد أن ألقى التحية على (فرناندو):

- سيدي، يجب إغلاق طريق وادي الشرف ليتمّ لنا عزل المدينة، فهو الذي يمد (إشبيلية) بما تحتاجه من حبوب وغلال، وذلك عن طريق حصن المدينة الغربي طريانة.

زادت كلمات (ألبار بيرت) من حدة (فرناندو)، فهتف:

- طريانة؟... أين أمير البحار؟ أين رامون بونيفاس؟

وفي لمح البصر خرج أحد الحراس، ليعود بعد قليل ومعه الأمير بونيفاس، الذي قدم التحية للملك واعتذر عن تأخره، فتجاهل (فرناندو) الاعتذار، وبادره قائلاً:

- طريانة!

ارتاع رامون بونيفاس للمفاجأة، وقال للملك مستفهمًا:

- ما بها يا سيدي؟

- كيف لم تُحكم حصارها للآن، مع كل ما وفرناه لك من قوات وسفن؟

بلهجة متوترة قال بونيفاس:

- سيدي! لقد حاولت أنا ورجالي مرات ومرات، ولكننا لم ننجح إلى الآن. ولكن هذا لا يعني أننا نقف مكتوفي الأيدي، بل نحاول تحطيم القنطرة، الرابطة بين طريانة و(إشبيلية) بكل الطرق، وقريبًا سيدي سنأتيك بالخبر السعيد، ويتم لك ما تريد.

تطاير الشرر من عيني (فرناندو) وكاد أن يبطش بقادته، لم يمنعه من ذلك سوى سماع صوت ارتطام شديد، وقد تعالت الصرخات الرهيبة، فخرج الجميع من عنده على جناح السرعة ينظرون ما الذي حدث، فإذا بسفن رامون بونيفاس قد اشتعلت في بعضها النيران، وباقي السفن يتقارع علي ظهرها الرجال...

تحرك رامون بسرعة شديدة تجاه النهر، ليقود المعركة ويحاول السيطرة على باقي السفن، فيما امتطى أردونيو حصانه، وقاد فرقة كبيرة من الجيش، ورابض على الشاطئ بالقرب من المعركة الدائرة، وذلك ليغرق أي سفينة إسلامية ترسو، ويقتل من فيها، أو من يحاول من المسلمين الفرار من السفن.

أما (فرناندو) فقد شاهد في ذهول ما يحدث، وضوء اللهب المندلع ينعكس على وجهه... حتى إذا اقترب مترجلًا تجاه النهر، نصحه (ألبار بيرت) بعدم التقدم، كي لا يكون في مرمى سهام العدو... في تلك الأثناء كانت عدة سفن من مدينتي سبتة وطنجة، قد وصلت لإنجاد المدينة المحاصرة.

وفي مصبّ نهر الوادي الكبير، دارت المعركة البحرية الرهيبة، إذ كانت مهمة الأسطول النصراني، هي قطع الإمداد والمؤن عن المدينة من طريق البحر، فلما اقتربت السفن الإسلامية القادمة من عدوة المغرب، حاولت السفن القشتالية منعها فتشبت معركة كبرى بين الأسطولين، وقد حاول البحارة المسلمون فوق ذلك، أن يحرقوا السفن النصرانية بالنار اليونانية، واقتربوا منها بالفعل، يحميهم من ضفة النهر بعض حشود من الجند، وأمامهم مواعين مملوءة بالزيت والمواد الملتهبة. ولكن النصارى فطنوا إلى المحاولة، وهاجموا المسلمين من البر والبحر، فلجأ الجند الذين بالشاطئ إلى قلعة طريانة، ونشبت بين سفن الفريقين

معركة شديدة، واستطاع المسلمون أن يقذفوا موادهم الملتهبة، ولكن النصارى استطاعوا بعد جهد جهيد، أن يُخمدوا النيران.

وهكذا فشلت المحاولة، بعد أن أكلت النيران بعض السفن الصغيرة فقط، وقد أثارت تلك المعركة البحرية الجريئة الرعب في قلوب القشتاليين، وبالرغم من عدم نجاحهم في حرق سفن الأسطول النصراني، فقد نجحت السفن المغربية، في إفساح الطريق للمؤن كي تدخل إلى المدينة المحاصرة.

(٣)

جريمة

أدار (فرناندو) وجهه صوب معسكره، وهو يتجرع الحسرات، بعد أن شاهد بعينه ما حدث، وعض على أسنانه غيظًا، وقال وهو ينظر لأسوار (إشبيلية) من بعيد:

- إن كنتم قد تحصنتم بتلك الأسوار اللعينة، فما زالت قرى (إشبيلية) مكشوفة أمامنا.

ثم صرخ قائلًا:

- بلاي كوريا، أين قائد قوات شنت ياقب؟

لم يكد (فرناندو) ينهي كلمته حتى وافاه بِلاي كوريا، مقدمًا له التحية العسكرية، فقال له (فرناندو) بغضب شديد:

- اخرج برجالك إلى القرى المجاورة واحرقها واقتل كل من بها... اقتلوا الرجال والأطفال والنساء، واحرقوا دورهم ومساجدهم، ولا تدعوا منهم على قيد الحياة أحدًا!

خرجت كلمات (فرناندو) كشعلة من نار، فأحرقت الأخضر واليابس، وانطلق بلاي كوريا تصحبه كوكبة من خمسمائة فارس، وجهتهم الأولي إلى قرية منية البحيرة الغاصة بالحدائق والرياض، الواقعة في جنوب شرقي المدينة، والتي كان قد أنشأها الموحدون، فعاثوا فيها، ونهبوا الماشية والمتاع والثياب، وقتلوا من كان بها من المسلمين، وأحرقوا دورها، وفعلوا مثل ذلك بربض مقرينة، الواقع في شمالها الشرقي. حتى فاضت الجثث وملأت شوارع القرى، وكان الجند القشتاليون يقتلون الأطفال بلا رحمة أمام آبائهم، ويقتلون النساء بلا شفقة أمام أزواجهم، تسبقهم ضحكات التشفي التي أطلقوها على دماء الأطفال، ولم يرحموا شيخًا أو طفلًا أو امرأة أيًا كانت، وبعدما أتموا المذبحة، رسموا بدماء القتلى الصلبان في كل مكان،

على أن كوريا قبل أن يخرج من منية البحيرة، أمر رجاله بهدم مسجدها، ففعلوا والضحكات ترن في أرجاء المكان...

كعادتهم عقب كل نصر يحرزونه، فقد احتفلت (إشبيلية) بهذا النصر العظيم، وراح الأطفال يلهثون في الشوارع والميادين، وصار الذي جرى حديث النساء وحوار الرجال، وضجت (إشبيلية) بالضحكات، لم يوقفها سوى صرخة قوية خرجت لتقول:

- لقد ذبح القشتاليون مسلمي منية البحيرة، وعدة قرى مجاورة، لقد ذبحوا الأطفال والشيوخ، لقد قتلوا النساء بعد اغتصابهن، لقد أحرقوا الأخضر واليابس!

قطع الصوت ألسنًا تلهج بالثناء على ما حدث، ووجم الجميع وعمهم الغضب والفزع، وراح الناس في الدروب والشوارع والأزقة، يحكون ويتحاكون عن جرم القشتاليين.

أما (زيد) فقد كاد يجنّ وهو يقول:

- لماذا وتلك القرى لم تشارك في الحرب بالأساس؟ لماذا يقتلون من لم يحمل السلاح، لماذا يذبحون الأطفال والنساء؟ لماذا يشيعون كل هذا الخراب والدمار؟ ولماذا تركوهم بعد قتلهم نهبًا للغربان تنوح عليهم، وللكلاب تنهش من أجسادهم العارية؟

- اهدأ يا (زيد)، فما وقع قد كان فلا تجزع!

- حتى الأطفال يا (عبدالرحمن)؟ حتى الأطفال؟!

وفي هدوء كالبحر تحدث الشيخ الجياني، الذي كان يجلس بجوار (عبدالرحمن) وقال:

- لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة.

تنهد (عبدالرحمن) وقال:

- صدق الله العظيم.

ثم نظر إلى (زيد) واستطرد قائلًا:

- نعم يا (زيد) لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، لقد انتقم (فرناندو) لهزيمته غير مرة أمام أسوار (إشبيلية)، بالاعتداء على المسلمين العزل المجاورين للمدينة، والذين لم يشاركوا في تلك الأحداث، ولم يحاربوا أو يرفعوا سيفًا في وجه (قشتالة)! وكأنَّ (فرناندو) أراد أن يعاقبهم لوقوفهم على الحياد بيننا وبينه، وكأنه يقول لهم لا فرق عندي بينكم وبين المحاربين، ما دمتم مسلمين، فدماؤكم مباحة لي سواء حملتم السلاح أو تركتموه، إذ يكفي أن تكون مسلمًا لنقتلك.

وفي تلك الأثناء حضر الأمير (شقاق)، فامتنع (زيد) عن الحديث والتزم الصمت، بينما قال (شقاق) بعد أن وقف له الجميع:

- لقد سمعت ما قلتموه، ويؤسفني أنّ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لم يتعلموا بعد.. لم يتعلموا بعد أن الموت بالسيف أشرف من الذبح به! لم يتعلموا أنّ النصارى لن يفرقوا بين المسلم المحارب والمسلم المعاهد لهم، لن يفرقوا بين المسلم العربي والمسلم البربري أو حتى المسلمين من أصحاب اللسان القشتالي، فالمسلم دمه وعرضه وماله مباح، لا للسانه أو عرقه، بل لأنه مسلم فقط، والله لو أننا اتبعنا دينهم كما فعل (بجنت) وغيره، ما حاربونا أبدًا ولكنه الدين!

وراح يضرب على صدره!

بغضب قال (عبدالرحمن):

- وهل سنقف يا سيدي هكذا مكتوفي الأيدي؟

- لا يا (عبدالرحمن)، بل سنرد لهم الصاع صاعين.

تدخل الشيخ الجياني ناصحًا:

- يا ولدي لا تجعلوا جهادكم انتقامًا، فتخسروا حروبكم، ومن يقتل منكم لن يكون شهيدًا، فاحتسبوا جهادكم لله ورسوله.

أمَّن الأمير (شقاق) قائلًا:

- أجل يا سيدي لقد صدقت، سنجعلها لله والإسلام.

سأل (عبدالرحمن) مستفسرًا:

- فما هي الخطة أيها الأمير؟

- هم الآن يتوقعون أن نكرر الهجوم علي قواتهم عبر الوادي الكبير، لذا تراهم يضاعفون الحماية علي السفن، ونحن لن نخذلهم بل سنهاجم تلك السفن!

- سيدي...

وقبل أن يكمل قطع عليه (شقاق) حديثه قائلًا:

- نعم يا (عبدالرحمن) سنهاجم سفنهم، ونضربهم في مكمن قوتهم كما يحبون، ولكن بخطة مختلفة عن ذي قبل، إذ ستخرج أنت بخمسمائة فارس، وتهاجم السفن القشتالية، وتثير الرعب فيهم، وبذلك سنلفت نظر القشتاليين إلى النهر والسفن فيه، فيتدافعون لحماية سفنهم... عندها اصمد لهم قدر استطاعتك، على أن لا تُهلك نفسك وجندك.

يستدير (شقاق) ويكمل قائلًا:

- في نفس الوقت سأخرج أنا بفرقة مختارة من الجند، وأهاجم بهم الملك نفسه، بينما يكون ابن خلدون مستعدًا داخل المدينة لحمايتها، إن هلكت وجندي أو هلكت أنت يا (عبدالرحمن) أو هلك كلانا.

اقشعر جسد (عبدالرحمن)، وبحركة لا إرادية انتفض وأمسك بسيفه، وقال:

- أهلًا بالشهادة وقطف رؤوس القشتاليين.

بكى الشيخ الجياني وقال مخاطبًا (شقاق):

- أيها الأمير أريد أن يكون لي نصيبٌ في هذه الموقعة

ربت (شقاق) على كتف الشيخ في إجلال وقال:

- يكفي أن تدعو لنا يا سيدي الإمام، فهذا ما نحتاجه اليوم.

ثم همّ بتقبيل يده فامتنع الجياني وسحب يده سريعًا وقال متوسلًا:

- لا تحرمني شرف الجهاد أيها الأمير، ولا تحرمني الشهادة التي عشت أرجوها، فقد بلغت من العمر أرذله، ولن أعيش أكثر مما حييت، ومن يدرى لعلي أنال الشهادة، فأختم بها حياتي الطويلة، فأكون من الفائزين!

أكبر (شقاق) الشيخ ورمقه بنظرة حانية، وكادت دموعه أن تنفجر تأثرًا، وهو يقول:

- لا بأس يفعل الله ما يشاء.

(٤)

ولي العرش ينقذ الملك

بعينين مبتسمتين ووجه يخفي حزنًا عميقًا، وقفت (مريم) أمام المرآة في غرفتها تداعب شعرها بيديها، وهي تتذكر تلك الأيام السعيدة، عندما كان لا يمر عليها أسبوع واحد من دون رؤية (زيد) والحديث معه، ثم راحت تذكر يوم السوق، عندما رأته لأول مرة في حياتها، بعدما أجبرت الحرب (زيدًا) على الانقطاع عن زيارتها.

جال بخيالها ما كان، ثم راحت تتذكر يوم الحفصيين، يوم أن ألقى بنفسه في التهلكة من أجلها، وهي تتأوه شوقًا وحنينًا، لم تدر حتى دخلت (قمر) عليها، تحمل بين يديها الطعام، تقدمت (قمر) من (مريم) وقالت لها:

- إلى متى ستظلين هكذا يا حبيبتي؟ فوالله لقد شحب لونك وزاد ضعفك.

ابتسمت (مريم) ولم تنطق، فقد شغلها التفكير في (زيد) عما حولها، فلم تسمع كلام (قمر) أو تبصرها، فعاودت (قمر) سؤالها وقالت:

- ألا تأكلين؟ ألم يبلغ منك الجوع مبلغه؟

ارتمت (مريم) على سريرها، وراحت تبتسم بلا مبالاة واضحة، و(قمر) مشفقة عليها مما وصلت إليه، فقد زاد مرضها بشكل مفزع، وأصيبت بغور العين ويبسها وعدم الدمع إلا عند البكاء، وحركة متصلة للجفن ضاحكة، كأنها تنظر إلى شيء جميل، أو تسمع خبرًا سارًا، أو مزحة لطيفة. كما أصبحت كثيرة التنهد. يتغير حالها إلى فرح وضحك، أو إلى غم وبكاء عند سماع اسم (زيد)، وبدأت تردد كثيرًا اسمه، ولم تعد تصبر عليه، وامتنعت عن الأكل، بعد أن أصيبت بفقدان الشهية، وعادت للانعزال مرة أخرى.

أما (زيد) فقد كان يتوق إلى نهاية الحرب، والفوز بها ليفوز (بمريم)، فكان كلا العاشقين يفكران في بعضهما البعض، ولكن بشكل مختلف.

كانت الضحكات وأكواب الخمر تملأ معسكر (قشتالة)، فقد عكف الجند على الاحتفال بنصرهم المزّيف، على القرويين والفلاحين والنساء الضعفاء، فراحوا يرتشفون الخمر في سعادة غامرة، ويرقصون هنا وهناك وأمام الأسوار، وكأنهم أرادوا أن يضاعفوا غيظ المسلمين وألمهم، ثم راح كل واحد منهم يفخر ببطولاته ويستعرضها، فقال أحدهم بعدما تجرع كأسًا من الخمر:

- لقد كانت ممتعة جميلة، ولم تتركني قبل أن تترك أثرًا في جسدي!

ثم أطلق ضحكة كبيرة، وكشف عن كتفه ليريهم عضة أصابته من قتيلته، ثم استطرد قائلًا وهو يشير لجرحه:

- ولهذا فقد قطعت يدها بعدما فرغت منها، ثم قتلتها!

وانفجر ضاحكًا.

قال الثاني مفاخرًا:

- أما أنا فقد وطئت بخيلي رؤوس عشرة أطفال، حتى انغرست حوافر فرسي في بطن أحدهم!

ثم قذف بكأس الخمر من يده، وقال وهو يتابع الضحك:

- حتى إذا دخلت على بيت أحدهم تقدم إليّ المسلم، وركع على ركبتيه، وراح يسألني بالرب أن لا أقتله وأهله، فرقَّ قلبي له، فبدأت بزوجته وأولاده قبل أن أزيح ما تحت عمامته!

كان ملك (قشتالة) يتابع الاحتفال منتشيًا، ويشارك عسكره وقادته فرحتهم، بل كان مزهوًّا بما فعله جنوده أيضًا، فقال في تشفٍّ واضح في جموع جنوده السكارى:

- لقد كانت تأتيهم المؤن من وادي الشرف ومن باقي القرى، فليخبرونا اليوم أين واديهم ومن أين ستأتيهم المؤن!!

ثم قهقه بصوت مرتفع، فضجَّ الحاضرون بالضحكات.

وتحدث بلاي كوريا فقال:

- الحمقى!! كانوا ينادون ربهم لينقذهم منا، (وراح يقهقه)، ولم يعلموا أن لا عاصم لهم من سيوفنا!

وتساءل أردونيو:

- لماذا لم ينادوا محمدهم، ليعصمهم من سيوفنا؟

ثم انفجر ضاحكًا.

سمع ملك (غرناطة) هذه الكلمات، وشاهد بعينيه ضحكات ورقصات القوم على جثث أهله وقومه، فحاول مرارًا أن يصم سمعه عنها، ويغض بصره فلا يراها، ولكن من دون جدوى، فما كان منه إلا أن قام و انسحب إلى داخل خيمته، لا يستطيع البكاء على القتلى فيقتله أسياده الجدد، ولا يقدر على الضحكات بينما قلبه منفطر عليهم، وظل هكذا جاحظ العينين، حائر النفس، دامي القلب، لا يدرى أي جريمة فعل!

استمر الضحك، ومالت الرؤوس من تأثير الخمور، ونام (محمد بن الأحمر) في خيمته ملتاع القلب، يكابد أحزانه وأوجاعه، وسط هدير الطبول وفرقعة الضحكات.

وفجأة سطع نور كالبرق أمام الخيمة الملكية، خطف أبصار من فيها، فقال بلاي كوريا وهو شبه مخمور، رافعًا كأسه بيده:

- ها هي السماء تحتفل معنا، وتشعل نجومها لتنير لنا ليلنا!

أضاف أردونيو:

- برق السماء ونورها هو إشارة من الرب ومباركة لنا!

ثم تابع رفع كأسه ليتجرع منها ما يكفي، وفجأة سقطت الكأس من يده، وبرقت عيناه المحمرتان من تأثير الخمر، عندما سمع الصائح يصرخ:

- المسلمون، المسلمون!!

وكذلك سقطت كؤوس الخمر من أيدي الجنود، وارتاعوا لما سمعوا، فلم يكن أكثرهم تشاؤمًا يتوقع أن يهاجمهم المسلمون بهذه السرعة بعد الذي حدث، ومن فورهم خرجوا من الخيمة الملكية، ليشاهدوا السفن الإسلامية، وقد نجحت في إحراق سفينتين قشتاليتين، بينما تحميها قوة برية من المسلمين، يصدّون كل من يقترب منهم!

ألقى (فرناندو) بكأس الخمر بعيدًا، ونظر إلى أردونيو آمرًا:

- لا تترك لهم خيار العودة إلى مدينتهم هذه المرة، اذهب وعُد لي برأس قائدهم!

امتطى أردونيو جواده، وخرج من فوره لإنقاذ بونيفاس ورجاله، وخرج خلفه كل القادة، ولم يبق حول (فرناندو) غير حراسه، وراح (فرناندو) يراقب المعركة بقلق شديد، فقد كان يعلم أن دمار الأسطول يعني فشل الحصار للأبد، وبينما هو يترقب إذا بأصوات حوافر خيل تقترب، فظنّ (فرناندو) في بادئ الأمر أنهم جنود قشتاليون، قد أقبلوا إليه بالبشارة، بشارة سحق المسلمين، ولكن ما إن اقترب الجنود، حتى وضح الأمر على حقيقته!

فقد كان (شقاق) ينهب الأرض نهبًا تجاه الخيمة الملكية، وكأنه البرق الخاطف، يطيح بكل ما يلاقيه، وهو يأمل أن يعود إلى (إشبيلية) وعلى سن رمحه: رأس (فرناندو)، والخائن (ابن الأحمر)!

انتبه (فرناندو) لماهية القادمين من بعيد، فتأهب للدفاع عن نفسه، وزاغ بصره، وترقب الموت القادم على أسنة السيوف اللامعة، المسرعة إليه في إصرار، وشعر بحرج عجيب وغباء كبير، فقد أبعد بتسرعه كل القادة والجنود عنه، والليل خباء وليس من اليسير أن يستمع إليه الجند وقد ارتفعت صلصلة السيوف، أو يرونه وقد اشتعلت السفن، وأضاءت بنيرانها سماء (إشبيلية)، وأظلم كل ما دونها!

لم يكن بالقرب من (فرناندو) في هذا الوقت سوى أقل من مائة فارس وحارس، التفوا جميعًا حوله، وأحاطوا به، وبدأت بينهم وبين (شقاق) معركة قد حسمت مسبقًا.

وفي حماس رهيب، وبقوة عظيمة، هوت يد (شقاق) التي تحمل سيفًا صارمًا لتقطف الرؤوس الحيارى، وتسكت القلوب البالغة الحلقوم السكارى!

لم يمر سوى وقت قصير حتى سقط رجال (فرناندو)، وانفتح الطريق للقوات الإسلامية لتقطف رأس الملك نفسه، فلم يبق حوله سوى بضع رجال يحيطون به وقد وقف شاهرًا سيفه في وجه المهاجمين، مفزوع النفس مرتاعًا، وبينما يستعد (فرناندو) للموت القريب، ولا يشك لحظة في وقوعه، فلا منجد له ولا مغيث، وقد تفرقت قواته للدفاع عن الأسطول، إذا بفرسان قشتاليين كأنما قد انشقت عنهم الأرض، وظهروا فجأة وتدخلوا في الصراع، ومع مرور الوقت بدأت الكفة تميل لصالحهم وبقوة، فاضطر (شقاق) إلى الانسحاب بقواته القليلة، بعد أن فقد الكثير منهم.

تنفس (فرناندو) الصعداء، وهو لا يصدق أنه ما زال على قيد الحياة... تمالك الملك نفسه، ونظر حوله يستطلع تلك القوة من السماء التي أتت لإنقاذه، فإذا به ولي العرش وقواته التي صادف وصولها ما حدث، وكانت سببًا في إنقاذ الملك بل وكل الجيش من الهلاك الماحق السريع.

(٥)

طلب النجدات

تبدلت أحوال المعسكر القشتالي، ودبّ فيه اليأس مع تكرار الهزائم، وعدم قدرتهم على منع وصول الإمدادات للمدينة المحاصرة، وكان قد مر على الحصار زهاء تسعة أشهر، والمدينة صامدة لم تتأثر أو تعانى نقصًا في الموارد أو السلاح، بل وتقاتل بقوة وبأس، كما لو أنها لم تعانِ يومًا من حصار أو تضييق.

بدأ الرعب يسيطر على القشتاليين رغم كثرتهم، ويخشون سيوفًا وعمائم قد تباغتهم فجأة من خلف الأسوار وتقطف رؤوسهم! ومع تطور الموقف كان لا بد (لفرناندو) أن يتخذ القرار الذي يراه مناسبًا، فإما أن يرفع الحصار ويعود من حيث أتى، وكان هذا مطلب بعض القادة والجند، أو يتابع الحصار وأهواله، وهذا سيكلفه وجيشه الكثير من الوقت والجهد وبذل الدماء، وقد بثّ (فرناندو) هذه الخواطر لبعض رجاله الثقات، يطلب مشورتهم، ويبحث معهم عن حلول ترضي الجميع، وتنقذ الجيش القشتالي من هزيمة قد تحيق به.

وبينما يسير في المعسكر، يتفقده سيرًا على الأقدام، وحوله كبار قادة الجيش، إذ توقف فجأة، وراح يناقش الأمر مع قادته، فتحدث (ألبار بيرت) وقال:

- سيدي لقد تضعضعت الحالة المعنوية لرجالنا، من جرّاء تكرار الهزائم لذا وجب رفع الحصار وإعادة الأمور إلى نصابها، ومن ثم إعادته مرة آخري في ظروف أفضل، وباستعدادات وتجهيزات أضخم.

تجهم بلاي كوريا لما سمعه من (ألبار بيرت) وقال مجيبًا له:

- لا يا (ألبار) فجيوش (قشتالة) لا ولن تُهزم أبدًا، وليس هكذا تنتهي الحروب والحصار.

أصر (ألبار بيرت) على رأيه:

- ومن قال إنها هزيمة، هي فقط إعادة ترتيب للموقف بناء على ما لدينا من معلومات.

تحدث (فرناندو) بحزن وقال:

- بل هي هزيمة يا (ألبار)، وأنا لن أكون بأقلّ من (خايمي) ملك (أراجون)، عندما رفض التراجع عن أسوار (بلنسية) حتى أخذها، لذا دعوا أمر الانسحاب جانبًا، وفكروا فقط في كيفية اقتحام هذه المدينة، وهدمها على رؤوس من فيها!

اقترح رامون بونيفاس:

- سيدي! لا بد من قطع العلائق بالكامل بين (إشبيلية) والخارج، ولن يتحقق هذا ما دامت المدينة مربوطة بطريانة عبر هذه القنطرة العجيبة.

تساءل (ألفونسو) في دهشة:

- القنطرة العجيبة؟

عاد رامون يشرح:

- نعم يا سيدي، إنها قنطرة عجيبة ضخمة، تربط طريانة (بإشبيلية)، وهي تتكون من مجموعة من السفن، المتراصة والمربوطة بالسلاسل الحديدية الضخمة، وإن أردت يمكنك أن تقترب من النهر لتراها بعينيك.

تمتم (ألفونسو) وقال:

- وهل أنت عاجز عنها يا بونيفاس؟

أكمل رامون بونيفاس شرحه للموقف:

- تمنعنا عنها السفن المغربية الوافدة من سبتة وطنجة يا سيدي، ففي تلك السفن مجموعة من البحارة شديدي البأس، لا يهابون الموت ولا يطلبون الحياة، لا يفرون ولا يؤسرون!

هزّ (ألفونسو) رأسه قائلًا في حيرة:

- فكيف السبيل إذن؟

رامون بونيفاس:

- لا بد يا سيدي من صناعة المزيد من السفن، حتى نستطيع طرد سفن المسلمين أو إغراقها، ولكن هذا الأمر يتطلب المزيد من الوقت والعمل.

بعد صمت طويل وعدم مشاركة في الحديث، تحدث (فرناندو) فقال:

- نعم يا رامون سأجلب لك المزيد من السفن.

متعجبا قال بونيفاس:

- سيدي ما زالت دار الصناعة في كنتبرية كما هي، إذ لم يتم بناء أي سفن جديدة إلى الآن.

- لن أجلب لك السفن من كنتبرية، بل من برشلونة ولشبونة... من (أراجون) و(البرتغال) -ثم تحرك قدمًا للأمام-، جميعكم يعلم صلة القرابة بيني وبين (ألفونسو الثالث) ملك (البرتغال)، كما تعلمون أن ولى العهد هو صهر لملك أراجون، مما يعني أنهم لن يدخروا وسعًا لمساعدتنا، إن نحن طلبنا ذلك.

جلس (خايمي الأول) يطالع الرسالة القادمة من (إشبيلية)، حتى إذا انتهى منها نظر إلى زوجته وهو يضحك، ويقول:

- من كان يظنّ أن ملك (قشتالة) يرسل لي أنا طلبًا للعون؟

ابتسمت (فيولانتي) وقالت:

- ومن أولى به منك وقد صار ابنه صهرًا لك؟ على أنّ هذا يعني اعترافًا منه بقوتك، إذ لا يلجأ المرء عند الشدة إلا لصاحب القوة والبأس.

نهض (خايمي) من مكانه فنهضت (فيولانتي) معه، ثم اقترب من طبق مليء بالفواكه، وأمسك بثمرة تفاح وراح يقضمها، وهو يقول:

- لولا تلك المصاهرة لادخرت جيشي لتوسعة ملكي!

في دهاء قالت (فيولانتي):

- ومن يدرى يا حبيبي، فلعل ما يفعله اليوم يكون لك غدًا!

رفع (خايمي) حاجبيه، ونظر إلى (فيولانتي) بعد أن توقف عن قضم التفاحة، وقال:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد ربما تتحد المملكتان في قادم الأيام، فتحوز أنت ملك (قشتالة) وأراجون.

- أتقصدين في حال موت (فرناندو)؟

تبتسم (فيولانتي) في مكر وتمسك تفاحة بيدها، وتقول:

- يموت (فرناندو) فيملك ابنه الضعيف مكانه، ووقتها تكون (لأراجون) اليد العليا، في تسيير الأمور في شبه الجزيرة، وقطعًا لن ينسى شعب (قشتالة) ما فعلته من أجلهم.

برقت عينا (خايمي) إعجابًا برأي زوجته، قبل أن يقول:

- إذن ليخرج ولي العهد بقوة مختارة، ويتجه بها لنجدة (فرناندو) ملك (إشبيلية).

في ربيع سنة ١٢٤٨م وفدت على المعسكر القشتالي، الوفود والقوات من كل حدب وصوب، منها قوة من فرسان قطلونية بقيادة (ألفونسو) ولي عهد (أراجون)، وقوة من الفرسان البرتغاليين بقيادة (بيدرو) ولي عهد (البرتغال)، وقوة من جند بسكونية و(قشتالة) القديمة بقيادة لوبيث دي هارو، وكذلك قدم يوحنا مطران شنت ياقب في قوة من جند جلّيقية، كما قدمت حشود أخرى من مدينة سالم، ومدلين، وقورية، وغيرها، كما وفد كثير من الأساقفة والرهبان، وفرسان الجماعات الدينية، وانضمت هذه الحشود الجديدة، إلى القوات المحاصرة، في مختلف مناطق الحصار.

وهكذا عُزز الحصار حول (إشبيلية)، وأُحكمت حلقاته، وعوّل ملك (قشتالة) على اللجوء إلى الوسيلة المأمونة المؤكدة، وهي إرهاق المدينة بأقصى ما يستطاع، وإرغامها على التسليم بالجوع والحرمان.

(٦)
سقوط طريانة

مضى على حصار النصارى (لإشبيلية) زهاء تسعة أشهر، وهي صامدة، تزداد مع الوقت ثباتًا وإصرارًا على مدافعتهم، ولكنها مذ أحكمت حولها حلقات الحصار، أخذت تشعر بالضيق يدب إليها حثيثًا، وشبح الجوع يقترب منها شيئًا فشيئًا. وشحّت البضائع في الأسواق، وصاحب ذلك ارتفاع شديد في الأسعار، ولم يبق لديها عندئذ سبيل للتنفس البطيء سوى طريانة، قلعتها الجنوبية الغربية المشرفة على فحص الشّرف.

فيما نجح الأسطول النصراني بمعاونة الأسطول البرتغالي والأراجوني، في دحر السفن المغربية، وأغلق بذلك طريق الإمدادات عبر الوادي الكبير.

بدأ التذمر يلوح في الأفق، والإشبيليون يشعرون بالضيق والاختناق، وتواترت الشكاوى إلى مجلس الأمير (شقاق) وقادته، كانت تلك الشكاوى من أطياف الشعب المختلفة، وهم يتهمون التجار بالتربح، ورفع الأسعار، واستغلال الحصار أسوأ استغلال، بينما التجار يتبرؤون من ذلك، متذرعين بشح الأقوات والسلع.

حاول (شقاق) تهدئة الشعب، فأخرج من مخازن (إشبيلية) الكثير من الغلال، وقام بتوزيعها على الناس، وأصدر أوامره لابن خلدون بمراقبة السوق وضبط الأسعار، ولكن رغم تلك الحلول العاجلة، كان (شقاق) يدرك أنّ شُحّ المؤن وراء ارتفاع أسعار الغذاء، وما دامت البضائع قليلة، فلن تفيد تلك الحلول إلا بشكل مؤقت فقط، وحتى إن أخرج كل ما في المخازن، فلن يفيد هذا في علاج المشكلة بشكل جذري، لذا عاد يفكر من جديد في مراسلة ملوك المغرب وتونس، لعلهم ينتفضون لإغاثة المدينة المحاصرة، وقد مر عليها كل هذه الشهور صامدة ببسالة تحت وطأة الحصار، وبعد تفكير أرسل إلى شاعري (إشبيلية): إبراهيم بن سهل، وهارون بن هارون بأن يكتبا رسالتين يستصرخان فيهم ملوك المغرب لنجدة الأندلس، فكتب إبراهيم بن سهل:

وردا فمضون نجاح المصدر

هي عزة الدنيا وفوز المحشر

نادى الجهاد بكم بنصر مضمر

يبدو لكم بين القنا والضُّمر

خلوا الديار لدار عز واركبوا

عبر العجاج إلى النعيم الأخضر

وتسوغوا كدر المناهل في السرى

ترووا بماء الحوض غير مُكدّر

يا معشر العرب الذين توارثوا

شيم الحميّة كابرًا عن أكبر

إن الإله قد اشترى أرواحكم

بيعوا ويهنئكم وفاء المشتري

أنتم أحق بنصر دين نبيكم

ولكم تمهد في قديم الأعصر

أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا

ذاك البناء بكل لون أسمر

أما هارون بن هارون فقال قصيدته، التي يصف فيها محنة أهل (إشبيلية)، وما نزل بأهلها من صنوف الآلام والخطوب، ويهيب فيها بأهل العُدوة أن يبادروا إلى انجادها، وتدارك أهلها فقال:

يا حمص أقصدك المقدور حين رما

لم يرع فيك الردى إلًّا ولا ذمما

جرت عليك يد الدهر ظالمة

لا يعدل الدهر في شيء إذا حكما

ما كنت أحسب أن الحادثات إذا

همت بك السوء لا تلقي لك السلما

قد كان حسنك فتان الشباب فمذ
أصبت عوضت منها القبح والهرما
يا جنة زجرتنا عن زخارفها
ذنوبنا فلزمنا البت والندما

ومنها في وصف الحصار ومصائبه، واستنهاض همم أهل العدوة:

ويمموا حمص في جمع يضيق به
ذرع الفضا بالمرهفات الماع فاكتتما
واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم
جسر منه الفلك لا تشكو به السأما
فكم أسارى غدت في القيد موثقة
تشكو من الذل أقدامًا لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفًا
عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
وكم بطريانة أبقى الأسبى ندبًا
في القلب يبعث وجدًا كلما كلما
يا حسنها عرف للحسن جامعة
ما طار قط لها إلا النعيم جما
يا عين فابك على حمص وقل لها
منك البكاء إذا ما ترسليه دما
وقد أصيبت بها الدنيا وساكنها
حقًا وأصبح ركن الدين قد ثلما
سطا بها الكفر إذ قل النصير بها
فمن معز بها الإسلام ما سلما

يـا أهـل وادي الحمـا بالعـدوة انتعشـوا

هـذا الذمـاء فقـد أشـفى بـه سـقما

فمـاذا يبطئكـم عنـا وحولكـم

أن تبصـروا دار قـوم أصبحـت رممـا

وحقنـا واجـب فالديـن يجمعنـا

مـع الجـوار الـذي مـا زال منتظمـا

وقـد دعونـا فأسـمعنا علـى كثـب

بمـا قـد اسـتنفد القرطـاس والقلمـا

ضمّن (شقاق) تلك القصائد في رسائل، وأرسل منها نسخا إلى عدوة المغرب وتونس، ولكنّ المغرب كان غارقًا في الحروب المشتعلة بين (بني مرين) والموحدين، فلم ينظر أحدهم للاستغاثة أو حتى يهتم بها!

أما تونس فقد وصلتها الرسالة، وفضّها الأمير الحفصي وطالع ما بها، حتى إذا انتهى منها نظر للجلوس حوله، وقال:

- الآن يتذكرون أننا إخوة لهم فيستنجدون بنا، الآن وقد فعلوا بعمالي ما فعلوا!!

انبرى (ابن الأبّار) يذكّره أخوة الدين وحتمية نصرتهم:

- لو أنجدتهم أيها الأمير، فهم وإن كانوا قد فعلوا وقتلوا (ابن الجد)، إلا أنهم لم يقتلوا عمالك، ونصرتهم الآن نصرة للإسلام.

وقف الحفصي متحيرًا، وتحرك صوب (ابن الأبّار) بعد أن ألجمته كلماته، ثم راح يبحث في أعماق نفسه عن عذر يعتذر به:

- حتى لو حاولنا، فلماذا ننجح اليوم وقد فشلنا من قبل في (بلنسية)؟

ثم استطرد قائلًا في خزي:

- لا رادّ لقضاء الله، فإن كان الله قد كتب عليهم الفناء فلن تنفعهم نجدتي، وإن كان قد كتب لهم الحياة فهذا ما نرجو!

وجم (ابن الأبّار)، والتزم الصمت إزاء هذا الموقف الذليل، إذ لا رأي لمن لا يُطاع ومن لا أمر له.

وعاد الأمير إلى كرسيه، وبدّل الموضوع، وغير سير الحديث، وكأن شيئًا لم يكن، وكأن (إشبيلية) لم تستنجد به، وكأنّ من بها ليسوا مسلمين موحدين، انقطعت بهم السبل، وكأنّ الحفصي توهم أنّ سيوف القشتاليين ستتوقف عند (إشبيلية)!!

وهكذا رفض الأمير الحفصي، مد يد العون للمرة الثانية للمدينة المحاصرة، وتركها لمصيرها المحتوم...

(٧)

قنطرة طريانة

مايو ١٣٤٨ م

كان التوتر واضحًا على وجه أردونيو، والعرق يتصبب من كل جسده، وهو يحاول جاهدًا التغلب على قيظ الصيف، وحرارته الحارقة.

رفع أردونيو يديه أعلى جبهته، وهو ينظر في الأفق البعيد، لعله يرى أحدًا قادمًا من هنا أو من هناك، ثم رد بصره خاسئًا، وقال في نفسه وهو غاضب:

- الويل له، لماذا تأخر كل هذا الوقت...؟

ثم بدأ يتحرك حول الخيمة قلقًا، وفجأة ظهر شبح يجري من بعيد، وسط السراب الكائن في آخر المعسكر... دقق أردونيو النظر، ثم تنهد قائلًا:

- أخيرًا!!

اقترب صوت حوافر الفرس القادم، حتى إذا وصل صاحبه ترجل بسرعة البرق، واتجه مسرعًا صوب أردونيو، وقدّم إليه ورقة، فرمقه أردونيو بنظرات حادة، تفيض بالغضب العارم، دون أن ينبس بكلمة.

تحاشى الرجل نظرات أردونيو وقال:

- كدت أن أهلك لأحضر هذه المعلومات، وهذا سبب تأخري فاعذرني يا سيدي.

رمقه أردونيو ثانية بنظرات احتقار، ثم أشار له أن ينصرف، فانصرف الرجل مضطربًا، وفضّ أردونيو الرسالة، وقرأ ما بها ثم أعاد لفها كما كانت، وهو يبتسم في نشوة كبيرة، بعدها ذهب إلى حيث خيمة الملك (فرناندو)، الذي كان في اجتماع مع قائد الأسطول رامون بونيفاس، واستأذن للدخول عليه، وما إن دخل حتى ركع أمام (فرناندو) مؤديًا له التحية ثم قال:

- سيدي، لقد أتت الأخبار من (إشبيلية)!

بكل اهتمام ولهفة، قال (فرناندو):

- هاتِ ما عندك.

- لقد بدأ الحصار يؤتي ثماره، فالجوع يدبّ في أوصال المدينة، وأخذ الضيق يتسرب إلى نفوس أهلها، والعامة الآن يتضورون جوعًا، وقد تركهم (شقاق) قائدهم الكبير، وانتقل إلى قلعة طريانة يدافع عنها بنفسه، مما يعني خلو (إشبيلية) من أهم أسباب قوتها.

أخذ (فرناندو) نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- أخيرًا!!

أردونيو:

- أجل يا سيدي، ولولا قنطرة طريانة لماتت المدينة جوعًا.

هبّ (فرناندو) من مكانة بعد أن لمعت عيناه فرحًا، وقال:

- لهذا يجب علينا أن نستولي على تلك القنطرة فورًا، أو نسرع بقطعها مهما كان الثمن!

أردونيو:

- أخشى يا سيدي أن يكون الثمن باهظًا!

ملأ فرناندو كأسه مجددًا وقال:

- فليكن باهظًا... فالملوك عندما تدخل الحروب لا تنظر للخسائر، ولكنها تترقب النصر وتطلبه بأي ثمن، لقد مر علينا عشرة أشهر هنا، وما زالت (إشبيلية) تتمتع بالقوة الكافية لمناجزتنا، وليس ذلك إلا لعدم تأثرها بهذا الحصار، بالقدر الكافي الذي يجبرها على الركوع، وقد حان الوقت لتتجرع المدينة الجوع ألوانًا.

تدخل بونيفاس في الحديث وقال:

- سيدي لقد طوقنا المدينة من كل مكان، ومذ أن حضر الأسطول الأراجوني والبرتغالي، لم تمر سفينة واحدة عبر الوادي الكبير، مما يعني أنها مسألة وقت ليس إلّا، ثم تخور قوى المدينة، ويتضعضع حال من فيها، فلماذا نبذل الغالي والثمن الباهظ؟

ردَّ (فرناندو) مفكرًا، كأنه يكلم نفسه:

- ستضعف المدينة نعم، لكن لن تخور قواها وتسقط، طالما تمدها طريانة بأسباب الحياة.

عاد بونيفاس يسأل:

- فماذا ترى يا سيدي؟

أفاق (فرناندو) من تفكيره وقال في حزم:

- يجب عزل طريانة عن (إشبيلية) بأي ثمن، يجب الفصل بينهما، وبما أن قائدهم الأكبر مقيم فيها، فلو تم عزل طريانة الآن، لكان لهذا العزل قيمة كبيرة!

استفسر بونيفاس بلهفة:

- كيف ذلك سيدي؟

- ستخور قوى المدينة، ويضطرب حال المدافعين عنها، حالما يفقدون صلتهم بأميرهم، الذي يبث فيهم الشجاعة والإباء. ومن جهة أخرى سنقطع حبل الإمدادات الأخير لهذه المدينة العنيدة فتصير المدينة لنا إما بالاستسلام، أو بموت أهلها جوعًا، فإن نجحت الأسوار في حمايتهم من سيوفنا، فلن تنجح في سدّ رمقهم وإشباع أطفالهم!

قال بونيفاس معترضًا، وقد تذكر ما حدث من قبل :

- أخشى يا سيدي أننا لن نستطيع كسر السلاسل، وقد حاولنا قبل ذلك فلم نستطع.

- لقد تبدل الحال يا بونيفاس، فليست (إشبيلية) اليوم وقوتها كما كانت منذ شهور، وليس الأسطول القشتالي اليوم كما كان منذ شهور، خاصة بما انضم إليه من قوات برتغالية وأوربية.

- صدقت يا سيدي.

- لهذا عليك وضع خطة لتحطيم القنطرة، وستكون أنت المسؤول أمامي عن نجاح تلك الخطة أو فشلها!

هز بونيفاس رأسه يأسًا، بعدما أيقن أنه لا مفر من حرب انتحارية، يقودها ورجاله لتحطيم تلك القنطرة. ثم صمت لحظات وقال في نفسه يطمئنها: مفاجأة كبرى وضربة قاسية قد تغير كل شيء، ثم رفع بصره تجاه (فرناندو) وقال:

- سيدي! إن كان لا مفر من عزل طريانة، فلنبادر بذلك فورًا، فهذه الليالي حالكة الظلمة، والمسلمون لا يتوقعون أن نُغير عليهم من البحر ليلاً، فتكون المفاجأة قاضية، وتسقط القنطرة اللعينة!!

اقترب (فرناندو) من بونيفاس وربت على كتفه، وقال:

- اخرج الآن وجهز لمعركتك، فإن انتصرت فبها ونعمت، وإلا فلا تريني وجهك مرة أخرى.

تحرك بونيفاس متحفزًا، بعد أن أدى التحية (لفرناندو)، وخرج وقد علم أنّ معركته المقبلة لا بديل له فيها عن النصر، فإما أن ينتصر ويظلّ كما هو أميرًا للبحار، أو الهزيمة ووقتها يغادر (قشتالة) كلها تشيعه اللعنات.

قضى بونيفاس ساعاته القليلة في التخطيط للحرب الموعودة، ووضع رجاله على أهُبه الاستعداد، واختار أشجعهم فجعلهم حوله، وبمجرد دخول الظلام، وضع رجاله على متن السفن، وأمرهم جميعًا بالصمت وإطفاء النيران حتى لا تلفت نظر المسلمين إليهم، وقرر المسير في النهر حثيثًا، دون أي ضوء أو دليل.

حدد بونيفاس طريق سفنه وحبس أنفاسه، ولأنه يعرف الطريق إلى القنطرة ليلًا، فقد قرر أن يقود هو أكبر السفن القشتالية ويقتحم على المسلمين قنطرتهم، فيما تتبعه السفن الأخرى في مهمة انتحارية ضخمة، وقد كانت مغامرة كبرى، تلك التي انتواها بونيفاس، فقد كان الظلام حالكًا، ولا يبعد أن ترتطم سفنه بعضها ببعض، أو ببعض الأحجار والصخور، أو حتى تغرس في الطين إن عميت عليهم.

لكن لعلمه أنّ هذه الطريقة هي الوحيدة، التي ربما تنجح في زحزحة تلك القنطرة وسلاسلها الحديدية، فقد قرر أن يغامر، وبتجديف قوي جدًّا، اندفع بونيفاس بسفينته متجهًا صوب القنطرة، فاصطدم بها بقوة عنيفة أدت إلى قطع السلسلة، بينما تسربت المياه إلى السفينة وبدأت تميل للغرق، ومع وقوع الارتطام، تحرك (فرناندو) بفرقته المنتخبة، وأمر جنوده بإشعال النيران، ليلفتوا بذلك أنظار المسلمين، ويبعدوهم عن القنطرة، ثم أسرع بقواته تجاه النهر ليحمي ظهر

بونيفاس، الذي ما إن قطع السلسلة حتى أشعل النيران بقوة في القنطرة، عبر سكب الزيت عليها، بينما كانٍ جنوده شاهرين السلاح، يقذفون السهام على كل من تقدم من المسلمين، محاولاً إنقاذ القنطرة أو حمايتها!

حاول بعض الجند المسلمين التقدم لحماية القنطرة، ولكن سهام جنود بونيفاس كانت لهم بالمرصاد، ولم يمر الكثير من الوقت حتى كانت القنطرة قد انشقت إلى نصفين، وتحقّق بذلك الفصل بين طريانة، و(إشبيلية). وكان ذلك في الثالث من مايو سنة ١٢٤٨ م، وفقد بونيفاس في تلك المعركة القصيرة أكبر وأقوى سفن الأسطول القشتالي، ولكن ما قيمة السفينة بعد أن أدت مهمتها المنشودة؟

(٨)

الفزع يعم المدينة

كان تحطيم القنطرة على هذا النحو ضربة شديدة للمسلمين، إذ ترتب عليه الفصل بين قلعة طريانة، وبين المدينة، وقطع طريق الشّرف، وهو الملاذ الأخير الذي كان باقيًا للمحاصرين، لاستيراد الأقوات والمؤن، بعد أن أضحى طريق النهر محفوفًا بأعظم المخاطر. كما ترتب عليه عزل طريانة، وتعرضها لخطر هجوم النصارى منفردة. وهذا ما عوّل عليه النصارى بالفعل على أثر تحطيم القنطرة.

أحدث قطع القنطرة قلقًا كبيرًا، داخل أسوار المدينة المحاصرة، وفزع من ذلك الخبر قادة المدينة وحكامها، وتسرّب الخبر إلى الشعب الجائع، الذي كان يعلم أهمية القنطرة، وكونها المصدر الوحيد، الذي ظل يمد المدينة بالمؤن والغذاء لشهور طويلة، فنزل الخبر عليهم نزول الصاعقة، وأصاب الكثير منهم الوجوم، وشعروا بقرب النهاية المحتومة.

وفي صباح اليوم الثاني، كان (عبدالرحمن) وابن خلدون وأبو الحسن بن علي، ينظرون إلى القنطرة المقطوعة، بأسى شديد وحسرة كبيرة، فقال (عبدالرحمن) بصوت حزين غاضب:

- لقد استطاعوا خداعنا، ولكنهم لن يستطيعوا هزيمتنا!

وفي حماسة قال ابن خلدون:

- لن يستطيعوا يا (عبدالرحمن) لن يستطيعوا، ولو كانوا يقدرون لهاجموا المدينة بدلًا من القنطرة!

غمغم أبو الحسن في غضب وحسرة:

- جبناء... لا يقدرون إلا على الحصار!

عاد ابن خلدون يبث الأمل:

- ألستم تتفقون معي أننا نستطيع بناء سفينة جديدة أو سفينتين، ونسدُّ بهما الثغرة بين طرفي القنطرة، وبذلك تعود طريانة متصلة بإشبيلية، والعكس...؟

أخذ (عبدالرحمن) نفسًا عميقًا، ثم قال:

- لن يتركنا القشتاليون نفعل ذلك، ناهيك عن السلسة الحديدية التي قُطعت، وهي مربط الفرس يا ابن خلدون، فمن دونها لن تصمد قنطرة أبدًا.

عضَّ ابن خلدون على أسنانه غيظًا، وقال:

- ممم لقد غاب ذلك عن خاطري!

قال (عبدالرحمن) مواسيًا:

- لا بأس يا صديقي....

ثم نظر إلى القنطرة وأردف:

- علينا الآن الاتصال بالقائد (شقاق)، واطلاعه على جديد الأخبار الدامية هنا، وما أظنه غافلًا عما حدث.

هتف ابن خلدون موافقًا:

- نعم يا (عبدالرحمن)، يجب علينا ذلك حتى تتفق خططنا هنا وهناك، لذا سأنتخب أحد جنودي للإسراع بذلك.

قال (عبدالرحمن) في إصرار:

- لن يذهب إلى الأمير (شقاق) أحدٌ غيري.

قال ابن خلدون في جزع:

- لكننا نحتاجك هنا!

نظر (عبدالرحمن) يمينًا ويسارًا وقال:

- لا بد من ذلك يا ابن خلدون، لا بدّ....

(٩)

رامي السهام

أخذ (زيد) نفسًا عميقًا، قبل أن يشدّ قوسه، ويدقق نظره، ثم يُفلت السهم من يده، ليشقّ الريح، ويغوص في قلب أحد الجنود، فيصرعه من فوره، فيهب (زيد) فرحًا وهو يشير بيده جهة الجندي الصريع، ويقول:

- السادس!

ردّ عليه الجندي الواقف بجواره، ويقول:

- انظر إليه!! إنه لم يُصرع بعد، فها هو يحاول النهوض!

نظر (زيد) بعين مترقبة، وقال:

- يحاول نعم، أمّا أن ينهض فهذا مستحيل، ثم استطرد، وقال:

- انظر لقد استسلم، وعاد جثة هامدة!

عضّ الجندي على شفتيه، وقال:

- آه! غلبتني هذه المرة!

قهقه (زيد) ورمق صاحبه بنظرة ماكرة، وقال:

- هذه المرة فقط؟ وماذا عن المرات السابقة؟

زفر الجندي في ضيق، وقبل أن يتحدث لمح القائد (شقاق) يقترب، فالتزم الصمت.

اقترب (شقاق) من (زيد) وصاحبه، وكان قد شاهد ما يحدث، فقال:

- لماذا الصمت، بل استمرا... فهذا المزاح وهذا التنافس، مما يحبه الله ورسوله، وإني مشارككم فيه.

فتح (زيد) عينيه ورفع حاجبيه، وقال في بهجة:

- حقًّا أيها الأمير.

- نعم يا (زيد)، فوالله لولا ما نحن فيه، لأقمت لكل أهل (إشبيلية) مسابقات مثل هذه، ولأصبح كل أهل (إشبيلية) محاربين أمثالكم!

ثم التقط النبلة وأطلق سهمًا فاخترق السهم صدر جندي قشتالي، كان يقف على حدود المعسكر القشتالي.

برقت عينا (زيد) وقال متعجبًا:

- لله درك أيها الأمير! كيف فعلت ذلك، بينما كان القشتالي يظنّ نفسه في مأمن منا، لبُعد المسافة؟!

ابتسم (شقاق) وقال موجهًا حديثه، لهما:

- ابر سهمك جيدًا، وشد نبلك بقوة، وأحسن التصويب، واختر أماكن الموت في عدوك، وقدر المسافة، وأطلق سهمك... لقد صوبت تجاه رقبة القشتالي لعدم وجود لباس يحميها، ولهذا وقع قتيلًا فورًا، ولو صوبت تجاه صدره من هذه المسافة، لكان في لباسه ما يحميه من السهم، مع طول المسافة.

انهمك (شقاق) فيما يقول وفجأة إذا بأحد الحراس يقول:

- سيدي! وصل (عبدالرحمن الإشبيلي) إلى طريانة.

رفع (شقاق) حاجبيه وقال:

- حقًّا؟ لقد اشتقت إليه..

ثم ربت على كتف (زيد) وقال له:

- أريد أن يكتمل عددك العشرين، فلا تكتفِ بما دونهم.

ابتسم (زيد) وقال:

- سأفعل أيها الأمير.

تحرك (شقاق) ونزل من أعلى السور، ليلتقي (عبدالرحمن) الذي كان ينتظر هناك في القصبة، وما إن التقيا، حتى احتضن كل منهما الآخر، ثم جلس الاثنان يتباحثان. فقال (شقاق):

- لقد قضّ مضجعي وأزعجني قطعهم للقنطرة، وعزلهم طريانة عن (إشبيلية)، ولكن يجب أن لا يفتَّ ذلك في عضدكم أو يرهبكم.

بحماسة قال (عبدالرحمن):

- أجل سيدي الأمير، وإن كنا خسرنا القنطرة، فما زالت سيوفنا معنا نقاتل بها ونذود عن أنفسنا وأهلينا.

- وهذا ما يجب عليكم أن تبثوه في الجند بل وفي كل أهل (إشبيلية)، فإن كنا خسرنا جولة فهذا لا يعني خسارتنا الحرب بعد كل هذه الشهور من النزال والطعان.

- أجل أيها الأمير فطب خاطرًا؟

أغمض (شقاق) عينيه في حسرة ثم فتحهما، وقال:

- أخبرني يا (عبدالرحمن) عن المؤن، هل ضجر الشعب لقلتها؟

أومأ (عبدالرحمن) برأسه وقال:

- جلهم صابر، وبعضهم مضطرب الحال.

- أخشى ما أخشاه يا (عبدالرحمن)، أن يفقد الإشبيليون صبرهم، فيحدث ما لا يُحمد عقباه، وينفلت زمام الأمور بما لا نستطيع رده.

- سيجعل الله بعد عسر يسرًا يا سيدي.

نهض (شقاق) فنهض بنهوضه (عبدالرحمن)، وقال:

- والآن ارجع إلى (إشبيلية) وتابع أمورها، وسأتابع أنا أمر طريانة والدفاع عنها، فلا نؤتينّ من قبلك!

- لن يحدث إلا أن أصير تحت ترابها.

ثم همّ بالانصراف فاستوقفه (شقاق)، وقال له:

- أريدك أن تعاود الإرسال، إلى ملوك المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، تستنجدهم، وتستغيث بهم، فمن يدري؟ لعل الله يجعل بعد ذلك فرجًا.

- لكن يا سيدي لمَ نكرر ما فشلنا فيه قبل ذلك مرتين؟

- أولًا حتى نلزمهم الحجة، وثانيًا لأنه قد بلغني أن صاحب تونس قد اتخذ لقب الخلافة، وصار يدعو نفسه أميرًا للمؤمنين، وحقٌّ على حامل هذا اللقب أن يرقى إلى مستواه، ويدافع عن المؤمنين.

- سأفعل يا سيدي، وإن كنت أعلم أن لا فائدة من هذا!

ربت (شقاق) على كتفه وقال:

- بوركت يا خير شباب (إشبيلية).

مكث (عبدالرحمن) يومه في طريانة، يتباحث مع (شقاق) حول كل شيء، ويرتبان سويًّا مجريات الأمور، وما يمكن فعله في قادم الأيام.

أما (زيد)، فما إن علم بنزول (عبدالرحمن) القلعة حتى بادر يلتقيه، فما إن خرج (عبدالرحمن) من لقائه مع (شقاق)، حتى كان (زيد) في انتظاره. وبلهفة كبيرة احتضن (زيد) صديقه (عبدالرحمن)، ثم تحرك الاثنان حول أسوار القلعة... وبعد تردد قال (زيد):

- أخبرني يا عبدالرحمن، هل تعرف شيء عن أخبار (مريم) فإن قلبي يحدثني أنها ليست على ما يرام!

نظر (عبدالرحمن) إلى صاحبه محاولاً تصنع الابتسامة؛ ليبث الطمأنينة في نفسه:

- ستكون بخير يا (زيد)... نعم ستكون بخير، فما هي إلا وعكة، وستفيق منها إن شاء الله.

في حزن وأسى بالغين، نطق (زيد) وقال:

- لقد طالت محنتها يا (عبدالرحمن)، ولا أدرى إن حدث لها مكروه كيف لي أن أحيا في (إشبيلية) بغيرها، بل كيف لي أن أعيش في هذه الدنيا بعدها!

نظر (عبدالرحمن) إلى الأرض ثم رفع رأسه وقال:

- إن شئتَ، كلمتُ الأمير (شقاق) في أمرك.

- لماذا؟

- لتترك الحراسة هنا، وتنتقل معي إلى (إشبيلية)، فتكون قريبًا من (مريم).

وقف (زيد) ونظر إلى (عبدالرحمن) وقال:

- لا تفعل!

- لماذا!؟

- لو فعلت لأسقطنَّ من عين (مريم)، ومن عين نفسي، إذ لا يجدر بي أن أترك مكان حراستي - والمدينة والمسلمون في أشد الاحتياج لي الآن - لسبب شخصي، مهما كان الدافع والمبرر، ولكن إن استطعت...

ثم استطرد وهو يخرج رسالة من جيبه:

- فهذه رسالتي لها، أوصلها بنفسك لها يا (عبدالرحمن)، وأخبرها أني ما زلت على الوعد وأني أنتظر انقشاع الغمة، لأكون بين يديها زوجًا لها محبًّا مخلصًا وفيًّا، وأخبرها أيضًا أني أحبها حبًّا جمًّا، وإنها وإن كانت بعيدة عن ناظري، فهي داخل قلبي، وأمام عيني ليل نهار، لا أفكر إلا فيها، ولا أرى من الناس غيرها، وأخبرها أنى أريدها بخير، فليشفِها الله من أجلي.

- على رسلك يا رجل، اكتب هذا في رسالتك، وأطنب كيفما شئت.

(١٠)

هموم ابن الأحمر

كانت نومة غير هنية، تلك التي نامها (محمد بن الأحمر) في خيمته في معسكر القشتاليين، فقد بدا وجهه يحمل كل علامات الضيق والفزع، بينما يتقلب يمينًا ويسارًا، وكأنه ينام على جمرة من نار، أو كومة شوك تخزه، والعرق يتصبب منه بكثافة شديدة، حتى ابتلت ملابسه ووجهه، وتقاطرت المياه من لحيته، بينما تتسارع أنفاسه، ثم فجأة قام من نومه، ليجد نفسه ما زال على قيد الحياة...

أمسك (ابن الأحمر) رقبته، ثم برقت عيناه وهو ينظر إلى كوب الماء بجانبه، قبل أن يمد يده ويرفع الكوب ويرتشف منه، وهو ينظر ذاهلًا بعينين مفتوحتين لا تكادان تريان شيئًا، بينما بدأت أنفاسه المتسارعة تهدئ من سرعتها...

نهض فجأة، وجلس على كرسي بجواره، غارقًا في صمت مطبق بوجه عبوس، ثم بدأ يحدث نفسه وهو زائغ العينين، ويهز رأسه غير راضٍ:

- آه يا (إشبيلية)!!.. ألم يكن من الأفضل لكِ لو لم يطردني أهلك...! لقد امتلأ قلبي حقدًا عليكِ، فأردت أن أنتقم منكِ، فإذا بي أضربك بسيف لن يدميكِ إلا بقدر ما يدميني، ولن يؤلمك إلا بقدر ما يؤلمني، ولن يقتلك إلا بقتل نفسي وروحي... !

قال هذا، ثم وضع يده على وجهه، وتنهد بعمق كبير، بينما أسند وجهه على كفيه، ولم يرفعه إلا عند دخول وزيره، الذي هاله ما رآه على وجه سيده، فقال:

- ما لي أراك عابسًا يا سيدي؟

رفع (ابن الأحمر) وجهه وقال:

- وأي شيء هنا يدعو لغير العبوس يا (ابن عياش)؟ انظر إلينا أين كنا وأين أصبحنا!!

- نحن بأفضل حال يا سيدي، وعما قريب تنتهي تلك الحرب، ونعود إلى الديار ظافرين.

يضحك (ابن الأحمر) بصوت خفيض، وبسخرية وتهكم، ويقول:

- تقولها وكأننا على أبواب رومية يا (ابن عياش)!

- ما بك سيدي، ما الذي يدور في رأسك؟

- ما بي..؟! ألا تعلم ما بي يا (ابن عياش)! ألا تعلم أننا نشارك في حصار إخوتنا في الدين، ألا تعلم أننا نعاضد عدونا على إخوتنا وقومنا... نعم يا (ابن عياش) الإشبيليون منا ونحن منهم، و(فرناندو) هذا الذي نحن الآن معه، لا يختلف عن (فرناندو الأول) و(ألفونسو السادس)، وما يعصر قلبي ألمًا هو علمي أنه سيستدير لي بعد أن يُجهز على (إشبيلية)...

قالها، ثم وضع يديه على خديه مرة أخرى، ودخل في صمت مطبق، ولم يجد (ابن عياش) كلامًا يقوله، فانصرف من حيث أتى.

(١١)
وصول المرتزقة

للمرة الثالثة، فشلت كل السفارات التي أرسلتها (إشبيلية) إلى الموحدين في مراكش، وقد كانوا في نزاعهم الأخير مع بني مرين، وفشلت كذلك السفارات إلى الخليفة الجديد بتونس، ولم يتحرك أو يهتز لما يحدث في (إشبيلية)، سوى طائفة من المجاهدين من عدوة المغرب، وبينما كانت الحياة تضيق حول (إشبيلية) وطريانة، كانت المؤن والإمدادات لا تنقطع عن المعسكر القشتالي، فقد أرسل (خايمي) ملك (أراجون) البضائع من (بلنسية) و(سرقسطة)، وأرسل كذلك ملك (البرتغال) حمولات كبيرة من المؤن والسلاح.

كما أنّ وفود المرتزقة لم تنقطع من كل أرجاء أوربا، فقد وصل بعض المحاربين من الأراضي المنخفضة وبلاد الفرنجة وجرمانيا وإنجلترا، ودعا البابا في روما إلى مساندة الحملة إلى (إشبيلية)، واعتبرها تعويضًا من الرب، عن فشل حملاته الأخيرة على بيت المقدس!

وهكذا عجَّ المعسكر القشتالي بالجند من كل حدب وصوب، وجميعهم في شوق لخزائن (إشبيلية)، ونسائها، ودورها، ودماء المسلمين فيها، وتحول المعسكر القشتالي إلى ساحة كبيرة أو مدينة مفتوحة بها كل أجناس الأوربيين وألسنتهم، تفرقهم اللغة والعادات، ويجمعهم الحقد على الإسلام.

أحسن (فرناندو) استغلال هذه الأعداد الكبيرة من المتطوعين، وانتهز ارتفاع روحهم المعنوية، وراح يعطى أوامره لجنده بمتابعة دكّ الأسوار، وأن لا تتوقف المجانيق عن ذلك ليل أو نهار، وتحركت مجموعات من الجيش يقود كل مجموعة منهم فارس من فرسان (قشتالة)، وكان أردونيو على الفرقة المكلفة باقتحام طريانة، بينما كان بلاي كوريا على الفرقة المكلفة بضرب (إشبيلية) بالمجانيق، وكان ضمن فرقة أردونيو (خوسيه) وبرنارد وسيمون القذر القادم من الأراضي المنخفضة.

تحرك الجميع شاهرين سيوفهم، وأمامهم عربات تجر المجانيق، وإذا بالمؤذن يصدح بأذان الفجر، فيرتاع سيمون من جديد، ويقول:

- ألا من سبيل لإسكات هذا الصوت المزعج؟!!

التفت إليه (برنارد) وقال:

- لن يدوم يا صديقي هذا الصوت.

تأفف سيمون وقال:

- لقد مللت سماعه خمس مرات في اليوم والليلة!

- وستظل تسمعه ما دمنا خارج تلك الأسوار اللعينة.

- والله لئن بقيت لأقطعنّ لسان هذا الذي ينادي لهم بالصلاة.

(١٢)

أبراج الموت

رتب الأمير (شقاق) أمهر الرماة، ورتبهم على أسوار طريانة، في أبراج صنعها خصيصًا لذلك الغرض، وكانت العيون لا تغفل عن مراقبة ما يحدث خارج تلك الأسوار، حتى إذا تقدم أردونيو بفرقته، واقترب من أسوار طريانة، وهو لا يشك في إهمال المسلمين لها، وغفلتهم عنها، لم يفق وقواته حتى انثالت عليهم السهام من كل حدب وصوب، ونداء الله أكبر يرجّ الأرجاء، فتساقطت جثث القشتاليين كأوراق الشجر البائدة في فصل الخريف، وحدث هرج ومرج كبير.

ولم يقدر أردونيو على التقدم شبرًا واحدًا تجاه أسوار طريانة، بل انسحب بسرعة شديدة مبتعدًا عن السهام، وهو يشكر ربه على نجاته هو شخصيًّا، أما (برنارد) وسيمون فقد فجعهما مقتل صاحبهما (خوسيه) الذي قُتل بغتة، بسهم شق رقبته، فتهاوت جثته وسط الرمال، ولم يجرؤ أحدهما على التقاطه، خشية أن يُصرع بجانبه، فتركا جثة صاحبهما وعادا مع العائدين.

عاد أردونيو يجر أذيال الهزيمة إلى المعسكر الرئيس، ودخل على (فرناندو) ليخبره بما حدث فقال له الملك:

- حتى لو مات مائة جندي... ألف جندي يا أردونيو، فإن ذلك لن يغير في الأمر شيئًا إلا مزيدًا من حقدي على هذه المدينة ومن بداخلها.

- فبماذا يأمر مولاي الملك؟

- انتخب خمسين ألف فارس واحتموا بالدروع، وهاجموا طريانة هذه الليلة، وليرينا (شقاق) ما يستطيع!

- ولكن سيدي! لو تنبه لنا المسلمون، فستكون مذبحة كبرى لجنودنا!

ضرب (فرناندو) بيده على منضدة أمامه، وصاح:

- لن يتنبهوا! فهم الآن غارقون في الاحتفال بما صنعوا، لذلك سيقللون الحراسة، ولن يتوقعوا هجومنا السريع عليهم، وأنا أريد إرهاقهم، والتعجيل بهم!

أحنى أردونيو رأسه، وأدى للملك التحية، وخرج من فوره ليكرر الهجوم على طريانة، فكان نصيبة هذه المرة أكثر ألمًا من المرة السابقة، إذ توقع (شقاق) هذا الهجوم، وأعد له جيدًا، (فشقاق) ليس بالقائد الذي يغفل، حتى إذا رصد تحركات القشتاليين نحوه، تركهم وتصنع عدم الانتباه لما يجرى، فتقدم القشتاليون رويدًا رويدًا نحو الأسوار، دون أن يمنعهم أحد، حتى إذا اطمأن أردونيو وجنده، وكانوا قاب قوسين من أسوار القلعة، صدحت السماء بصوت الله اكبر، وانثالت السهام تخترق صدور المهاجمين، الذين لووا أعناق خيولهم، محاولين الابتعاد عن أسوار طريانة، التي أصبحت تهدي الموت لكل من يقترب منها!

(١٣)
الأنفاط

فجأة وفي شوارع (إشبيلية)، ظهر رجل كبير السن، ذو لحية بيضاء مشهرًا سيفه، يجوب شوارع (إشبيلية) ينادي في الناس ويقول:

- حي على الجهاد يا رجال (إشبيلية)، لم يعد أمامكم غير السيف تدافعون به عن أنفسكم ودينكم ونسائكم، ألا إنّ الشهادة في سبيل الله خير من الهزيمة والفرار، ألا إنّ الموت جوعًا أشرف من الموت سلمًا وقد أفرغت تلك الديار من الإسلام، يا رجال (إشبيلية)، المدينة بحاجة إليكم، فلا كرامة لكم بدون مدينتكم ودينكم، ولا عاصم لكم اليوم من القشتاليين سوى الجهاد!!

نظر الإشبيليون بعضهم إلى بعض، فلم يكن الصوت غريبًا على مسامعهم، فنبرة الصوت تلك قديمة مألوفة لديهم، ولكن هيئة من يصدح بالصوت هي الغريبة!! حتى اختلفوا في ماهية الرجل، فقال بعضهم إنه غريبٌ جاء ليؤازرهم، وقال البعض بل هو البياسي قد بدل هيئته، وترك عصاه الغليظة واستبدلها بسيف دمشقي عظيم... ومع تكرار الكلمات وضحت ماهية المنادي...

فإذا به البيّاسي الذي طالما أفزعت كلماته الإشبيليين! قد ظهر عليهم مرة أخرى بهيئة جديدة وإهاب جديد، يناديهم لأول مرة بكلام غير الذي اعتادوه منه، ومع تكراره للحديث تفاعلت الحشود معه، وامتلأت قلوب اليائسين منهم حماسة، وحمل الكثير منهم السلاح، ووصلت أصوات البياسي إلى مسامع ابن شعيب، الذي كان يتجهز للخروج من بيته ومعمله، فشعر ابن شعيب بأنه فأل خير قد أتاه.

اتجه ابن شعيب إلى خزانة ملابسه، وأخرج لباسه العسكري الذي لم يرتدِه منذ سنوات، وتقلد سيفه، وقرر أخيرًا أن يكون جنديًّا في جيش (إشبيلية)، فالموعد قد أزف، ولا فائدة من الجلوس في المنزل، بينما العدو ظاهرٌ على أسوار المدينة.

ارتدى ابن شعيب ملابس الحرب، وخرج إلى لقاء (عبدالرحمن) صديقه القديم، فوجد (عبدالرحمن) هناك، يتابع عن كثب ما يدور في المدينة من شح الأرزاق والأقوات، بينما ابن خلدون يأمر رجاله بتوزيع الغلال والطعام على المحتاجين، بما يسد رمقهم ولا يزيد.

تفاجأ (عبدالرحمن) بابن شعيب، ولم يحتفِ بوجوده كثيرًا، فقد رأى أنه تأخر في هذه الخطوة أكثر مما ينبغي، لهذا عبسَ في وجهه، ولم يهش له، والتزم الصمت، أما ابن شعيب فقد قدر لصديقه فعله هذا، فاقترب منه وقال:

- أعلم أنك غاضب مني، ناقم عليّ، ولكن سيزول غضبك حينما تعلم أنني لم أنشغل عن (إشبيلية) يومًا، ولا عن الدفاع عنها، وأنني صدقتك ولم أكذبك قط.

رفع (عبدالرحمن) حاجبيه، ورمق صديقه بنظرة حادة ولم يتكلم.

- نعم يا (عبدالرحمن) لقد صنعت (لإشبيلية) ما يصونها، وليس بالسيف وحده تحفظ البلاد.

كرر (عبدالرحمن) النظر إلى صديقه في استنكار شديد، فإذا بالثاني يقول:

- سيأتيك بالأخبار من لم تزوّد!

قالها، وانطلق بفرسه مسرعًا، ليعود بعد ساعة تقريبًا، وبين يديه آلة غريبة، ينوء بحملها معه أربعة رجال أشداء.

نظر الجميع إلى تلك الآلة باستغراب كبير، ثم نظروا إلى ابن شعيب كأنهم يستنطقونه، فاستمر صمته، ثم نادى من يساعده، لرفع تلك الآلة وتثبيتها أعلى أسوار (إشبيلية)، في أقرب مكان من معسكر القشتاليين.

نصب ابن شعيب الآلة الغريبة بحرفية كبيرة، وكانت عبارة عن أنبوب كبير من الحديد، طوله حوالي خمسة أذرع، وقطره حوالى الشبرين، بعد ذلك قام بحشو الأنبوب ببعض الحجارة، والمواد الملتهبة، وملح البارود، ثم أشعل النيران في خيط من البارود، وبعد ثوان احترق البارود بالكامل، لتنطلق من أنبوب الحديد كميات هائلة من النار الإغريقية، يصاحبها صوت كالرعد كاد من شدته أن يصمّ الآذان، ثم كرر الفعل نفسه فحدث ما حدث في أول مرة، وقد كانت النيران تخرج من الآلة العجيبة كالبراميل المشتعلة، وخلفها ذيل طويل من الدخان الأسود، وأما

الصوت الذي كانت تحدثه عند انطلاقها فكأنه الرعد القاصف، وكانت تشق الهواء كأنها تنانين أسطورية تطير في الهواء، تضيء ظلمة الليل ضوءً قويًّا حتى كان (عبدالرحمن) وابن شعيب وابن خلدون وأصحابهم، يرون بفضلها الأشياء في خيام العدو؛ وكأنهم بالنهار تمامًا..!

أحدثت قذائف تلك الآلة حرائق جمة في المعسكر القشتالي، وأثارت بينهم هلعًا كبيرًا، وأحرقت كل ما وقعت عليه، كما استطاعت قتل عدد لا بأس به من الجند القشتاليين.

تهلل وجه (عبدالرحمن) وابن خلدون وأبي الحسن، وهم يرون في تلك الآلة العجيبة سلاحًا لا يُقهر، فقاموا جميعًا واحتضنوا ابن شعيب، الذي ظنوا به الظنون من قبل، وحسبوه لا يعبأ بهم، بينما هو في الحقيقة ساهرٌ قائم على أمر (إشبيلية)، لم ينسها يومًا..!

(١٤)
الحفارون

تحول الجانب الكبير من معسكر القشتاليين إلى رماد وجحيم، ونجحت الآلة العجيبة المصنوعة حديثًا في ترويع القشتاليين، وإفناء الكثير منهم، فتراجعوا بعيدًا عن أسوار المدينة، اتقاء لقذائف جديدة قد تصل إليهم.

أما (فرناندو) فقد أوشك على فقدان عقله، إذ كلما أحسّ بقرب النهاية والاحتفال، صدمته (إشبيلية) العنيدة بحيلة جديدة، ولم يجد بعد ذلك حلًا، فأصدر أوامره لجنده بالابتعاد مسافات كافية، حتى لا تصيبهم نار تلك الآلة الجهنمية، وعلى عجل تم بحث الأمر في الخيمة الملكية.

انبرى بلاي كوريا نادبًا:

- لقد مات العشرات من جندي حرقًا يا سيدي، بينما أصاب من نجا منهم الرعب والخوف، فما عادوا يستطيعون التقدم تجاه (إشبيلية).

بغضب قال (فرناندو):

- لا... ليس جنود قشتالية من تذهب آلة أيًا كانت بعقولهم، وترهبهم هكذا!

أردونيو:

- سيدي، لو أمرت بأن يحاصر كوريا وجنده طريانة، بينما أحتل أنا وجندي مكانه.

تعجب الملك (فرناندو) وتساءل:

- وما الفائدة من هذا يا أردونيو؟

- يا سيدي، إن الآلة قد صنعت ما صنعت بجند كوريا، بينما جندي لن يرهبوها وهم لم يروا تأثيرها بعد، فإن نحن حركناهم بعد أن نعطيهم التعليمات الجديدة بالوقوف بعيدًا عن مرمى نيرانها، فسوف تفقد تلك الآلة تأثيرها

الفعلي والنفسي علي جنودنا، فلن تصل إليهم نيرانها، ولن يخيفهم صوتها، بينما يتحرك جنود كوريا إلى طريانة، وهذه لا يوجد بها مثل تلك الآلة.

مط (فرناندو) شفتيه، وحرك رأسه موافقًا على تلك الخطة، أما (ابن الأحمر) فالتزم الصمت ولم يتفوه بكلمة واحدة، ولكنه في قرارة نفسه كان سعيدًا بهلاك جند كوريا، ذلك الفارس المتغطرس الكاره للمسلمين حتى النخاع.

ثم صرخ (فرناندو):

- لن أسمح لهزيمة نفسية أن تتسلل إلى قلوب جنودي، فهل لدى أحدكم خطة بعينها، نزيل بها آثار ما حدث ليلة أمس؟.

قال (ألبار بيرت) مقترحًا:

- سيدي، ماذا لو تحركت بنفسك لحصار طريانة وأخذها، قبل أن تصل إليها تلك الآلة العجيبة؟

وافق (فرناندو) وأشار بيده:

- نعم يا (ألبار) يجب أن نفعل، كما يجب علينا محو كل أثر لما حدث.

وفي الليل قرر (فرناندو) مهاجمة طريانة، بعد أن أعطى أوامره لبونيفاس بالانسحاب مسافة كافية، للنجاة من طائلة نيران الآلة كي لا تحترق سفنه، وقد كان من حسن حظ بونيفاس، أن قام ابن شعيب بتجريب آلته على المعسكر، لا على سفنه، وبالفعل تراجع بونيفاس بعيدًا عن مرمى نيران تلك الآلة، التي أطلق عليها المسلمون اسم الأنفاط لأنها تقذف النار والنفط، فتحرق كل ما تقع عليه.

أما (فرناندو) فقد تقدم بقواته تجاه طريانة، وقرر في هذه المرة، أن يفاجئ المسلمين بحيلة، وعمل جديد عليهم، فدفع بالحفارين إلى السور لإحداث ثلمة به، وتقدم الحفارون وبدأوا الحفر تحت السور، ولكن صوت آلات الحفر، كان سببًا في فضح ما يدور، عندها أمر (شقاق) جنده بسكب مواعين الزيت أسفل السور، ثم قام بإشعال النيران، فتراجع الحفارون، وباءت محاولة (فرناندو) لأخذ القلعة بالفشل، ولم يعد أمامه سوى الحصار والتجويع!!

(١٥)

شبع الجوع

نجح المسلمون في صناعة سلاح فتاك جديد، لم يكن أحد يعرفه، أو يملك مثله في الدنيا، فلم ينفعهم سلاحهم الجديد وتفوقهم العلمي والتاريخي، بعدما فقدوا إيمانهم ووحدتهم ودينهم، وراح سلاحهم الفتاك مع الوقت لا يغنيهم شيئًا عن واقعهم البائس، منذ أن فقدوا شجاعتهم في الحروب، وبعدوا عن تعاليم دينهم، وصاروا يتفننون فقط في الحروب خلف الأسوار، منذ أن تركوا المبادرة، وصاروا يُجرّون إلى الحروب جرّا...!

استمر الحصار حول (إشبيلية) وطريانة، وهو يشتد يومًا بعد يوم، والحاضرة المحاصرة تشعر بالضيق يرهقها شيئًا فشيئًا، والجوع يسرى إليها بخطى وئيدة، ولكنها أكيدة. والنصارى يوالون ضربها بالآلات المخربة، متجنبين في ذات الوقت نطاق السلاح الجديد، والذي لم يستطِع ابن شعيب صناعة الكثير منه لضيق الوقت.

ذهب القيظ بشمسه الحارقة، وبدأ الخريف يطل بطلته المخيفة على (إشبيلية)، يزيد من جراحها وجوعها، فالرياح تزمجر هنا وهناك، تحمل بين طياتها أوراق الشجر، التي كان الإشبيليون يتهافتون خلفها ليأكلوها، بعد أن نفدت الأقوات، وأخذ الجوع يفري أكباد المحاصرين، ويفتك بهم، ويحصدهم حصدًا.

وراح (عبد الرحمن) يمر في شوارع (إشبيلية) وأزقتها، ليرى الناس قد أضناهم الجوع، ومات منهم بسبب ذلك خلق كثير، وكان منهم يوسف البيّاسي! فقد أرهقه الجوع فمات، وتولى (عبد الرحمن) دفنه والصلاة عليه، وهو يبكيه ويتذكر كلماته الأخيرة، وتذكيره المسلمين بعاقبة الخنوع، والخوف من الموت والجهاد، لقد كانت أيامًا عصيبة مرت على الحاضرة الأندلسية الكبيرة، وما إن فرغ (عبد الرحمن) من الصلاة على البيّاسي حتى راح يتأمل (إشبيلية) وشوارعها، وهي خالية أو تكاد من الحركة، فالجائع بطبيعته قليل الحركة، والخائف بطبيعته يختفي ويلزم

بيته، ولم يعد في الشوارع غير أطفال تلهو، أو رجال تبحث عن أوراق الشجر، أو قط أو كلب نافق بعد أن أكل الناس الخيول والحمير، وعدم الإشبيليون المرافق كلها، قليلها وجليلها، إلا ما كان في بعض ديار الأغنياء، والناس مع ذلك حيارى، يمشون سكارى وما هم بسكارى.

مات بالجوع خلق كثير، وعدمت الأطعمة من القمح والشعير، وأكل الناس الجلود، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود. وهكذا فتك الجوع والحرمان والمرض بأهل (إشبيلية)، وأضنتهم المعارك المستمرة بعد حصار صارم مرهق. استمر خمسة عشر شهرًا متواصلة.

وتحت وطأة هذه الأحداث المؤلمة، وجد (شقاق) نفسه مضطرًا لترك طريانة والذهاب إلى (إشبيلية)، للتشاور مع أصحابه فيها حول القادم من الأيام، ولما كان من المستحيل على شقاق عبور النهر سباحة فقد أرسل إلى النصارى رسالة يطلب إليهم هدنة، والسماح له بالعبور إلى (إشبيلية)، إذ كانوا وقتها قد تحكموا في كل الطرق الرابطة والواصلة بينها وبين (إشبيلية)، فرفض (فرناندو) طلبه، فلم يجد (شقاق) بدًّا من أن يرسل إليه مرة أخرى رسالة، قال له فيها:

- أريد أن التقي أصحابي للتشاور حول التسليم!

عندها وافق (فرناندو)، وأمر بالسماح (لشقاق) بالعبور من طريانة إلى (إشبيلية)، ولما عارضه في ذلك بلاي كوريا فقال:

- سيدي كيف نسمح له بالعبور، واللجوء إلى أصحابه، بينما لا نأمن غدره؟

- أي غدر تقصد؟

- ربما يا سيدي يكون في الأمر خدعة، ويدخل (شقاق) (إشبيلية) ولا يخرج منها!

يبتسم (فرناندو) في مكر ويقول:

- وقتها ستكون طريانة بلا قائد يحميها!

- لكن...!

فقاطعه (فرناندو) وقال:

- إن (شقاقا) لم يطلب الهدنة، إلا لأنَّ الجوع بلغ منه ورجاله مبلغه، لهذا لن تفيده الخديعة إن هو حاول خداعنا، فالجوع الذي حاصره بطريانة سيكون حاضرًا بقوة أكثر في (إشبيلية)!!

(١٦)

رحيل (مريم)

وقف (زيد) وقد انعقد حاجباه، وجفت شفتاه، وعيناه تراقبان قرص الشمس ورحلته اليومية نحو المجهول، وقد انعزل عما يدور حوله، ثم راح يتذكر تلك الأيام التي كان يرى فيها حبيبته قبيل الغروب، مر الوقت وجنّ الليل، وفكّ (زيد) انعقاد حاجبيه وكأنه قد عاد من رحلة طويلة، ثم تنهد تنهيدة حارة قال بعدها:

- اشتقت إليكِ يا (مريم)، ولم أعد أطيق صبرًا.

ثم تحرك متجهًا إلى حيث الأمير (شقاق)، وما إن التقاه حتى قال له:

- سيدي الأمير علمت برجوعك إلى (إشبيلية).

- أجل يا (زيد) فالضرورة تقتضي ذلك.

سكت (زيد) بعدها ولم ينطق بكلمة، فقال له (شقاق):

- هل هناك ما يجب أن تفصح عنه؟

تلعثم (زيد)، ثم قال بعد تردد:

- أريد أن أصطحب الأمير، فقد طال ابتعادي عن أهلي، وزاد لهم حنيني وشوقي.

ابتسم (شقاق) وقال له:

- لا بأس، فلتتجهز لذلك.

وفي مساء اليوم الثاني تجهز (شقاق) و(زيد)، وتحركا صوب (إشبيلية) وسهل لهما القشتاليون العبور في أمن وسلام.

سبق الشوق واللهفة (زيد) إلى (إشبيلية)، فقد كان يُحصي الأنفاس ويعدها ليصل إليها، وهو يتذكر تلك اللحظات السعيدة التي مر بها، فلم ينطق، بل كان

يحاول أن يعيش تلك اللحظات بين يدي (مريم)، وكأنه قد صار بين يديها، وقد كان التفكير فيها جزءًا من تلك اللحظات السعيدة، وقد اعتاد (زيد) كلما أراد أن ينقطع عما حوله أن يتذكر (مريم) التي ما نساها يومًا، ويستحضر بسمة شفتيها، نظرات عينيها، بعض كلامها، فينعزل بهذا عن الدنيا، ويسبح في بحر غرامها، وحبه لها.

أما (شقاق) فلم يكن يشغله شاغل، سوى ما يحدث ويجرى حوله، لذا بدا متجهمًا صارمًا، قليل الحديث، طويل التفكير.

لم يمر كثير وقت، حتى نزل الاثنان الضفة الأخرى من الوادي الكبير، وكان في استقبالهما الوزير ابن خلدون صاحب الشرطة، والقائد (عبدالرحمن الإشبيلي).

تبادل الأربعة الأحضان، وتعانقوا في شوق أخوي، ثم اصطحب ابن خلدون القائد (شقاقًا) وتحركا جهة القصر، أما (عبدالرحمن) فقد استأذن من (شقاق) أن يبقى هذه الليلة مع (زيد) على أن يلقى الأمير غدًا، فأذن له الأمير، وسط تعجب (زيد) من إصرار صاحبه على ذلك.

وفي عتمة الليل، ويقظة البطون الخاوية، وسهر الحرس على مدينتهم، تحرك (زيد) و(عبدالرحمن)، وكلاهما يفكر في أمر واحد، (فعبدالرحمن) يفكر كيف يخبر صاحبه بحال (مريم)، بينما (زيد) يفكر في اللقاء المرتقب، وكيف ستستقبل حبيبته زيارته المفاجئة، وعودته إليها بعد هذا الغياب الطويل، وقد شغله سؤال حائر لا يجد له جوابًا ما الذي دعا (عبدالرحمن) للإصرار على البقاء معي، وهو يعلم لهفتي لبيتي وأهلي؟! وقد غلب (زيد) الشوق فلم يستطع أن يخفي ما به عن صديقه وصاحبه فقال له:

- أتعلم يا (عبدالرحمن)، أنا في شوق عظيم للقاء (مريم)، وإني لنادم على تأخير زواجي منها، وربطه بما يحدث حولنا من حرب وحصار.

بابتسامة تخفي حزنًا عميقًا، قال عبدالرحمن:

- لا تحزن على ما فاتك يا صديقي، فما زال أمامك متسع من الوقت.

- نعم لن أحزن، ولن يمر وقت طويل حتى يحدث ما أصبو إليه، وإن كنت قد تأخرت فإنما هو في سبيل الله.

- وإن الله لن يضيع أجرك يا (زيد).

ثم نظر (عبدالرحمن) بعيدًا وقال:

- لقد قارب الصبح أن يتنفس، فماذا لو سرنا قليلًا نتنسم هواء الصباح؟

أخذ (زيد) نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- أما الصبح فلا بأس، فليتنفس ولينجلِ هذا الليل الطويل، وليقترب موعدي معها... آه يا صاحبي آه يكاد الشوق أن يقتلني، وإني والله لفي عجب من أمري، كيف صبرت على فراقها كل هذا الوقت!

- ربما لأنك لم تكن تملك من أمرك شيئًا يا (زيد)، وقد أحاط بك النصارى في طريانة، بعد أن حالوا بينها وبين (إشبيلية)، وحالوا دون عودتكم!

- ربما يا صديقي ربما، ولكن المهم حاليًا هو أنني بقربها هنا في (إشبيلية)!

نظر (عبدالرحمن) إليه بإشفاق، يريد أن يفصح عما بداخله، ولكن تتابع الكلمات من صديقه والأشواق التي تحفل بها حال دون ذلك، ثم استطرد (زيد) وقال:

- والآن دعني يا صديقي أذهب لأقبل يد أمي، على أن ألقاك في الغد إن شاء الله.

ارتسمت علامات الحيرة على وجه (عبد الرحمن) ولم يدرِ ماذا يفعل، ثم بنظرات حانية وابتسامة تخفي وراءها حزنًا عميقًا قال:

- لا تغب عن صاحبك طويلًا.

ثم افترق الاثنان، فتحرك (زيد) تجاه داره بينما تابع (عبدالرحمن) عمله، وتفقده لقطاعات الجيش، ومدى تنبههم لما يدور حولهم.

مشى (زيد) حتى وصل إلى داره، وبكل شوق ارتمى في حضن أمه، وقبل يديها ورأسها، ثم دخل غرفته، ووضع رأسه أخيرًا على وسادته، وراح يقول في نفسه:

- أخيرًا يا (مريم)، مرت ستة أشهر يا حبيبتي منذ التقيتك آخر مرة، ستة أشهر منذ حصار طريانة لم تغيبي ثانية واحدة فيها عن خلدي، ستة أشهر لم أفقد فيها الأمل في رؤيتك، بل كنتِ أنتِ الأمل، وأنت من تعطيني الأمل في غدٍ قريب، ونصرٍ آتٍ.

تقلب (زيد) ذات اليمين وذات الشمال، وهو يستعجل الصباح للذهاب إليها، وقد عزم أمره على الزواج منها في أسرع وقت، وأن لا يحيا يومًا بعد ذلك إلا و(مريم) معه في داره، ظل هكذا حتى اختطفه النوم، ورحل عن عالم الواقع ليدخل عالمًا آخر.

ما إن استيقظ حتى قرر الذهاب فورًا إلى بيت (مريم)، وبخطى وئيدة سعيدة تحرك وكأنه الطير يتبختر في مشيه، وهو يعلم أن نهاية هذه الطريق بيت محبوبته، وقلبه الساكن هناك، كانت السعادة تحدوه، وخفقات قلبه تزداد وجيبًا مع كل خطوة تقربه إلي حيث حبيبته، ولسان حاله يقول: لو إنّ القلوب تستطيع سيرًا، لسار قلبي إليك حثيثًا، سير الواله المتلهف.

وصل إلى الدار وطرق الباب، واستأذن للدخول، ففتحت (قمر) له الباب، نظر إليها نظرات باسمة مبتهجة وهو متهلل الأسارير، فردت الجارية مرحبة به بابتسامة باهتة أثارت الشكوك في قلب الفتى فقال لها متوجسًا:

- ما بكِ يا (قمر)؟

- لا شيء!!

- بل هناك ما تخفيه عني!

استمعت أم (مريم) لما يدور ويحدث، فخرجت من مكانها واستقبلت خطيب ابنتها، وأجلسته في بهو الدار بجوار نافورة المياه. فابتدرها متسائلًا:

- كيف حالك يا خالة؟ وكيف حال (مريم)؟

- الحمد لله على كل حال يا ولدي!

- نعم الحمد لله على كل حال، ومهما بلغ الحصار منا والجوع، فلن نستسلم أو نسلم فلا تيأسي يا خالتي.

- طال الحصار يا بني، ولكن لم نيأس من روح الله.

- وبمناسبة طول الحصار يا خالة، وها قد بلغ عامًا وعدة أشهر، فقد تبين لي خطأ ما اشترطنا من تأخير الزفاف حتى فك الحصار، لذا أرجو منكم أن نتم الزواج في أسرع وقت.

نظرت أم (مريم) إلى (قمر) ثم ارتد بصرها ناحية الفتى ولم تنطق بكلمة، مما جعل الظنون والشكوك تدور في خلد (زيد) وقلبه ثم قال:

- ما الأمر؟ لماذا الصمت؟ وأين هي (مريم)؟ ولماذا لم تخرج لأراها؟

بكت أم (مريم)، وانهمرت دموعها مدرارًا، فزاد ذلك من توتره واضطرابه فقال:

- ما بها؟ لماذا تبكون وأنتم صامتون؟

نهضت (قمر) متحركة باتجاه غرفة (مريم)، بينما حاولت أمها تجفيف دموعها وقالت:

- إنها بخير يا ولدي لولا المرض!

ظهر القلق والخوف على وجه (زيد) وقال:

- أريد أن أراها يا خالة!

- اصبر حتى تهيئها (قمر) لذلك!

تغيرت أحوال (زيد) واضطرب حاله ووجم، أما (مريم) فكانت تنظر بوجه شاحب وعين غائرة، وجسد ناحل، وروح خائرة، وأنفاس متباطئة... اقتربت (قمر) من (مريم) وبلمسة حانية على كتفها، وهزة خفيفة قالت:

- (مريم)... اصحي يا (مريم)! هناك من يريد رؤيتك يا حبيبتي!

كانت الفتاة كأنها تحلم، أو كأنها استيقظت لكنها لم تجب على كلام (قمر)، التي همست في أذنها فقالت:

- قومي يا (مريم)، حبيبك (زيد) بالبهو ينتظرك... !

فتحت (مريم) عينيها الواهنتين، وقالت بصوت ضعيف ملهوف:

- زيد..؟؟!

- نعم هو!

- لماذا تأخر عني كل هذا الوقت يا (قمر)؟ لماذا تركني أنتظره طويلًا؟

- إنه الحصار يا حبيبتي والحرب!

أرادت (مريم) النهوض فلم تقوَ على ذلك، فحاولت (قمر) مساعدتها، ولكنها أبت إلا أن تنهض بمفردها، فكان لها ذلك... ارتدت الفتاة ملابسها، واتكأت على يد (قمر) وخرجت تمشي ببطء. وما إن شاهدت حبيبها من بعيد، حتى سقطت

على الأرض، فأحدث سقوطها صوتًا تنبه له الجميع، فهرعوا إليها مسرعين، فإذا بها تنظر إلى (زيد) وتقول له:

- لماذا تركتني كل هذا الوقت؟ لماذا غبت عني كل هذه الشهور؟

حاول (زيد) أن يرسم الابتسام على وجهه، فلم يفلح في ذلك، وقال لها مشفقًا:

- وها أنا ذا قد حضرت، وصرت بين يديك، ها قد حضرت لأعيش معك، ونكون سويًّا تحت ظل سقف واحد، ها أنا عدت لأتم زواجي منك!

بأنفاس متقطعة، وصوت واهن ضعيف، قالت الفتاة والدموع حائرة في جفونها:

- لقد تأخرت يا (زيد)، تأخرت كثيرا...

وبينما تحاول رفع يدها تتلمسه، إذ هوت تلك اليد مرة واحدة لتفيض الروح إلى بارئها...... وضجّ المكان بالبكاء، وصرخت الأم صرخة مرعبة، بينما ألجمت الصدمة العنيفة (زيدًا) فانهمرت دموعه في صمت، وانسكبت على وجهه، بينما يكاد قلبه أن يتوقف من شدة الحزن، وهو يقول بصوت خفيض:

- لا، لا تتركيني يا (مريم)، قد عدت إليك بشوق عظيم، فلا تحرقي قلبي وتذهبي، لا تأخذي عمرى وترحلي...

ثم احتضنها، وانفجر في بكاء ونحيبٍ، وهو لا يريد أن يصدق أنها رحلت!

كيف تموت وهي بين يديه؟ كيف تموتين وتتركينني يا (مريم)؟ لماذا أعيش بعدك؟ ألم نتفق أن نحيا سويًّا ونموت سويا؟ فلمَ أخلفتِ الموعد؟ لا لا تموتي انهضي يا حبيبتي وقومي، انهضي فحبيبك (زيد) عاد إليكِ، وجاء من أجلك...

انهمرت الدموع كثيفة حارة من مقلتي (قمر) المحمرتين، وهي تقول:

- المسكينة ماتت بعد أن أضناها العشق، وطول التفكير بك، بعد أن عجز الأطباء عن تطبيبها، ماتت يا (زيد) وهي لم تنقطع ولو دقيقة عن التفكير بك... آهٍ يا (مريم) آهٍ يا حبيبتي آهٍ يا حبيبتي...

(١٧)

الجوع يقتل الرجال

في أزقّة (إشبيلية) ودروبها، تحرك (شقاق) ليشاهد عن كثب حالة المدينة وأهلها، وهو يقول في نفسه: أين (إشبيلية)؟ كيف تحولت إلى ما هي عليه ولم أتركها سوى ستة أشهر قضيتها في الدفاع عن طريانة، لكأني غادرتها منذ قرن من الزمان، فقد تبدلت أحوالها، ومات زهرة شبابها ورجالها، وملأ الحزن دروبها ودورها، وعمّ الخراب ربوعها...

هل هذه (إشبيلية) التي كانت تفيض خيرًا وسعادة وبهجة؟ أين هي (إشبيلية) التي كان الفرح عنوانها والنعيم شعارها؟ كانت أسئلة حائرة كثيرة تدور في عقل وقلب (شقاق)، ولكنه قطعًا لم يكن يملك الإجابة عنها...

أكمل (شقاق) طريقه حتى وصل قصره المنيف، الذي غاضت من جدرانه الحياة، وهناك اجتمع بأصحابه ورجاله: (عبدالرحمن، ابن خلدون، وأبي الحسن بن علي ومعهم ابن شعيب) في مشهد مؤلم بائس، فقد بلغ الجوع من القادة، مثلما بلغ من الشعب!

بدأ (شقاق) الحديث فقال بأسى:

- يؤلمني ويحزنني ما آلت إليه أحوالنا.

ثم أخذ نفسًا عميقًا قال بعده:

- نملك أسوارًا قوية، ومدينة عظيمة، تكالب الجميع على إفنائها، فبينما تصل المؤن إلى (فرناندو) والمساعدات من كل أرجاء أوربا، تقف (إشبيلية) وحيدة صامدة خمسة عشر شهرًا، لا يهتز لمحنتها جفن أحد من المسلمين، وكأنهم ليسوا مسلمين، أو وكأننا لسنا منهم!

أضاف (عبدالرحمن) متحسرًا:

- أجل أيها الأمير، فوالله لو أننا نحارب (قشتالة) وحدها ما نالت منا شيئًا، ولكننا نحارب كل أوربا، فالبابا في روما يحشد ضدنا وكأنه أراد أن ينتقم لفشله وفشل حملاته على المشرق باحتلاله أرضنا، وها هو ملك (أراجون) لم يكتفِ باحتلاله (لبلنسية) واقتطاعه شرق الأندلس حتى مدّ يد العون (لفرناندو) ناهيكم عن صاحب (البرتغال)، حتى الأراضي المنخفضة ساهمت في الحرب ضدنا.

قال ابن خلدون مفصحًا عن اتساع أطراف المؤامرة:

- ويا ليتها أوربا وقشتالة و(أراجون) و(البرتغال) وحدها يا (عبدالرحمن)...!

عقب الأمير (شقاق):

- أما ما تقصده يا ابن خلدون، فقد فاق إجرامه حدود السماء!

بصوت كالنواح أضاف أبو الحسن:

- والطامّة الكبرى ملك غرناطة (محمد بن الأحمر)، الرجل المخادع الذي خدعنا في قلعة جابر وقرمونة، ثم جاء بجيشه يحارب مع الأعداء قومه ودينه وأمته!

غمغم ابن خلدون متأثرًا:

- نعم يا أبا الحسن، والله إنها الكارثة الكبرى، كيف له أن يساهم بتحويل مساجدنا كنائس؟

قال (شقاق) ببطء وهو يضغط مخارج الحروف:

- إن غلبت شهوة الحكم الرجل، لم يفكر في دينه ولا في وطنه، بل ينحصر كل تفكيره في الحفاظ على عرشه ولو بأبهظ الأثمان...

ثم سكت برهة قال بعدها:

- لقد انقطعت بنا السبل هنا، وإني لأخشى إن استمر الوضع هكذا أن نموت جوعًا، والله لئن دخلها (فرناندو) عنوة ليمثلن بنا وبنسائنا...

أرخى (شقاق) رأسه وأكمل بنبرة حزينة باهتة:

- لقد غاض كل أمل في الإنقاذ والنجاه، فلم يتحرك الموحدون لانشغالهم بمكافحة بني مرين، وأمير إفريقية الذي اتخذ لقب الخلافة لم يتحرك لما سبق مِن فعلنا برجاله.

لاحظ (عبدالرحمن) نبرة اليأس في حديث (شقاق) فبادر قائلًا:

- لكننا نملك الآن سلاحًا فتاكًا، فلماذا نستسلم ونحن قادرون على مجابهتهم؟

تحمس ابن شعيب وقال:

- سيدي! إنّ الأنفاط التي توصلت إلى صناعتها فتكت بالقشتاليين، ونجحت في إبعادهم عن أسوار المدينة، فلن يجرؤ أحدهم على الاقتراب من أسوارنا ثانية.

خفض (شقاق) رأسه وقال في ألم شديد:

- قديمًا كنا نحاربهم بصدورنا، ولا نملك غير سيوفنا، بينما كانوا يملكون الأسلحة والدروع والخيول، فكنا نهزمهم رغم أعدادهم وعدتهم، ثم انقلب الحال فصرنا نملك أسلحة عجيبة فتاكة قوية، فيهزموننا رغم ذلك!

تحير ابن شعيب من كلام الأمير فتساءل:

- عفوًا سيدي الأمير ماذا تقصد؟

- نعم يا ابن شعيب أصبحنا نملك الأنفاط، ولكن الأنفاط لن تحارب عنا، وقد سحب ملك (قشتالة) جنوده من الجهة التي وضعت بها الأنفاط، واستمر رغم ذلك على حصارنا... نعم أبعدت الأنفاط جنود (فرناندو)، ولكنها لم تمنع الجوع أن يصل إلينا، والجوع هو سلاح (فرناندو) الذي لا يُخطئ.

خفض الجميع رؤوسهم، بينما تابع (شقاق) كلامه، فقال:

- إن جنود (قشتالة) اليوم راهبين تلك الأنفاط، لكن يؤلمني أن تلك الأنفاط لن تعمل بدون رجال، بينما الجوع يقتل الرجال!

تختنق الكلمات في صدر (شقاق) فيسكت ويصمت الجميع حوله ولا يستطيع أحد منهم إكمال الحديث وقد عرفوه، وفجأة وقف (عبدالرحمن)، واستأذن الأمير في مغادرة الاجتماع، فأذن له فخرج، بينما أكمل الباقون نقاشاتهم.

خرج (عبدالرحمن) من القصر وقد ضاق صدره، فلم يمتط جواده، وقرر السير على قدميه، وظل يمشي بين أزقة (إشبيلية) ودكاكينها وسوقها، وهو يراها باهتة، ليست هذه (إشبيلية) التي اعتاد عليها، أين ذهب بريقها وشبابها؟ أين اختفت ضحكاتها وفخامتها؟ لقد غاضت منها كل مظاهر السعادة والحياة، وأصبحت كعجوز فقدت معاني الحياة، ظل (عبدالرحمن) يدور ببصره هنا

وهناك، وكأنه يبحث عن شيء قد فقده، وها هو يعاني للحصول عليه مرة أخرى، ولكن بلا جدوى، فحملته قدماه حتى جلس أسفل منارة المنصور العظيمة بتفافيحها الجميلة، ليتذكر يوم عز وفخر من أيام المسلمين، ثم راح يخاطب المئذنة وكأنها بشر فقال:

- أيا منارة المنصور، كيف لك بعد هذا العز أن تعيشي الذل والهوان؟ كيف لك بعد كل هذا الإيمان أن تصيري رمزًا للنصرانية بعد الإسلام؟ كيف تنتقلين من عز الجهاد إلى ذل التسليم والاستسلام، هل تتذكرين المنصور يا منارته؟ هل تتذكرين الأرك يا خالدة؟

كان (عبدالرحمن) يقول هذا الكلام للمنارة، ويتمنى أن تجيبه، أو تقول له: لن أصير بعد الإسلام رمزًا للنصرانية، ولن أحمل بعد الهلال أجراسًا وصلبانًا... لكنها لم تجِب، فرفع عينيه إلى تفافيحها، التي لفحتها الشمس فأبرقت، فخفض بصره، والدموع تكاد تتحجر في مقلتيه، وقد حاول مرارًا أن يمنعها أن تسيل، ولكن هيهات يا (عبدالرحمن)!

أما (شقاق) ورجاله فقد قرروا أن يساوموا (فرناندو)، فاتفقوا على أن يسلموا له القصر وجباية المدينة، على أن لا يدفعوا من المكوس أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم.

وخرج الرسول من (إشبيلية) يحمل علامة الرسل، لكنه عاد بعد ذلك بخفي حنين، فقد رفض ملك (قشتالة) العرض، وأرسل أنه لن يرضى بأقل من (إشبيلية) كلها... فتقدم (عبدالرحمن) من (شقاق) وقال له:

- سيدي الأمير، لقد شعر (فرناندو) بضعفنا لهذا لن يرضى بأقل من (إشبيلية)، بما تحوية من كنوز، فلو سمحت لي بالخروج إليه لربما يتبدل الحال، فإن نجحت في مهمتي عاشت (إشبيلية)، وإن فشلتُ فليس بعد (إشبيلية) خسارة أكبر، ولأنه رفض ما قدمناه له من عروض، فلربما إن رأى منّا قوة، أن يرضى بالقليل الذي عرضناه عليه.

فكر (شقاق) في كلام (عبدالرحمن)، وقال:

- لو أني أملك رجالًا مثلك يا إشبيلي ما برحت مكاني هذا أبدًا، فإما موت هنا أو حياة بالإسلام نحياها ونعيشها، فاخرج إليهم وانتخب من جنودنا من به قدرة على حمل السلاح، ولا تفجعني فيك!

حاول (عبدالرحمن) أن يبتسم وهو يقول:

- ستكون فجيعتنا أكبر لو تحول هذا المسجد إلى كنيسة، أما أنا فإن مت فيكفي أن قدمت دمائي من أجل أن تعيش (إشبيلية) في ظل الإسلام.

(١٨)

عرس الشهيد

ارتدى (عبدالرحمن) ملابس الحرب، ثم راح يجيل بصره في كل أرجاء منزله، وكأنه يودعه، ثم خرج إلى حيث فرسه، فربت على رقبته، ويمسد شعره دون أن يتكلم، ثم امتطى ظهر الحصان، وإذا (بزيد) واقف أمامه يمنعه من الخروج، نزل (عبدالرحمن) من فوق الفرس، وبسرعة كبيرة احتضن (زيدًا) بقوة، فلم يتمالك الثاني إلا أن بكي بقوة وحرارة شديدة، فشد (عبدالرحمن) على ذراعيه وقال:

- رحمها الله، ورزقك الصبر على فراقها والسلوان!

مسح (زيد) دموعه وقال:

- أما الصبر فادعُ الله لي أن يمدني به، وأما السلوان فلا أريد أبدًا أن أنساها! وستظل (مريم) في قلبي وعقلي، وإن كنت لم أتزوجها في هذه الحياة القصيرة، فقطعًا سيحدث في العالم الآخر!

- نعم سيحدث يا (زيد) سيحدث إن شاء الله.

- والآن أريد أن أشاركك حملتك الليلة!

- وأنت بهذه الحالة يا صاحبي؟

- أنا بخير ولن يعيقني جرح قلبي، عن واجب أقدمه تجاه ديني وبلدي!

- بورك فيك يا صديقي... بورك فيك!

كانت الخطة أن يخرج (عبدالرحمن) بقوة كبيرة مختارة من الفرسان، وفي ذات الوقت يقوم ابن شعيب بتشغيل الأنفاط، لتدكّ معاقل القشتاليين، وتلفت انتباههم، وتحاول بكل الطرق إغراق السفن القشتالية، المرابطة بعيدًا عن الأسوار.

وعند الساعة المحددة، فتُحت أبواب (إشبيلية)، وانطلق منها (عبدالرحمن وزيد)، ترافقهما فرقة مختارة من الجيش، ليواجه بتلك الفرقة الصغيرة جيشًا، يفوقه عددًا وعدة!

تحرك (عبدالرحمن) وكأنه في سباق لا حرب، فلم ينظر خلفه حيث تباعدت الأسوار عنه، ولم ينظر بجواره حيث قلة عدد جنده، بل كانت (إشبيلية) وحربه الفاصلة هو ما يسيطر على عقله وتفكيره.

وبينما هو يتقدم إذا بالأنفاط تنير السماء من حوله، فقد انطلقت نيرانها متبعثرة، فأصابت سفن بونيفاس بالرعب، فتراجعت تلك السفن أكثر وأكثر عن السور، وراح بونيفاس يقهقه بصوت مرتفع، وهو يرى المسلمين يملكون سلاحًا فتاكًا ولكنه أصبح بفضل خطط القشتاليين عديم الفائدة.

أما (عبدالرحمن) وجنده فقد تعمقوا في قلب الجيش القشتالي الرهيب، وإذا بسيوفهم تضرب هنا وهناك في بأس شديد، لا يوقفهم شيء، كلما هوت سيوفهم تطايرت الرؤوس والأشلاء، ودقت الأعناق... وكأنّ (عبدالرحمن) يقاتل لا لتحقيق النصر، ولكن ليفني الأعداء، لهذا ظل يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا ولا يلتفت إلى جراح قد ألمّت به، كما لم ينتبه إلى سقوط رجاله من حوله شهداء، رووا بدمائهم الطاهرة أرض (إشبيلية) وترابها.

مر الوقت، وتكاثرت السيوف عليه وعلى رجاله، وهو لا يهدأ، ولا تتوقف يمناه عن الضرب، بينما تخرج التكبيرات منه مزلزلة، مرعبة لكل من حوله، كان الصراع مريرًا عصيبًا، أما (زيد) فقد كان يقاتل بضراوة أسد هصور، وشجاعة لا تقل عن بسالة (عبدالرحمن) وشجاعته، وهو يوقن أنّ الشهادة أقرب ما تكون منه، فراح يطلبها في قوة وإصرار، وهو يصرخ فيمن حوله، ويحمسهم على الصبر في الحرب، وفجأة اخترق رمح طويل رقبة الحصان الذي يركبه (عبدالرحمن)، فهوى من فوقه، وترجل وهو لا يزال يضرب بسيفه هنا وهناك، ثم صرخ في جنده أن تراجعوا تراجعوا...

فتراجع من بقي من الجند، ولم يكن عددهم يزيد عن العشرة، ولما أراد (زيد) أن يثبت معه زجره (عبدالرحمن)، وأمره أن ينفذ الأمر وينسحب، فما زال هو أمير تلك الفرقة، فما كان من (زيد) إلا أن رضخ للأمر، وانسحب يقود العائدين تجاه أبواب المدينة، أما (عبدالرحمن) فقد اخترق جسده سهمٌ غادر سقط في قلبه، فخارت قواه وقعد على ركبتيه يشوّح بسيفه يمينًا ويسارًا، وقد

اجتمعوا عليه دون أن يجرؤ أحدهم على الدنو منه، فما كان من أحدهم إلا أن رماه برمح من بعيد اخترق جسده، فسالت الدماء، وانفجرت غزيرة عزيزة، تروي تراب (إشبيلية)، بينما رفرفت روحه الطاهرة، صاعدة إلى جنة، عرضها السماوات والأرض...

أعطى أردونيو أوامره بتعقب الفارين، حتى لا يصلوا إلى باب المدينة، فتتبعوهم ولم يردهم سوى نار الأنفاط، تزمجر في سماء حزينة، تحرق من تقدم منهم جهة الأبواب... تقدم أردونيو المثقل بجروحه جهة جسد (عبدالرحمن) وكان عندما سقط قد سقط على ظهره، وزرد الحديد يغطي كل وجهه... ترجل أردونيو ودنا من الفارس المقنع المجهول، ورفع الحديد عن وجهه، ونظر نظره عجيبة مرتاعة، وارتد للخلف أقدامًا وهو يقول:

- كيف لقتيل مُني بكل هذه الجروح وهذا الألم، أن يموت بهذا الشكل، مبتسم الوجه وكأنه في عرس لا حرب، أو وكأنه انتصر ولم يُقتل؟.

لم يعد من فرقة (عبدالرحمن) سوى بضعة رجال، يتقدمهم صديقه (زيد)، فقد استشهد الباقون، وعمّ الحزن فوق الجوع أرباض (إشبيلية) وربوعها، فالجميع يحبون (عبدالرحمن)، ويشهدون بفروسيته وأخلاقه ونبل شيمته، ذلك الشاب الذي خرج ليدافع عنهم، ورضي بالموت ليحيوا هم، ولا تتحول مساجدهم كنائس، أما (زيد) فقد بكي صديقه طويلاً، وراح يلوم نفسه: كيف عاش وترك (عبدالرحمن) يموت وحده؟ وكيف رضي لنفسه أن ينفذ إرادته، ويتركه وحيدًا تنهشه سيوف الأعداء من كل جانب؟

(١٩)
عروض التسليم

مات خلق كثير من مسلمي (إشبيلية) جوعًا، وفشا في من بقي منهم المرض، ودب فيهم الضعف والوهن، وخاف (شقاق) من عاقبة ذلك، فعاد ليعرض على ملك (قشتالة) التسليم مرة أخرى، فعرض أن يسلم القصر وثلث المدينة، فرفض ملك (قشتالة) هذا العرض أيضًا. فاضطر أن يتقدم خطوة أخرى. فعرض أن يسلم نصف المدينة، بعد أن يخليه من المسلمين، وأن يترك النصف الآخر للمسلمين، وأن يقام بين النصفين سور فاصل. ووصلت أنباء تلك المفاوضات إلى الجند القشتاليين المحاصرين للحاضرة، فاختلفوا فيما بينهم، فمنهم من تمنّى أن يوافق الملك، ومنهم من كان معارضًا لذلك فقال سيمون:

- لا يجب أن يتفاهم الملك مع هؤلاء المسلمين أبدًا، بل يجب عليهم أن يستسلموا بلا شرط أو قيد.

أما (برنارد) فقد سأل:

- ولماذا يجب عليهم ذلك يا صديقي بينما يستطيعون عكس ذلك، وأسوارهم وسلاحهم الغريب يحميهم؟

- لن تصمد أسوارهم ولن ينفعهم سلاحهم، بعد أن فقدوا الشجاعة لقتالنا، ولو كانوا يستطيعون لما تقدموا خطوة ناحية الاستسلام والتسليم، فالسلام يا (برنارد) يعني الاستسلام والخضوع، لذا يجب على الملك أن لا يرضى منهم إلا بالتسليم بلا أي شروط.

- أرى في حديثك عنهم شرًّا كبيرًا!

- نعم يا (برنارد) أريد أن ارتوي من دمائهم، بل أنا لا أريد غيرها الآن، وغير أن أضع بيدي هاتين الجرس أعلى المنارة، ليصمت الآذان وهذه الأصوات للأبد.

النهـــــاية

رفض ملك (قشتالة) كل العروض، والتنازلات المقدمة من زعماء (إشبيلية)، ومن قائدهم (شقاق)، ورفض أن يتسلّم نصف المدينة، وأصرّ على أخذها جميعًا، ثم بالغ في إملاء شروطه المجحفة، بعد أن تيقن بأنَّ سلاح الجوع الفتاك بدأ في العمل بجد واجتهاد، وأنّ مخزون المدينة من الطعام لن يكفيها أيامًا قليلة، بعد أن نفد منها كل ما يمكن أكله، بل بعد أن تعرّت الأشجار من أوراقها، ولم يعد هناك أثر في (إشبيلية) لحيوان يؤكل، بل حتى القطط والكلاب والفئران نفدت، واختفت من المدينة كلها، لهذا أرسل لزعماء (إشبيلية) يقول لهم:

- إن لم تستسلموا اليوم بمرادكم، سنأخذها غدًا وأنتم جثث بها، فتدبروا أمركم.

شعر (زيد) أن (إشبيلية) ساقطة لا محالة، وأنَّ الزعماء يتجهون للتسليم، فلم يُرد أن يرى هذا المشهد بعينيه، بل بادر بالخروج من المدينة، فحزم أمتعته وذهب إلى قبر (مريم)، وجلس بجوار قبرها ساعات وساعات، وهو يودع قبرها لا روحها، جسدها لا طيفها، والدموع تفيض من عينيه، والدماء تقطر من قلبه، فقد ذهبت (مريم)، وتركته وحيدًا في هذه الدنيا، وها هو يترك (إشبيلية) كلها، فتجتمع عليه فرقة الحبيب، وضياع الأرض، بما تحمله من أيام وذكريات سعيدة، وراح يتذكر وقلبه يكاد أن ينفطر اللقاء الأول بينه وبين (مريم)، وهو يبتسم والدموع الحارة تنهمر من عينيه، ثم جالت به ذاكرته إلى يوم السوق، واعتداء الجند الحفصيين عليها، وما فعله من أجلها، ثم بيعه الدار، ثم اللقاء مرة أخرى، حتى إذا تذكر كيف كان اللقاء الأخير، وحين فاضت روحها بكى بكاءً شديدًا، حتى كادت روحه أن تذهب... بعدها قال:

- وداعًا يا جارة الوادي، وداعًا يا قبر (مريم)، فإن عزّ اللقاء في هذه الدنيا، فعند الله نجتمع في جنة الخلد.

ثم خرج من (إشبيلية) قاصدًا عدوة المغرب.

أما (شقاق) ورفاقه وأهل (إشبيلية) فلم يروا بدًّا من قبول مصيرهم المحتوم، وجرت المفاوضة بينهم وبين ملك (قشتالة) على تسليم المدينة، وذلك عن طريق ممثل ملك (قشتالة) دون ردريجو (ألباربيرت)، وانتهت المفاوضات بين الفريقين على أن تسلم المدينة بالشروط الآتية:

أولًا: أن تسلم المدينة كاملة حرة سليمة، لا يهدم من صروحها شيء.

ثانيًا: أن يغادرها سكانها، مع السماح لهم بأن يحملوا معهم كل أمتعتهم المنقولة، والمال، والسلاح.

ثالثًا: أن يسلم القصر في الحال، بعد إخلائه عقب وضع شروط التسليم.

رابعًا: أن تسلم مع المدينة سائر الأراضي التابعة لها، وأن يعطى ملك (قشتالة) إلى القائد شقاق من بلاد الشرف، شلوقه وحصن الفرج، ثم لبلة متى تم افتتاحها.

خامسًا: تُمنح لأهل المدينة مهلة لا تقل عن الشهر، لتسوية شئونهم وإخلاء دورهم، والتأهب للرحيل.

ولما وُقع عهد التسليم بين الفريقين، سُلِّم القصر، وهو مقر الولاة، ويقع في جنوبي المدينة، على مقربة من باب جَهْور، إلى ملك (قشتالة)، وبعث ملك (قشتالة) مندوبه، ليرفع شعاره الملكي فوق برجه الأعلى، وتم ذلك صبيحة اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٢٤٨ م، الموافق يوم الاثنين الخامس من شعبان سنة ٦٤٦ هـ.

وقضى المسلمون زهاء شهر في إخلاء المدينة، وتصفية شئونهم، وبيع متاعهم، وكان ملك (قشتالة)، يسرح سريات من فرسانه لتأمين المهاجرين منهم بطريق البر حتى مدينة شريش، وحتى ثغر سبتة لتأمين المهاجرين منهم بطريق البحر، وخصص لذلك الغرض أسطولًا يتكون من خمس سفن كبيرة، وثمان صغيرة. وخرجت من (إشبيلية) جموعٌ غفيرة من المسلمين يصعب تحديد عددها، وتشمل سائر الطبقات.، وكل منهم في بحر المنايا غاص وعام، مما حلّ بهم من الأوجاع والآلام، وكان جملة ما خرج منها يزيد عن أربعمائة ألف، منهم مائة ألف هاجروا بطريق البحر إلى سبتة، وثلاثمائة ألف ساروا برًّا بطريق شريش، وتفرقوا في مختلف الأنحاء بالأندلس والمغرب. وقصد أكثرهم بالأندلس مملكة (غرناطة)، وذلك بتشجيع (ابن الأحمر)، وكورة لبلة وغربي الأندلس، وقصد من عبر البحر منهم إلى مختلف ثغور المغرب، ولا سيما سبتة وتونس، وكان في مقدمة من غادرها

منهم زعيمها القائد شقاق، الذي لم يحفل بما عرضه النصارى عليه من منح وإقطاعات، وعبر البحر إلى سبتة، مع جماعة من القواد والأجناد.

وبقيت (إشبيلية) ثلاثة أيام خالية، خاوية على عروشها، بعد أن غادرها أهلها. وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٢٤٨ م (أوائل رمضان سنة ٦٤٦ هـ) دخل (فرناندو الثالث) ملك (قشتالة)، مدينة (إشبيلية) في موكب فخم، وكان مطران (طليطلة) قد قام كالعادة بتحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة، وصنع به هيكلًا مؤقتًا، فقصد إليه الملك النصراني، وحاشيته من أكابر الأحبار والقادة والفرسان، وأقيم قدّاس الشكر.

ثم قصد (فرناندو) بعد ذلك إلى القصر وتسلمه، وعني بوضع أسس الحكم للحاضرة المفتوحة، وجعل منها مركزًا للمطرانية، كما كانت قبل الفتح الإسلامي، وقام بتقسيم دور المسلمين وأراضيهم، بين أولئك الذين بذلوا أكبر جهد في تحقيق الفتح. وبذلك اختتم الفتح، وأخذ النصارى في تقويض محلاتهم خارج المدينة، ونزلوا بها.

أما سيمون، فقد أراد أن يكون أول من يصعد منارة المنصور من النصارى، فتحققت أمنيته وكان له ما أراد، وسجل التاريخ أنّ هولنديًا من الأراضي المنخفضة، هو أول من صعد المنارة وضرب الجرس.

ومن ذلك التاريخ غدت (إشبيلية)، عاصمة مملكة (قشتالة)، ومقر البلاط القشتالي، بدلًا من (طليطلة).

وهكذا سقطت (إشبيلية)، حاضرة الأندلس العظمى، بعد أن حكمها المسلمون منذ افتتحها موسى بن نصير في سنة ٧١٢ م، خمسة قرون وثلث القرن، وحكمها الموحدون زهاء قرن، وكانت قاعدة حكومتهم بالأندلس، فجاء سقوطها، بعد سقوط (قرطبة)، وقواعد الشرق، تصفية نهائية لسلطانهم في شبه الجزيرة الأندلسية الأيبيرية. وكانت (إشبيلية) إلى جانب (قرطبة) من أعظم مراكز العلوم والآداب في الغرب الإسلامي، وبها سطعت عبقريات فريدة، في تاريخ الفكر الإنساني، مثل ابن زهر، أعظم أساتذة الطب والكيمياء في الغرب في العصور الوسطى، وأبي العباس بن الرومية أعظم النباتيين والعشابين، بعد ديسقوريدس. وازدهرت (إشبيلية) أيام الطوائف في ظل بني عباد، ولبثت زهاء نصف قرن أعظم مجمع للآداب وللشعر والنثر في الأندلس. وجعل منها الموحدون قاعدة الحكم في الأندلس، وغدت في ظلهم أعظم حواضر شبه الجزيرة، وأزخرها

عمرانًا، وأجملها تخطيطًا وصروحًا، تتيه بمسجدها الجامع أعظم جوامع الأندلس بعد جامع (قرطبة)، وبمنارته الشاهقة الرائعة التي مازالت تقوم حتى اليوم أثرًا من أعظم الآثار الأندلسية الباقية، وذلك بالرغم من تحويلها إلى برج لأجراس الكنيسة.

وكان لسقوط (إشبيلية) وقع عظيم في الأندلس، أو بعبارة أخرى فيما بقي من قواعدها وربوعها، وفي شبه الجزيرة الأندلسية كلها، وفي المغرب وسائر أنحاء العالم الإسلامي. وقد رثاها الشعر في قصائد عديدة مبكية، حتى قبل أن تسقط نهائيًّا في أيدي النصارى.

ولا غالب إلا الله

بعد أن أتم مهمته عاد (ابن الأحمر) إلى مملكة (غرناطة) بعد خمسة عشر شهرًا قضاها يحارب الله ورسوله وأمته، وما إن وصل إلى أحواز (غرناطة) حتى استقبله أهلها استقبال الأبطال الفاتحين، وظلوا يهتفون: الغالب! الغالب! و(ابن الأحمر) يعتريه الجزع والأسى لعلمه بذله، وجرمه العظيم في حق الإسلام والمسلمين، فظل يرد عليهم: لا غالب إلا الله واتخذها منذ ذلك الحين شعارًا لملكته.. ولكن لماذا؟ أغلب ظني أنّ الشعور بالذنب والذل والعار، جعله يجلد ذاته ويلومها، فأفرط في استخدام ذلك الشعار، وزخرفة الجدران به، ربما ليذكر نفسه بما نسيه، أو ليتركها كرسالة لمن بعده من أبنائه، حتى لا يقعوا في نفس الأخطاء، أو حتى كرسالة عبر القرون لنا نحن، وتذكير بقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لله جَمِيعًا﴾.

يا جارةَ الوادي الكبير....

ماذا تكتب الأقلام، وكيف يُرتب الكلام، وماذا نقول في البداية والختام؟؟

إشبيلية،،، سماء زرقاء، وروضة خضراء، وقصيدة عصماء، وظل وماء، وعلوّ وسناء، وهمة شماء، فيك الوقفات الإسلامية، والبطولات المرابطية، والمآثر الموحدية..

إشبيلية،،، أكباد تخفق، وأوراق تصفق، ونهر يتدفق، ودمع يترقرق، وزهرٌ يتشقق،،،

دخلك الفاتحون كأسد غابة، فلقيتهم بالأحضان، وفرشت لهم الأجفان، فعاشوا على روابيك كالتيجان.

إشبيلية،،، فنون وشجون، وعيون ومتون، وسهول وحزون، تغنى بك ابن سهل، وبكى لفراقك ابن عباد، ورقد فيك ابن زيدون.

يا جارة الوادي إليك قد انتهى أملي وأنت المبتغى والمشتهى، قلبي يرى فيك المحاسن كلها وعلى هواك يدين بالتوحيد، أشكو إليك ليلاً ما أشدّ ظلامه وحزنًا بات مساكنًا خفقاتي، كلٌ تخيّرَ في الغرام حبيبه، وأنت تبقين في الغرام حبيبتي...

وآهٍ يا أندلس، كم نشتاق إليك، شوقًا نحمله لأيام لم نعشها، لأرض لم نطأها، لوطنٍ لم يلدنا، هو شوق لك، لدينك، لتاريخك، شوق للداخل، كيف عبر البحر وحده، فأسس البلاد ودوّن الدواوين، شوق نحمله للناصر، كيف أعاد الوحدة لأمة مفرقة، أضناها النحيب، وقضّ مضجعها التفرق والتشتت، شوق لعبدالله بن ياسين، كيف خرج يدعو الناس لدين ربهم، فعاد بهم إلى ربهم، وصنع بهم ومنهم دولة المرابطين، شوق لأيام الأرك، والزلاقة، ووادي لكة، شوق لطارق، وموسى يعبران البحر ويفتحان الدنيا، شوق وحزن لا ينقطع، وقلب نابض باسمك لن يسكت، واسم في الذاكرة خالد لن ينساه المسلمون، هو اسمك يا أندلس.

وآهٍ يا أندلس!

أيها الفردوس المفقود!

يا أرضًا تسكننا، وإن لم نسكنها...

أتدري ما هي الأندلس؟

هي الأرض التي ما إن تقترب منها حتى تنجذب إليها. فتعشقها نفسك، وتهفو روحك إليها شوقًا، ويرقص قلبك لها طربًا.

هي تلك الأرض التي تتغنى باسمها قبل رسمها، وتهيم بحبها من شغاف قلبك، وتتذوق أسماء مدنها: قرطبة، إشبيلية، الزهراء، سرقسطة، طليطلة، بلنسية، مالقة، المرية، بلد الوليد، مجريط، مرسية، طرطوشة، شاطبة، وشقه، قلمرية، شلب، الأشبونة، وادى آش...

هي الأرض التي تتمنى أن تعيش بها ما كُتب لك من الحياة.

هي الأرض التي تحلم أن تعود يومًا إلى سالف مجدها وفخرها وعزها.

هي طارق بن زياد، يبدد بسيفه ظلام أوربا، ويحمل بيده مشاعل نور، تضيء جنبات غرب القارة العجوز.

هي موسى بن نصير، وحلمه الجميل بتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة أموية إسلامية.

هي صقر قريش، وحنينه وأشواقه الشامية...

هي عبدالرحمن الناصر، وعظمته، وشموخه، وانتصاراته، وعبقريته الفذة.

هي الحكم المستنصر، وعلمه، وفنونه.

هي الحاجب المنصور، وغزواته، وصولاته.

هي ابن زيدون، ورقّة كلماته، وقصة عشقه لولادة بنت المستكفي.

هي المعتمد صاحب إشبيلية، الذي اشتق لقبه من اسم محبوبته اعتماد.

هي يوسف بن تاشفين، يعبر البحر ويقضي على الطوائف، ويعيد للأندلس قوتها وعزتها وصلابتها.

هي جارة الوادي إشبيلية، عاصمة أبي يوسف يعقوب المنصور

هي سرقسطة، وحدائقها الغناء، وعذوبة مائها النمير.

هي طليطلة، وعبق تاريخها المجيد، وصلابة أسوارها الشاهقة.

هي غرناطة، وحصونها المنيعة، وصمودها الباسل.

هي جوهرة العالم، ودرة التاج، وعاصمة الدنيا في زمانها قرطبة.

هي البشرات، وأحزانها، وآلامها!

هي الزهراء، تأتيها الوفود من أرجاء الدنيا، تخطب ودَّ صاحبها.

هي محمد بن أمية، يرفع علم الثورة، ويحرر الأرض لولا الخيانة.

يا أندلس!

هل تعلمين أنّ حبك يجري في دمي، جريان ماء نهر الوادي الكبير في أرجائك الجميلة؟

يا أندلس!

هل تعلمين أنه منذ أحببتك وعرفتك وعلمت مجدك، وأنا أخاف أن ينتهي عمري، قبل أنّ تكتحل عيني بلقياك؟!!

يا أندلس!

لم يكن وصلك إلا حلمًا،،، في الكرى أو خلسة المختلس...

هكذا هي اللحظات الجميلة في حياتنا، نعيشها حلمًا لذيذًا، ونسرقها من الزمن والأيام، لنستيقظ على عالم الواقع الأليم، لتذهب سرابًا، وتبقى الذكرى، ويبقى الألم!

يا أندلس!

هل ترون قصور الحمراء؟؟

هل شاهدتم مدينة الزهراء؟؟

هل صليتم في مسجد عبدالرحمن الداخل، أم قد تم تحويله إلى كنيسة؟؟

هل عرفتم من هو الحاجب المنصور؟

هل قرأتم عن خليفة الأندلس الناصر؟

هل سمعتم عن يوسف بن تاشفين؟

هل أتاكم نبأ الأرك والزلاقة وأقليش؟

هل وصلتكم علوم ابن حزم، وابن رشد، والزهراوي؟

هل تعلمون من هو أول رائد فضاء في التاريخ؟

هل سمعتم عن الرجل الذي حوّل الرمل إلى زجاج؟

هل أُخبرتم عن تلك المدينة الفريدة، التي كانت تضاء ليلًا، وشوارعها مبلطة، وتصل المياه النقية إلى بيوتها، وبها قنوات للصرف الصحي، قبل ألف عام؟

هل شاهدتم منارة المنصور، وكم بلغ ارتفاعها وجمالها؟

لئن غشينا وقت، ضاقت فيه صدورنا بما يجري في بلادنا وحاضرنا.. فإنّ لنا في الأندلس وتاريخها، ما يُنسينا هموم الأيام وغموم السنين، ولو أعجبتنا وأدهشتنا حضارة الغرب اليوم، فتحسرنا على ما نحن فيه الآن من تأخر، فإنّ حضارة الأندلس قد فاقت كل حضارة، وارتفعت إلى عنان السماء... حتى في العلوم والفنون، تجد في فنون الحمراء، وعلوم الباحثين الأندلسيين، ما يبهر العقول، ويأخذ الألباب!

يا أندلس!

أيتها الحمراء... أيها القصر الشامخ الذي زينتك أنامل مبدعة، فصورتك فوق الخيال، وجعلتك آية في الانسجام.. أيتها القلعة ذات الشرف، المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان، المائلة إلى الانهدام.. حينما تنعكس أشعة القمر الفضية، على جدرك العتيقة، من خلال قناطرك العربية، ويُسمع لكِ في الليل صوتٌ يفتن القلوب ويسحر الألباب!

يا أندلس!

هل تتذكرين الداخل، وهو يشدو بصوت رخيم، يسيل حنينًا وشوقًا:

أيها الراكب الميمّم أرضي
أقري من بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما علمت بأرض
وفؤادي ومالكيه بأرض

قُدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الله بالفراق علينا
فعسى باجتماعنا سوف يقضي!

كنت أشفق على الداخل من حنينه إلى الشام، والآن أشفق على نفسي من حنيني إليك!

يا أندلس!

أَيُوحِشُني الزّمانُ، وَأنْتَ أُنْسِي، وَيُظْلِمُ لي النّهارُ وَأنتَ شَمْسي؟

يا أندلس!

شوقنا إليك يتجدد كل يوم، مع إشراقة شمس كل صباح، وقلوبنا تهفو إليك في كل وقت وحين.

يا أندلس!

ما أصعبَ الهجرَ!! والأشواقُ تحرقني
ودمعُ مُزْنِ المآقي في الدجى هطِلُ
كم سال فوق المُحيًا والخدودُ لظىً!!
فجفَّ دمعيَ من وهجٍ، فلا بللُ
ساهرتُ بدرَ الدجى والخلقُ في سِنةٍ
والآهُ حرَّى، وقلبي هزَّهُ الوجلُ
ماذا أقول؟! وفي أنوار طلعتكم
حار اليراعُ، وخانتْ أسطري الجُمل

أيها المسلم، وأيتها المسلمة:

سقطت الأندلس وهي في تقدم علمي وصناعي رهيب، ففي الوقت الذي كان الغرب يحارب بالسهم والسيف، كان المسلمون قد صنعوا المدافع (الأنفاط)، فمن ذا الذي يتخيل أنَّ السيف يهزم المدفع؟ فلو فكر القشتاليون وقتها في ذلك ما هزمونا، ولكنهم لم يرهبوا السلاح الجديد، وقد ضعفت قلوب من يستخدمه، وأصابها الوهن، فهُنّا عليهم بعد أن هانت علينا أنفسنا، فهزمونا وطردونا...

واليوم دارت الدائرة، واختلفت المقاعد، وتبادلنا الأدوار، فصاروا قوة واتحادًا، وصرنا ضعفًا وتشتتًا، ولا نهاية لضعفنا وفرقتنا، إلا بعودتنا لديننا.

مكتبة نوميديا 168
Telegram: @Numidia_Library

جارة الوادي
- إشبيلية -

يا جارةَ الوادي الكبير....

ماذا تكتب الأقلام، وكيف يُرتب الكلام، وماذا نقول في البداية والختام؟

"إشبيلية" سماء زرقاء، وروضة خضراء، وقصيدة عصماء، وظل وماء، وعلوٌّ وسناء، وهمة شماء، فيك الوقفات الإسلامية، والبطولات المرابطية، والمآثر الموحدية.

"إشبيلية" أكباد تخفق، وأوراق تصفق، ونهر يتدفق، ودمع يترقرق، وزهرٌ يتشقق.

دخلك الفاتحون كأسد غابة، فلقيتهم بالأحضان، وفرشت لهم الأجفان، فعاشوا على روابيك كالتيجان.

"إشبيلية" فنون وشجون، وعيون ومتون، وسهول وحزون، تغنى بك ابن سهل، وبكى لفراقك ابن عباد، ورقد فيك ابن زيدون.

"إشبيلية" قصص وروايات، صعود وهبوط، انتصارات وانكسارات.

"إشبيلية" منارة المنصور، وبرج الذهب، ونهر الوادي الكبير، وقصر المبارك.

"يا جارة الوادي" إليكِ قد انتهى أملي أنتِ المبتدأ والمنتهى، قلبي يرى فيك المآثر كلها وعلى هواك يدين بالتوحيد.

تصميم الغلاف: أحمد زردق

9 789776 541962

عصير الكتب
للنشر والتوزيع